الاستيطان في حوض البليخ خلال عصور ما قبل التاريخ

الدكتور عمار عبد الرحمن

قسم التاريخ

جامعة دمشق

كانت الأنهار صديقة الإنسان ومبتغاه منذ العصور القديمة، وسعى دائماً أن يكون بقربها لتأمين الماء اللازم لاستخداماته الخاصة، وفي سقاية زرعه وحيواناته. لهذا ركز العلماء اهتمامهم لسبر أغوار مناطق الأنهار وأحواضها للكشف عن الاستيطان الموجود فيها. حيث حظي نهر البليخ بأعمال تحرٍ واستكشاف آثاري أسفرت عن تحديد العديد من المواقع الأثرية من مختلف العصور التاريخية. في بحثنا هذا سنقوم باستعراض أهم المواقع الأثرية من أقصى الشمال بدءاً من دخول نهر البليخ إلى الأراضي السورية حتى نهايته عند التقائه بنهر الفرات (الشكل رقم ١). ثم سيتم على ضوء النتائج وضع منطقة البليخ على الخارطة الآثارية ومدى أهميتها الحضارية. ونبدأ هنا باستعراض نهر البليخ وذكره في العصور التاريخية.

ينبع نهر البليخ من مرتفعات أورفه وحران في تركيا، وتغذيه عدة ينابيع أغزرها عين الذهبانية[١]. وبعد دخوله إلى الأراضي السورية بالقرب من تل أبيض يرفده بعد نحو ١٢ كم تجمع لينابيع أخرى تشكل البليخ المعروف. يعد هذا النهر من الأنهر الصغيرة، إذ يبلغ متوسط عرضه ٦م، ومعدل تدفقه ٥٠م^{3}/ثا، ويرتفع هذا المعدل في فصل الأمطار إلى ١٢٠م^{3}/ثا.

تصب في البليخ عدة روافد سيلية، أهمها سيل وادي الحمار، وبتأثير توزع الأمطار يكوّن وادي البليخ في الشمال منطقة زراعية خصبة[٢]. في حين أن واديه في الجنوب (البليخ الأسفل) يعتمد على الزراعة السيحية بسبب انخفاض نسبة هطول الأمطار هناك. وقد أدى هذا إلى اقتصار النشاط الحياتي الرئيس في الوادي الأسفل على الحيوانات[٣]. تنمو أشجار الحور والصفصاف، على ضفاف نهر البليخ، فضلاً على الأدغال القصيرة التي تنمو جرّاء فيض النهر. وقد هيأ توفر القصب والأخشاب مادة أولية لبناء البيوت وتجهيزها. يمتد وادي البليخ بين خطي الأمطار ٢٠٠مم، و٣٠٠مم. حيث يتراوح المعدل الوسطي السنوي للأمطار بين ١٨٣مم في الرقة و٢٧٥مم[٤] في تل أبيض، ويفوق معدل التبخر هنا معدل الأمطار النازلة بدرجة كبيرة حتى في السنوات الرطبة.

تختلف الآراء حول تسمية هذا النهر، فمنهم من يقول أنها ليست تسمية عربية، ولكن يقال: بَلِخَ إذا تكبر[٥]، وقد ذُكر الاسم أيضاً بصيغة الجمع "الأبالخ"، قال الأخطل:

وتعرضت لك الأبالخ، بعدما قطعت لأبرم خلة وأصارا[٦].

وإذا عدنا إلى النصوص القديمة نجد أن اسم النهر يرد بنفس الصيغة الحالية، فقد كتب اسم النهر balih في نصوص العصر البابلي مقطعياً با-لِ-إخba-li-ih، وكذلك ba-li-ha-a، وكتب أيضاً بالعلامات الرمزية (d)KAS.KUR التي تقرأ أيضاً[٧] :-(d)KAS-KAL-KUR . استمر هذا الاسم في نصوص العصر الآشوري الحديث بصيغة (id)ba-li-hi و idpa-li-hi وكُتب بالعلامات الرمزية .KAL-KUR-KAS، ومن الجدير بالذكر أن مدينة قديمة حملت اسم بليخ (Balihu)، ويعتقد أنها كانت بين نهري الخابور والفرات في منطقة حرّان بحسب أحد نقوش الأمير جوديا، حاكم دويلة لجش في أواخر الألف الثالث ق.م.

استيطان عصور ما قبل التاريخ في حوض البليخ:

جذب نهر البليخ منذ عصور ما قبل التاريخ الراغبين في الاستيطان، ويمكن إدراك ذلك من خلال استعراض هذه المواقع بدءاً من أعلى المجرى باتجاه نهر الفرات، وأول هذه المواقع موقع تل أسود.

تل أسود:

يقع تل أسود على الضفة الشرقية لفرع من نهر البليخ يدعى نهر التركمان (الموقع رقم ٥٨ في الشكل رقم ١). ويبعد ٨٠كم إلى الشمال من الرقة، و٢٠ كم إلى الجنوب من تل أبيض. يتألف هذا التل من مرتفعين، ويصل ارتفاعه إلى ٢٠ م عن الأرض المجاورة له. تصل مساحة التل إلى ٤٠٠× ٣٠٠م =١٢٠٠٠ متر مربع. أثار هذا التل اهتمام المنقبين منذ النصف الأول من القرن العشرين، فقد قام م. مالوان M.E.L. Mallwan عام ١٩٣٨م ببعض الأسبار التي دلت على وجود سويات حلفية. لكنه لم يستطلع السويات الأخرى الأقدم على الرغم من أنه أشار إلى وجودها. وقد تم تأكيد هذا الأمر من خلال أسبار جديدة قام بها ج. كوفان J. Cauvin عام ١٩٧٠م. حيث نُفذ هذا السبر على شكل خندق بعرض مترين متدرج من القمة وحتى الأسفل، ووصل عدد درجاته إلى ثمانية. تعود السويات الأثرية من ١-٦ إلى عصر حلف(٨)، وكشف فيها عن أدوات حجرية، ودمى وحلي وعظام حيوانية، والملاحظ هو عدم وجود فخار. هذا الأمر يمكن تعليله في هذه السويات الحلفية بسبب ضيق المساحة المنقبة. لكن ما عثر عليه من بقايا معمارية كان بيوتاً دائرية الشكل (ثولوي)، وكانت تشيد من اللبن المشوي، وقياساته ثابتة وهي: ٣٣×٣٣×١٠ سم. واستعملت جدران قليلة السماكة من اللبن مطلية بالكلس الأبيض للفصل بين حجرات البيت الواحد. وعثر في داخل أحد البيوت على قاعدتين من الطين لتمثال، وكذلك على جمجمة لثور وحشي مغروزة في القاعدة، ولعل هذا يشير إلى وظيفة دينية لهذا البناء. يمكن مقارنة

هذا مع ما اكتشف في مواقع أخرى مثل المريبط في سورية، وشاتل هويوك، في الأناضول، وهما من المواقع التي قدمت استعمالاً مماثلاً لجمجمة الثور الوحشي. وقد هُجر الموقع بعد استيطان حلف وانتقلت السكنى على ما يبدو إلى تل سخلان المقابل لتل أسود.

أما السويات الأقدم المتمثلة بالسويتين ٧-٨ التي تتسم بعدم وجود بقايا معمارية، فقد احتوت على كميات كبيرة من الفخار الذي صنفه كوفان على الشكل التالي:

١- الصنف الأول الذي يمثل نصف الفخار المكتشف يقسم إلى مجموعتين: الأولى: عبارة عن آنية لامعة بدون زخارف بعضها من عجينة قاسية متجانسة حمراء وذات بطن دائري وقعر مسطح وبدون شفة، أما المجموعة الثانية فيتميز فخارها باستعمال القش في العجينة ذات اللون الأسود، وتتشابه في شكلها مع أواني المجموعة السابقة لكنها أكبر حجماً وأدق سماكة.

٢- أما الصنف الآخر من الفخار فهو غير لماع وذو سماكة قليلة ولا تزيد عن ١-١,٥ سم[٩].

بالمقارنة مع المواقع الأخرى من الناحية الزمنية فإن تل أسود أول موقع في المنطقة أنتج فيه الفخار. إذ لم يكتشف حتى الآن موقع من العصر الحجري الحديث قدم فخاراً في زمن متقدم على زمن تل أسود. فما اكتشف من فخار في مواقع العصر الحجري الحديث، مثل تل مريبط وأبو هريرة وجرف الأحمر، لا يتعدى المحاولات الأولية. أما في تل أسود فقد كانت هناك عملية تصنيع رائدة للفخار وتعميمه في الاستعمال اليومي. وهناك افتراضات تجعل من تل أسود المهد الأول لصناعة الفخار. في حين هناك من يعتبر أن هذا الموقع كان بمثابة مركز رئيس لإنتاج الفخار وأنه قام بتزويد المواقع الأخرى به. ومهما يكن مدى الصواب في هذه الافتراضات فإن تل أسود يعتبر من أول المواقع التي صنّعت واستعملت الفخار بشكل مكثف.

لم يكن الفخار المادة الوحيدة المستعملة بكثافة في تل أسود. فقد كان للأدوات الصوانية دور فعّال أيضاً في الاستعمال. إذ عُثر على رؤوس السهام من نمط صناعة جبيل، ومخارز ونصال، وكذلك أدوات هلالية ومناجل (الشكل ٢). واستعمل الأوبسيديان في تصنيع بعض النصال. وعثر على بلطات مصنعة من الحجر الأخضر، وهي مشابهة لما صنع في تل مريبط. وقد اختصت مواقع الفرات السوري بهذا التقليد، بينما استعمل الصوان فقط لتصنيع البلطات والفؤوس في الوسط أو الجنوب. كما كشف عن صحون وزبادي مصنوعة من حجر الألباستر[١٠].

تل صبي أبيض:

يقع على بعد ٦٥ كم شمال الرقة على الضفة اليسرى لنهر البليخ (الشكل ١ الموقع رقم ٦١). يعود تاريخ الموقع إلى العصر الحجري الحديث، بين الألف الثامن والألف السادس قبل الميلاد. يتكون الموقع من أربعة تلال صغيرة تم التنقيب في اثنين منهما هما صبي أبيضI، وصبي أبيض II[١١]. الثاني أقدم من الأول ويبعد عنه نحو ١٠٠ متر.

قامت بأعمال التنقيب الآثاري في تل صبي أبيض بعثة هولندية من متحف الآثار الوطني الهولندي بإدارة ب. م . ج. ج أكرمنس P.M.G.G Akkermence منذ عام ١٩٨٦ م.

إن صبي أبيض II مرتفع صغير أبعاده ١٢٣×٧٦م ولا يزيد ارتفاعه عن ٤,٥ م (الشكل ٣)، وشملت التنقيبات ما مساحته ٥٤٠ م وحدد تاريخ الاستيطان فيه من مرحلة ما قبل الفخار B (PPNB) من العصر الحجري الحديث بين ٧٥٠٠ وحتى ٦٨٥٠ق.م (تاريخ معاير). وتقارب التقسيم المحلي الذي وضعه المنقب أكرمنس الخاص بمنطقة البليخ وأطلق عليه دوري البليخ الأول هو البليخ C (٧٧٥٠-٧٥٠٠ ق.م) والبليخ D (٧٥٠٠-٦٨٥٠ ق.م)[١٢].

تم تحديد ثماني سويات في صبي أبيض II تعود الاثنتان الأقدم منها (٨ و٧) إلى دور البليخ الأول C. أما السويات الست الباقية (٦-١) فتعود إلى دور البليخ الأول D. لم يكشف عن عمارة واضحة في السويات الأقدم بسبب ضيق المساحة المنقبة. وتمثل ما كشف عنه بجدران وأجزاء من غرف مستطيلة الشكل وبعض المواقد. بينما كانت عمارة السويات المتأخرة أكثر وضوحاً وتظهر تشابهاً فيما بينها. وقد كشف في السوية الثالثة عن ثلاثة عشر بناءً. مخططات هذه الأبنية مستطيلة الشكل وكان تشييدها في مراحل متعاقبة من السوية الثالثة. تحمل عمارة هذه الأبنية الخصائص المميزة لعمارة ما قبل التأريخ B من العصر الحجري الحديث، التي تعتمد الجدران المستقيمة والزوايا القائمة وذلك في أول انتشارها في المشرق العربي القديم. فالبناء رقم II على سبيل المثال يغطي ما مساحته ٦٥×١٠م، ويضم إحدى عشرة غرفة، يتراوح طول كل منها ما بين ١,٥ و٢,٥م. الجدران مشيدة باللبن المرصوص بلون برتقالي-بني، وقد بقيت محفوظة إلى ارتفاع ٥٠ سم. معدل عرضها ٣٠- ٣٥ سم. المخطط العام للبناء II غير منتظم وتحتشد فيه الغرف إلى جانب بعضها. على الأغلب خصصت الحجر الصغيرة للتخزين. ويلاحظ وجود غرفتين فقط بمساحة كبيرة (٩-١٠) م^{٢} ، وكانتا مخصصتين للمعيشة على ما يرجح. لم تكن هناك مداخل بين بعض الغرف، وهذا يطرح احتمال التنقل عن طريق فتحات في الجدران أو عبر السطح. وعثر على المواقد في المساحات المفتوحة.

وجدت الأدوات الصوانية في الموقع بأعداد قليلة، ولم يعثر على الكثير من رؤوس السهام، وهذا يشير إلى قلة الاعتماد على الصيد، وهذا ما أكدته أيضاً دراسة البقايا الحيوانية. فقد اتضح أن الماعز هو الحيوان الأكثر استهلاكاً في صبي أبيض، وبلغت نسبة استهلاكه ٩٠% من مجموع الحيوانات المستهلكة، وهذا يعني تفضيل سكان الموقع القدماء تربية الماعز على الصيد بشكل عام(١٣). وعثر على بعض أجزاء من مناجل، وكذلك مكاشط مشذبة من طرف واحد وأحياناً من طرفين ونوى سفينية الشكل

ونصال. أمام قلة عدد الأدوات الصوانية في الموقع نجد كثرة في الأدوات المصنعة من الأوبسيديان(١٤) وأغلبها من النصال والشظايا. وفضلاً على الأدوات عثر على لقى فنية، ربما كان لبعضها صلة بالمعتقدات الدينية. من هذه اللقى دمى حجرية إحداها لأنثى بوضعية الجلوس ولها ثديان كبيران، ورأسها مفقود(١٥). وهناك دمية أخرى، عبارة عن رأس من الحجر الكلسي يلاحظ فيه تجويفان للعينين. كما يوجد ثقب في أسفل الرأس (عند قاعدة الرقبة)، ربما لغاية تثبيتها على قاعدة أو على جسم. كما عُثر على بعض الدمى الطينية الحيوانية التي تمثل في الغالب ثيراناً. ومن المكتشفات المهمة في هذا التل جسيمات طينية صغيرة بأشكال كروية ومخروطية وصل عددها إلى ١٩٧. هذه الجسيمات من النوع الذي أطلقت عليه تسمية "الرموز" tokens، واعتبر وسيلة للحساب مهدت لابتكار الكتابة فيما بعد(١٦).

إن هذه الخصائص التي تميز بها صبي أبيض II وجدت انتشاراً واسعاً في مواقع معاصرة في منطقة البليخ والفرات وفي الأناضول. من هذه المواقع: تل أسود، تل الدامشلية، أبو هريرة، السوية الأقدم في تل بقرص على الفرات.

يعد تل صبي أبيض I أكبر بقليل من سابقه، شكله شبه دائري، أبعاده ٢٥٠×٢٠٠م (الشكل ٤). يعود تاريخ الاستيطان في هذا التل إلى ٥٠٠٠ ق.م (غير معاير). وهذا زمن نهاية العصر الحجري الحديث وبداية ظهور ثقافة حلف. السويات الأقدم في التل (١١ إلى ٧) تؤرخ من ٥٧٠٠-٥٢٠٠ ق.م، في حين أن السويات المتأخرة (٦-١) تؤرخ من ٥٢٠٠-٥٠٠٠ق.م، وهي مرحلة ما قبل حلف المبكر.

لم تكشف عن السويات الأقدم إلا في بعض مجسات السبر، وقد دلت البقايا المعمارية منها على مخططات مستطيلة الشكل للأبنية. أما السويات الأحدث (من ٦-١) فقد كانت أكثر تكاملاً ووضوحاً. ذلك أن مساحة التنقيب فيها بلغت ٨٠٠ م مربع. وأوضح بقايا معمارية في هذه السويات جاءت من السوية السادسة. حيث كشف عن آثار

لبيوت مستطيلة الشكل ويتألف أغلبها من غرف عديدة، يصل عددها أحياناً إلى ١٤ غرفة صغيرة[١٧]، وتتراوح مساحة البيت الواحد بين ٩٠ و ١٢٠ م مربع، وأبنية البيوت ملاصقة لبعضها، ويتألف البيت الواحد من ثلاثة أجنحة، يضم كل منها غرفاً صغيرة تتراوح مساحاتها بين ٣ و ٥ م مربع. احتفظت جدران القرية بارتفاعها لغاية ١,٤ م، مما أتاح الفرصة لتكوين تصور جيد عن القرية (الشكل ٥). ولقد أثار وجود آثار الرماد والحريق في أرجاء المستوطنة التساؤل عما إذا كان ذلك نتيجة لحريق عارض أو لهجوم معادٍ. وإذا كان من غير الممكن تحديد السبب على وجه التأكيد فإنه من الواضح أن البيوت المخربة نتيجة الحريق قد أعيد بناؤها بسرعة، وتوسعت رقعة السكن، مما لا يوحي بنهاية عنيفة.

أهم اللقى في السوية السادسة الفخار الذي وجد في مختلف أرجاء القرية. هذا الفخار مزين بالزخارف وحل محل الفخار الخشن القديم، ويشابه فخار سامراء الذي انتشر في شمالي بلاد الرافدين ووسطها[١٨]. وقد وجد الكثير من الأدوات الحجرية الصوانية فضلاً عن دمى طينية وحيوانية، وكذلك المئات من الكتل الطينية المختومة التي استعملت سدادات لإحكام غلق الأوعية الفخارية والسلال.

شهدت هذه السوية استهلاكاً كثيفاً للحيوانات المدجنة مثل الماعز والغنم وبنسبة أقل من الخنزير. وهذا يؤكد اعتماد السكان على الرعي وزراعة المزروعات في مقابل انحسار ممارسة الصيد. ويأتي الدليل على ذلك من عدم وجود رؤوس سهام بأعداد كبيرة، وهي الأدوات الرئيسة المستعملة في الصيد. ولم تكتشف قبور تكفي لتكوين فكرة عن شعائر الدفن في صبي أبيض I. فالقبر عبارة عن حفرة تحت أرضية عمقها ٢٢٠ سم وقطرها ٤٥ سم. وجد هيكل الطفل في هذا القبر ممدداً على جنبه الأيمن والرجلان مضمومتان بوضعية الجنين.

في السوية الثالثة انتقل الموقع إلى ثقافة حلف. بيوت هذه السوية كبيرة ذات مخططات مستطيلة الشكل، منها ما احتوى على ٢٠ غرفة صغيرة. وقد وجدت دعامات ودكات للعبادة في بعض الغرف[١٩]. بعض البيوت ذات الشكل المستطيل محاطة بسلسلة من أبنية دائرية أو مستطيلة الشكل، لكنها منفصلة عن البيوت. ربما كانت هذه التشكيلات البنائية المدورة، التي يبلغ قطر كل منها ٣ م، قد استعملت مخازناً للحبوب. لوحظت في هذه السوية أيضاً علامات حرق على الجدران والأرضيات، لكنها لم تكن بالشدة التي خلفها حريق السوية السادسة. ودلت الدراسة المتفحصة على أن الموقع لم يُهجر، ولم تحصل عمليات إعادة بناء في ضوء هذا استُخلص أن ذلك الحرق كان نتيجة لعملية متعمدة، الغاية منها شي الجص المستعمل في إكساء الجدران والأرضيات لزيادة صلابته ومقاومته عوامل الطبيعة، مما كان يساعد على حفظ الحبوب الموجودة داخل المخازن وحمايتها من الرطوبة والعفن. من أهم مخلفات ثقافة حلف في هذه السوية الأختام المسطحة، وهي من أقدم نماذج الأختام المسطحة التي استعملت لغايات إدارية في المشرق العربي القديم[٢٠]. وكان قد عثر على أختام مشابهة مبكرة من موقع الأربجية في شمال- شرق الموصل في العراق.

هُجر موقع تل صبي أبيض في حوالي ٥٠٠٠ ق.م، في وقت ازداد فيه انتشار مواقع عصر حلف المتأخرة في مناطق الفرات والبليخ، وقد اشتركت تلك المواقع جميعها بإنتاج فخار ملون وجميل، غدا الميزة الرئيسة لثقافة ذلك العصر. ومن الجدير بالذكر أن هناك أهمية خاصة لموقع صبي أبيض I تأتي من كونه استوطِن من حوالي ٧٥٠٠ ق.م حتى ٥٠٠٠ ق.م، وهي المرحلة اللاحقة شهدت تناقصاً في مواقع العصر الحجري الحديث المتأخرة نتيجة لتردي الظروف المناخية في المنطقة.

خربة الشنف:

لا تبعد خربة الشنف عن صبي أبيض سوى ٢كم (الشكل ١ الموقع رقم ٦٢)، وهي خربة صغيرة لا ترتفع كثيراً عن سطح الأرض. هذا القرب من الموقعين شجع البعثة الآثارية الهولندية العاملة في موقع صبي أبيض على إجراء تحريات أولية في خربة الشنف. وكانت نتائج تلك التحريات ملفتة للانتباه، إذ ظهرت بقايا فخارية تعود إلى عصر حلف، أي أنه معاصر لصبي أبيض، نتيجة لهذا قامت البعثة الهولندية ببعض التنقيبات السريعة في الموقع.

كشفت التنقيبات عن بنيتين تضمان تشكيلات بنائية دائرية الشكل. يبلغ قطر بعض هذه الأبنية نحو ٤ م. ومن المرجح أن هذه الأبنية كانت لغاية التخزين[٢١]، ويقدر أن كل بيت من البيتين المكتشفين كان كافياً لاستيعاب ١٠-١٥ فرداً.

إن صغر حجم الخربة من عصر حلف له صلة بقربه من صبي أبيض. ذلك أن البقايا الحيوانية التي وجدت بكثافة في الخربة تدل على تخصص بتربية الحيوانات مثل الغنم والماعز والخنزير. وهذا يعني أن التوسع في مواقع الاستيطان الرئيسة استدعى خروج بعض الفئات المتخصصة في أحد المجالات المعيشية، سواء كانت زراعية أم رعوية للعيش عند مزاولة عملها، وهذا ما حدث في خربة الشنف. وقد دلت التحاليل المخبرية في هذا الموقع أن الاستيطان لم يستمر أكثر من خمسين سنة[٢٢].يقودنا هذا للاستنتاج أن الخربة كانت محلاً لإقامة محدودة، وعند انتفاء الغرض من هذه الإقامة عاد الأفراد إلى سكنهم الأساسي في صبي أبيض، أو اختاروا مكاناً آخر.

الدامشلية:

يقع على الضفة الغربية لنهر البليخ (الشكل ١ الموقع رقم ٦٣)، وتبلغ أبعاده نحو ١٨٠×١٧٠م (الشكل ٦). يرجح أن مساحة التل كانت أوسع، لكنها تناقصت بسبب

أعمال الحفر لغرض الري التي يقوم بها المزارعون المحليون، وخصوصاً في الجهة الجنوبية- الشرقية. يمر نهر البليخ بمحاذاة التل في الجهة الشمالية.

عملت في تل الدامشلية بعثة هولندية من جامعة أمستردام بإدارة فان لون وكان أول موسم تنقيب في عام ١٩٨٤ م. تركزت أعمال التنقيب في جنوب-غربي التل، وحفرت خنادق سبر اختبارية يصل طولها إلى ٢٠ م في ثلاثة مواضع. بينت هذه التحريات وجود ثلاث طبقات في الموقع أقدمها تعود إلى العصر الحجري الحديث، تليها سوية من عصر الحديد، وأخيراً توجد طبقة بسيطة من الفترة البارثية-الرومانية.

كانت مساحة الاستيطان في العصر الحجري الحديث تقارب ١٥٠٠ متر مربع، وقد سويت أرضية الموقع ثم بنيت عليها مصطبة من قطع كبيرة من اللبن للبناء فوقها. هذه المصطبة مشيدة بلبن قياسه ٦٠×٤٠ سم. اشتملت هذه السوية على سبع طبقات بنائية وجدت أقدمها حول المرتفع (أ+ج+ د). في حين كانت أحدثها قد امتدت فقط في المنطقة ب[٢٣]. ثم هُجر الموقع بعد ذلك ليعاد استيطانه في عصر حلف المبكر. هذا الاستيطان كان محدوداً في المنطقة د فقط ووجد في منطقة مساحتها ٣٠×٢٠ م.

كانت عمارة العصر الحجري الحديث في سوياتها الأقدم، تتألف من أبنية متفرقة بمخططات مستطيلة الشكل. ضمت هذه الأبنية فراغات صغيرة معدل عرضها ٢-٣م، لم تظهر فيها أدلة تشير إلى استيطان سكني مثل المواقد وغيرها. لذلك يرجح أنها استعملت لأغراض التخزين، لاسيما أنه وجدت مصاطب على أرضياتها لحفظ الحبوب بعيداً عن الرطوبة[٢٤]. فيما عدا هذا لم تُلحظ بقايا معمارية كثيرة. لكن عُثر على الكثير من اللقى الأثرية، خصوصاً في الطبقات المتأخرة التي شهدت أعمال ترميم الأبنية القديمة. فقد عثر على نوى صوانية كثيرة ورؤوس سهام من نمط صناعة جبيل، ونصال مثاقب وكذلك مناجل. وعثر في الموقع أيضاً على صحون وطاسات وأحجار رحى من البازلت وآنية من الرخام لها أربعة أرجل[٢٥].

حددت عمليات التحري في الدامشلية بوضوح معالم مستوطنة صغيرة من العصر الحجري الحديث (من بداية الألف السابع ق.م) لا تتجاوز مساحتها ٤٠٠ م مربع، ويقدر عدد سكانها بثلاثين- أربعين شخصاً. هذا النمط الصغير من الاستيطان كان مألوفاً في حوض البليخ، وقد وجد مثله في تل أسود[٢٦]، الذي ضم فخاراً مماثلاً لفخار الدامشلية. من خلال دراسة البقايا النباتية تبين أن سكان الدامشلية القدماء استهلكوا القمح، والشعير والعدس بشكل أساسي. ولم تكن مرحلة استيطان عصر حلف المبكر في القطاع (د) واضحة إلا من خلال الفخار. إذ لم يعثر على عمارة سكنية أو جرار تخزين تدل على استيطان دائم. ولهذا يُعتقد أن تل الدمشلية كان في تلك المرحلة عبارة عن مقر مؤقت للقيام بنشاطات محددة. وتجدر الإشارة إلى أن فخار هذه المرحلة مشابه لفخار عصر حلف من موقع الأربجية[٢٧] في شمالي العراق.

حمام التركمان:

يلي موقع خربة الشنف على الضفة اليمنى لنهر البليخ (الشكل ١ الموقع رقم ٦٤) . عملت في الموقع بعثة هولندية من جامعة أمستردام بين عامي ١٩٨٢-١٩٨٦م وذلك تحت إدارة م. فان لون M.Van Loon . يأخذ التل شكلاً شبه دائري (الشكل ٧)، وقد كشفت التنقيبات فيه عن استيطان مكثف من عصر العبيد حتى العصر البرونزي المتأخر.

في سوية عصر العبيد وجدت بعض الغرف والكثير من الرماد الذي يدل على تعرض الموقع للحريق. ومن أهم مكتشفات طبقة عبيد مجسمات فخارية لبيوت مصغرة تماثل مجسمات تم الكشف عنها في مواقع مثل تبه غورا في شمالي العراق وساكجاغوزو في جنوبي الأناضول[٢٨]. كما ظهرت بقايا معمارية من أواخر العصر الحجري- النحاسي تضمنت زخارف ولقى فخارية كثيرة. وقد نسبت هذه البقايا، بحسب طرازها وأسلوبها، إلى عصر أوروك.

تل مفيش:

يبعد عن النهر نحو ١٠ كم إلى الغرب (الشكل ١ الموقع رقم ٦٥). يبلغ ارتفاع هذا التل ١٤م[٢٩]، وقد كشفت الدراسات السبرية التي قام بها ماكس مالوان عن طريق حفر مجسات عميقة عن استيطان من عصر عبيد، ودل عليه الفخار المزخرف باللونين الأسود والأحمر[٣٠]. تشمل البقايا المعمارية غرفاً صغيرة تبلغ أبعادها ٢٣٠×١٥٠م. هذا الاستيطان منذ بداية الألف الخامس قبل الميلاد، هو استمرار لتعاقب استيطاني في وادي البليخ خاصة بعد استيطان عصر حلف، كما رأينا في موقع صبي أبيض.

تلول البغيلات:

عبارة عن مجموعة تلول قليلة الارتفاع تقع على بعد ٤ كم جنوب- شرق قرية حمام التركمان (الشكل ١ الموقع رقم ٦٩). تؤرخ بعض اللقى في تلين منهما هما I- II على العصر الحجري الحديث. حيث عُثر على رؤوس سهام مذنبة ونصال صوانية مشابهة لموقع تل صبي أبيض[٣١]. كما عُثر على بعض الكسر الفخارية البدائية الصنع.

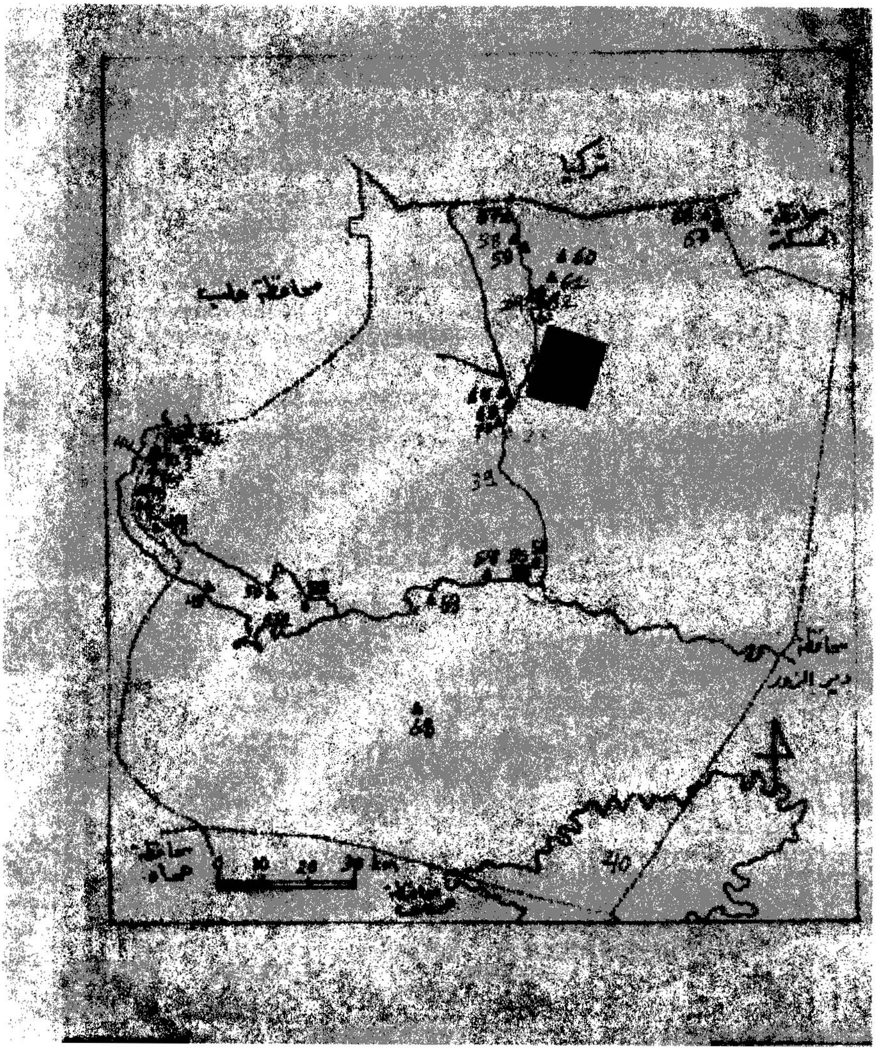
تل مفرق سلوك

هضبة صغيرة تقع على بعد ١٠ كم جنوب شرق حمام التركمان (الشكل١ الموقع رقم ٧٠). يمكن تأريخ الاستيطان في هذا التل على فترة العصر الحجري الحديث ب (PPNB)[٣٢]، وضم هذا التل رؤوس سهام من نمط جبيل المشابهة لنمط تل أبو هريرة.

تل شاهين:

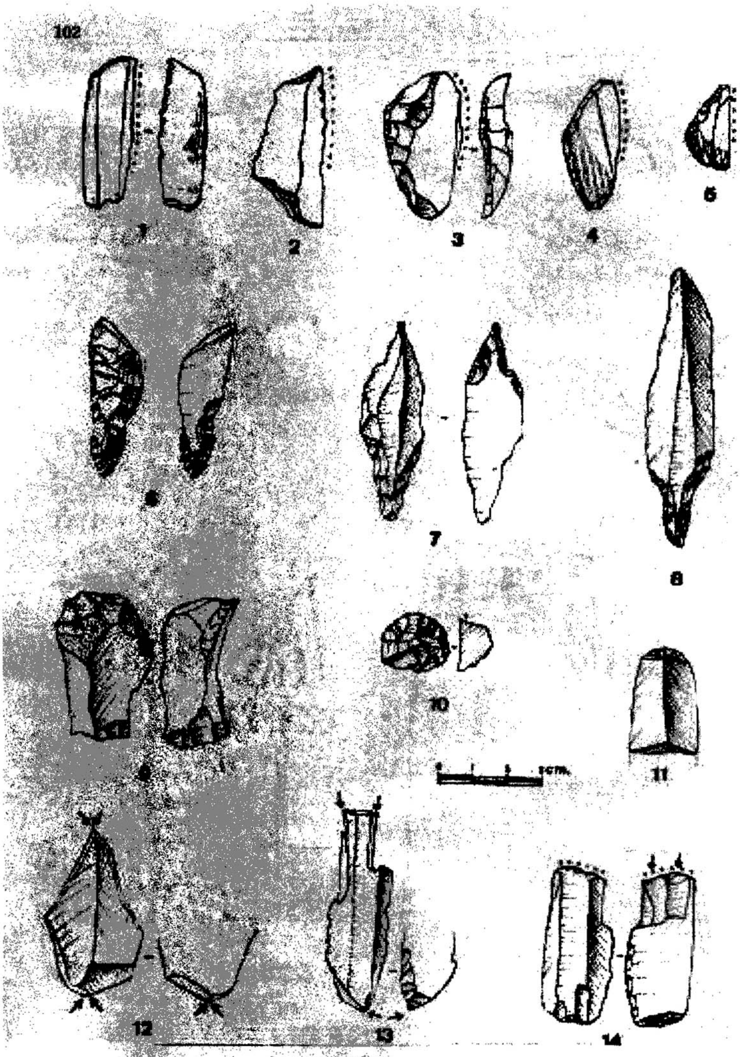
آخر التلال الذي سنتناوله من حوض البليخ، هو موقع تل شاهين على بعد ٣٢ كم شمال جسر شنينه. من خلال الفخار الموجود على سطح التل يمكن تأريخ الاستيطان إلى فترتي حلف وعبيد[٣٣].

إن ما تم استعراضه من مواقع مستكشفة في حوض البليخ قد أعطى صورة جلية عن طبيعة الاستيطان وقدمه. إذ تبين أنه يعود في أقدمه إلى العصر الحجري الحديث، حتى فترة عبيد ومن دون انقطاع. ويشكل هذا حلقة استيطان مهمة بين منطقتي الخابور والفرات وأن الاستيطان قد بدأ مع بداية الاستقرار، أي خلال العصر الحجري الحديث ولم ينقطع حتى تاريخه، مع ملاحظة عدم وجود دلائل على استيطان من العصر الحجري القديم أو الوسيط، التي كانت موجودة إلى الجنوب- الشرقي في حوضة الكوم وعلى ضفاف الفرات. وهذا يشير إلى أن منطقة البليخ لم تكن ممراً للإنسان الحجري القديم، لكنها سُكنت مع بداية الاستيطان في العصر الحجري الحديث واستمرت حتى نهايته.

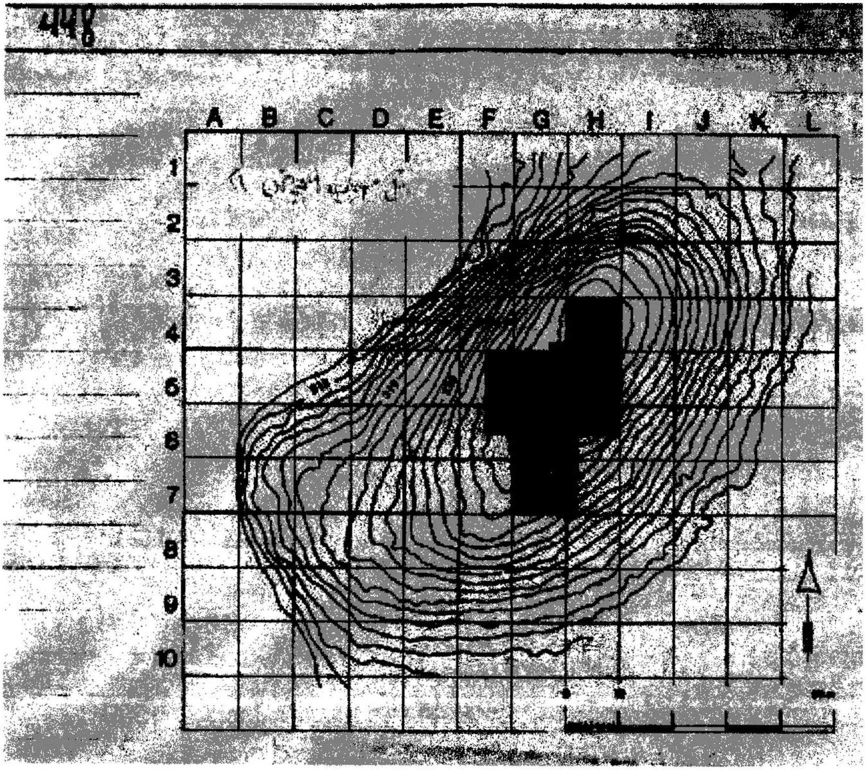


نهر البليخ وعليه المواقع الأثرية

الشكل رقم (١)

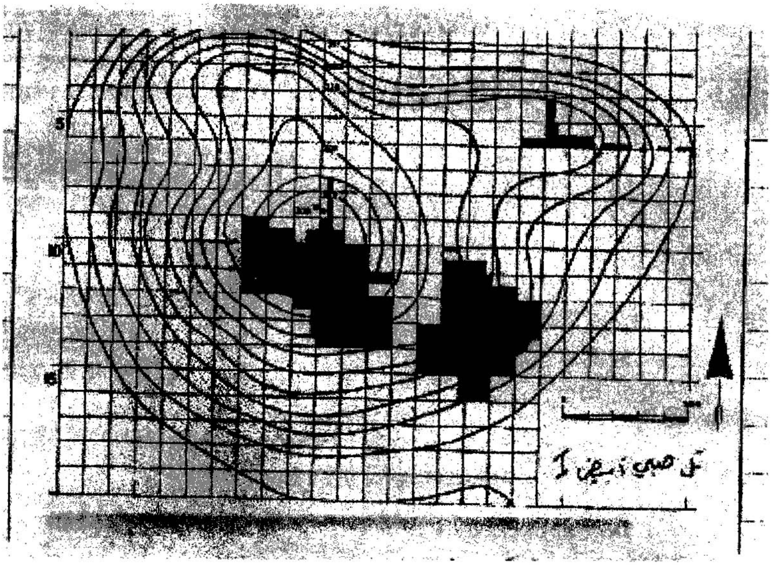


الشكل (٢): نماذج من الأدوات الصوانية في تل أسود (الجزيرة)



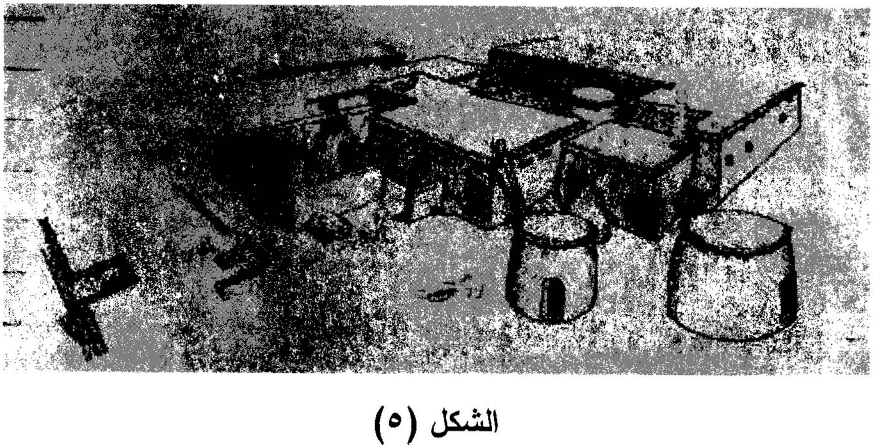
الشكل (٣)

المخطط الطبوغرافي لتل صبي أبيض II



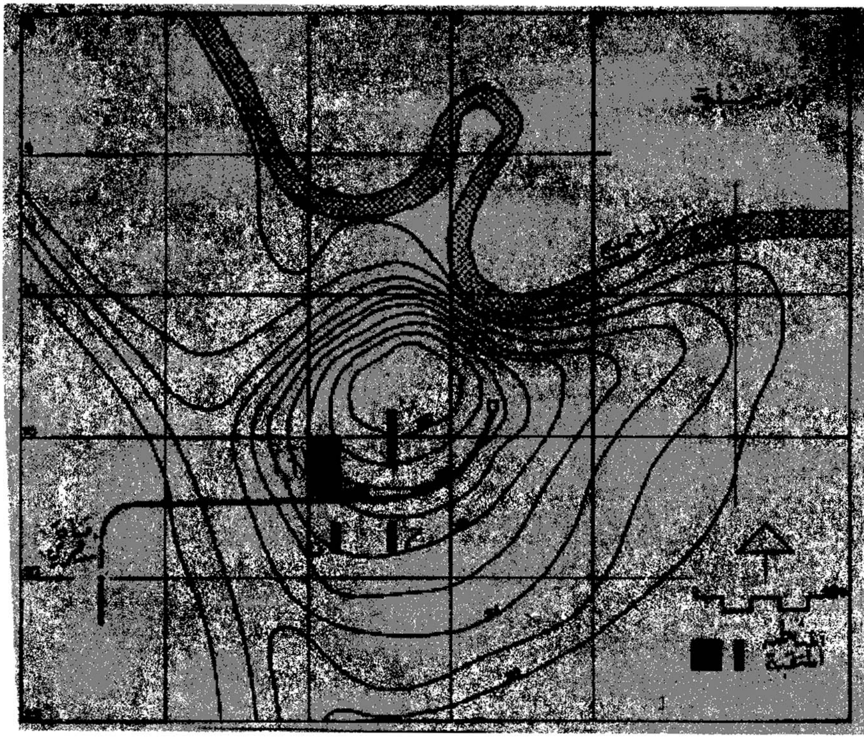
الشكل (٤)

المخطط الطبوغرافي لتل صبي أبيض I



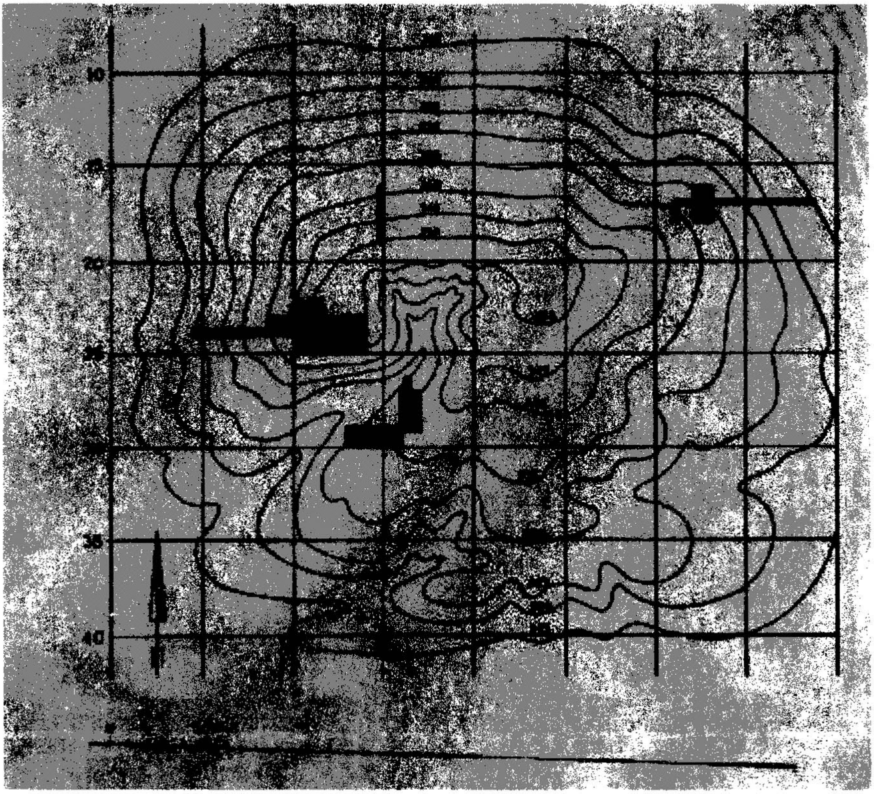
الشكل (٥)

تصوير افتراضي للقرية المحترقة في صبي أبيض



الشكل (٦)

المخطط الطبوغرافي لتل الدامشلية



الشكل (٧)

مخطط طبوغرافي لموقع حمام التركمان

الهوامش

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان** ج١، دار الإحياء العربي، مادة البليخ.

(٢) طه باقر، **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** ج١، (بغداد، ١٩٧٣م) ص.٤٤.

(3) P. Bienkowski, Dictionary 0f Ancient Near East, p.46.

(٤) بيتر أكرمنس، **التنقيبات الأثرية في تل الدامشلية**، الحوليات الأثرية العربية السورية ٣٦/٣٥ (١٩٨٦-١٩٨٧م)، ص ٢١٢.

(٥) ياقوت الحموي، مرجع سابق، مادة بلخ.

(٦) المرجع نفسه.

(7) B.Groneberg.RepGeog,vol 3,p.227

(٨) **الرقة درة الفرات**، ص.٣٤٩-٣٥٠.

(٩) عمار عبد الرحمن، **الدمى في العصر الحجري الحديث في سورية**، الملحق III، ص.٢٧.

(١٠) جاك كوفان، **سبر في تل أسود –الجزيرة السورية–**، **الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٢٢**، المديرية العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية،– (١٩٧٢) صص. ١٨٩-١٩١.

(11) M.Verhoeven& P.M.M.G Akkermeans, Tell SabiAbyad II The pre-pottery Neolithic B Settlement, Nederhistoesch-ArchaeologischInstitut in Istanbul, 2000, p.3.

(12) Loc.Cit, p.1

(١٣) عمار عبد الرحمن، المرجع السابق، ص.٢٥٤.

(14) M. Verhoeven and P.M.M.G Akkermence, Tell SabiAbyadIIThe Pre-Pottery Neolithic B Settlement, Nederland historisch-ArchaeologischInstitut, p.61

(١٥) عمار عبدالرحمن، المرجع السابق، ص.١٨١.

(16) E.A.Ross, Geometric Patterns on Pebbles: Early Identity Symbol, in Neolithic Revolution, edited by, Edgar Peltenberg and Alexander Wasse, Levant Supplementary Series 1, p158

(١٧) بيتر أكرمنس، **تل صبي أبيض**، المعرض السوري الأوربي، ص..٣١

(١٨) المرجع نفسه، ص.٣١-٣٣.

(19) P.M.M.G Akkermeans, Tell SabiAbyad. The Late Neolithic Settlement vol 1, Nederland HistorischInstitut in Istanbul, 1996, p.33

(٢٠) المرجع السابق، ص.١٧٦.

(٢١) بيتر أكرمنس، **المعرض السوري** - الأوربي، ص.٣١.

(٢٢) المرجع نفسه، ص.٣٢.

(٢٣) بيتر أكرمنس، **التنقيبات الأثرية في تل الدمشلية مستوطنة من العصر الحجري الحديث في وادي البليخ– سوريا الشمالية**، في الحوليات الأثرية العربية السورية مج ٣٦-٣٧ (١٩٨٩) تعريب شوقي شعث، ص.٢١٣.

(٢٤) المرجع نفسه، ص.٢١٣.

(٢٥) المرجع نفسه، ص.٢١٥.

(26) J. Cauvin, Sondage a Tell Assouad (Djezirehm Syria), 1972m AAAS 22, pp.85-88

(27) M.E.L. Mallowan and C.Rose, Excavations at Tall Arpachiyah, 1933, Iraq 2, (1935), pp.1-178

(٢٨) **الرقة درة الفرات**، مجموعة باحثين، ص.٣٤٨-٣٤٩.

(29) Anne Louise Perkins, The comparative Stratigraphy of early Mesopotamia, Chicago, 1949.

(٣٠) **الرقة درة الفرات**، المرجع السابق، ص.٣٤٩.

(٣١) سلطان محيسن، **تلال ما قبل التاريخ في وادي نهر البليخ الأدنى**، في الحوليات الأثرية العربية السورية مج ٣٢، (١٩٨٢)، ص ص. ٢٠٨.

(٣٢) المرجع نفسه.

(٣٣) المرجع نفسه.

العلاقات التجارية بين مصر وسورية القديمة منذ عصور ما قبل التاريخ حتى عصر الدولة الوسطى "من خلال اللقى الأثرية"

الدكتورة ابتسام ديوب

قسم التاريخ

جامعة دمشق

يهدف هذا البحث إلى دراسة موجزة للعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين الحضارة المصرية وسورية قديماً، وذلك من خلال ما عثر عليه من آثار في مناطق متفرقة في الساحل السوري. وتشمل الدراسة على النقاط التالية:

أ- التحديد الجغرافي والزماني للعلاقات بين مصر وسورية قديماً

يرتبط تاريخ أي أمة من الأمم، أو أي شعب من الشعوب ببيئته التي يحيا فيها، والتي تطبع تلك الأمة بطابعها، وتحدد طريقة تفكيرهم في الحياة كما تؤثر على طريقة معاملاتهم مع جيرانهم من الأمم، التي تنتهي إما بالمساواة، أو بالسيطرة، وهذا يتوقف على حيوية كل أمة، وعلى مقدار نفوذها السياسي، والإداري بالنسبة لتلك البلاد المنافسة، وكذا علاقاتها التجارية الواسعة مع هذه المناطق، وأهم المواد والمصنوعات التي تستوردها منها وتلك التي تصدرها إليها، وأثر هذه العلاقات التجارية الواسعة في

أساليب الفن، والصناعة، والثقافة، وأمور الدين ......الخ. ونخص هنا العلاقـة التـي كانت قائمة بين منطقتين هامتين في الشرق الأدنى القديم، هما مصر وسورية القديمة.

قبل الخوض في غمار البحث لابد أن نشير إلى أنه من الصعب أن نحدد بدقـة سورية القديمة التي يشملها البحث بالدراسة إذا ما سلّمنا بواقع حالها آنذاك، لأنها ظلت متغيرة دوماً حسب الظروف التي مرت بها في كل فترة زمنية. فقد تجاذبتهـا القـوى المتصارعة حيناً، وتقاسمتها أحياناً أخرى، وبالتالي كان الوضع القلق وغير المـستقر للممالك السورية القديمة يرجع لعوامل داخلية وخارجية، ساعدت على تفتيتها وتشتتها من حيث تواجدها بين القوتين الكبيرتين في العالم القديم آنـذاك(مـصر- العـراق)، بالإضافة إلى طبيعة سوريا الجغرافية التي كان لها أكبر الأثر في عـدم وجـود قـوة سياسية كبرى تنظم الممالك السورية القديمة كلها.

يلاحظ كذلك أن المرات القليلة التي اتحدت فيها الممالك السورية، كانت بإدارة سـلطة خارجية، ونتيجة لذلك لم تظهر وحدة سياسية تجمع تلك الممالك تحت إدارة مركزيـة واحدة. إنما كان بعض من دويلاتها تقوم في مدن حصينة مبنية فوق أرض مرتفعـة، بينما أغلب من عاشوا خارج المدن كانوا يتنقلون مـن مكـان إلـى مكـان آخـر، ويضغطون باستمرار على المراكز المستقرة كلما ضاق الحال بهم.[i]

لذلك سنتناول في البداية التعريف العام لسورية القديمة، التي كان يقصد بهـا المنطقة الواقعة بين جبال طوروس وخليج إسكندرونة في الشمال، وشبه جزيرة سيناء وخليج العقبة حتى جبل الكرمل في فلسطين جنوباً، وبين البحر المتوسط في الغـرب، ونهر الفرات وبادية الشام في الشرق*، لأنه من الثابت أن الرقعة الجغرافية تبقى ثابتة دون تغير.

أما المتغيرات التي تطرأ عليها من آن إلى آخر سواء بفعـل العوامـل الداخليـة أو الخارجية المتمثلة في صراع القوى الراغبة في السيطرة والاستقلال التـي تـستهدف

رعاية مصالحها تحت أي مبرر أو مسمى، مهما كان الثمن الذي يدفعه سكان تلك المنطقة، فهي لا تتعدى كونها ظرفاً متغيراً مرتبطاً بالحالة المؤقتة لا يطغى على الأصل الثابت، المتمثل في الرقعة الجغرافية، ولا يلغيه، انظر خريطة(رقم - ١ أ ، ب)(٢)

وبالتالي يشمل مصطلح سورية القديمة* كلاً من سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وتبين الخريطة (رقم- ٢) حدودهم الحالية.

لقد لعبت سورية دوراً هاماً في تاريخ الحضارة الإنسانية منذ عصور ما قبل التاريخ، ويرجع هذا إلى موقعها الجغرافي المميز، الذي يمكن تقسيمه إلى خمسة أجزاء بناء على الاختلافات الطبوغرافية لأراضيها، وهي كالتالي:

أولاً: السهل الساحلي : يمتد من الشمال حيث خليج إسكندرولة، إلى الجنوب حيث شبه جزيرة سيناء، ويبلغ طوله ٤٤٠ميلاً في أقصى الغرب.

ثانياً: الجبال الغربية: تشمل المنطقة الثانية، وتشرف على السهل الساحلي سلاسلُ جبال وهضابٌ من الأمانوس شمالاً، وحتى سيناء جنوباً أهمها جبال لبنان التي تعد حاجزاً بين البحر وشرق البلاد، وتمثل فلسطين جغرافياً امتداداً طبيعياً لجبال لبنان، حيث يمتد سهل لبنان الساحلي في فلسطين نحو سهل صارونة مروراً بجبل الكرمل إلى جنوب يافا.

ثالثاً: منطقة التصدعات، وهي المنطقة الثالثة، وتمثل حوضاً ضيقاً طويلاً عند سهل يرتفع عن منطقة حماة حوالي ١٠١٥ قدماً فوق سطح البحر، ثم يسمى سهل البقاع بين مرتفعات لبنان، ثم يستمر جنوباً في وادي الأردن حتى يصل إلى البحر الميت، ثم يستمر في وادي عربة حتى خليج العقبة.

رابعاً: المرتفعات الشرقية، وتبدأ من جنوب حمص ثم تنحدر من منطقة حربون نحو هضبة حوران، ومنطقة التلال، ثم شرق الأردن عند جلعاد وهضبة مؤاب، ثم جبل سعير جنوب البحر الميت(٣).

خامساً: بادية الشام وتعد خامس الأقسام الطبوغرافية للأراضي السورية وتبدأ من شرق حوران وشرق الأردن وصولاً إلى الفرات، ويسمى قسمها الشرقي ببادية الجزيرة، أو بادية ما بين النهرين في الشمال، وبادية العراق في القسم الجنوبي، وتكوّن بذلك مثلثاً قاعدته عند خليج العقبة، وخليج الكويت، وقمته عند حلب وأقصى عرض له حوالي ٨٠٠ ميلاً.(٤)

أعطى هذا الموقع الجغرافي المتوسط لسورية أهمية حضارية كبرى، تجلت في جعلها همزة الوصل بين قارتي أفريقيا وآسيا، وأيضاً نقطة التلاقي بين حضارات الشرق الأدنى القديم وأوروبا، مما سهل لها القيام بدور الوسيط التجاري منذ عصور ما قبل التاريخ، بالإضافة إلى تأثرها وتأثيرها الثقافي والحضاري في مختلف الحضارات القديمة.

إن وقوع هذا الإقليم بين أقدم حضارتين في الشرق الأدنى القديم، هما الحضارة المصرية، وحضارة بلاد ما بين النهرين، حيث تشبثت أطرافه الغربية بحضارة وادي النيل، وأطرافه الشمالية، والشمالية الشرقية بحضارة العراق القديم، مكّنه من الاستفادة التامة من هاتين الحضارتين، فانصبت فيه أعظم إنجازاتهما الحضارية.(٥)

أيضاً كان لتنوع التضاريس في هذه المنطقة أثر كبير في تباين ميول إنسان تلك الفترة، فكان هناك أهل الجبال وأهل السواحل وأهل الوديان وأهل الصحارى. بل إن هذه المنطقة من الشرق الأدنى كانت خلال مراحل كثيرة من تاريخها مسرحاً للنزاع المتواصل بين البدو والحضر المستقرين(٦)

من ناحية أخرى كان غنى هذه المنطقة بمنتجاتها النباتية، وبخاصة خشب الأرز والصنوبر، دافعاً للتنافس الذي وصل إلى حد الصدام المسلح من أجل الحصول على هذه السلعة الثمينة والنادرة. كما أدى موقع هذه المنطقة المطل على البحار والأنهار إلى ظهور عدة موانئ بحرية انتشرت شهرتها في كافة أنحاء البلاد القديمة (جبيل – أوغاريت – أرواد– صور ....إلخ)، وبالتالي قيام شعبها بدور الوسيط التجاري بين حضارات العالم القديم.(٧)

حيث كان ذلك الاتصال يتم بالحضارة المصرية عن طريقين:

الطرق البرية:

- طريق وادي الحمامات: يمتد من أقصى جنوب مصر ما بين القصير على البحر الأحمر وقفط على نهر النيل.
- طريق حورس: ويبدأ من برزخ السويس، ويعبر سيناء إلى الأراضي الفلسطينية الجنوبية، إلى أن يصل إلى رفح ويستمر إلى الأراضي السورية القديمة في الشمال وتشمل (لبنان الحالية).

الطريق البحري:

يبدأ من الدلتا في مصر عن طريق ساحل البحر المتوسط ويتجه شرقاً ثم شمالاً بمحاذاة السواحل الفلسطينية والسورية، ومن أهم الموانئ التي شهدت الاتصال بين مصر وبلاد الشام ميناء " جبلة أو كبنة " باللغة الهيروغليفية وبيبلوس" جبيل حالياً في لبنان، وميناء مينة البيضا في أوغاريت على الساحل السوري، ويعتبر هذان الميناءان من الموانئ التجارية التي كانت ترد إليها السلع الفاخرة من مختلف أنحاء الشرق الأدنى القديم، بالإضافة إلى شهرتهما في تصدير الأخشاب السورية الفاخرة خاصة إلى مصر، هذا إلى جانب العديد من الموانئ السورية التي لعبت دوراً بارزاً في

الاتصال الحضاري الذي كان قائماً آنذاك، أدى هذا بدوره إلى نقل المؤثرات الحضارية بين مصر والشرق الأدنى عامة.(٨)

أما فيما يتعلق بالتحديد الزماني:

فيمكن القول أن التقسيمات الخاصة لعصور ما قبل التاريخ في حضارات الشرق الأدنى القديم، حسبما اعتمدها الباحثون، واحدة في مختلف مناطق العالم القديم مبتدئة بالعصر الحجري القديم، فالوسيط، فالحديث ثم العصر الحجري النحاسي.

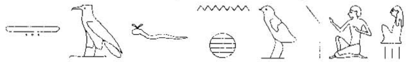
اصطلح الباحثون بعد ذلك على تقسيم تاريخ تلك المناطق إلى ثلاثة عصور برونزية كبيرة، تنقسم كل مرحلة من هذه المراحل الكبيرة إلى مراحل فرعية صغيرة متفرعة منها، وهذه العصور البرونزية هي:

العصر البرونزي المبكر	Early Bronze Age	٣١٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م
العصر البرونزي الأوسط	Middle Bronze Age	٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق.م
العصر البرونزي الحديث	Late Bronze Age.(٩)	١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م

إذا ما قارنّا هذا التحديد الزماني مع مصر، نلاحظ أن عصر البرونز المبكر (٣١٥٠- ٢١٠٠ ق.م) يغطي الفترة الممتدة من بداية عصر التوحيد حتى نهاية عصر الانتقال الأول تقريباً.

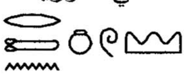
وأن عصر البرونز الأوسط (٢١٠٠- ١٥٠٠ ق.م) يغطي الفترة الممتدة من بداية الدولة الوسطى حتى نهاية عصر الانتقال الثاني.

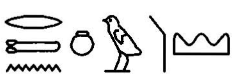
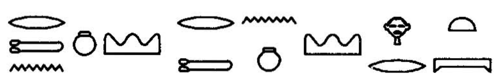
أما عصر البرونز المتأخر (١٥٠٠ – ١١٥٠ ق.م) فيغطي الفترة التي تقابل في التاريخ المصري القديم عصر الدولة الحديثة حتى نهاية الأسرة العشرين.(١٠)

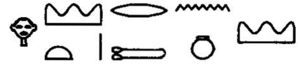
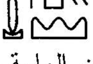
ولابد من توضيح جانب آخر في مضمون هذا البحث، وهو اسم كنعان أو فينيقيا،* كما ورد في النصوص المصرية، حيث أطلق المصريون على قاطني الساحل السوري منذ عهد الملك ني وسر رع اسم (فنخو)  Fnhw ، وذلك إشارة إلى الشريط الذي كانوا يربطون به شعورهم أو ملابسهم ، وكان يطلق على بلادهم T^3Fnhw(أي أرض الفيفيقيين) .  التي كانت تشير إلى بلاد سوريا وفلسطين معا.[١١]بينما يرى البعض أن اسم فنخو ربما يكون له صلة بشهرة أهل لبنان في قطع الأخشاب، وأنهم كانوا يحملون لقب قاطعي الأخشاب الملكية فنخو[١٢]، كذلك كان يطلق على لبنان تسميتان هما Rmnn  و Rbrn، وجاءت أيضاً على الشكل التالي:

arwH[١٣]  

وربما كانت هذه التسمية تطلق على الجزء الشمالي لسورية.

و أضيف إليهم مسمى رتنو[١٤] Rtnw  في الدولة الوسطى ويشمل سوريا وفلسطين معاً، وقد ظهرت رتنو بأشكال منها :

ثم استخدموا تسمية Hr r st rtnw  بمعنى البلاد الأجنبية، وكانت تمثل بلاد خارو أو رتنو القسم الآسيوي. كان هذا الجزء ينقسم إلى أقسام عديدة، فمثلاً كان أقصى أجزائها الجنوبية يسمى rtnwhrt وهي بمعنى رتنو العليا، وكذلك أطلق على هذا القسم تسمية D^3hi  وهي تمثل السهل الساحلي لفلسطين وفينيقيا. حيث يوجد فيها العديد من المدن الهامة مثل جبيل

وصور والسامرة. وقد استخدم هذا المصطلح خلال عصر الدولة الحديثة.أما الجزء الشمالي فكان يطلق عليه رتنو السفلىRtnwHrt (١٥) وهي تمثل سهل سورية المنخفض. كما أطلق عليهم في عصر الدولة الحديثة اسم خارو،وذلك كما يلي : 

وذلك للدلالة على سوريا وساكنيها.(١٦)

العلاقات التجارية بين مصر وسورية القديمة:

- **العلاقات التجارية المصرية – السورية خلال العصور الحجرية القديمة وعصر بداية الأسر:**

أثبتت النتائج الأثرية وجود صلات وثيقة بين منطقة الشرق الأدنى القديم ومصر منذ أقدم العصور، وعلى وجه التقريب لا التحديد منذ العصر الحجري الحديث. حيث يرجح بعض العلماء أمثال "يونكر" "شارف" وجود صلات بين منطقة الدلتا والساحل السوري خلال هذه الفترة الموغلة في القدم، معتمدين في ذلك على ما أظهرته الحفائر في مرمدة بني سلامة. حيث استخدم أهلها أحد أنواع المقامع الحجرية الكمثرية الشكل، وأن استعمال هذا النوع من المقامع كان شائع الاستخدام في سورية وفلسطين. بينما لم نرَ استخدام مثل هذا النوع في مصر إلا في مرمدة بني سلامة دون غيرها من أطلال القرى الأخرى المعاصرة لهذه الحضارة في مرحلة العصر الحجري الحديث.

ويرجع "شارف" ذلك إلى وجود تأثير من قبل هذه البلاد، وبخاصة فلسطين على أهل مرمدة بني سلامة في صناعة هذا النوع من المقامع القتالية.(١٧)

ويعزا هذا التأثير إلى وجود بعض الصناع المهرة، الذين قدموا من هذه المناطق إلى مصر، وخاصة منطقة الدلتا وإقامتهم فيها مما أدى إلى تأثرأهلها بفنون صناعة هذا النوع من المقامع، أو أنه كان نتيجة لذهاب بعض الصناع المصريين إلى

موطن صناعة هذه المقامع، وتعلمهم كيفية صناعتها وتقليدها وتنفيذها بعد ذلك في مصر، أو أن بعض هذه المقامع وصلت إلى مصر عن طريق الصلات القائمة بينها وبين هذه البلاد آنذاك، قبل أن يقلّد المصريون صناعتها بعد ذلك.

على كل حال، فإن وجود مثل هذا النوع من المقامع يدل على وجود صلات مبكرة بينها وبين البلاد التي انتشرت فيها سواء عن طريق التجارة أو عن طريق التواصل الحضاري المبكر لهذه البلاد.

لم يقتصر هذا الاتصال على حضارة مرمدة بني سلامة، بل تجلى كذلك في حضارة البداري، التي امتدت باتصالها مع بلاد حوض البحر المتوسط إلى سوريا. استند العلماء في ذلك إلى التشابه الشديد بين بعض أنواع الفخار في المنطقتين، ويعتقد "برنتون"[١٨]في ذلك وجود صلات بين مصر وميناء جبلة أوكنبة، "جبيل الحالية"، وأنهم قد استخدموا أخشاب الصنوبر والأرز وجلبوها من جبيل.[١٩]

أما في عصر نقادة الأولى: فقد رجّح الكثير من العلماء أن أهل هذه المنطقة قد استوردوا الخشب من الساحل السوري، معتمدين في ذلك على ما عثر عليه في حفائر جبيل من قطع صغيرة مصرية الصنع من أدوات اللعب، وعقد ذهبي، وتمثال صغير لقرد، وكذلك على لوحة على هيئة طائر، وكثير من التمائم الحيوانية المصرية تتشابه في خصائصها مع خصائص الأدوات المصرية في عصر نقادة الثانية.

هكذا يمكن أن نخلص إلى قيام علاقات تبادل تجاري مباشر أو غير مباشر بين مصر والساحل السوري كما يرى عبد العزيز صالح[٢٠].

وإضافة لذلك فإن الحفائر التي أجريت في المعادي، التي تمثل الدلتا في عصر نقادة الأولى، قد أظهرت أن أهلها كانت لهم علاقات مع أهل فلسطين وسوريا،

وقد تأكد ذلك من خلال الأشكال التي تميز بها فخارهم ، التي كانت قليلة الشيوع في مصر وكثيرة الانتشار في فلسطين.

كذلك عثر في مخلفات مساكنهم على بقايا قار من البحر الميت في فلسطين، كما يشار إلى صناعة أهل المعادي لمكاشط مروحية الشكل من الظران قريبة الشبه بمثيلاتها التي وجدت في منطقة تليلات الغسول[٢١]، وعُثر أيضاً على بعض الأواني ذات المقابض المختلفة، التي كان لها مثيلات في سوريا وفلسطين (أريحا- جرشو- جبيل- رأس شمرا)*

ويرى "كنتور" أن المصريين استخدموا هذه الأدوات عن طريق استيرادها من سوريا وفلسطين معبأة بالزيت، ومن ثم قلدوا صناعتها في مصر بعد ذلك [٢٢] ، ثم استمرت هذه العلاقات بين مصر وسوريا القديمة خلال عصر بداية الأسرات، حيث استورد المصريون خشب الأرز من سوريا لاستخدامه في تسقيف مقابر ملوكهم في أبيدوس، وربما استخدموه في صناعة السفن الكبيرة منذ عهد الملك حور عحا[٢٣].

كذلك تم استيراد الزيوت والمواد العطرية والخمور في أوان فخارية مختلفة المقابض من جنوب سوريا وفلسطين. حيث عثر على عدد كبير منها في مقابر "سقارة"، وربما يكون مصدرها من سوريا، وكذلك في طرة وطرخان وأبيدوس.[٢٤] وأيضاً عُثر في مقابل هذه الأدوات على صادرات مصرية في ميناء جبيل وأوغاريت في لبنان وسوريا، وقد أصبحت السفن المصرية تسمى باسم هذه الموانئ أحياناً.[٢٥] الآثار المهمة التي عثر عليها في جبيل ، التي تؤكد مدى عمق العلاقة بين مصر والعالم السوري القديم ، ومدى التبادل التجاري بين الطرفين في ذلك الوقت بقايا قطعة من إناء صغير من الحجر المصقول "ديوريت" عُثر عليها في جبيل، وعليها اسم الملك "خع سخم وي"*، آخر ملوك الأسرة الثانية، وبجانبه كتب عبارة "di-ᶜnh" بمعنى ليعط الحياة[٢٦].

ويرجح وارد "word" أن انتقال هذا الأثر إلى جبيل في عصر الأسرة الثانية يدل على وجود آثار سورية في مصر ترجع إلى هذه الفترة، وبناء على ذلك، يقر بوجود علاقات تجارية واسعة بين الطرفين، وذلك بسبب ازدياد أعباء الحياة ومتطلباتها(٢٧).

- العلاقات التجارية المصرية – السورية خلال الدولة المصرية القديمة حتى نهاية عصر الانتقال الأول:

مع بداية عصر الدولة القديمة اتسعت علاقات مصر مع جيرانها من بلاد الشرق الأدنى القديم. فعلى الرغم من عدم وجود أثر يرجع لملوك الأسرة الثالثة في ميناء جبيل، إلا أن استمرار هذه الصلات كان قائماً. يستدل على ذلك من خلال العثور على عدد من الأوعية الحجرية في سوريا ترجع إلى عصر تلك الأسرة في مصر، ومن خلال العثور على تابوت خشبي في هرم الملك زوسر المدرج، وهو مصنوع من الخشب المختلط من الخشب المصري والخشب المستورد من الساحل السوري (خشب الأرز والصنوبر والنخيل)(٢٩). وما العثور على حجر بالرمو إلا دليلٌ يؤكد مدى اتساع التبادل التجاري المصري مع سوريا القديمة. حيث تحدثنا نقوش حجر بالرمو عن إحضار مؤسس الأسرة الرابعة الملك سنفرو، لأربعين سفينة محملة بأخشاب الأرز من جبيل لاستخدامها في صناعة السفن والتوابيت الملكية ، وقد أطلق على إحدى هذه السفن اسم "المحبوبة من الأرضين".

وما ذكر هذه الأخشاب في هذه الفترة المبكرة إلا دليلٌ قويٌ على عمق العلاقات بين البلدين، وتأكيدٌ أيضاً أن هذه العلاقة تمت عن طريق البحر وليس براً أي عبر سيناء ثم فلسطين، وهذا يشير بالتالي إلى الاهتمام الكبير بالبحرية آنذاك.(٣٠) وليس أدل على ذلك من أن الكثير من هذه الأخشاب مازال موجوداً وبحالة جيدة داخل الهرم الجنوبي لهذا الملك بدهشور.(٣١)

إلا أن أهم اللقى الأثرية التي تعود إلى عصر الدولة القديمة وُجدت في جبيل في عهد الملك خوفو. حيث ظهر اسمه على آثار معبد في جبيل*. كما وُجدت معه أسماء ملوك مصريين آخرين من الذين سبقوه، وممن لحقوا به مثل خفرع ومنقرع. وأيضاً عُثر على اسم قارب ملكي لخوفو عند منبع نهر أدونيس (نهر إبراهيم حالياً)، مما يدل على أن الملك خوفو قام بإرسال البعثات البحرية، مثل ما قام به الملك سنفرو إلى جبيل[٣٢].

كذلك عثرت البعثة الإيطالية خلال موسم التنقيب عام ١٩٧٧م في أرضية القصر الملكي، في مملكة إبلا الذي يرقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد (العصر البرونزي القديم الرابع)، على بقايا أوان من مادتي الألباستر والديوريت، وعليهما آثار حريق كان قد سببه غزو الملك الآكادينارام سين لإبلا في حوالي ٢٢٥٠ قبل الميلاد. رغم الحالة المشوهة التي سببها الحريق لتلك البقايا استطاعت البعثة التأكد من وجود إشارات هيروغليفية، منقوشة على ثلاثة كسر من بقايا الأواني المذكورة. تحمل إحدى هذه الكسر اسم ولقب الملك خفرع من ملوك الأسرة الرابعة، و تحمل أخرى اسم ولقب ملك من الأسرة السادسة وتشير بقايا آنية من الديوريت أنها كانت جزءاً من مثقب سراج للنور وهي محفوظة حالياً في متحف دمشق.

مهما يكن، فإن وجود مثل هذه القطع الأثرية، وعليها اسم ملك من ملوك بناة الأهرام، وهو الملك خفرع باني الهرم الثاني المشهور باسمه، ووجود مثل هذا الاسم في سوريا القديمة بغاية الأهمية ،لا سيما أن هذا الأثر الكتابي هو الوحيد باسم هذا الملك الشهير خارج مصر كما وجدت أيضاً في جبيل قطعة أخرى كتب عليها ما يلي: "خفرع- محبوب الإلهة حتحور". بناءً على ذلك فإن وثيقة إبلا واكتشافات جبيل خير شاهد على الوجود المصري وتعمقه في الشرق الأدنى القديم خلال حكم الأسرة الرابعة في مصر. بالتالي نستنتج من ذلك وجود صلات مباشرة بين القطرين من خلال ميناء جبيل على الساحل اللبناني.[٣٣]

أما في عصر الملك سا حو رع، فقد أثبتت الحفائر أن علاقات مصر مع الساحل السوري كانت تتم براً وبحراً، حيث تم تصوير الرحلة البحرية، التي تمت في عهده على جدران معبده الجنائزي في أبو صير، وقد استقبلت عند عودتها من قبل الملك وحاشيته بالحفاوة والترحاب.*

وقد مثلت هذه السفن محملة بالنساء والأطفال والرجال والخيرات والحيوانات (خاصة الدببة)، التي كان يتم جلبها ضمن الواردات السورية إلى مصر.(٣٤)

ومن الآثار التي وجدت في جبيل، من الأسرة الخامسة، تمثال نصفي للملك ني وسر رع من الجرانيت، في المقبرة رقم (٢) في جبيل موجود حالياً بمتحف بيروت. كذلك عُثر على آنية تحمل اسمه ضمن البقايا الأثرية التي كشفت في جبيل، وتروي النصوص المصرية أن هذا الملك قام بعدة حروب في سوريا، كما يبدو من المناظر التي صورت في معبده(٣٥).

أيضاً تم العثور على آثار تحمل أسماء ملكية (ببيي الأول- ببيي الثاني) من ملوك الأسرة السادسة، وتمثل أكثر من ٣٦ نقشاً هيروغليفياً، وذلك على شقف بعض الأواني في جبيل(٣٦)، أيضاً عثرت البعثة الإيطالية في إبلا، في حفريات القصر الملكي، على قطعة مصرية، وهي عبارة عن غطاء آنية على هيئة قرص من حجر الألباستر، لا بد أنها كانت غطاء لآنية مصرية معروفة الشكل (أسطوانية الشكل - مرتفعة- تستعمل لحفظ الزيوت أو العطور أو الخمور)، ويزين القطعة المذكورة نقوش هيروغليفية باسم ولقب الملك ببيي الأول، وهو اسم ثالث ملوك الأسرة السادسة "حبيب الأرضين- ملك صر العليا والسفلى- ابن حتحور- سيدة دندرة ببيي".

نلاحظ أن نقش منطقة إبلا كان يجمع كافة ألقاب الملك ببيي الأول مرة واحدة، فالقسم الأول من اللقب (حبيب الأرضين)، كان يستعمله الملك نفسه طيلة مدة حكمه. بينما خص اللقب الثاني (ابن حتحور- سيدة دندرة) بالقطعة الفنية المراد

إرسالها، أو إهداؤها للخارج، لأن هذا اللقب يشير إلى أن حتحور سيدة دندرة هي ربة البلدان النائية وبالذات جبيل، أما اللقب الثالث (ملك مصر العليا والسفلى) فإنه يدل على أن عملية النقش قد تمت أثناء المرحلة الأولى من حكم هذا الملك. وهنا لابد من ذكر أن هذه القطع ربما تكون قد وصلت إلى إبلا عن طريق ميناء جبيل، لأن إبلا في تلك الفترة لم تكن قد أصبحت مركزاً هاماً قادراً على إقامة علاقات واسعة بهذا الشكل، مثلما حصل مع جبيل.(٣٧)

يضاف إلى ذلك استمرار الرحلات البحرية إلى هذا الميناء في هذه الفترة، ويؤكد ذلك ما ذكره خنومحتب على جدران مقبرة سيده "خوي" في قبة الهواء بأسوان، حيث ذكر أنه ذهب معه إلى بلاد بونت وجبيل أحد عشر مرة.(٣٨) *

لابد من القول أن العلاقات مابين مصر وسورية القديمة في تلك الفترة كانت سليمة إلى درجة كبيرة. حيث تجلى ذلك في النقوش التي تصور تبادل الهدايا، ووجود السوريين على السفن وهم في حالة من الابتهاج والفرح. ثم ما لبثت البلاد أن مرت بفترة من الضعف والانهيار وتفكك الحكم المركزي في أعقاب عصر الدولة القديمة، وعرفت هذه الفترة بمصطلح "عصر الاضطراب الأول" أو "عصر الانتقال الأول" وفيه شهدت البلاد مرحلة من الضعف والتوتر أدت إلى توقف علاقاتها مع جيرانها من بلدان الشرق الأدنى. كما عبر عن ذلك بصراحة الحكيم"ايبور"**، كذلك تسرّبَ الآسيويون إلى الدلتا، وظهرت بعض أسمائهم ضمن أسماء ملوك هذه الفترة مثل الملك "تللو-أوترور" والملك "خندو"، وهي أسماء كما تبدو سامية الأصل، ومن ثم ظهور أختام في البلاد آنذاك ذات طابع غريب في الفن المصري.(٣٩)

لكن بالرغم مما ذكرناه عن توقف التجارة بين مصر وسورية القديمة لم تخل المنطقة من تأثيرات مصرية في تلك الفترة، وبخاصة في عصر الأسرتين التاسعة والعاشرة. حيث عثر على مسلة هناك، نقش عليها اسم لأمير محلي، واسم رجل آخر

من الأناضول، بالكتابة الهيروغليفية، ويؤرخ هذا النقش حوالي القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد. يدل هذا على أن التبادل التجاري بين مصر وميناء جبيل في تلك الفترة، كان مستمراً لكن قليلاً إذا ما قورن بالدولة القديمة.[٤٠] ويؤكد هذا ما ذكره "عنخ تيفي" على جدران مقبرته في المعلا، من صنعه لباب من خشب [٤١]وقد كتب النص بهذا الشكل: prwnwcŠ. وفي هذا إشارة إلى استخدام المصريين لخشب الأرز والصنوبر القادم من جبيل.

بناءً على ذلك يؤكد عبد الحميد زايد، أن التجارة فيما بين عصري الدولة القديمة والوسطى لم تتوقف تماماً، على الرغم من عدم وجود أشياء تحمل أسماء ملكية صريحة وواضحة.[٤٢]

وهنا لا بد من القول أن ميناء جبيل من أهم الموانئ التي كان يتم من خلالها التلاقي بين حضارات العالم القديم، وبخاصة مصر وبلدان الشرق الأدنى القديم فمن هذا الميناء كانت مصر تستورد كل ما تحتاجه. في المقابل كانت جبيل تستورد من مصر الذهب والمصنوعات المعدنية وورق البردي ، التي اشتهرت بتوزيعه بعد استيراده من مصر لمناطق عديدة في البحر المتوسط.[٤٣]

-العلاقات التجارية المصرية – السورية خلال الدولة المصرية الوسطى:

لم يقتصر النشاط التجاري بين مصر وسوريا القديمة على عصر الدولة القديمة وعصر الانتقال الأول. بل استمرت العلاقات المصرية السورية خلال عصر الدولة الوسطى، حيث توالت الاكتشافات لتشمل شواهد أثرية وكتابية، ولتبرهن أن جبيل مَثَّلَ الميناء البحري الهام الذي يعتبر حلقة الاتصال بين مصر وهذه البلاد[٤٤]. يذكر نقش جنائزي للقائد "حننو" من عهد الملك منتوحتب الثاني من الأسرة الحادية عشرة أنه قد قام ببعثة لجلب أخشاب الأرز من لبنان ليؤكد مدى أهمية خشب الأرز ومدى مديح الشخص باحتوائه على هذه القطعة الثمينة. كذلك نقش "خنومحتب" من عهد

الملك أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة وهو حاكم إقليم بني حسن. حيث يذكر أنه قام بحملة بحرية قوامها عشرون سفينة من خشب الأرز مدعّماً بذلك عهد العلاقات التجارية بين مصر وجبيل في تلك الفترة المبكرة.

أيضاً لن نغفل قصة "سنوهي" وذكرها لمدينة جبيل وأنه لولا شهرتها والعلاقة الوطيدة التي تربط مصر بها لما فكر بالاحتماء بها وبسوريا القديمة آنذاك. ومن قصة "سنوحي" نستجلي حقيقة النشاط في العلاقات بين سوريا ومصر في عهد الملك سنوسرت الأول كذلك توضح لنا السياسة المصرية القائمة آنذاك العلاقات السلمية الودية بين فراعنة الدولة الوسطى وأمراء الساحل السوري.

يتضح من الدراسة السابقة تأثر العلاقات السورية المصرية القديمة ببعضها البعض في كافة المجالات".

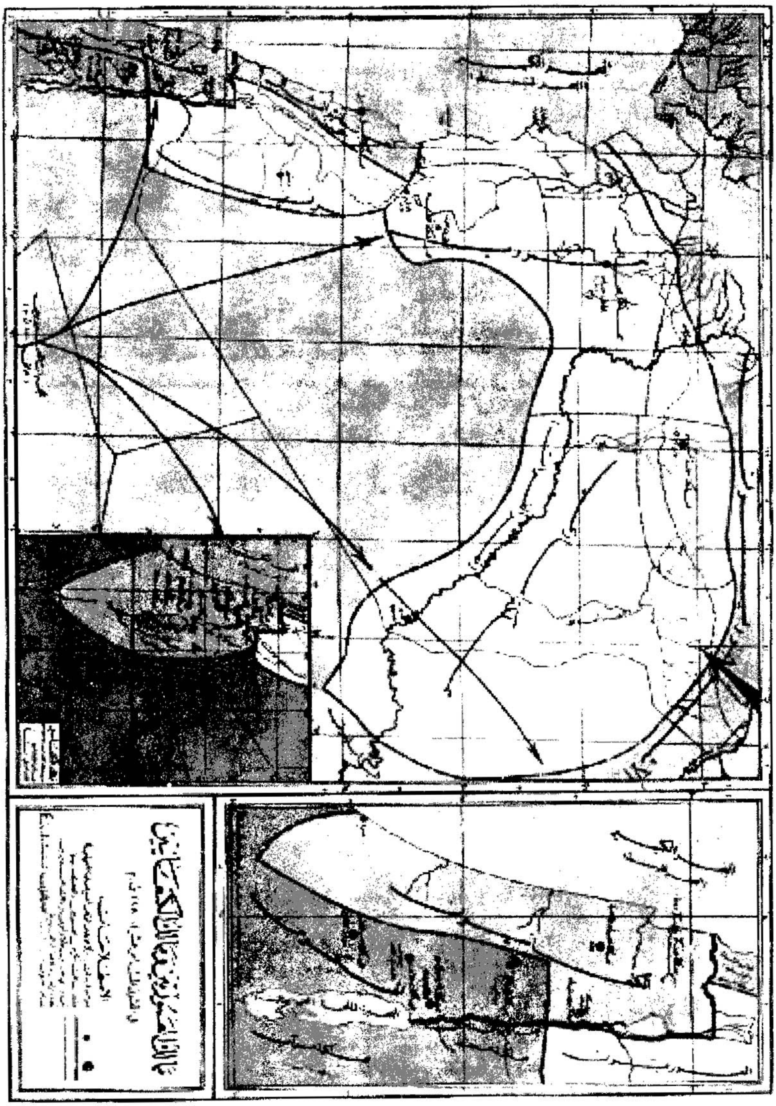
في مجال العلاقات المتبادلة بين البلدين نجد ما يلي:

- الصلات الحضارية - الاقتصادية المتبادلة بين البلدين كانت قائمة منذ عصور ما قبل التاريخ، واستمرت في كافة الفترات التاريخية.
- عُثر على العديد من القطع الأثرية المصرية، في الكثير من مناطق الساحل السوري، وبخاصة "أوغاريت - جبيل - صور" ، التي تجسد كافة الفترات التاريخية وكافة المجالات أيضاً " نحت - نقش- فنون صغرى".
- لا شك أن تلك الصلات الحضارية - التجارية قد حملت في طياتها بداية العلاقات السلمية - الودية بين البلدين في أغلب الأحيان، بعد اطلاع تلك المجتمعات على النماذج الحضارية المادية - الفكرية الوافدة لكلا البلدين.
- إن الصلات التجارية الخارجية بدأت بالاتساع مع بداية العصور التاريخية في الساحل الفينيقي، والتي تجسد فترة الدولة القديمة في مصر، وبخاصة في

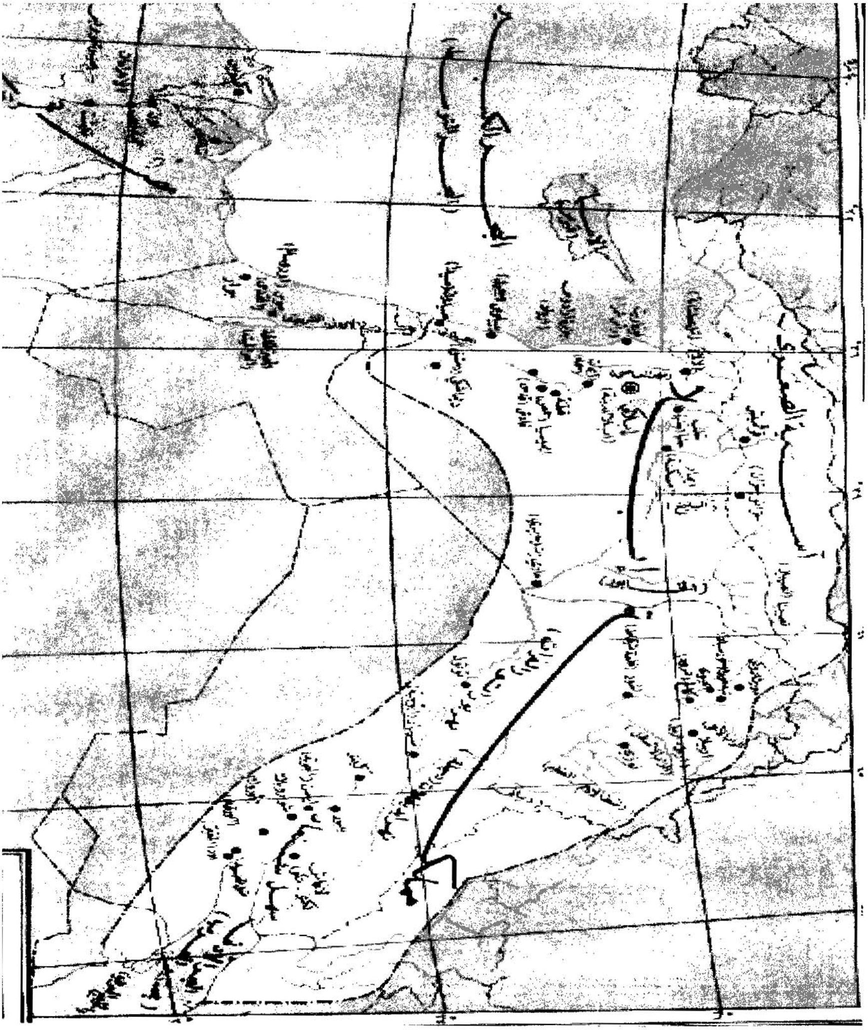
المجال المعماري من ميناء جبيل بالتحديد والتي كانت تزود الحضارة المصرية بالأخشاب اللازمة لبناء الأثاث الجنائزي والمعابد.

- عثر في ميناء جبيل وأوغاريت ومدينة إيلا وغيرها من المدن، على العديد من الهدايا التي تحمل أسماء الملوك الفراعنة وخصوصاً الملوك "خوفو وخفرع و بيبي الأول والثاني....."

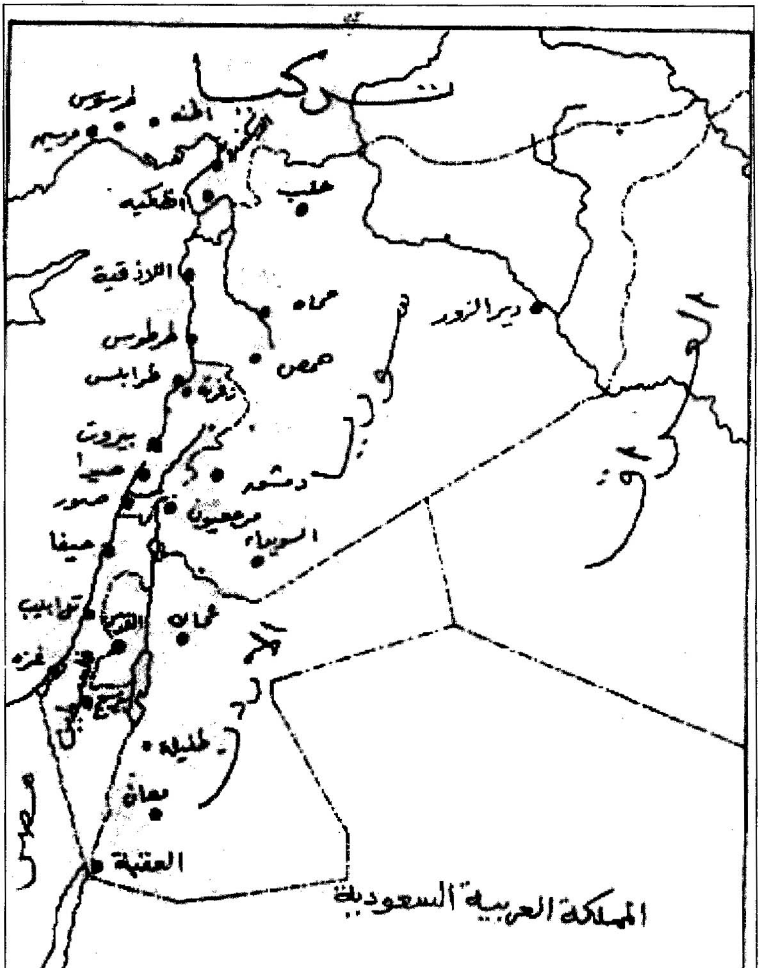
- استمرت تلك الصلات الحضارية – التجارية بين البلدين في العصور الوسطى وبلغت أوج ازدهارها في تلك الفترة. فكان الملوك المصريون يرسلون الهدايا إلى الأمراء السوريين وأسرهم، وبالتالي توطدت العلاقات الودية بين البلدين، وقامت على أساس سلمي متين كان كافياً لكسب صداقة استمرت في العصور اللاحقة.



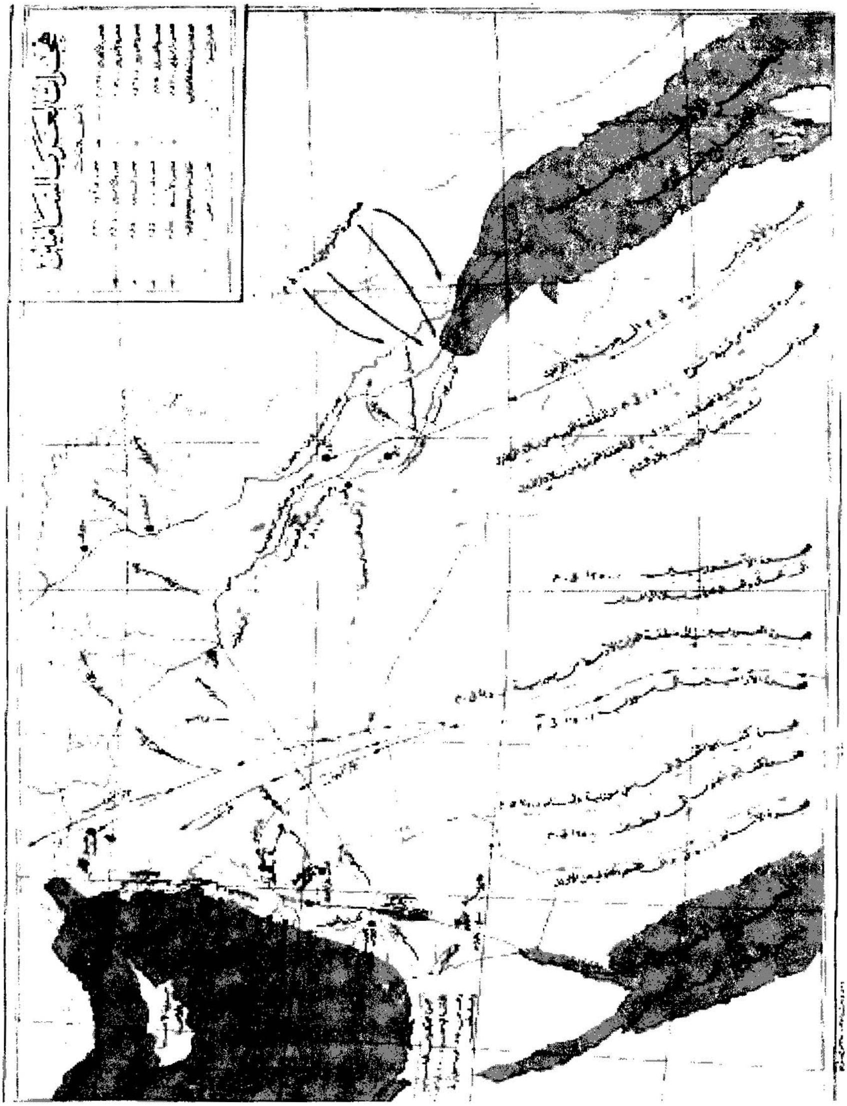
خريطة رقم (١–أ) تبين أماكن توزيع الممالك السورية الكنعانية



خريطة رقم (١-ب) تبين أهم المدن الفينيقية



خريطة رقم (٢) تبين الحدود الحالية لسورية ولبنان وفلسطين



خريطة رقم (٣) توضح هجرات العرب الساميين

المراجع المعتمدة في البحث

(١)-أحمد أمين سليم، **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، مصر - سورية القديمة، الإسكندرية،١٩٩٣،ص٢٤٤- ٢٤٥ .

محمد بيومي مهران، **تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم**، القاهرة،١٩٨٥ ، ص١٨٣.

*- لابد من الذكر بأن التحديد المكاني للساحل السوري كان يطلق اسم كنعان بشكل مطلق على الساحل السوري خلال الألف الثاني قبل الميلاد، والذي يمتد من طوروس وخليج اسكندرونة شمالا حتى منطقة الكرمل في الجنوب.

أما حدود الساحل الفينيقي فإنها تمتد جغرافيا على شريط ساحلي ضيق يبدأ من أرواد(طرطوس حاليا) في الشمال إلى منطقة عكا أو ميناء الدر جنوبا في فلسطين، ومن الغرب الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ومن الشرق سلاسل جبال لبنان الغربية (وتشمل حاليا منطقة لبنان الحديثة) بمحاذاة أجزاء من سورية وفلسطين.

Gray,j.,theCanannites, London,1994.,p.15

Givean, R.",theCanannites", LÄ,V,,S. 1039; Lipinski, E.,Rolling, W., phenicidaus Dictionnaire de la Civlisationphenice et punigue., Brepoleg, 1992., p.350 .

محمد بيومي مهران، **المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم**،ج٢، دار المعرفة الجامعية،١٩٩٩،ص٢٦٩

(٢)- أحمد ابراهيم هبو، **تاريخ الشرق القديم، سورية**، ج١،صنعاء،١٩٩٣،ص٩

*- اسم سورية قيل إنه يوناني الأصل على زعم هيرودوت وورد في النصوص العراقية تسمية سورية باسم (آمورو) إشارة إلى الغرب، وهي تقابل (مارتو)

السومرية، كما وردت في حوليات تحتمس الثالث باسم (خارو) كإسم عام لسورية وفلسطين، وفي أوائل القرن الرابع عشر ق. م، ظهر في آداب أوغاريت بشكل شرين Shryn وفي العبرية أطلق على لبنان الشرقي اسم سيريوس (Syrus) وعرفت إحدى المناطق الواقعة في شمال الفرات باسم(Suri) واسم سيروس (Syrus) سوري هو اسم روماني ومعناه الشخص الذي يتكلم السريانية الآرامية، وكانت قديما تشمل المنطقة الواقعة بين جبال طوروس وشبه جزيرة سيناء، وبين البحر المتوسط وبادية الشام، وقد أطلق العرب عليها اسم الشام أو المنطقة الواقعة على اليسار .

- محمد علي سعد الله، **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**(٥) العراق- سورية- آسيا الصغرى، دراسات تاريخية وحضارية، دار المعرفة الجامعية،٢٠٠٤،ص٢٠٣ .

(٣)- محمود طه أبو العلا، **جغرافية العالم العربي**، دراسة عامة وإقليمية، القاهرة،١٩٧٣،ص١٧٤،١٧٣.، عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، **مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى منذ أقدم العصور وحتى عام ٣٢٣ق.م**، دار النهضة العربية، القاهرة،١٩٦١،ص٢٢٦.

(٤)- فيليب حتي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**،ج١،ترجمة جورج حداد وعبد المنعم رافق، راجعه جبرائيل جبور، بيروت،١٩٥٨،ص٢٢٨.

(٥)- المرجع السابق، ص٥؛ عبد العزيز صالح، **الشرق الأدنى القديم**، مصر والعراق، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٧، ص١٢.

(٦) - أحمد ابراهيم هبو، المرجع السابق، ص١٦-١٩.، فيليب حتي، المرجع السابق، ص٦٤

(٧) - مقال عن النت .http;//www.com destinetion Lebanon Byblos, pp.1-4

(٨) - حسام حسن محمد توفيق رجائي، **تجارة مصر الخارجية منذ أقدم العصور حتى نهاية الأسرة الثانية عشرة**، ماجستير، إشراف عبد الحليم نور الدين، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٩٧، ص٥١.

فيليب حتي، المرجع السابق، ص٤٠.

Astour . G.M., "Over Land Trad Routes in Ancient Asia Civilization of the Ancient near East", USA 11,(1995), pp.1406- 1420 .

(٩) – Lapp, P.,W., Palastine in the Early Bronze Age in near Eastren Archaeology in twentienth Century, ed. Sanders,J.A., Newyork, 1970, p.106 . the

(١٠)- حول هذه التقسيمات انظر:

de Vaux , P., Palastine in the Early Bronze Age in CÄH., (1971), p. 215 .

Prog . V., the Inermediate Early Bronze, Middle Bronze Age an Interprction of the Evidence fram trans Jordan, Syria, and Lebanon in Levant, Vol 6., (1974). P. 81- 90; Negar .A., Archaeological Encyclopedia of the Holly Land , Jerusalem, 1974., P. 352 .

نيقولا جريمال، **تاريخ مصر القديمة**، ترجمة ماهر جويجاتي، مراجعة ذكية طبوزادة، دار الفكرللدراساتوالنشر والتوزيع،١٩٨٨،ص ٦٢-١١٠- ١٦٨- ٢٣٨ .

(١١) Roaf,M., Gultural Atlas of Mesopotania,London, 1990, pp.8-9; Markoe,G.,phoenicians, London, 2000, p.207.

(١٢)- Lipinski,E., Op.cit. P . 577 .NV. 3

(١٣)- سليمان حامد سليمان الحويلي، **مصر وبلاد الساحل الفينيقي خلال عصر الدولة الحديثة**، دراسة أثرية حضارية، ماجستير، علي رضوان، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٥١ .

(١٤)- Helck, H ., Die BezichunyAgyptensZurVerderaisen in 2 and 3Wiespaden , 1971., p.22 .

(١٥) سليمان حامد سليمان الحويلي، المرجع السابق، ص٥١

(١٦)- Gardener,A, Ancient EygptainAnomastica,vol, 1 ,London,1947,p. 14

(١٧)- رضا محمد سعيد أحمد، **علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم في عصر الدولة الوسطى**، رسالة دكتوراه،القاهرة، كلية الآثار، ١٩٩٣،ص٨.

H .Junker,Merimde-Beni Salama,1,Vienne,1929,S.197.taf. IX .

A .Scharff., Die Alter Tuner der Von-und FruhZeit Ayyptens.1, Berlin, 1928, S. 152-178.LÄ ,IV,1982., p.94 .

(١٨) Brunton ,G.,andThompson,G.," the BadarianCivilizotion and Predynastic Remains neerBadariein" ,BSAE.(46),London,1928,p.40-41; Wainwright, G,H., "theOccurrence of Tin and Copper neer Byblos"., MJEA (xx), 1939, p.3.

(١٩)- Beunton , G.,Op.cit,p.40-41 . عبد العزيز صالح، **حضارة مصر القديمة وآثارها** ،ج١ القاهرة،١٩٩٢، ص١٤٤ .

(٢٠)- عبد العزيز صالح ، مرجع سابق، ص١٤٤، ١٥٦.

Parg, K., Byblos and Eygpt in the fourth Millennium B.C. in Levant, Vol,XVIII.,(1986) ,p.59; Hansen,D.P., "some Remarks on the Chronology and Style ofOpjectsfram Byblos", AJA, vol73 , (1969), pp.281-285.

(٢١)- مصطفى عامر، **بعض نتائج الحفر في المواسم الخمسة الأولى بالمعادي**، القاهرة، ١٩٣٦،ص٢٢. LÄ,III ,1980.s.1110 .

*- يرى بعض العلماء أمثال هورننغ أن هذه الأدوات أتت إلى مصر بمثابة جزية وردت إليها من المناطق الخاضعة لها في فلسطين وسورية، وذلك على نحو مشابه لها ما حدث إبان عهد الملك ساحورع من الأسرة الخامسة.

Kanter,H.," the Early Rrelations of Eygpt with Asia", JNES,1, 1942,p.174 .

(٢٢) - ماريانا إيانونكراوس، **سورية ومصر**، ترجمة نايف بللوز، مجلة الآثار السورية ، مجموعة أبحاث أثرية وتاريخية ، دار نور منيرتس للطباعة والنشر، ١٩٨٦، ص٣١٦-٣٢٠.

(٢٣) - سليمان حامد سليمان الحويلي، مرجع سابق،ص٧-٨. ، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص٢٩٢.

Redford, D.B., Eygpt, Canaan and Israel ,in Ancient Times, New jersey,1993, p..38.

(٢٤) - Montet, P., Byblos, et L Eygpte I., Paris,1928,p.271، عبد العزيزصالح، مرجع سابق، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢٥) - إمري، **مصر في العصر العتيق**، ترجمة راشد نوير ومحمد علي، مراجعة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، ١٩٦٧، ص١٩٢.

*- يرى عبد الحليم نور الدين أن خع سخم وي، والذي يعني إشراق القوتين،فلتشرق القوتان، وأن وجود الإلهين حورس وست فوق السرخ يعني أن هذا الملك قد نجح في تحقيق التوازن بين الإلهين وبالتالي بين الإقليمين، عبد الحليم نور الدين، **اللغة المصرية القديمة**، القاهرة ، ط٢، ١٩٩٨، ص١٩٢-١٩٣. بينما يرى البعض أن وضع الملك خعسخموي يمثل صورة حورس، فوق السرخ الخاص به هو لإرضاء الربين أو لإرضاء أتباعهما، Velde,H., Seth., God of Confusion,Leiden, 1967., p.72 سليمان حامد سليمان الحويلي، مرجع سابق ، ص٨.

(٢٦) - Montet.P., Notes et Decuments Pour ServiraĹ Histoire de Relations Enter Ĺ AncinenneEygpt et Syrie in kémi, 1928, p. 84-fig I .; Kantor.H., the Chronology of Egypt and its Correletion with that of other parts of the Neer East in the period befor the Late Bronze Age in Chronoloyies in Old World Arhaeology, Chicago, 1965.,p 9 .

(٢٧) - Word. W.A.,"Egypt and the East Miditerraneas from predynastic times to the end of Old Kkingdom", JESHO, part 6,(1963)-

رشيد الناضوري، **أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان**، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٦٨،ص٦.، سليمان حامد سليمان الحويلي، مرجع سابق، ص٩.

(٢٩)- Word, W,A., Op.cit,p.1-57; Wilson.J.,"Brief Texts of the Old Kingdom", ANET.3, Newyork,1969,p.227.

سليمان حامد سليمان الحويلي، مرجع سابق،ص٩-١٠

(٣٠)- LÄ, V., 1984,S.992ff.,; Word,W.A.,Op.cit.,p.22;Ksntor,Op.cit.,p.10 .

(٣١) - أحمد فخري، **الأهرامات المصرية**، القاهرة، ١٩٦١، ص١١٠-١١٣.

*- يذكر عبد العزيز صالح أن هذا المعبد ليس هناك ما يدل على كيفية إنشائه ،فقد يكون معبداً أموري الأصل أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه فأهدوهم هدايا ثمينة تحمل أسماءهم ، وربما تسامحهم الديني وتمسكهم بمعبوداتهم وأربابهم جعلهم يتسامحون مع المعبودات الأخرى لجيرانهم وتقبلوها مع آلهتهم فعملوا على إثراء معابدها ، وربما يكون معبداً مصرياً في الأصل أقامته جالية مصرية تجارية أقامت في جبيل وعكفت على عبادة آلهتها إلى الآلهة المحلية، وسجلت أسماء ملوكها، أو ربما أنشأه بعض أمراء جبيل مجاملة للمصريين المقيمين في مدينتهم، وتقبلوا الهدايا الفرعونية معبرين بذلك عن علاقات الود والاحترام المتبادل بين الطرفين، وأيضاً العثور على معبد للإلهة المصرية حتحور بجانب معبد الإله بعل(بعل جبيل) وأن الإلهين أصبحا بمرور الزمن(آلهة واحدة)، ونلاحظ استمرار هذا المعبد في عهد الدولة الحديثة وفي عهد الملك تحتمس الثالث.

عبد العزيز صالح ، **الشرق الأدنى القديم**، مصر، القاهرة، ١٩٩٠، ص١١٢.

Woolley,G,L.,"theEgyption Temple at Byblos",JEA,VII(1921),p.200f.

(٣٢) - Redford,D.B.,Op.cit,p.42.; Montet,P,Op.cit,p.29.

(٣٣) -غابرييلا ماتييه، **"أضواء على العلاقات المصرية السورية القديمة"**، تعريب قاسم طوير، الحوليات الأثرية السورية، الندوة العالمية للدراسات الأوغاريتية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٧٩، ص٨٣-٨٤.

* يرى البعض أن هذه البعثة ربما كانت مخصصة لجلب أميرة سورية لتكون زوجة له، وملكة لمصر وليس كما يظن البعض أنها كانت سفن بحرية، والدليل أن محتوياتها من الأشخاص كانوا غير مقيدين وبحرية تامة، لذلك يرى عبد العزيز صالح إذا صحَ ذلك الأمر فإن ذلك يعتبر أول مصاهرة كانت تتم لتدعيم العلاقات بين الدول المجاورة وحكامها. عبد العزيز صالح ، مرجع سابق،ص١٣٥.

(٣٤)- اريانة- اياتون- كراوس ، مرجع سابق، ص
Redford,D.B.,"Egypt and Western Asia in the Old King dom", JARCE(23),(1986),pp316

(٣٥) Kantor,H.,them, Chronology of Egypt, Op.cit,p.10.

(٣٦) Montet.,P., Byblos et … . Op.cit, p270

(٣٧) - غابرييلا ماتييه، مرجع سابق ، ص٨٤

(٣٨)- Montet.P., Op.cit,p.270

* لمزيد من التفاصيل عن الرحلة البحرية لخنومحتب انظر: سليمان حامد سليمان الحويلي، مرجع سابق،ص١٤-١٤-١٦.

** الحكيم إيبو-ور "Ipw-wr": وهو حكيم مصري عاش في أواخر عهد الملك بيبي الثاني أو في عهد خلفائه الضعاف، ويبدو أنه كان على صلة بأهل البلاط استطاع أن يبلغ الفرعون بما تعانيه البلاد، وحاول أن يحمله هو وحكومته ما وصلت إليه البلاد

من تدهور وضعف ودمار، وقد سجلت قصته على ورق البردي ووصلت منها إلينا بردية من عصر الدولة الحديثة عرفت اصطلاحاً ببردية ليدن نسبة إلى متحف ليدن عام ١٨٢٨م.

وفيها يصف الحالة التي وصلت إليها البلاد ويحذر فيها من أن العلاقات التجارية بين مصر والساحل الفينيقي قد تدهورت قائلاً " غدا الأجانب منتشرين في كل مكان.... دخل البرابرة مصر من الخارج... ثم عبارة في غاية الأهمية لم يعد اليوم أحد يبحر شمالاً إلى جبيل ما الذي سوف نفعله لإحضار خشب الأرز لمومياتنا".-

نلاحظ هنا مدى خطورة الوقف ومدى المعاناة من قطع الصلات التجارية بين المنطقتين ومدى الأهمية المعلقة على ميناء جبيل وعلى خشب الأرز في تلك الفترة القديمة، وعلى مدى الخوف من تدهور التجارة الخارجية مع جبيل.

عبد العزيز صالح ، **الشرق الأدنى القديم**، مرجع سابق، ص٣٩٣-٣٩٤.

LÄ.I,1975,p.65f .; Gardiner,A., the Admonitions of an Egyptian, Lipzig,1909 .

(٣٩)- رضا محمد سيد أحمد، مرجع سابق،ص٧.

Frankfort,H., "Egypt and Syria in the first Intermediat Period",JEA,VOlXII. London,1928, p.88 .

(٤٠)- 92Frankfort.H., Op.cit,p.82-Word,W.,A., Op.cit,pp25-26 .

(٤١)- Spansel,D.,"the Date of Ankhtife of Mocalla ", GM.78., 1984,p.87-90.

(٤٢)- عبد الحميد زايد ، **"العلاقات بين مصر وبيبلوس من خلال الآثار الفرعونية"**، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد السادس،١٩٧٤، ص١٢٥.

(٤٣)- Michael Grant., "the AnceintMediterraneen Publications, printing", USA, yuork,1988,pp.60-61.

(٤٤)- Bullock,R., the Story of Sinuhe, London,1978,pp.222-236.
Blumenthat,E., AltoyyptischReiseer Zahlungen,1982,pp.5-26,41-46.,53-
Ben-tor,A., "the Trad Relations of Palastine in the Early Bronze Age",JESHO, vol.29,(1986),p.15-17 .

رضا سيد أحمد، مرجع سابق، ص٢٥، سليمان حامد سليمان الحويلي ، مرجع سابق، ص١٩ وما بعدها.

الرسوم الإنسانية والحيوانية على الأواني الفخارية في سورية خلال عصريّ النيوليت والكالكوليت

الدكتورة مي الحايك
قسم الآثار
جامعة دمشق

حاول الإنسان منذ العصر الحجري القديم الأعلى رسم الكائنات الحية التي عاصرها وعرفها، مستغلاً ما توفر بين يديه من الموارد الطبيعة للرسم. فبداية جاءت رسوماته مسجلة على جدران الكهوف كما في كهفي لاسكو وألتميرا. ثم تطورت قدرته ومهارته اليدوية، فجسد المحيط الحيواني الذي يعيش من حوله بالنحت على العظم وعلى القطع الحجرية. ومع تطور مهاراته الفكرية ومع الاستقرار الذي جاء مع الثورة الزراعية حاول استخدام مواد جديدة متوفرة بين يديه، ألا وهي مادة الفخار التي ساعدته ليس فقط على حفظ المواد والغذاء بل على تدوين أفكاره برسم رموزه المقدسة. وهذا ما سنحاول استعراضه في هذا البحث الذي كيف استغل الإنسان مادة الفخار في عصري النيولت والكالكوليت لتدوين أفكاره ومعتقداته.

أولاً: الرسوم الإنسانية والحيوانية خلال عصر النيوليت الفخاري:

إن مصطلح النيوليت (Neolithic) يعني العصر الحجري الحديث، وقد استخدم لأول مرة في منطقة البحر الأبيض المتوسط في القرن العشرين. وكانت أريحا(١)هي الموقع الذي جاءت منه التسمية، ففيها كشفت حفريات (ك. كينون "Kenyon") عن وجود حلقة من حلقات عصر النيوليت بدون فخار، فاقتُرِحت تسمية عصر النيوليت ما

قبل الفخار، وتم تقسيمه إلى فرعين هما ما قبل الفخار(أ،ب) وفي نفس الوقت اقترح (ر. بريدوود"Braidwood") مصطلحاً نابعاً من علم الأنثروبولوجيا. هذا المصطلح يدمج التجمعات في تفسير اجتماعي-اقتصادي (المقصود بذلك المقومات اللازمة لحياة مستقرة كالمياه والصيد الوفير)، وهو مستوى التدجين الأول ومستوى التجمعات الزراعية الأولى داخل القرى.

إلا إن العلماء أخذوا بتقسيمات (كينون)، فجاءت تقسيمات العصر اعتماداً على التطورات الاقتصادية، وخاصة صناعة الفخار، وهذه المراحل هي:

أولاً: فترة ما قبل الفخار "أ"، ويرمز لها اختصاراً (PPNA) وتمتد بين حوالي ٩٥٠٠- ٨٧٠٠ قبل الميلاد(٢).

ثانياً: فترة ما قبل الفخار "ب"، ويرمز لها اختصاراً (PPNB) وتمتد بين ٨٠٠٠-٧٠٠٠ قبل الميلاد.

ثالثاً: فترة النيوليت الفخاري بين ٧٠٠٠-٦٥٠٠ قبل الميلاد(٣).

اهتم الإنسان خلال فترة ما قبل الفخار " أ-ب" في سورية بتجسيد الحيوانات على شكل دمى وتماثيل مصنعة من الحجارة كما في موقع جرف الأحمر(٤) وجعدة المغارة(٥). كذلك مثل الإنسان في هذه الفترة على شكل دمى وتماثيل حجرية منحوتة كما في موقع جرف الأحمر. فقد عُثر في هذا الموقع على منحوتتين تمثلان رؤوساً بشرية نحتت بشكل مُعبّرٍ وجميل(٦). ولم تقتصر الأعمال الفنية في هذا العصر على التشكيلات، بل قام الإنسان في هذا العصر بنقش ورسم أشكال إنسانية وحيوانية على جدران المنازل كما في تل العبر(٧) فقد عُثر في البيت المسمى (بيت الموزاييك) على بلاطة حجرية نُقشت عليها وبشكل غائرٍ رجلٌ عارٍ يرفع بكلتا يديه قوساً مصوباً باتجاه ثور ضخم(٨)، وعلى جانبه الأيمن شكل الطائر. وفي أساس أحد أعمدة البيت M2 وُجِدت بلاطة أخرى، نقش عليها قرص الشمس، وأشعتها على شكل أرجل الفهد(٩).

وظهرت في موقع جرف الأحمر العديد من الألواح الصغيرة، نقش عليها أشكال هندسية، وحيوانية، وحيوانات من رباعيات الأرجل. من هذه النقوش رسم لطائر البوم يمسك بأرجله حشرة. وتوجد على الوجه الخلفي للوحة رؤوس ثيران، فُسِّرت على أنها قد تكون تدويناً لعدد الثيران(١٠). كما عُثر في تل حالولة(١١)على تمثيلات بشرية ملونة على أرضية أحد المباني، وقد أُنجزت الرسوم باللون الأحمر الداكن من مادة تحتوي على معدن الحديد ويتألف التشكيل من ٢٢ شكلاً بشرياً تخطيطياً وزِّعت حول مربع ذي تخطيطات داخلية(١٢). وقدَّم موقع القرامل نقوشاً على قطعة حجرية، تُظهر شكل غزال، ونهايات سهام بخطوط متعرجة(١٣).

ومن المواد التي استعملت بكثرة في بلاد الشام بشكل عام وسورية بشكل خاص كانت مادة الطين التي استخدمت لتصنيع مواد مختلفة. فقد بنيت المنازل من الطين كما في مواقع أبو هريرة، وتل أسود، والبسطة وعين غزال(١٤). بالإضافة للبناء الخارجي فقد استخدم سكان العصر الحجري الحديث مادة الطين لتشييد المواقد التي كانت تتألف من حفرة غائرة في الأرض مبطنة بإكساء طيني. بالإضافة للبناء فقد استخدم الطين كمادة لتصنيع دمى الآلهة الأم التي وجدت في أغلب المواقع السورية، كما في جعدة المغارة، وتل أسود. هذا ومع نهاية الألف السابع وبداية الألف السادس قبل الميلاد استطاع إنسان العصر الحجري الحديث في سورية التعامل مع مادة الصلصال فقد كانت المجتمعات الزراعية النيوليتية في سورية السباقة في اختراع الأواني الفخارية التي أنتجتها بشكل منظم ودقيق وعلى نطاق واسع، وقد جاءت أقدم الأدلة من موقع تل أسود. حيث وجدت في الطبقات الدنيا (٧-٨) الأواني الفخارية المصقولة ذات اللون الغامق الأسود أو الأحمر البني. من هذه المنطقة انتقلت تلك الصناعة شرقاً إلى الرافدين وغرباً إلى الأناضول وسواحل المتوسط ثم فيما بعد إلى فلسطين(١٥). وقد أعطت منطقة العمق في شمال سورية معلومات متكاملة حول التطور الحضاري لهذه المنطقة تستند إلى تتبع تصنيع الفخار على مدى عدة مراحل، وثبت أن بلاد الشام كلها

قد مرت بها، بحيث أصبح الفخار المادة الأساسية لهذا العصر. تأتي أهمية الفخار ليس فقط من صناعة أدوات التخزين بل أيضاً باعتبارها كأول لوح كتابي. فقد بدأ الإنسان بتنعيم سطوح الأواني الفخارية لإزالة آثار التصنيع، وبعدها تتم تغطيته بطلاء رقيق جداً لإعطائه الشكل المتجانس، بشكل يُمكِّن فيما بعد من إضفاء لون آخر غير لون العجينة الأساسي باستخدام فرشاة لتزيين الأواني. وبرسم أشكال مختلفة متنوعة تراوحت ما بين الأشكال الهندسية والأشكال النباتية. ومن أهم الأشكال الحيوانية التي رُسِمَت على الأواني الفخارية في هذه الفترة ما يلي:

الرسوم الحيوانية:

الثور:

- عُثر في تل صبي أبيض[١٦] على كسرة من الفخار تعود لفترة النيوليت المتأخرة (ما قبل حلف) رُسِم عليها ما يشبه القاعدة وفي أعلاها رسم لرأس ثور بقرون كبيرة متدلية للأسفل، ورَسَم الفنان حولها مجموعة من النقاط (شكل رقم ١).

- هناك كسرة أخرى من تل الصبي أبيض رسم في الجزء العلوي منها مشهد يظهر فيه ثلاثة حيوانات من ذوات القوائم الأربع تقف وراء بعضها البعض وكأنها جزء من قطيع. رسم خط الظهر بشكل مستقيم، والبطن ضامر للداخل، بينما الذيل مرفوع للأعلى دلالة على الحركة. لم يهتم الفنان بتشكيل ملامح الوجه، وعمل على رسم الأذنين والقرون بشكل متعرج. كما ركز الفنان على إظهار عضو الذكورة لدى هذا الحيوانات، ربما مَثَّلت هذه الحيوانات نوعاً من الثيران[١٧] (شكل رقم ٢).

- الغزال:

- اكتشفت في تل الصبي أبيض كسرة من الفخار رُسمَتْ عليها مجموعة من الغزلان تقف في وضعية ثابتة والرقبة طويلة والقرون كبيرة ومقوسة بشكل واضح تدل على أن هذه الغزلان كبيرة في العمر[١٨](شكل رقم ٣).

مجموعة من الحيوانات:

- عثر على كسرة من تل صبي أبيض تعود لفترة ما قبل حلف تمثل مشهداً لمجموعة من الحيوانات والطيور البرية. رسمت على أرضية الكسرة مجموعة من الخطوط العريضة سوداء اللون، ربما تمثل الأرض يقف عليها من اليسار غزال رسم بشكل جانبي. ولم يهتم الفنان بالتفاصيل، فقد رسم خطوطاً مجردة بدون إظهار تفاصيل الوجه. قد رسم البطن والظهر مشدودين وهذا يدل على أن الغزال في حالة عدم حركة والرقبة طويلة، بينما رسم القرن بشكل طويل ومتعرج مما يدل على عمر الغزال الكبير. يقف أمام الغزال نوع من الثدييات الكبيرة لا يظهر منه إلا تفاصيل قليلة فقط: الجزء العلوي من الظهر، والرقبة الطويلة جداً (تشبه رقبة الزرافة)، ولايمكن معرفة تفاصيل الرأس والوجه لأنها في الجزء المفقود من الآنية. تظهر أمام الحيوان الثديي مجموعة من الخطوط السوداء المتعرجة التي توحي بأنها أغصان شجرة. يستمر المشهد برسم طائر فوق ظهر الحيوان الثديي إذ يظهر خط أسود مستقيم ربما يشكل أرجل الطائر الذي رسم بشكل تجريدي دون الاهتمام بالتفاصيل. يقف أمام الطائر حيوان آخر رسم بشكل تجريدي أيضاً والرقبة طويلة وقد ملئ الفراغ بين الطائر والحيوان الثدي بدوائر سوداء مختلفة الأحجام (شكل رقم ٤).

الرسوم الإنسانية:

الرسومات الإنسانية قليلة جداً في هذا العصر. فقد عُثر في تل الصبي أبيض في سوية ما قبل حلف على كسرة من الفخار[١٩]، رسم عليها مشهد فريد، فقد رُسمت مجموعة من الرجال في وضعية توحي بقيامهم بما يشبه الرقصة أو الطقس الديني. فقد اصطفوا وراء بعضهم البعض بحركة متماثلة، فاليد اليمنى مرفوعة إلى الأعلى واليد اليسرى منخفضة قليلاً بحيوية تدل على القيام بحركات باليد. بينما رسمت الرقاب بشكل رفيع ولم يهتم الفنان بتفاصيل الوجه. فقط رسم الأنف بشكل واضح. كما لبس هؤلاء الأشخاص ما يشبه القبعة تتدلى منها خمسة خطوط طويلة تدل على الريش أو القش[٢٠](شكل رقم ٥).

ثانياً: الرسوم الإنسانية والحيوانية في العصر الحجري النحاسي:

مع بداية الألف الخامس قبل الميلاد ظهرت مرحلة جديدة من مراحل عصور ما قبل التاريخ، وهي مرحلة العصر الحجري النحاسي. حيث تدل التسمية على استعمال عنصر جديد "النحاس" لصناعة بعض الأدوات مثل السكاكين، والفؤوس، مع استمرار سكان منطقة شرق البحر المتوسط باستخدام الأدوات الحجرية ممثلة بأدوات الزراعة كالمناجل، وأدوات طحن الحبوب مثل الرحى والهاون. خلال هذه المرحلة تزايد عدد السكان فتنوعت أشكال البيوت، وتقدمت الفنون فاستمروا في تشكيل تماثيل الآلهة الأم، والتماثيل الحيوانية بالإضافة لصنع التمائم، والأختام التي كانت تستخدم في التجارة.

حضارة حلف:

تطورت صناعة الفخار في هذا العصر. ففي القسم الأول من العصر الحجري النحاسي، حيث سكنت المجتمعات التي تنتمي إلى الحضارة الحلفية[٢١] (نسبة إلى

موقع تل حلف، قرب رأس العين في سورية) كان فخار هذه الحضارة مصنعاً باليد من طينة ممتازة، ومقاومة للنار. وكانت جدران الأواني مستديرة، ذات أعناق واسعة ومنفتحة إلى الخارج. فتنوعت صناعة الأشكال حيث استخدم بعضها للاستعمال اليومي كالكؤوس التي استخدمت للشراب، والصحون والجرار التي استخدمت لطهي الطعام. كما ظهرت المزهريات الفخارية المثقبة من الجوانب (المباخر). تميز هذا العصر بالفخار الملون المزين بأشكال هندسية كالخطوط العامودية المتوازية أو الخطوط المتموجة والدوائر، والأشكال النباتية والحيوانية بالإضافة لبعض الرسوم الإنسانية. ومن أهم الأشكال الحيوانية التي رسمت على الأواني الفخارية في هذه الفترة ما يلي:

الرسوم الحيوانية:

الثور:

- في موقع تل يونس[٢٢] عُثر على عدد من الأواني التي رسمت عليها جمجمة الثور بأشكال مختلفة، فعلى أحد الأواني رسم على الحواف رأس الثور بشكل متكرر يفصل فيما بينها مجموعة من الخطوط المتصلة (شكل رقم ٦).
- وعلى إناء آخر من نفس الموقع رسمت مجموعة من رؤوس الثيران. يلاحَظ عدم اهتمام الفنان بتفاصيل الوجه، بينما رسم الأذنين. ورسمت القرون على شكل خطوط مقوسة تشابكت مع بعضها البعض من الأعلى، وفصل فيما بينها بواسطة مجموعة من النقاط السوداء (شكل رقم ٧).
- يُظهر إناء آخر رسماً لجماجم الثيران على كامل محيط الإناء، ويلاحظ هنا أن القرون لم تتشابك مع بعضها البعض، بل فصل فيما بينها صفان من النقاط المرسومة بشكل مستقيم من الأعلى إلى الأسفل (شكل رقم ٨).

- على إناء آخر من تل يونس رسمت مجموعة من جماجم الثيران. حيث رسمت من الأسفل بخطوط مستقيمة وكأن هذه الرؤوس دمى تقف على قاعدة ثابتة. يلاحظ هنا أن القرون لم تتشابك مع بعضها البعض من الأعلى بل كانت متدلية إلى الأسفل، وفصلت ما بين الجماجم مجموعة كبيرة من النقاط السوداء (شكل رقم٩).
- كذلك عثر على إناء زُيِّن بجماجم لرؤوس الثيران فصل فيما بينها بزخارف تشبه النجوم[٢٣] (شكل رقم ١٠).
- عثر في موقع العمق الفترة (س) على بعض الأواني الفخارية التي رسم عليها رأس الثور المقدس.
- في موقع تل حالولة عثر على قطعة فخار أرضيتها صفراء اللون حددت من الأعلى والأسفل بخطوط باللون البرتقالي، رسمت عليها باللون البرتقالي زخرفة على شكل خط شبه مستقيم يتقاطع مع خط مستقيم آخر يمثل ما يشبه اليدين وقد لونت نهايته باللون الأسود. لم يوضح الرسام في حالولة شكل الوجه بل اكتفى بتشكيل القرون التي انتهت أيضاً باللون الأسود. يلاحظ أن الفنان رسم الشكل بتجرد كبير وبعيد عن الواقعية. يمثل هذا الرسم ما يعرف بفترة النيوليت (بجمجمة الثور)[٢٤] (شكل رقم ١١).
- كسرة فخار من مستوطنة الحلفية في أم قصير[٢٥] عليها شكل رمزي لرأس الثور، وهو عبارة عن خط شبه مستقيم يتقاطع مع خط مستقيم آخر يمثل مايشبه اليدين. لم يوضح الرسام شكل الوجه بل اكتفى بتشكيل القرون الكبيرة الحجم والتي ترمز إلى الثور[٢٦]، وهي مشابهة للرسم السابق الذي عثر عليه في تل حالولة.

الأسماك:

عثر في تل كشكشوك[٢٧] على كسرة فخارية بلون أصفر رسمت عليها بلون أسود سمكة وشكلت العين على شكل دائرة بداخلها نقطة سوداء تمثل عين الإنسان، ولوّن جسم السمكة باللون الأحمر[٢٨]، ويبدو من طريقة فتح الفم تمثيل السمكة بعد اصطيادها (شكل رقم ١٢).

الغزال:

-عثر في العمق (س) على كسرة فخار تعود لفترة حلف الوسيط، وقد لونت بالأحمر والأسود. في الجزء العلوي منها يظهر خط أسود تليه مجموعة من الخطوط المستقيمة باللون الأحمر، وفي نهاية المشهد رسم أيل صغير بوضعية الوقوف بشكل جانبي.

- من تل كشكشوك أيضا جاءت قطعة فخارية رسم عليها صف من الغزلان في وضعية الوقوف شاخصة إلى الأمام. فقد رسم الغزال الأول بشكل كامل تقريباً، الرأس ناظر إلى الأمام مع عدم الاهتمام بتفاصيل الوجه، والقرون طويلة ومتعرجة، والرقبة مستقيمة بشكل واضح، وخط الظهر مشدود لا يوجد فيه أي نوع من الحركة. كذلك بالنسبة للبطن فقد جاء الخط مستقيماً بشكل واضح. أما القوائم الأربعة فلا توجد فيها أي حركة تدل على أن هذا الغزال في وضعية حركة أو تأهب، ورسم الذيل منخفضاً للأسفل. يليه غزال آخر يظهر منه الرقبة والرأس والقرون الطويلة. أما الغزال الأخير فلم يظهر منه سوى القرون فقط[٢٩]. رسمت الخطوط الخارجية للغزلان باللون الأحمر بينما تم تلوين الرسم من الداخل باللون الأسود(شكل رقم ١٣).

الطيور:

ظهر الاهتمام برسم الطيور كما في:

- موقع تل بويضة، إذ عثر على إناء رسم عليه شكل طائر بذيل عريض والرقبة طويل[٣٠] .

- في تل براك عثر على كسرة لآنية فخارية تعود لفترة حلف وقد رسم عليها شكل لطائر، رسم الرأس بشكل دائري والرقبة طويلة، بينما تركت في الجسد فراغات لتظهر وكأنها ريش بني اللون[٣١] (شكل رقم ١٤).

الرسوم الإنسانية:

عثر على كسرة فخار في موقع تل الصبي أبيض من فترة حلف المبكرة، رسم عليها ثلاثة رجال[٣٢] ارتدوا ملابس تنكرية، وكأنهم يمارسون طقساً سحرياً، وقد اصطفوا خلف بعضهم البعض. أولهم من اليسار رُسمت قدماه متجهتين إلى الأمام والركبة منثنية قليلاً. أما الجذع فقد رسم بشكل تجريدي لا تظهر فيه أي تفاصيل سوى أنه ينتهي بما يشبه الذيل. يتدلى من خلف الظهر ما يشبه جناح الطائر المفرود، بينما اليدان مرفوعتان إلى الأعلى قليلاً تمسكان بأداة تشبه القوس، وتنتهيان من الأعلى بشكل يمثل رأس حيوان ذا قرون. أما الرجل الثاني فقد رسمت قدمه اليمنى متقدمة على اليسرى قليلاً والركبة منثنية. لم يهتم الرسام بتفاصيل الجذع الذي ينتهي بما يشبه الذيل أيضاً بينما يتدلى من خلف الظهر ما يشبه جناح الطائر. أما اليدان فتمسكان نفس الأداة التي بيد الرجل الأول. لكن الرسم مشوه هنا قليلاً. أما الرجل الثالث فلم تظهر منه سوى القدمان والتي تدل حركتهما على أنه يسير باتجاه معاكس (شكل رقم ١٥) .

حضارة العبيد:

في نهاية الألف الخامس قبل الميلاد ظهر العبيديون على أنقاض الحلفيين. فانتشرت الحضارة العبيدية في المناطق نفسها التي عاشت فيها سابقاً المجتمعات الحلفية ما سمي فترة العبيد المبكرة (كرأس الشمرة، وتل عقاب، وتل حلف، وشاغاربازار) أي في الجزء الشمالي من سورية. صنع العبيديون الأواني الفخارية التي كانت أقل جودة من الأواني الحلفية ومعظمها بلون واحد هو البرتقالي الفاتح. كما ابتكروا الدولاب البطيء الذي كان عبارة عن قرص مستدير يدور على قائم مركب على وجهه الأسفل. كان القائم يركب عبر مجرى محفور في أرض المنزل. وكان على صبي الخزاف أن يدير الدولاب، بينما يقوم الخزاف باستعمال يديه الاثنتين للعمل. بالرغم من أن هذه الدواليب كانت بطيئة إلا أنها ساعدت على إنتاج أوانٍ أكثر تنوعاً وأشكال متجانسة ومنتظمة[٣٣]. في المرحلتين الثالثة والرابعة ظهر الدولاب السريع في صنع الأواني الفخارية التي أنتجت بكميات كبيرة، لكن نوعيتها تراجعت نسبياً وأصبحت ألوانها عادية وزخارفها بسيطة نوعاً ما. لكن التدني في نوعية الفخار العبيدي لا يعني تراجعاً حضارياً لأن الدور العملي للفخار أصبح أهم من دوره الفني والجمالي. وقد زخرف العبيديون أوانيهم بالأشكال الهندسية والأشكال النباتية والحيوانية بالإضافة للرسوم البشرية. ومن أهم الأشكال الحيوانية التي رسمت على الأواني الفخارية في هذه الفترة ما يلي:

الرسوم الحيوانية:

الطيور:

عثر في تل زيدان[٣٤] على عدد من الكسر الفخارية التي رسمت عليها أشكال حيوانية، ومن هذه الكسر:

- كسرة رسم عليها طائر برقبة طويلة والجسد عبارة عن دائرة كبيرة الحجم فرغت من الداخل لتعطي شكل الريش الملون [٣٥](شكل رقم ١٦).

- حاول الفنان في عصر العبيد رسم مشاهد متكاملة تتضمن عدداً من مظاهر الحياة البرية في بيئته. فقد عثر على كسرة من تل زيدان رسم عليها حيوانان بحجم كبير لم يظهر منهما سوى جزء من الجسد والقوائم الخلفية والذيل، يقف بينهما طائر برقبة طويلة، ورسمت الأرجل وكأن الطائر في وضعية الحركة[٣٦] (شكل رقم ١٧).

الحشرات:

- كذلك رسم الفنان الحشرات، فقد عثر على كسرة لآنية من تل زيادة رسمت عليها مجموعة من الأجسام البيضاوية الشكل تفرع منها ثلاثة أصابع وهي أقرب في الرسم للعقارب (شكل رقم ١٨).

- أما بالنسبة لموقع الشمالي فقد كان الوضع مختلفاً. إذ عثر على إناء من الفخار نقش بداخله بشكل نافر مشهد صراع بين أفعى ونوع من الحشرات المتعددة الأرجل. فشكل الفنان الأفعى زاحفة داخل الإناء، حيث يظهر ذلك من شكل الجسد المتموج، وحدَّد نوعها بالشكل المرقط إذ نقش على ظهر الأفعى العديد من النقاط التي تدل على نوعها، وعند الرأس نجدها تلتف على حشرة متعددة الأرجل في مشهد يصور الطبيعة بشكل واقعي (شكل رقم ١٩).

الرسوم الإنسانية:

استمر في عصر العبيد رسم الإنسان على الأواني الفخارية. فقد عُثر في تل زيدان أيضاً على آنية رسم عليها منظر لرجلين وقد تشابكت أيديهما مع بعضهما البعض. فرسم الرأس بشكل تجريدي على شكل دائرة تخلو من أي تفاصيل لملامح

الوجه. بينما رسم الجذع على شكل مثلث مقلوب، فهو عريض من الأعلى يضيق باتجاه الأسفل ليبدو الخصر ضيقاً ونحيلاً. حاول الفنان الاهتمام باليدين. فكان الساعد عريضاً بما يمثل لعضلات قوية، ولونت اليدان باللون الأسود لتظهر مغايرة لباقي أجزاء الجسد. رسم الفنان داخل الجذع مجموعة من الخطوط المتقاطعة مع بعضها البعض بما يشبه الزخرفة المثلثية الشكل لتعطي إيحاءً بملابس أو سترة(٣٧) (شكل رقم ٢٠). هذا المشهد هو جزء من منظر متكامل لم يبقَ منه سوى هذا الجزء فقد تشابكت اليدان اليمنيان فقط بينما اليسريان تمتدان لتقابل يد إحداهما الأخرى في الجزء المكسور من الآنية.

الخاتمة:

تنوعت الرسوم على الأواني الفخارية خلال عصري النيوليت والكالكوليت، وجاء اهتمام الفنان بالدرجة الأولى بتصوير جماجم الثيران التي تعد استمراراً لتقديس أو عبادة هذا الحيوان، التي ظهرت منذ العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "أ" من خلال وجود قرون الثيران أو جماجمها موضوعة أو مغروزة في مصاطب أو جدران المباني كما في موقع المريبط. كما رسمت على جدران المعابد في شاتال هيوك في الأناضول نسور وثيران وللثيران رؤوس مقولبة من الجص ولها قرون حقيقة ناتئة خارج الجدران. تمثل هذه الرسوم الجنس الذكري ممثلاً بالثور ومقابله الجنس الأنثوي الذي يرمز له النسر.

الثور ركز الفنان في عصري النيوليت والكالكوليت في سورية على تصوير الحيوان دون الاهتمام بتفاصيل الوجه بل اهتم بتصوير القرون التي تمثل رمزاً للقوة والفحولة. كما في كل حضارات البحر المتوسط تقريباً. ففي بلاد الرافدين كان الثور رمزاً لإله الخصب الكبير، وكان الحيوان المرمز لخصوبة القطعان. وفي مصر كان يرمز للقوة وللخصب. فقد صور الملك نعرمر على هيئة ثور يدحر الأعداء. وقد كان

الثور "أبيس" منذ عهد الأسرة الملكية المصرية الأولى، الإله الزراعي رمز التوالد والقوة المخصبة.

كما يمكن القول أن تصوير الثور أو البقرة في تل يونس تحيط بها علامات تشبه النجوم يدل على قدسية خاصة لهذا الحيوان وارتباطه بالسماء والآلهة كما لدى قدماء المصريين فقد كانت الإلهة حتحور الحامية للفرعون، أو مرضعته لكي تنفث فيه اللبن الإلهي، وحياة الآلهة نفسها، ممثلة غالباً برأس بقرة لا يظهر منها سوى الرأس أو حتى الآذان والقرون تحيط بها النجوم وهذا مشابه لرسم تل يونس.

أيضا رسم الغزال أو الوعل الذي كان يصطاده إنسان ما قبل التاريخ بكثرة. ففي موقع أبو هريرة كانت عظام الغزلان تمثل ٨٠ بالمئة من مجموع العظام التي عثر عليها بالموقع، وهذا يدل على مدى اعتماد سكان سورية في عصور ما قبل التاريخ على هذا الحيوان كمصدر للغذاء، ولعل الغزال كان يرمز أيضاً لتجدد الحياة. فهو يفقد قرونه في فصل الشتاء لتعاود إنباتها في الربيع بشكل أكثر فخامة. والفنان في عصور ما قبل التاريخ لم يرسم إلا الغزلان الكبيرة التي يمكن الاستدلال على عمرها من القرون الكبيرة المتعرجة، ولعله يرمز بذلك للقوة والفحولة لدى هذه الحيوانات. ونضيف أنه في عصور لاحقة رمزت تشعبات قرونه للجنس الذكوري، وكان الأيل عند الحثيين رمزاً لإله الثروة. وعند الإغريق والرومان كان الأيل أو الغزال الحيوان المكرس أساساً للربة "ارتيمس أو ديانا". وفي عصر النهضة كان الأيل أو الغزال رمزاً للتوالد واستمرار الحياة.

كذلك من العناصر التي تم رسمها على الأواني الفخارية كانت الأسماك باعتبارها جزءاً رئيسياً من النظام الغذائي، وهي لا تتطلب التربية وتنتج بسهولة في تلك الفترة. إذ أن المواقع التي تم الكشف فيها عن هذه اللقى تقع على ضفتي نهر الفرات الغني بالثروة السمكية. استمرت السمكة في العصور اللاحقة كرمز من

الرموز الدينية الدالة على البركة والعطاء. ففي الفن الروماني وفي الفسيفساء بصورة خاصة ظهرت مشاهد صيد الأسماك، وقد فسرها العلماء بالمعنى الرمزي والقيمة الخيرة المرتبطة بالصيد، كما رمز السمك في الديانة المسيحية للسيد المسيح.

كذلك يلاحظ اهتمام الرسام برسم الطيور التي لم تصور قبل عصر حلف سواء كتماثيل أو نقوش. ركَّز الفنان على تصوير طائر القطا بشكل خاص، الذي يشبه النعام في شكله وليس في حجمه باعتباره من الحيوانات التي كانت منتشرة ولا زالت في منطقة الفرات السورية. وجاءت أغلب الرسوم تصور الطائر وهو بوضعية الوقوف لأنه من المعروف عن هذا النوع من الطيور بأنها سريعة في العدو وغير قادرة على الطيران.

هذا وقد رسمت بعض الحشرات كالعقارب، التي رسمت للمرة الأولى على إحدى لوحات موقع جرف الأحمر أي منذ عشرة آلاف سنة خلت. تعتبر العقارب من الكائنات التي تشكل خطراً على حياة الإنسان، فجاء رسمها كنوع من اتقاء شر هذه الكائنات. كما رسم على الفخار في بلاد الرافدين كي يرمز لأفكار الخصوبة كما يعتقد العالم "باروا". كما كان العقرب حارساً لأبواب السماء في (أور) في الألفية الثالثة قبل الميلاد. وقد حمل المصريون تعويذات على شكل العقرب للوقاية من هذا الحيوان. في الفترات التاريخية اللاحقة قام الإنسان بتأليهه فأصبح رمزاً للربة (سيلكت) عند الإغريق، الدالة على القدرات الشفائية.

لم يكن ظهور الأفعى على أواني العبيد هو المرة الأولى التي يتم تجسيد هذا الكائن في فترة ما قبل التاريخ. فأقدم دليل على تمثيل الأفعى في بلاد الشام يعود إلى الألف العاشر قبل الميلاد في موقع جرف الأحمر في سورية، وقد نحتت الأفاعي مترافقة مع أشكال حيوانية أو أشكال هندسية. كما وجدت لوحة حجرية عليها خطوط على شكل ثعابين في موقع جعدة المغارة في سورية. إن تشكيل الأفاعي منذ عصور

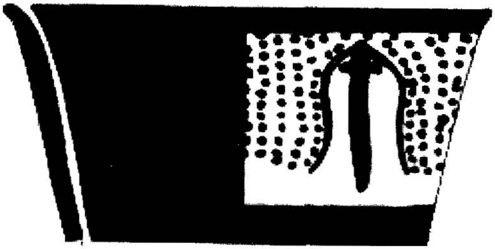
ما قبل التاريخ إلى وقتنا الحالي يعود لخوف البشر من هذا الكائن. إذ يعد الثعبان من أكثر الكائنات رمزية لدى الشعوب. فالثعبان رمز جهنمي أو تحت أرضي، ذلك لأنه يغيب في بطن الأرض عدة مرات في اليوم، ويبقى في الأرض كل الليالي وكل فصل الشتاء. عند الفينيقيين كان شعار الإله الطبي "يسمون" عصا يلتف حولها ثعبان وكذلك كان رمزاً عند الإغريق والرومان. كما أنه أصبح شعار الصحة العالمي في وقتنا الحالي. ووجود رسم الأفعى داخل إناء منذ نهاية الألف الخامس يدل أن هذا الإناء كان يستخدم لأغراض دينية ولممارسة طقوس معينة كمعالجة المرضى.

أما الرسومات الإنسانية فقد جاءت قليلة ومنفردة، أي لم يصور الإنسان مع غيره من الكائنات الأخرى على عكس بعض مواقع بلاد الرافدين التي تعود لنفس الفترة. فقد صور الإنسان مع الحيوانات كما في تل العربجية، وجاءت هذه الرسومات موجزة بعض الشيء، بمعنى أن الفنان لم يحاول رسم ملامح الوجه، بل اكتفى بالتعبير عنه بشكل الرأس الدائري والجسد على شكل خطوط تجريدية. بالرغم من الرسم التجريدي للجسد البشري إلا أنها كانت مليئة بالحركة المعبرة عن حركات راقصة كما في تل الصبي أبيض. فقد ارتدى الرجال ملابس تنكرية مستخدمين الريش الذي استخدم للتنكر ولدلالة على أشخاص بعينهم في المجتمعات القديمة. فالقبعة العالية المزينة بالريش ترمز في الفن المصري القديم للربة "ماعت" رمز القانون، والحقيقة والعدالة، والتي تعمل على وزن الأرواح مع "أنوبيس". كذلك ما يزال إلى يومنا هذا يستخدم في بعض القبائل البدائية حيث يقوم الشامان (الطبيب المعالج في هذه القبائل) باستخدام الريش للتنكر وممارسة الطقوس السحرية الخاصة بهم. ولابد أن الإناء الذي عثر عليه في تل الصبي أبيض يمثل مشهداً طقسياً، والأواني التي رسمت عليها كانت عبارة عن أوانٍ نذرية توضع في المعابد.

ويمكن القول بأن هناك العديد من الفرضيات التي تحاول تفسير هذه الرسوم منها:

- نظرية الفن لأجل الفن: تصوّر إنسان ما قبل التاريخ كمحب للجمال، كان همه اقتناء الحسن والمتعة. لكن رسم هذه الأشكال على قطع معينة من الأواني الفخارية دون غيرها يجعل هذه الفرضية غير مقبولة فمفهوم الفن لأجل الفن لايمكن أن يواجه إلا بدءاً من تطور علم الجمال في وسط ذي مستوىً عالٍ من التحضر.
- نظرية القدرة السحرية: تفترض هذه النظرية بأن التمثيلات الحيوانية قد رسمت بهدف سحري متعلق بالصيد، فهي تساعد الإنسان على اصطياد هذه الحيوانات بسهولة أكثر، وبقدرته على السيطرة عليها.
- يعتقد العالم "كينيت كلارك" أن الإنسان قد شعر بضعفه أمام هذه الحيوانات وإعجابه بقوة هذه الحيوانات، وهذا يدل على الطوطمية التي انتشرت في العصور اللاحقة لعصور ما قبل التاريخ والتي مازالت منتشرة لدى العديد من القبائل والشعوب حتى الآن كسكان الأمازون وسكان أستراليا الأصليين.
- هناك من العلماء من يعتقد بأن هذه الرسوم ماهي إلا نوع من التقديس لهذه الحيوانات خوفاً من أن يحمل الإنسان مصير الحيوان ذاته المقتول في الصيد.

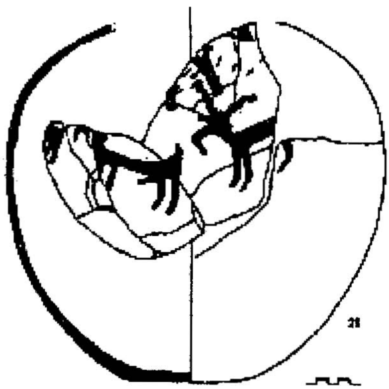
ولربما كانت هذه الرسوم نتيجة خوف الإنسان من محيطه الحيواني وخشيته من أن يكون هو الفريسة، فبالتالي إن رسوم الحيوانات في فترة ما قبل التاريخ كانت وظيفتها الرقية والحماية من هذه الحيوانات. ومهما يكن سواءً كانت هذه الرسومات أملاً سحرياً أو خوفاً من السحر فإنها في النهاية تدل على التفاعل بين الإنسان والحيوان والطبيعة المحيطة به بشكل عام والتي هي المصدر الرئيسي لاستمرار وجوده.



19

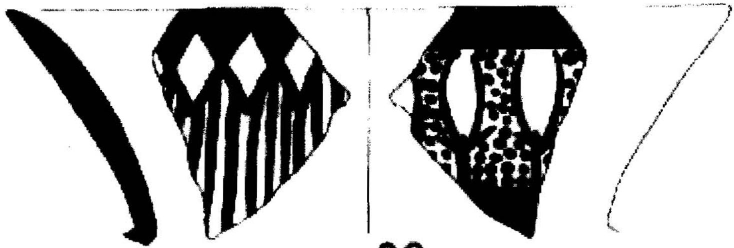
شكل رقم ١: جزء من آنية فخارية رسم عليها رأس ثور، تل صبي أبيض

١٩٨٧ Akkermans, P.M.M.G

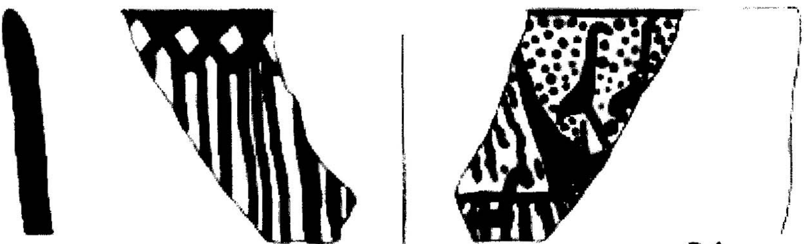


شكل رقم ٢: جزء من آنية فخارية رسم عليها ثوران، تل الصبي أبيض،

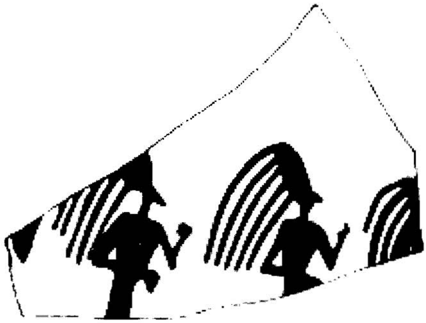
سلطان محيسن، ٢٠٠٨، ص ٤٢٤


20

شكل رقم 3: كسرة فخارية رسم عليها رأسي غزالين، تل الصبي أبيض،
.١٩٨٧،Akkermans, P.M.M.G


21

شكل رقم 4: كسرة فخارية رسم عليها مشهد طبيعي يمثل مجموعة من الحيوانات، تل صبي أبيض، Akkermans, P.M.M.G ،١٩٨٧



4

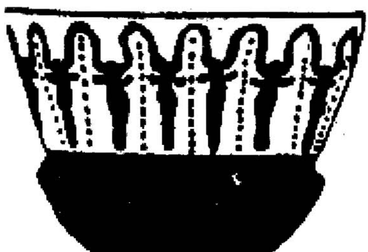
شكل رقم ٥: كسرة فخارية رسم عليها أشكال إنسانية، تل الصبي أبيض،

١٩٨٧، Akkermans, P.M.M.G



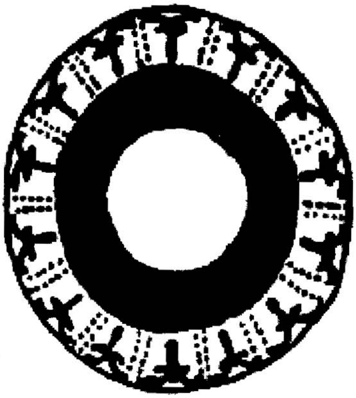
شكل رقم ٦: آنية فخارية رسم عليها جماجم، تل يونس،

سلطان محيسن، ٢٠٠٨، ص ٣٧



شكل رقم :٧ آنية فخارية رسم عليها جماجم ثيران، تل يونس،

سلطان محيسن، ٢٠٠٨ ، ٣٧٠



شكل رقم ٨: آنية فخارية رسم عليها جماجم ثيران، تل يونس،

سلطان محيسن، ٢٠٠٨ ،٣٧٠



شكل رقم ٩: آنية فخارية رسم عليها جماجم ثيران، تل يونس،

سلطان محيسن، ٢٠٠٨، ٣٧٠



شكل رقم ١٠: آنية فخارية رسمت عليها جماجم، تل يونس،

سلطان محيسن، ٢٠٠٨، ص٣٧٠



شكل رقم ١١: قطعة من الفخار رسم عليها رأس ثور، حالولة، عن

ميشيل فورتان، ص ١٧٣



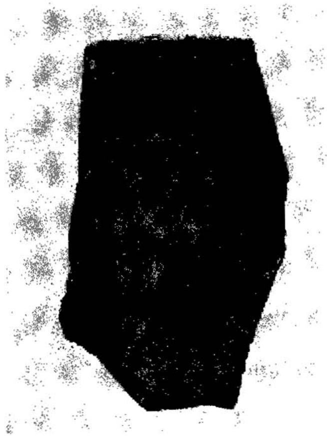
شكل رقم ١٢: كسرة فخارية رسم عليها رأس سمكة تل كشكوك،

ميشيل فوتان، ٢٠١٢، ص ١٧٣



شكل رقم ١٣: كسرة فخارية رسم عليها رأسي غزالين، تل كشكوك،

ميشيل فوتان ٢٠١٢، ص ١٧٣



شكل رقم ١٤: كسرة فخارية من تل براك فترة حلف رسم عليها طائر،

Oates D., 1994



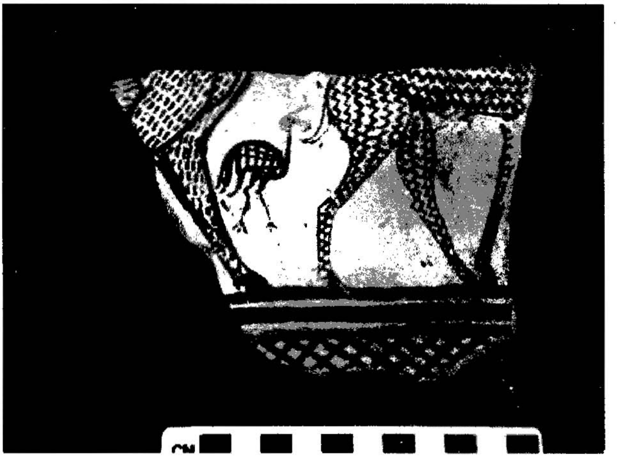
شكل رقم ١٥: كسرة فخارية رسمت عليها أشكال إنسانية، تل صبي أبيض،

١٩٨٧،Akkermans, P.M.M.G



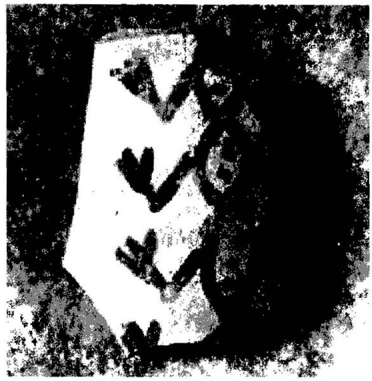
شكل رقم ١٦: كسرة فخارية رسم عليها طائر، تل زيدان العبيد،

Banzo, 2005Waller Crulls

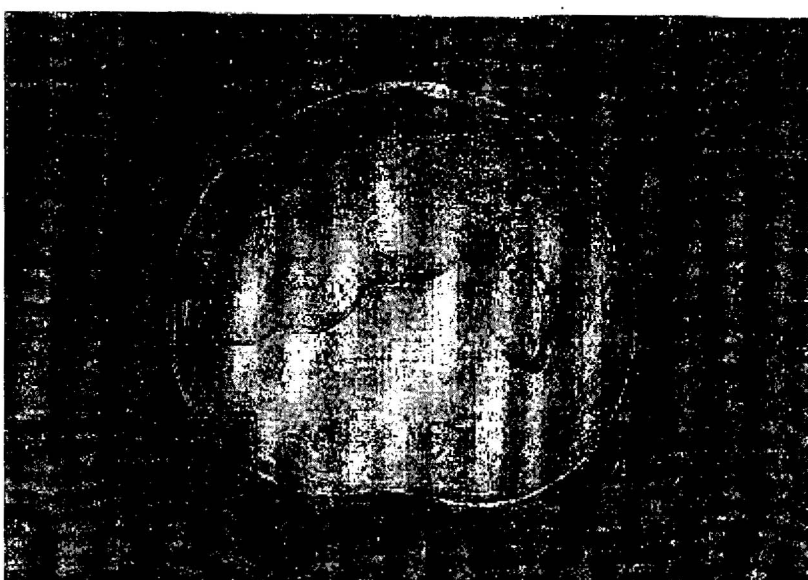


شكل رقم١٧: كسرة فخارية رسم عليها مشهد لحيوانات مجترة وطائر، تل زيدان

فترة العبيد، **Gil. Stein 2009**



شكل رقم ١٨: كسرة فخارية رسمت عليها مجموعة من العقارب المتصلة ببعضها البعض، تل زيدان، Gil. Stein ٢٠١٠



شكل رقم ١٩: إناء من الفخار يظهر في داخله ثعبان يتصارع مع حشرة متعددة الأرجل



شكل رقم ٢٠: كسرة فخارية رسم عليها رجلان وقد شبكا أيديهما، تل زيدان، فترة العبيد، Gil. Steir , ٢٠١١

الهوامش

(١) تقع أريحا (تل السلطان) في وادي الأردن في فلسطين، اكتشف للمرة الأولى خلال خمسينيات القرن الماضي على يد كاثلين كنيون.

(٢) التأريخ الوارد في المقالة هو تأريخ حديث وليس التأريخ المعير والتواريخ غير المعيرة تعتمد على طريقة الفحم المشع فقط، وهي أحدث من التأريخات المعيرة الحديثة التي دفعت عصر النيوليت بحوالي ٢٠٠٠ سنة أقدم مما كان متعارفاً عليه.

(3) Bar- Yosef, 1998, The Natufian Culture in the Levant, Threshlod to the Origins of Agriculture, Evolutionary Anthropology, P159.

(٤) يقع الجرف الأحمر على الضفة اليسرى لنهر الفرات على بعد حوالي ٢كم من منطقة سد تشرين في محافظة حلب، منطقة منبج ١٠٠ كم إلى الشمال من حلب. بدأت التنقيبات في الموقع عام ١٩٩٥ وانتهت عام ١٩٩٩، يعود التل إلى عصر النيوليت ما قبل الفخار"أ".

(٥) موقع جعدة المغارة يقع على الضفة اليسرى للفرات الأعلى على بعد ٣٠ كم إلى الجنوب من جرابلس. بدأ التنقيب في الموقع عام ١٩٩١، وتم الكشف فيه عن سويات ما قبل الفخار "أ" وما قبل الفخار "ب".

(٦) محيسن، سلطان: ٢٠٠٨، **عصور ما قبل التاريخ**، منشورات جامعة دمشق، ص٢٨٩.

(٧) يقع تل العبر على الضفة اليسرى للفرات في الجزيرة السورية ويبعد حوالي ١٥كم عن الحدود السورية التركية، وهو من مواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "أ" ويؤرخ بالألف العاشر قبل الميلاد.

(8) Yatah T, 2004, les batiments communtaires de Tell, Abr3 (PPN Syrie), Neolithic 1/5. P.4.

(٩) يرتة، ثائرن ٢٠٠٣م، **التقرير السنوي الأول لموسم التنقيبات الثالث في موقع تل العبر**، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ص ١٦.

(١٠) جاموس، بسام، ٢٠٠٦م، **الجرف الأحمر**، قرية من الألف العاشر قبل الميلاد، ص٢٥.

(١١) يقع موقع حالولة في منطقة الفرات الأوسط في سورية، ويعد من أهم المواقع العائدة إلى المرحلة الوسطى والحديثة من عصر النيوليت ما قبل الفخار(ب).

(12) Molist M., 1997, sur le site de Tell Halula valley de l Euphrate en Syria, DGAM Syrie.p.19.

(١٣) مازروفسكي، ٢٠٠٢، **التقرير الأول للتنقيبات الأثرية في تل القرامل**، الموسم الرابع ٢٠٠٢ م، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ص ١٥.

(١٤) تموم ن جمال، ٢٠١١، **الجذور ما قبل التاريخية للحضارات التاريخية الباكرة في المشرق العربي القديم**، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ص١٠٨.

(١٥) محيسن، سلطان:٢٠٠٨، **عصور ما قبل التاريخ**، ص٢١٥.

(١٦) يقع موقع صبي أبيض في وادي البليخ ويعد من أهم المستوطنات بين نهاية عصر النيوليت وبداية حلف.

(١٧) محيسن، سلطان:٢٠٠٨، **عصور ما قبل التاريخ**، ص٤٢٤.

(18) Peter M.M.G. Akkermans, 1992, The 1988 Excavations at tell Sabi Abyad, a later Neolithic Syria, American Journal of Archaeology, Vol,96, No 1, P.P 1-22.

(19) Akkermans, P.M.M.G, 1987, A late Neolithic and Early Halaf Village at Sabi abyad, Northern Syria, Paleorient, Vol 13\1, p 25.

(٢٠) محيسن، سلطان: ٢٠٠٨، ص٢٤١.

(٢١) تل يونس يقع بالقرب من حماة بالقرب من موقع كركميش، أنشئت في تل يونس بيوت دائرية مقببة من النوع المسمى تولوسن التي تشبه خلية النحل.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(23) Ibid,p.20.

(٢٤) تقع مستوطنة أم قصير على الضفة اليسرى لنهر الخابور، جنوب الحسكة، أثبتت الحفريات وفيها وجود استيطان من العصر النحاسي.

(25) Hole F, Johanson G.A; 1990,umm qseir,Syria, Raport Preliminaire, DGAM.

(٢٦) تتوضع تلال كشكشوك حوالي ٢٠كم شمال غربي الحسكة، وهي عبارة عن أربعة تلال مرقمة من ١-٤.

(٢٧) ميشيل فورتان: ٢٠١٢، **سورية أرض الحضارات**، ص ١٧٣، مطابع وزارة الثقافة، دمشق.

(٢٨) المرجع السابق، ص١٧٣.

(29) Banzo, 2005Waller Crulls: Origens, Emegenci Desenvolupament De La Ceramica Halaf Siria, p87.

(30) Oates D., 1994, Tell Barak, Iraq 56, P 100.

(31) Akkermans P M M g., 1995,AN Image of complexity the Burnt village at Late Neolithic Sabi Abyad, Syria, American Journal of Archaeology, N99, P.5.

(32) Robert A. Beyond the Ubaid

(٣٣) تل زيدان تل أثري ضخم شديد الانحدار، يتوضع على الحافة الشرقية لنهـر البليخ. تم من خلال أعمال التنقيب في التل تحديد المراحل الزمنيـة التاليـة: حلـف، العبيد، أوروك، عصر البرونز، عصر الحديد، الفترة الهلنستية.

(34) Gil. Stein 2009, Tell Zeidan , P105, The Oriental institute ,Annual Report.

(35) Gil. Stein 2010, Tell Zeidan , P126, The Oriental institute ,Annual Report

(36) Gil. Stein 2011, Tell Zeidan , P137, The Oriental institute ,Annual Report

المراجع العربية والأجنبية

- تموم، جمال، ٢٠١١ م، الجذور ما قبل التاريخية للحضارات التاريخية المبكـــرة في المشرق العربي القديم.
- جاموس، بسام، ٢٠٠٦، الجرف الأحمر، قرية من اللف العاشر قبل الميلاد.
- فورتان، ميشيل، ٢٠١٢، سورية أرض الحضارات، مطابع وزارة الثقافة.
- محيسن، سلطان، ٢٠٠٨، عصور ما قبل التاريخ، دمشق.
- يرته ثائر، ٢٠٠٣، التقرير السنوي الأول لموسم التنقيبات الثالث في موقع تـــل العبر، المديرية العامة للآثار والمتاحف.
- مازروفسكي، ٢٠٠٢، التقرير الأول للتنقيبات الأثرية في تل القرامل، الموســـم الرابع ٢٠٠٢، المديرية العامة للآثار والمتاحف.
- Akkermans, P M M g, 1987, A late Neolithic and Early Halaf Village at Sabi abyad, Northern Syria, Paleorient, Vol 13\1, p 25.
- Akkermans P M M g., 1995,AN Image of complexity the Burnt village at Late Neolithic Sabi Abyad, Syria, American Journal of Archaeology, N99, P.5.
- Banzo, 2005 Waller Crulls: Origens, Emegenci Desenvolupament De La Ceramica Halaf Siria, p87.
- Oates D., 1994, Tell Barak, Iraq 56, P 100.
- Bar- Yosef, 1998, The Natufian Culture in the Levant, Threshlod to the Origins of Agriculture, Evolutionary Anthropology, P159.
- Gil. Stein 2009, Tell Zeidan, P105, The Oriental institute, Annual Report.
- Gil. Stein 2010, Tell Zeidan , P126, The Oriental institute, Annual Report
  - 1/5. P.4.-
  - Gil. Stein, 2011, Tell Zeidan , P137, The Oriental institute ,Annual Report

- Hole F, Johanson G.A; 1990, umm qseir, Syria, Raport Preliminaire, DGAM
- Molist M., 1997, sur le site de Tell Halula valley de l Euphrate en Syria, DGAM Syrie.p.19.
- Peter M.M.G. Akkermans, 1992, The 1988 Excavations at tell Sabi Abyad, a later Neolithic Syria, American Journal of Archaeology, Vol,96, No 1, P.P 1-22.
- -Yatah T, 2004, les batiments communtaires de Tell, Abr 3 (PPN Syria), Neolithic.

دور المولدين والمستعربين
في الدولة العربية بالأندلس

الدكتور علي أحمد
قسم التاريخ
جامعة دمشق

كان المولدون[١] والمستعربون[٢] من أهم مكونات المجتمع الأندلسي في العصور الوسطى، وربما كانوا المكوّن الأكبر لهذا المجتمع. فالمولدون هم جزء كبير من الشعب الإسباني، أقدموا على اعتناق الإسلام برغبتهم واختيارهم بعيداً عن أية ضغوط خارجية أو داخلية، لأن العرب الذين حكموا الأندلس لمدة ثمانية قرون تميزوا وخاصة في القرون الخمسة الأولى باحترام الآخر المتمثل بغير المسلمين، وجسدوا ذلك حقيقة واقعة على الأرض. فاعتمدوا في حكوماتهم شخصيات غير عربية وغير مسلمة، ومعظم هذه الشخصيات تبوأت مراكز حساسة في الدولة العربية. ربما كان هدف المولدين من اعتناق الإسلام متعلقاً بالأمل في الحصول على مكاسب مختلفة، وخاصة في المجال السياسي. فقد كانوا يأملون استلام مراكز عالية صاحبة قرار مؤثر، يحققون من خلالها ضرب الوجود العربي بالأندلس، الذي لم يكن يرحب به هؤلاء المولدون. هذا يقود إلى القول، أن الدين لم يستطع منذ ظهور الأديان حتى يومنا هذا أن يحل محل الانتماء القومي أو العرقي أو الوطني، وإنما كان على الدوام ولا يزال وسيلة مؤثرة لتحقيق أهداف غير نبيلة وخاصة في المجال السياسي العام. وسيظهر ذلك واضحاً في سياق الحديث عن أعمال المولدين بالأندلس في الصفحات الآتية.

أما المستعربون فكانوا بعكس المولدين من حيث الممارسة والآمال. فقد بقوا على دينهم، باختيارهم وحريتهم، وأعطاهم العرب كل أسباب الحرية في هذا الاختيار، لأن العرب في الأندلس تميزوا باحترام حرية الآخرين، وابتعدوا عن كل وسائل الإجبار والقهر معظم أيامهم بالأندلس، مع وجود بعض الاستثناءات النادرة، التي لا يعول عليها في هذه المسألة الحساسة. أضِف إلى ذلك إقدام المستعربين بإرادتهم ورغبتهم على دراسة الثقافة العربية، وتعمقهم في مسائلها المختلفة، ومشاركتهم بفعالية في دوائر الحكم العربي بالأندلس من خلال تسلمهم مناصب رفيعة، ودفاعهم بقوة عن الوجود العربي بالأندلس حتى عصر المرابطين. بقوا بعيدين عن الانخراط في حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، التي بدأت منذ سيطرة العرب على الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري / الثامن الميلادي، وظلت مستمرة حتى تمكنت من إنهاء الوجود العربي بالأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي.

لقد ظهر دور المولدين واضحاً في المجال السياسي منذ عصر الإمارة الأموية(٣) بالأندلس، وكان دوراً سلبياً بكل المعايير فانعكس ضرره على استقرار الدولة العربية وتطورها بصورة عامة، وبقي هكذا إلى النهاية لأن المولدين كانوا يخططون ويعملون باستمرار على إنهاء الوجود العربي بالأندلس، وقد اعتنقوا الإسلام واتخذوه ديناً كوسيلة مساعدة لتحقيق مآربهم وخططهم. فقد قادوا ثورات شكلت خطراً حقيقياً على الدولة العربية، وكاد بعضها أن يصل إلى تحقيق آمالهم. ففي عصر الأمير الحكم بن هشام الذي حكم الأندلس في الفترة (١٨٠-٢٨٠هـ / ٧٩٧-٩٢٢م) ظهر خطر المولدين بشكل واسع. فقد اتحدوا مع السلطة الدينية كي يجعلوا من حركتهم ضد الدولة مبررة، لأن رجال الدين شغلوا دوراً سلبياً للغاية في مسألة تشجيع المولدين ضد السلطة العربية ممثلة بالأمير الأموي الحكم بن هشام، الذي عُرف عنه قوة الدفاع عن الوجود العربي بالأندلس - وكان في ذلك يشبه جده عبد الرحمن الداخل الذي اعتمد على سيادة القانون في حكم الأندلس دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى كالقبلية أو

المناطقية أو العرقية أو المسألة الدينية - . لكن ذلك لم يعجب رجال الدين فوقفوا في مواجهة الأمير الحكم بن هشام، بعد أن فقدوا الأمل في الحصول على أية مكاسب على عادتهم في كل العصور. وقادوا ضده حملة تحريضية كبيرة في كل المجالات استهدفت وجوده على رأس دولة العرب بالأندلس.

لقد وجهد الفقهاء ضالتهم المنشودة في المولدين لاستخدامهم وكان هؤلاء المولدون يشكلون قوة كبيرة في المجتمع العربي بالأندلس. فقد كان منهم التجار والحرفيون والمزارعون وبعض رجال الدين. وعلى الرغم من اعتناقهم الإسلام، فقد بقي العرب ينظرون إليهم نظرة مختلفة عن النظرة لغيرهم من العرب. فقد حرموا من نصيبهم المستحق من ثروات البلاد، ووظائفها المهمة، التي بقيت من نصيب الطبقة العربية المتحكمة بمقدرات البلاد. ظلت هذه الحالة قائمة في عصر الحكم الربضي، الذي لم يلتفت إلى أحوال طبقة المولدين المتفاقمة، ولم يلتفت في الوقت ذاته إلى مشاورة رجال الدين، كما كانت العادة في عصر أبيه، لأن الحكم من طينة مختلفة عن طينة والده. ففي حين كان والده رجلاً متديناً إلى أبعد الحدود، كان الحكم رجلاً مولعاً ببعض الأعمال كالصيد والغناء والاستماع إلى الشعراء والمغنيات وما إلى ذلك، كما قال المؤرخون الذين أرادوا الإساءة إلى شخصه، مع أن واقع الحال لم يكن كذلك. فمعظم المصادر تذكر أنه كان من الرجال المرموقين في مجال الحكم بالأندلس، ولعل من أهم الأشياء التي تميزه في هذا المجال، أنه أبعد رجال الدين عن التدخل في شؤون الحكم، وحصرهم في حدود وظيفتهم الأساسية، وهي العمل في المجال الديني. فكان يعرف تمام المعرفة أنهم ما تدخلوا في حكم إلا جعلوه هزيلاً وفاشلاً، وهو الشيء الذي حدث لحكم والده هشام الرضا، الذي ماتت في عصره الهمم في كل المجالات(٤).

لكن موقف الحكم بن هشام من رجال الدين، لم يمر مروراً طبيعياً كما كان يأمل، فقد أعلنوا ضده حملة إعلامية واسعة النطاق، فصوروه للناس تصويراً غير واقعي. فقد اتهموه بالمجون واللهو والفسق وعدم الأهلية لحكم المسلمين على

الإطلاق، وحرضوا بشكل مركز على ضرورة عزله من الحكم، وحرصوا أن تكون الدعاية ضده في صفوف المولدين، الذين لم يكونوا يكنون له سوى الحقد والكراهية، بحجة أنهم عانوا من الظلم والحرمان في عصره. فقاموا بتأثير ذلك بتمردَين كبيرَين ضده.

كان التمرد الأول بمدينة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط بالأندلس، التي كانت الغالبية العظمى من سكانها من المولدين والمستعربين الإسبان، الذين كانوا يقصدون من وراء كل حركة، أن يحصلوا على استقلالهم عن السلطة العربية، وليس الحصول على حقوق أو مكاسب معينة. ومن هنا تأتي خطورة ما فعله رجال الدين، حينما وقفوا إلى جانب المولدين يحرضونهم على ضرب السلطة العربية، التي مثلت على الدوام المدافع العنيد عن العروبة والإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية في العصور الوسطى.

اعتصم المولدون المتمردون بمدينة طليطلة، التي كانت تتميز بمناعة أسوارها ودفاعاتها العامة، مما ساعدهم على الصمود في مواجهة الحصار العربي، الذي لم يتمكن من المتمردين إلا بواسطة الخديعة والحيلة. فقد قام الحكم بن هشام بتعيين أحد المولدين المخلصين له على مدينة طليطلة، وهو عمرو بن يوسف واتفق معه على إظهار الكراهية للحكم الأموي العربي، وأمره أن يدعو بعد حين أكابر طليطلة من قادة المتمردين إلى وليمة تكريمية في قلعة خارج طليطلة، كان قد بناها لإقامة الجند. وحينما حضر هؤلاء أمر بقطع رؤوسهم جميعاً، ودفنهم في حفرة كبيرة، مما أثر على حركة المتمردين. فلم تطل الأيام حتى سقطت المدينة وأصبحت تحت السيطرة العربية. وقد سميت هذه الموقعة بموقعة الحفرة، التي جرت في سنة ١٨١هـ/٧٩٧م(٥).

أما التمرد الثاني الذي نفذه المولدون، فقد كان بمدينة قرطبة العاصمة. كان هذا التمرد من أشد ما واجهه العرب بالأندلس في عصر الإمارة الأموية، وقد سمي هذا

التمرد بحركة الربض، والربض كمصطلح يعني الضاحية في عرف أهل المشرق، وهو الضاحية الجنوبية لمدينة قرطبة، وكانت تسكنه مجموعة كبيرة من المولدين، الذين كانوا يعملون في حرف متفرقة. وقد ربطت هذه الضاحية بمدينة قرطبة بجسر قديم، أو قنطرة، كما كانت تسمى في مصطلح أهل الأندلس(٦)، وبالتحديد في ولاية السمح بن مالك الخولاني المتوفى سنة ١٠٢هـ/٧٢١م. يقال أن هذا الجسر (القنطرة) مازال موجوداً حتى اليوم، كواحد من أهم الآثار العربية الحيوية في مجال العمران بالأندلس.

هكذا نجح رجال الدين في إشعال نار حقد المولدين على الحكم العربي بصورة عامة، فهبوا برمتهم بعد أن أغلقوا حوانيتهم باتجاه قصر الإمارة، وألقوا الحصار عليه. لكن الحكم بن هشام تعامل مع المتمردين بحكمة ورباطة جأش، وصمم على مواجهتهم بكل الوسائل الممكنة. فقام بتهيئة وسائل دفاعية عن قصر الإمارة. في الوقت نفسه كلَّف ابنَ عمه عبد الله البلنسي صاحب الصوائف بمهاجمة عائلات المتمردين وأملاكهم الخاصة بحي الربض. تمكن جنود الأمير الحكم من الوصول إلى الحي المذكور، وكان لوصولهم أثره الفعال على صمود المتمردين، فانهار مباشرة ولاسيما من حول قصر الإمارة، لأن هؤلاء المتمردين خافوا على نسائهم وأولادهم، وأملاكهم، فتركوا القصر وعادوا إلى حيهم، مما ساعد الأمير الحكم على ملاحقتهم والإطباق عليهم من كل الجهات. فَقَتَل الكثيرين منهم دون رحمة أو شفقة. كانت هذه الحادثة من أقسى ما حدث في عصر الإمارة الأموية بالأندلس في مجال قمع الحركات المتمردة والمعارضة، لأن الأمر لم يقتصر على قتل معظم المتمردين فحسب، بل شمل ذلك تدمير الحي برمته، وطَرْدَ من نجا من أهله من الأندلس، فتوجَّهَ قسم منهم إلى المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم)، وسكن في الحي القديم من مدينة فاس الذي كان قد بني في البداية. سمي هذا الحي منذ ذلك الحين بحي الأندلسين، وما زال يحمل الاسم نفسه حتى اليوم، وقيل إن إدريس الثاني الذي أكمل بناء مدينة فاس، هو

الذي شجع الأندلسيين المولدين من ربض قرطبة على السكن في مدينته، وقد عملوا في مجال الزراعة والصناعة(٧).

وتوجَّه قسمٌ آخر من الربضيين المهجرين إلى مدينة الإسكندرية، فنزلوا في أطرافها في بداية الأمر، ثم سيطروا عليها فيما بعد مستفيدين من حالة الخلاف المتفاقمة فيها في تلك الفترة. قد ساعدهم على ذلك أعراب البحيرة القريبة من الإسكندرية، وأعلنوا استقلالهم عن السلطة العباسية، التي كان يمثلها الخليفة المأمون، واستمرت سيطرتهم على هذه المدينة من سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م حتى سنة ٢١٢هـ/٨٢٨م، حينما أمر الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر بوضع حدٍ لهؤلاء الأندلسيين وإعادة مدينة الإسكندرية إلى الحظيرة العباسية كما كانت، وحينما وصل إلى الإسكندرية لم يجد صعوبة في حل هذه المسألة. كان ذلك من خلال الاتفاق السلمي مع الأندلسيين على مغادرة مصر برمتها. وبالفعل توجهوا إلى جزيرة كريت، واستولوا عليها رغم قوة السلطة البيزنطية التي كانت هذه الجزيرة تخضع لها(٨).

مع مرور الأيام تحولت هذه الجزيرة إلى قاعدة عربية هامة، بعد أن كانت قاعدة بيزنطية لها أهميتها الكبيرة عند البيزنطيين في الغرب، وشكلت دعماً قوياً للعرب في المغرب الكبير والأندلس في مواجهة النشاط البيزنطي في غرب البحر المتوسط. إذ أصبح لها أسطولها الخاص بها، الذي غدا عقبة كأداة في سبيل حرية تحرك الأسطول البيزنطي التجاري والحربي في المنطقة. لكن البيزنطيين لم يسكتوا على هذا التطور في جزيرة كريت. فقد ظلوا يهاجمونها حتى تمكنوا من استعادتها في سنة ٣٥٠هـ/٣٩٢م(٩).

استناداً إلى موقعة الربض تلك سُمي الحكم بن هشام بالحكم الربضي، وقد كانت الموقعة درساً كبيراً لرجال الدين، جعلهم يسكتون طول عصر الإمارة الأموية بالأندلس. وبالقضاء على تمرد الربضيين المولدين، يكون الأمير الحكم الربضي، قد

أعاد للبلاد استقرارها، كما فعل جده عبد الرحمن الداخل من قبل، حينما لم يسمح لأحد بالتسلط على آخر إلا بما تسمح به القوانين الناظمة للدولة.

بعد وفاة الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط(١٠) لم يتمكن الأمراء الأمويون الذين جاؤوا بعده من فرض النظام والأمن والاستقرار في ربوع الأندلس، مما ساعد المولدين على الظهور بقوة في عدة أمكنة من أرض الأندلس. فقد تمكنوا من الاستقلال في منطقة الثغر الأعلى (سرقسطة) في شمال شرق الأندلس تحت اسم دويلة بني قسي. وظهرت لهم دويلة صغيرة في الثغر الأدنى (بطليوس) في غرب الأندلس تحت اسم دويلة بني الجليقي. لكن التجمع المولدي الأخطر. تجسد باتباع ومؤيدي الزعيم المولدي المتمرد عمر بن حفصون في جبال سييرا نيفادا بجنوب الأندلس، أي في المنطقة المحصورة بين رندة في غرب الأندلس وبين مالقة في شرقها. اتخذ هذا التجمع المتمرد قاعدة له في حصن (ببشتر) الحصين(١١). كانت حركة التمرد المولدي هذه، على مدى سنين طويلة أن تقوض حكم الأمويين. لكن افتقار هذه الحركة إلى البرنامج والتخطيط حال دون ذلك في نهاية الأمر. عمر بن حفصون المولدي هو سليل عائلة فقيرة، وقيل أنه منذ طفولته كان يمتاز عن أقرانه بالشراسة وحدة الطبع. قد قاده ذلك إلى قتل أحد جيرانه، فهرب إلى المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) وحلّ بمدينة تاهرت عاصمة دولة الخوارج الإباضية، وكان أثناء وجوده بمدينة تاهرت، يعمل في الخياطة كأجير. لكن إقامته بتاهرت لم تستمر طويلاً. فقد عاد إلى الأندلس إلى بلدة رية بجنوب الأندلس، وفيها اجتمع حول عدد من المؤيدين المولدين، واستقل بحضن ببشتر سابق الذكر. من هذا الحصن بدأ يتوسع باتجاه بعض المناطق الأندلسية، وفشلت كل المحاولات الأموية في هذه الفترة من وضع حدٍ لحركته، التي كانت تهدف في المقام الأول إلى تخليص الأندلس من السيطرة العربية. وحتى يستقطب إلى جانبه أكبر عدد من المؤيدين، أعلن ارتداده عن الإسلام. لكن هذه الخطوة لم يكتب لها النجاح، بل كانت وبالاً عليه. لأنها تسبب في عودة الكثير من المولدين المسلمين عن

تأييده، وقيل أن هذا حدث في الفترة المتأخرة من حياة هذه الحركة. خَلَفَهُ في العصيان والتمرد أولاده جعفر وسليمان وحفص، الذين قاوموا الإمارة الأموية حتى سنة ٣١٥هـ/٩٢٨م، حينما تمكن الناصر لدين الله من وضع حدٍ نهائي لهذه الحركة، التي أقضت مضجع البيت الأموي. وكان مما ساعد عمر بن حفصون على الاستمرار لفترة طويلة، هو عدم جدية الأمر لدى الأمويين طول هذه الفترة في حسم هذا الأمر. فقد تراجع الأمير الأموي محمد[١٢] من منطقة ابن حفصون، بعد أن سمع بمرض والده بمدينة قرطبة. هذا ما ساعد ابن حفصون على تنفيذ هجوم مضاد على بعض الحصون التابعة للإمارة الأموية. ولما حاول الأمير الأموي المنذر الرد على هجمات ابن حفصون باغته الموت في سنة ٢٧٥هـ/٨٨٩م .

أما الأمير الأموي عبد الله الذي حكم لمدة ربع قرن، فقد حاول إتباع أسلوب جديد في التعامل مع الحركات المتمردة بالأندلس. فبادر إلى الاعتراف بالدويلات التي كانت أعلنت استقلالها عن السلطة المركزية بقرطبة، على أن تقوم هذه الدويلات بدفع مبالغ مالية معينة استغلها الأمير عبد الله في تحضير القوة اللازمة لقمع حركة ابن حفصون، ونجحت هذه السياسة إلى حد كبير. فقد تمكن الأمير عبد الله من تهيئة قوة عسكرية كبيرة، مكنته من إحراز انتصارات هامة على ابن حفصون. قد أدت هذه الانتصارات رغم أنها لم تنه حركة التمرد هذه بشكل نهائي، إلى أن هذه الحركة تقلصت إلى أن اختفت نهائياً[١٣].

وبذلك تكون الأمارة الأموية قد تخلصت من أخطر حركة قام بها المولدون ضد السلطة العربية بالأندلس. بالقضاء على هذه الحركة الخطيرة عادت اللحمة من جديد بين كل أجزاء الأندلس، وأصبحت دولة الأمويين هناك من أقوى دول العالم في العصور الوسطى. لمدة أكثر من مئة عام، غابت ظاهرة الدويلات المستقلة، التي عانى منها الأمراء المتأخرون .

أما دويلة بني قسي المولدية بسرقسطة بشمال شرق الأندلس، ودويلة الجليقيين بالثغر الأدنى بغرب الأندلس، فقد استمرتا حتى جاء الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله، فألغاهما من الوجود في سياق إعادة بناء وحدة الأندلس، التي تعرضت لبعض الخلل في أواخر عصر الإمارة الأموية[١٤].

حاول المولدون من خلال بعض الكتَّاب، أن ينالوا من الحكم العربي بالأندلس من خلال كتاباتهم المناهضة للعرب ووجودهم بالأندلس. نذكر على ذلك مثلاً ما قام به المؤرخ الأندلسي المعروف صاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) ابن القوطية المولدي، الذي تميز بتعصبه الواضح للإسبان في شتى المجالات. ففي كتابه (تاريخ افتتاح الأندلس) يثني على الأمير القوطي الإسباني أرطباس بن غيطشة، ويهاجم الزعيم العربي الصميل بن حاتم زعيم القيسية بالأندلس في عصر الولاة. فينعته بالجهل والأمية وما إلى ذلك، مما يدل دلالة واضحة أن ابن القوطية المولدي بفعل قرابته من الأميرة الإسبانية سارة حفيدة ملك أسبانيا غيطشة القوطي، كان يميل إلى جانب الإسبان، ويكره السيادة العربية على الأندلس، مما جعل بعض الكتَّاب، يعد كتابات ابن القوطية هذا بداية المحاولات الأولى على طريق الشعوبية بالأندلس، ودليل ذلك أن ابن القوطية موضوع حديثنا، الذي عُرِفَ بالتعصب الشديد للدين الإسلامي وبتمسكه بتعاليمه، يضاف إلى ذلك أنه كان متعمقاً في اللغة العربية، تأليفه لكتاب في النحو سماه (الأفعال) . وفي ذلك مثال واضح الدلالة على أن الإسلام كدين وعقيدة، لم يتمكن حتى اليوم من إلغاء الثوابت القومية والوطنية في أذهان الناس، ولم يمكن أكثر من عقيدة يأمل أصحابها أن يفوزوا بأشياء مجزية في الدار الآخرة[١٥].

لقد أسهم المولدون بشكل أو بآخر بسقوط دولة المرابطين[١٦] في المغرب الكبير والأندلس، وذلك بقيام حركة المريدين التي تزعمها، أحمد بن قسي الذي كان يعمل جابياً مالياً لصالح المرابطين بمدين شلب بغرب الأندلس. حيث اعتزل فجأة هذا العمل ومال إلى التصوف، والتف حوله الكثيرون من الأتباع، والمريدين، وتبعاً لذلك سمي

بزعيم المريدين، واتخذ من بلدة ميرتلة قاعدة لحركته الصوفية، التي تحولت إلى حركة سياسية ضد دولة المرابطين. قد استطاعت هذه الحركة أن تسيطر بنجاح على معظم مناطق غرب الأندلس، وأعلن ابن قسي نفسه أميراً على هذه المنطقة وتلقب بالعزيز بالله. ثم حاول بعد ذلك السيطرة على قرطبة واشبيلية. لكن محاولته باءت بالفشل، وبعد فترة غير طويلة حدثت اختلافات بين ابن قسي وأحد معاونيه المعروف بابن وزير، أسفرت عن فوز ابن وزير في حكم المريدين، وبقي في الحكم حتى سقطت دولة المرابطين(١٧).

كذلك ظهرت حركة معارضة للمرابطين قادها مولدون إسبان في شرق الأندلس، وأخطر ما في هذه الحركات المعارضة هو اشتراك الفقهاء فيها إلى جانب الإسبان. قَصَدَت هذه الحركات التعرض للموحدين قبل دخولهم الأندلس، الذين كانوا على ما يبدو يشكلون مصدر خوف للإسبان جميعاً، بعد أن انضم المستعربون إلى حركة الاسترداد في عصر المرابطين. نذكر من هذه الحركات الحركة التي قادها محمد بن مردنيش، الذي يعود في الأصل إلى الإسبان كما هو واضح من اسمه، وقد ارتبط مع حركة الاسترداد الإسبانية بعلاقات تعاون وطيدة ضد الوجود العربي بالأندلس، وكان ذلك في عصر زعيمين كبيرين من زعماء حركة الاسترداد، وهما رامون سينرنغزير حاكم برشلونه، وألفونسو السابع حاكم قشتالة، وكان يدفع لهما جزية سنوية كبيرة، أرهق كاهل أتباعه من أجل جمعها لتأديتها في الوقت المناسب. ففرض ضريبة على كل مناشط الناس تقريباً حتى العائلية والاجتماعية منها كالأعراس وما شابه ذلك(١٨). وهذا ما ساعد ابن مردنيش على الاستمرار في الحكم لمدة خمسة وعشرين عاماً. من اللافت هنا أن الموحدين في أثناء دعوتهم ضد المرابطين. مدوا يد المساعدة إلى هذه الحركات لتسريع سقوط دولة المرابطين، وكانت أهم مساعدات الموحدين تلك التي قدموها إلى ابن قسي، الذي حضر بنفسه إلى المغرب وتقابل مع الزعيم الموحدي عبد المؤمن بن علي، واستطاع أن يحصل على مساعدة، الموحدين، التي تجسدت بإرسال

قوة عسكرية إلى الأندلس، تمكنت في سنة ٥٤١/١١٣٧م من السيطرة على بلدة طريف والجزيرة الخضراء، وتابعت باتجاه لبلة وميرتلة، وباجة وبلطليوس وشلب بغرب الأندلس، وبعد مضى سنة على ذلك تمت السيطرة على مدينة إشبيلية[١٩].

تابع المردنيشيون وقوفهم ضد الوجود العربي بالأندلس بعد سقوط المرابطين. فعلى الرغم من قوة الموحدين فقد قاموا بشن هجوم مباغت على مدينة غرناطة في سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م، وتمكنوا من دخول هذه المدينة بمساعدة مجموعة من سكانها اليهود، الذين كانوا قد أعلنوا انقلابهم صراحة ضد عصر الطوائف، حينما سقطت الخلافة بالأندلس، وأَصبح العرب ضعفاء، وبدأ الإسبان يأخذون بزمام المبادرة في معظم الأمور العسكرية. فانتقل اليهود بكل ثقلهم إلى جانبهم، يقدمون لهم كل ألوان المساعدة ضد العرب، وهي عادة متجذرة في تاريخ اليهود. فهم على الدوام مع الطرف الأقوى ضد الضعفاء والمنكوبين[٢٠]. لكن الموحدين في عصر الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن تمكنوا من إعادتها إلى السيطرة العربية. على أثر ذلك جاء هلال بن محمد بن مردنيش إلى حضرة الخليفة الموحدي، الذي كان موجوداً بإشبيلية سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، وقدّم له الولاء والطاعة[٢١]. فعفا عنه وتزوج أخته المعروفة بالزرقاء المردينيشية أو الزرقاء بنت محمد بن مردنيش، التي فازت بحب الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن، مما جعله يعطي أهلها وأسرتها الكثير من المكاسب والامتيازات، وكان يضرب المثل بذلك الحب بالأندلس لشدته وصدقه وديمومته[٢٢].

أما بخصوص المستعربين فقد شغلوا دوراً كبيراً ومهماً في المجتمع العربي بالأندلس، وقد اختلف هذا الدور كلياً عن دور المولدين. ففي حين شغل المولدون دوراً سلبياً في كل مجالات الحياة العامة بالأندلس، على الرغم من اعتناقهم الدين الإسلامي، شغل المستعربون دوراً إيجابياً لافتاً، ساعد في معظم الأوقات على صنع حياة عربية حافلة بالهدوء والاستقرار والإنتاج الحضاري المتنوع. هذا إن دلّ على شيء فإنه يدل

على شدة تأثرهم وقناعتهم الراسخة بثقافة العرب وحضارتهم في تلك الفترة من الزمن.

فلم تتعرض مجموعة المستعربين لمصالح الدولة العربي بالأندلس، لأنها رأت في استمرار هذه الدولة استمراراً لحياتها وأمنها وسلامتها وتحقيق مصالحها العامة، التي ارتبطت بالدولة العربية ارتباطاً وثيقاً على أساس المواطنة، فدافعت عن هذه الدولة في كل المناسبات المهمة والمصيرية. ولعل هذا الواقع الذي حصل منذ عصر الإمارة الأموية، واستمر إلى وقت طويل كان من أبرز مظاهر اقتناع المستعربين بثقافة العرب وريادتهم. والدليل على ذلك. أن رجال الدين المسيحيين بالأندلس. وقفوا موقفاً سلبياً تجاه المستعربين والدولة العربية بالأندلس، بعد أن وجدوا أن المستعربين قد تعمقوا في دراسة الثقافة العربية. من علوم تطبيقية ونظرية وآداب، ونبغ منهم عدد مهم في هذه المجالات. تجسد موقف رجال الدين المسيحيين بأن قادوا حملة مناهضة للثقافة العربية وللمستعربين، الذين انكبوا على دراسة معطياتها، فتعربوا لغة وثقافة وموقفاً. كانت حجة رجال الدين المسيحيين، أن الثقافة العربية أثرت بشكل كبير على الثقافة اللاتينية بصورة عامة.

تزعَّم حركة رجال الدين هذه الراهب (إيلوخيو) الذي ركز على مسألة التمسك باللغة اللاتينية، والعزوف نهائياً عن ثقافة اللغة العربية بكل تفاصيلها. لكن محاولته باءت بالفشل، لأن تأثير الثقافة العربية كان كبيراً في صفوف الإسبان المستعربين، فتحولت هذه الحركة من معارضة الثقافة العربية إلى هجوم قوي على الدين الإسلامي. كان القائمون على هذه الحركة يغرون الناس بدعاية غير واقعية، قامت على فكرة أساسية هي أن كل من يعادي الدين الإسلامي ويموت وهو يحارب هذا الدين فهو شهيد، لذلك عرفت هذه الحركة عند الأندلسيين المؤيدين لها بحركة الاستشهاد، وسماها عرب الأندلس حركة الاستخفاف. لأن بعض أتباعها كانوا يستخفون بمقدسات المسلمين أو ببعض ما هو مقدس عندهم. مثال ذلك أنهم أقدموا

على شتم النبي محمد (ص) كما فعل شخص بقربطة اسمه (برفكتو) الذي أحيل على أثر ذلك إلى القضاء، الذي حكم بإعدامه سنة ٢٣٥هـ/٨٥٠م. وكذلك فعل رجل آخر اسمه (اسحق) في السنة الثالثة. فحكم عليه القضاء بالإعدام أيضاً على الرغم من أن القاضي الذي أصدر الحكم كان سيخفض هذا الحكم، لكن الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط الذي عاصر هذه الحركة أصر على تنفيذ حكم الإعدام، حتى لا تستفحل هذه الحركة في صفوف الناس، لأنها عُدت من الأكثرية الأندلسية حركة غريبة لأن الأندلسيين لم يعرفوا التعصب ضد بعضهم بعضاً وخاصة في فترة حكم الأمويين بالأندلس[٢٣].

لكن هذه الحركة لم تستمر طويلاً، لأن المستعربين الإسبان وجدوا في استمرارها خطراً كبيراً على المكتسبات المهمة التي حصلوا عليها في ظل الحكم العربي بالأندلس، فأعلنوا عن استنكارهم لهذه الحركة برمتها. وعُقد بمدينة قرطبة مجمع ديني بموافقة الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط برئاسة مطران إشبيلية (ريكا فريدو) في سنة ٢٤٧هـ/٨٥٢م. اتفق المشتركون في هذا المجمع على استنكار كل الأعمال، التي قام بها أصحاب حركة الاستشهاد وأدانوها، وعدوها خطيرة وغير مسؤولة على الإطلاق، لأنها خرجت عن إرادة الكنيسة[٢٤].

لقد أعطى العرب المستعربين في الأندلس حريات واسعة النطاق، فعلى الرغم من إعطائهم حقوق المواطنة كاملاً، فقد خصصوا لهم قضاء مستقلاً لم يحدث نظير له في منطقة عربية أخرى في العصور الوسطى. يقودنا هذا لتأكيد فكرة مهمة، هي أن عرب الأندلس استطاعوا أن يتفوقوا في مسألة تطبيق تعاليم الإسلام الصحيحة، التي تؤكد على التعايش الإنساني والحضاري مع كل الشعوب. وظل ذلك مَرْعياً راسخ الجذور طول فترة الحكم العربي هناك تقريباً. حيث حكم المستعربون في دوائر قضائهم بموجب القانون الإسباني، وكان قاضيهم يسمى قاضي النصارى وقاضي العجم[٢٥].

أما في الحالات التي كان المستعربون يقدمون على شتم الرسول الكريم (ص) أو التقليل من قدر الدين الإسلامي، فكانوا يحالون إلى القاضي المسلم، مثال ذلك ما حدث سنة ٢٣٥هـ/٨٥٠م في عصر الإمارة الأموية، حينما قام المستعربون في حركتهم المعادية للثقافة العربية بالأندلس، واستهلوها بشتم الرسول الكريم (ص)، والقول أن الدين الإسلامي دين يقوم على الوهم والخيال. فأُحيل عدد كبير منهم إلى قاضي المسلمين، لكن وعلى الرغم من بشاعة جرمهم في ذلك الوقت، فقد أمر الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط بإعطاء المتهمين فرصة كبيرة للدفاع عن أنفسهم، وذلك بتوكيل من يدافع عنهم، وإخضاع الأحكام إلى درجات حتى لا يظلم أحد منهم. فكان لذلك أثره الإيجابي في نفوس المستعربين، الأمر الذي جعلهم يخففون من غلواء ثورتهم، ويعدون من مات في هذه المعركة ليس من الشهداء[٢٦].

كما عُرف في عصر الخلافة الأموية بالأندلس بعض القضاة المستعربين الذين كانوا على علاقة طيبة مع بعض خلفاء هذه الفترة. نذكر منهم القاضي أصبغ بن عبد الله بن نبيل قاضي المستعربين في عصر الخليفة الحكم المستنصر[٢٧]، وأصبغ بن سلمة هو الذي استعان به المنصور محمد بن أبي عامر حاكم الأندلس سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م لحل خلاف وقع بين ألفونسو وبعض المتنفذين من المسيحيين في جليقية، وهي منطقة حركة الاسترداد في شمال غرب الأندلس، وقد حلُ الخلاف من قبل القاضي المذكور[٢٨].

كان القضاة المسلمون يقفون أمام مقدسات المستعربين باحترام بالغ، لاسيما حينما كانوا يلجأون لأخذ اليمين منهم. فقد كانوا يبحثون عن أهم المقدسات المسيحية في البلدان، التي كانوا يعملون فيها من أجل أن يحلف المستعربون في قضية معينة. فكانوا يخيَّرون بالذهاب إلى أقدس مركز ديني ومعهم نائب عن القاضي المسلم، يرافقه أحد الشهود فيحلف اليمين وتنقضي المشكلة[٢٩].

وهناك حالة جديرة بالذكر في هذا المقام، لما كانت تستوجب إحالة المتهم من المستعربين إلى القاضي المسلم، وهي التعامل مع حركة الاسترداد المعادية للوجود العربي بالأندلس. فقد واجه القاضي أبو الوليد بن رشد واحدة من هذه الحالات، حينما أحيلت إلى دائرته القضائية مجموعة من المستعربين. فحكم على جميع أفراد هذه المجموعة بالنفي إلى المغرب الكبير وتفريقهم في نواحيه، وهو أحق ما يؤخذ به في عقابهم، وكان أفراد هذه المجموعة قد اتصلوا مع زعماء حركة الاسترداد الإسبانية في الشمال وشجعوهم على غزو المناطق الأندلسية التي يسيطر عليها العرب سنة ٥١٩هـ/١١٢٦م(٣٠).

من خلال هذه المعاملة الطيبة للمستعربين، يتضح إنهم عَدُّوا أنفسهم مواطنين ممتازين لا فرق بينهم وبين بقية المواطنين، ولاسيما العرب منهم، وهذا ما جعلهم يدافعون بكل إمكاناتهم ويسعون بكل الوسائل لعودة مدينة طليطلة إلى السيادة العربية، التي كانت قد سقطت بأيدي زعماء حركة الاسترداد في سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٦م، مستغلين وجود دويلات ضعيفة بالأندلس لا هم لها سوى التقاتل فيما بينها على السيطرة والنفوذ. كان سقوط طليطلة ضربة كبيرة للوجود العربي بالأندلس، لأن طليطلة تتوسط بلاد الأندلس، وهي ثغرها الأوسط، وتبع سقوطَ طليطلة وسقوط جميع توابعها مثل مجريط (مدريد) ومدينة سالم، ووادي الحجارة، واقليش وقونكة، وهي منطقة واسعة تصل إلى حدود مدينة قرطبة، لذلك عدّها الأسبان إنجازاً عظيماً لحركة الاسترداد، وأطلقوا عليها تجسيداً لعظمة هذا الإنجاز اسم (قشتالة الجديدة). لأن قشتالة القديمة في وسط شمال الأندلس كانت عاصمة لحركة الاسترداد الإسبانية، وقد عبّر الشاعر الطليطلي المعروف بابن العسال عن هذه المأساة العربية أفضل تعبير، وعدّها بداية النهاية للوجود العربي بالأندلس. حيث قال في قصيدة طويلة:

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلــــــط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط(٣١)

كان المستعربون من أكثر الذين تأثروا بسقوط مدينة طليطلة، مما يدل بوضوح على عمق تجذرهم في الثقافة العربية وعظيم وفائهم لكل ما هو عربي بالأندلس. فقد تحركوا على أثر سقوط طليطلة، واتصلوا بزعامة حركة الاسترداد، علهم يرفعون الضيم عن العرب جراء نكبة طليطلة. كان ذلك برئاسة شخص يدعى (ششند)، الذي حاول جاهداً أن يقنع قادة حركة الاسترداد، بأن يتعايشوا مع العرب المغلوبين بطليطلة وما حولها على أساس المودة والسلام والاحترام، مذكراً إياهم بحسن وإنسانية معاملة العرب للإسبان عامة طول مئات السنين. لكن ذلك لم ينفع في تغيير أي شيء من فصول النكبة العربية، التي حلت بالعرب نتيجة اختلافهم وتفرقهم. حيث اتحدت قيادة حركة الاسترداد مع مجموعة دينية فرنسية، كانت تتبع لنظام كنسي عُرف بنظام كلوني نسبة لدير كان قد نشأ فيه هذا النظام بمدينة كلوني بجنوب فرنسا، وهو نظام عنصري متعصب، كان هدفه الأساسي استئصال شأفة الوجود العربي في القارة الأوروبية(٣٢).

من الجدير بالذكر هنا أن موقف المستعربين حيال سقوط طليطلة كان موقفاً كبيراً أو مؤثراً، يعكس وفاء هؤلاء المستعربين للوجود العربي بالأندلس، الذي أعطاهم كل حقوقهم، وأعلى من شأنهم في كل المجالات إلى درجة أنهم فُضّلوا على العرب أنفسهم، نذكر من ذلك على سبيل المثال، أنه في عصر الإمارة الأموية ارتفع شأن عدد من الشخصيات الأندلسية المستعربة إلى درجة كبيرة مثل المستعرب ربيع القومس، الذي ظهر نفوذه في عصر الأمير الحكم الربضي، وكذلك قومس بن أنطونيان، الذي نال دنيا عريضة في عصر الأمير الأموي محمد. وكان الأمير الأموي الحكم الربضي، يحرص على أن يكون حراسه من المستعربين، وهذا يدل بوضوح على الثقة الكبيرة من قبل رجال الحكم بالمستعربين(٣٣).

في عصر المرابطين تغير موقف المستعربين لأول مرة منذ دخول العرب للأندلس، وكان هذا التغير ضد مصلحة العرب بصورة عامة، لأنهم وجدوا في حكم المرابطين خطراً مباشراً على وجودهم ومستقبلهم. لأن حكم المرابطين لم يكن مستقلاً عن تسلط الفقهاء. فبدلاً من ذلك اعتمد عليهم اعتماداً كبيراً، لم تشهد له الأندلس مثيلاً على الإطلاق، ومن ذلك أن الفقهاء أقنعوا الحاكم المرابطي يوسف بن تاشفين بتهديم كنيسة للمسيحيين بباب البيرة بمدينة غرناطة، كانوا قد بنوها في عصر الطوائف مستفيدين من حالة التسامح التي سادت في هذا العصر(٣٤). وقد أثار هذا حقد المستعربين وسخطهم على المرابطين، الذين لم يكونوا حتى هذا الوقت قد تحركوا ضد السلطة العربية بالأندلس، على الرغم من وجود نشاط حركة الاسترداد الإسبانية منذ عدة قرون قبل هذا الحادث.

أدى هذا الحادث الذي تسبب به الفقهاء على عادتهم في إثارة المشاكل أدى إلى انتقال المستعربين من الأندلسيين إلى مساندة حركة الاسترداد لأول مرة في تاريخ الوجود العربي بالأندلس، لأنهم كانوا يرون في هذا الجبهة حصناً يحميهم من تعصب الفقهاء، الذين يديرون شؤون الحكم المرابطي، وقد ساعد هذا الأمر ألفونسو على اختراق أراضي الأندلس بدءاً من الشرق، حتى وصل إلى مدينتي غرناطة وقرطبة ثم إلى البحر المتوسط، في الجنوب، وكان يرى في كل مكان وصله ترحيباً بالغاً، بعد أن فقدوا الأمل في تحسين أحوال المرابطين في مجال إدارة الحكم على أساس المساواة بين الناس جميعاً(٣٥).

وهذا ما ساعد بعض القوى الإسبانية الأخرى من غير قوى حركة الاسترداد على التحرك للسيطرة على بعض المناطق التي كانت تحت سلطة المرابطين. فقد قام كونت برشلونة بالسيطرة على طرطوشة بمساعدة جمهورية جنوا الإيطالية. ثم سيطر بعد ذلك على لاردة وما حولها، وتمكن ألفونسو السابع من السيطرة على قلعة رباح في الشمال، ثم على مدينة المرية في جنوب الأندلس على البحر المتوسط، وذلك

بمساعدة جنوية وفرنسية، وميناء المرية كان من أهم موانئ الأندلس كلها، والسيطرة عليه أدت إلى تفويض الحركة التجارية العامة بالأندلس(٣٦).

كذلك سيطرت القوات البرتغالية على معظم مناطق غرب الأندلس، وسمحت بمرور قوات فرنجية في أراضيها وفي موانئها وهي قوات ألمانية وإنكليزية وفلمنكية، كانت تتخذ من غرب الأندلس محطة استراحة وتزود بالمؤن وغيرها على طريقها إلى غزو الشرق العربي. أهم المواقع التي سيطر عليها البرتغاليون هي مدينة شنترين، التي سقطت في أيديهم سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، وذبحوا معظم سكانها في الوقت الذي وصلت فيه حملة فرنجية على متن أكثر من ١٦٤ سفينة، قوامها من الجنود الإنكليز والفرنسيين والألمان، وكان هدفهم الوصول إلى فلسطين لنجدة ريتشارد قلب الأسد. فاستغل البرتغاليون توقف هذه الحملة بمدينة شنترين، وطلبوا من قادتها تقديم العون للسيطرة على مدينة لشبونة، فبادروا إلى نجدة البرتغاليين وسقطت المدينة بأيديهم، وحاول الموحدون بعد قليل استعادة هذه الأماكن ففشلوا(٣٧).

وعلى الرغم من مجيء الموحدين إلى حكم الأندلس والمغرب(٣٨)، الذين كانوا يختلفون عن المرابطين في مسألة التعصب والانقياد لرجال الدين، فقد كانوا منفتحين على جميع مكونات المجتمع، يحدوهم في ذلك الحفاظ على وحدة دولتهم واستقرارها. على الرغم من ذلك لم يعد المستعربون إلى الجهة العربية، كما كانوا منذ الفتح العربي للأندلس حتى مجيء المرابطين إلى الحكم، وبقوا يميلون في الولاء والتأييد لحركة الاسترداد الإسبانية، التي تمكنت في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي من وضع حدٍ نهائي للوجود العربي بالأندلس بعد مضي ثمانية قرون على هذا الوجود.

وبالجملة فقد استغل المولدون الإسبان قضية اعتناقهم للدين الإسلامي، فحاولوا الانقلاب على السلطان العربي بمساعدة رجال الدين، الذين وجدوا في المولدين وسيلة

للانتقام من كل الحكام، الذين حرصوا على وحدة الدولة واستقرارها، التي كانت تتألف من عدة مكونات بشرية غير متجانسة، مما ساعد على خلق جبهة داخلية عربية متماسكة، استطاعت في كل الظروف أن تقف في وجه كل المحاولات الإسبانية والأوروبية المعادية، وخاصة في عصر الخلافة الأموية، التي كانت فيه الدولة العربية بالأندلس من أزهى وأقوى دول العالم بإطلاق، حضارةً وعلماً وثقافة، لأن الجميع من عرب وإسبان ومغاربة ويهود، تعاونوا تحت المظلة العربية، التي أفاءت على الجميع بظلها الوراف، ووفرت لهم كل أشكال الحرية والأمن والاستقرار.

فقد كان المولدون يستغلون كل ثغرة لينة أو ضعف في جسم الحكم العربي بالأندلس، فيمكنون ثوراتهم وتمرداتهم ضد الحكم العربي، علهم يحققون ما كانوا يصبون إلى تحقيقه على الدوام. تجلى هذا بقوة وبشكل خطير في ثورة عمر بن حفصون المولدي سابق الذكر. كان هذا الاستغلال من قبل المولدين، يذهب إلى منعطفات خطيرة للغاية، فكانوا في بعض الأحيان يطلبون العون والمساندة من حركة الاسترداد الإسبانية المتربصة بالوجود العربي بالأندلس، مما كان يشجع هذه الحركة على تجديد نشاطها، وتهديدها للدولة العربية. كان ذلك يحدث على الرغم من أن المولدين كانوا يُعامَلون معاملة العرب في الحقوق والواجبات.

أما المستعربون فقد كانوا صادقين في مسيرتهم العامة تجاه الوجود العربي بالأندلس، وحرصوا من خلال أعمالهم في الإدارة العامة والعلم والاقتصاد، على أن تكون كلمة الدولة العربية بالأندلس هي العليا. لكن العرب في عصر المرابطين وجهوا لهم ضربة مؤلمة من خلال التعرض لبعض أماكن عبادتهم، كانت كافية لانسحابهم الأبدي من المؤسسات العربية، وانتقالهم إلى الجانب الإسباني المقاوم للوجود العربي بالأندلس، الذي كان يتمثل في العصور الوسطى بحركة الاسترداد، التي حرصت على حماية الإسبان من خطر توجهات رجال الدين المسلمين ابتداء من عصر المرابطين حتى نهاية الوجود العربي بالأندلس في نهاية العصور الوسطى.

بذلك يكون رجال الدين قد أسهموا بقوة في ضرب حالة الاستقرار في الدولة العربية بالأندلس. فمن جهة حرضوا المولدين على التمرد وعدم الانقياد للسلطة العربية المركزية، ومن جهة أخرى جعلوا المستعربين الأوفياء للسلطة العربية، يغيروا موقفهم من هذه السلطة وينتقلوا إلى الجانب الآخر بكل تأثيرهم وثقلهم على كافة الصعد، خاصة أنهم كانوا يمثلون الأكثرية الساحقة من سكان المدن الكبرى بالأندلس مثل طليطلة وإشبيلية وقرطبة وسرقسطة ومدريد وغيرها.

الهوامش

(1) المولدون هم مجموعة كبيرة من الأندلسيين اعتنقوا الإسلام فسمي الجيل الأول بالمسالمة وسمي الجيل الثاني بالمولدين.

(2) المستعربون هم مجموعة كبيرة من الأندلسيين بقوا على دينهم وتخلقوا بأخلاق الثقافة العربية.

(3) بدأ عصر الإمارة الأموية بالأندلس في سنة ١٣٨هـ وانتهى في سنة ٣١٦هـ.

(4) ابن عذاري – **البيان المغرب** ج٢ ص٩٤.

(5) ابن القوطية – **تاريخ افتتاح الأندلس** ص٤٦ – مؤلف مجهول – أخبار مجموعة ص١٣٠ – ابن عذاري – المصدر السابق ٢٤٠ ص١١١ وما بعدها.

(6) بدأ عصر الولاة بالأندلس في سنة ٩٧هـ وانتهى في سنة ١٣٨هـ.

(7) البكري – **المغرب في ذكرْ بلاد إفريقية والمغرب** ص١٥٥.

(8) vasiliev – History of the by2entine empire – P 278.

(9) عبد العزيز سالم – **تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامي** طبعة الإسكندرية ١٩٦١ ص٥٢.

(10) حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨هـ.

(11) ابن الخطيب **أعمال الأعلام** ص٤١ .

(12) حكم هذا الأمير من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣هـ .

(13) ابن حيان – **المقتبس** ص٣٣ – ابن القوطية – المصدر السابق ص٧١. وما بعدها، ابن عذاري – المصدر السابق ج٢ ص١٤٢ وما بعدها.

(14) العذري – **ترصيع الأخبار** ص٩ وما بعدها – ابن عذاري – المصدر السابق ج٢ ص١٥٠ وما بعدها.

(15) المقري، **نفخ الطيب** ج١ ص١٥٥ وما بعدها – مؤلف مجهول – أخبار مجموعة ص٣١.

(16) بدأت هذه الدولة في سنة ٤٨٤هـ وانتهت في سنة ٥٤٣هـ.

(17) ابن الآبار – **الحلة السيراء** ج٢ ص١٩٧ وما بعدها.

(18) ابن الخطيب – **الإحاطة في أخبار غرناطة** ج٢ ص١٤١ وما بعدها.

(19) انظر عن طبيعة اليهود – علي أحمد وإبراهيم زعرور – **اليهود في المغرب والأندلس** طبعة دمشق ١٩٩٩.

(20) انظر عن طبيعة اليهود – علي أحمد وإبراهيم زعرور – **اليهود في المغرب والأندلس** طبعة دمشق ١٩٩٩.

(21) ابن الخطيب – **أعمال الأعلام** ص٢٦٢ وما بعدها، ابن صاحب الصلاة المصدر السابق ص١٨٦.

(22) ابن صاحب الصلاة – المصدر السابق ص١١٥ – ابن الخطيب **أعمال الأعلام** ص٢٥٩.

(23) بدأ حكم الأمويين بالأندلس في سنة ١٣٨هـ وانتهى في سنة ٤٢٢هـ.

(24) أحمد مختار العبادي – **في تاريخ المغرب والأندلس** ص١٤٤ وما بعدها.

(25) عمر فروخ – **العرب والإسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط** طبعة ثانية بيروت ١٩٨١ – ص١٨٤.

(26) خير الله طلفاق – **حضارة العرب بالأندلس** – طبعة بغداد دوار الحرية ١٩٧٧ ص١٦٩.

(27) حكم هذا الخليفة من سنة ٣٥٠ إلى سنة ٣٦٦.

(28) النباهي ص٥٦ وما بعدها ابن خلدون – العبر ج٢، ص٣٩٠.

(29) المالكي – **رياض النفوس** ج٢ ص٣٥٩.

(30) ابن الآبار – **التكلمة لكتاب الصلة** ج١ ص٢٩٣.

(31) ابن خلكان – **وفيات الأعيان** ج٤ ص١١٨.

(32) أشياخ – **تاريخ المرابطين والموحدين** ج١ ص١٣٩.

(33) الخشى – **قضاة قرطبة** – تحقيق إبـراهيم الأبيـاري – دار الكتـاب العربـي المصري ١٩٨١ ص٩٠ وما بعدها، حسين مؤنس – **فجر الأندلس** طبعة ثانيـة جدة – ١٩٩٥ – ص١٠١.

(34) ابن الخطيب – **الإحاطة في أخبار غرناطة** – ص١١٤.

(35) ليفي بروفنسال **الإسلام في المغرب والأندلس** ص٢٥٠.

(36) ابن الأثير – **الكامل في التاريخ** ج١١ طبعة القاهرة ١٣٠٣ هـ ص١٣٦.

(37) ابن صاحب الصلاة – **المن بالإمامة على المستضعفين** ج٢ تحقيق عبد الهادي التازي طبعة بيروت ١٩٦٤ ص٤٤٧ وما بعدها.

(38) حكم الموحدون في المغرب والأندلس من سنة ٥٤٢ إلى سنة ٦٦٨هـ.

المصادر والمراجع

- ابن الآبار – التكملة لكتاب الصلة – مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٦ الحلة السيراء – تحقيق حسين مؤنس طبعة أولى الشركة العربية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٣.
- ابن الأثير – الكامل في التاريخ طبعة صادر بيروت ١٩٦٥.
- الإدريسي – صفة المغرب وأرض مصر والأندلس مطبعة بريل ليدن ١٩٦٤.
- بلانثيا (أنخل جنثالث) تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس – الطبعة الأولى – مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٥.
- الخشني (محمد بن حارث) قضاة قرطبة – الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦.
- ابن الخطيب (لسان الدين) الإحاطة في أخبار غرناطة – تحقيق محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٥.
- أعمال الإعلام تحقيق أحمد العبادي ومحمد الكتاني دار الكتاب الدار البيضاء ١٩٦٤.
- ابن خلكان (أحمد الأربلي) وفيات الأعيان – تحقيق إحسان عباس طبعة دار صادر بيروت ١٩٧٠ – ١٩٧١م.
- الضبي (أحمد بن يحيى) بغية الملتمس – دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٧.
- العبادي (أحمد مختار) في تاريخ المغرب والأندلس طبعة دار المعارف.
- ابن عذاري المراكشي – البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق س. كولان وليفي بروفنسال وإحسان عباس طبعة ليدن ١٩٤٨ وبيروت ١٩٦٧.

- عنان (محمد بن عبد الله) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس.
- ابن القوطية (محمد بن عمر) تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق عبد الله أنيس الطباع بيروت ١٩٥٧.
- ليفي بروفنسال – تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس – ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي – القاهرة بدون تا.
- المراكشي (عبد الواحد) المعجب في تلخيص أخبار المغرب طبعة القاهرة ١٩٦٣.
- المراكشي (محمد بن عبد الملك) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٥٦.
- المقري التلمساني (أحمد بن محمد) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق إحسان عباس طبعه دار صادر بيروت ١٩٦٨.

مؤلف مجهول – الأخبار المجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم – طبعة مدريد ١٩٦٧.

إمارة ميافارقين الأيوبية ووقوفها في وجه الغزو المغولي ٦٢٧ ــ ٦٥٨ هــ/١٢٣٠ ــ ١٢٦٠ م

إعداد نهى فضل الله حميد

قسم التاريخ

جامعة دمشق

مخطط البحث

سادساً: سقوط ميافارقين ونهاية الملك الكامل ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م:

١. إحكام الحصار ودخول المدينة
٢. معاناة المدينة والأهالي
٣. نهاية الملك الكامل

سابعاً: الخاتمة

ثامناً: الملاحق

تاسعاً: المصادر والمراجع

أولاً: المقدمة:

وقعت أراضي الخلافة العباسية بعد نهاية حقبة الخلفاء الأقوياء مع بداية القرن ٣هـ / ٩م من تاريخها فريسة الأطماع والتنازع بين الحكام والأمراء، وأصبح انتقال السلطة في مدينة ما من يد إلى أخرى شيئاً عادياً ومتكرراً؛ فضلاً عن اغتصاب سيادة الخلافة العباسية نفسها من هذا الجانب أو ذاك من القوى التي استغلت واقعها المتردي، وأصبح العبيد الأرقاء الذين جلبوا من أقاصي الأرض يتسمّون بالملوك والسلاطين. مما شجع كل طامعٍ وغازٍ على التوجه إلى ديار المشرق العربي الإسلامي، فكان الغزو الصليبي الذي دام زهاء قرنين من الزمن ٤٩٣ - ٦٩١ هـ/ ١٠٩٨-١٢٩١ مع ما أحدثه من خراب ودمار في بلاد الشام خاصة. وإبان الهجمة الصليبية ابتُلِيَت المنطقة بموجة غزوٍ ثانية قدمت من شرقي آسيا في أوائل القرن ٧هـ/ ١٣م، وهي الاجتياح المغولي الذي كان طوفاناً اكتسح في طريقه كل شيء، فهدم المدن العامرة الآهلة بالسكان، وأحرق الأرض، واندثرت كل حضارة مر عليها؛ مخترقاً بسرعة رهيبة أواسط آسيا، وبعض بلدان العالم الإسلامي بلداً تلو الآخر تسبقه أخبار الموت والدمار(١).

لكن في وجه هذا الجبروت برزت إشراقات مضيئة؛ مدن صمدت حتى الموت والنهاية؛ تحمّلت الجوع والعطش والرعب والخوف، وهي تعلم أن معركتها خاسرة سلفاً مع مثل هذا العدو الطاغي! من هذه المدن؛ "ميافارقين ورجالها"(٢)، المدينة الجزرية الواقعة الآن ضمن أراضي الجمهورية التركية في محافظة ديار بكر، التي انصرف هذا البحث لدراسة أحداث تاريخها في هذه المرحلة المهمة من التاريخ العربي الإسلامي؛ لموقفها المشرف ولأهميتها وتَميّزِها.

كانت ميافارقين حينئذٍ مركزاً لإحدى الإمارات الأيوبية الواقعة في أعالي الجزيرة الفراتية، حيث عاشت الخلافة العباسية ودول المشرق العربي الإسلامي أحداثاً عصيبة انعكست نتائجها على العالم المعروف آنذاك قروناً عديدة. إذ إنه وعلى الأهمية التي تتميز بها المنطقة - من حيث موقعُها المتوسط بين العراق وبلاد الشام وأرمينية وأذربيجان، وتمثيلها صلة وصل بين طرق المواصلات البحرية (التجارة) في جنوب شرق آسيا وجنوب أوروبة ممّا أهّلها لأن تمثل أقصر الطرق بين هاتين المنطقتين فضلاً عن قربها من بلاد فارس والخليج العربي، وتوفر إمكانية سهولة التواصل مع مصر وشمال أفريقية عن طريق بلاد الشام، فهي مهمة للتجارة ولمرور الجيوش أيضاً؛ إضافة إلى غناها بالموارد الطبيعية والزراعية مما منحها أهمية ومكانة خاصة على مر العصور، لم تلق القدر الكافي من الدراسات التاريخية العلمية المتخصصة؛ ما عدا ما قام به بعض المستشرقين من دراسات جزئية أو عامة للمنطقة؛ كدراسات: المستشرق الفرنسي رنيه دوسوّ R. Dussaud ١٩٢٧م "التاريخ الطبوغرافي لسورية في العصور القديمة والوسطى"(٣)، والعالم الفرنسي جان سوفاجيه J. Sauvaget ١٩٣٤م، الذي قدم دراسة وافية عن حلب(٤)، والباحث الفرنسي كلود كاهن Cl. Cahen الذي كتب عن شماليّ سورية ١٩٤٠م(٥)؛ إضافة إلى أعمال عامة عن التطور الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة في الحقبة المعنية. ففي كتابه "مدينة العصر الوسيط في الشرق الأوسط " يتناول المستشرق الروسي بولشاكوف O.Г Большаков دراسة

الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للعديد من المدن، موسكو ـــ لينينغـراد ١٩٨٤م(٦).
وهنا يمكن الإشارة إلى:

- كتاب اسكندر داوود "الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر" ١٩٥٩م(٧)، يجمع فيه معلومات عن مدن المنطقة، ولكنه يدرجها دون نقد أو تحقيق أو حتى تسلسل زمني، ثم يذكر في أي وضع ومستوى هي في زمنه.

- سليمان الصائغ: "تاريخ الموصل" ، ج١، ١٩٢٣؛ ج٢، ١٩٢٨م؛ ج٣، ١٩٥٦م(٨).

- سوادي عبد محمد الرويشيدي:ـ "إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ"، ١٩٧١م(٩).

- "الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن ٦ هـ / ١٢م، ١٩٨٩م"(١٠).

- حسن شميساني: ـ "مدينة سنجار من الفتح العربي الإسلامي حتى الفتح العثماني"، بيروت ١٩٨٣م(١١).

- "تاريخ ماردين " ، الموصل،١٩٨٧م(١٢).

- محمد يوسف غندور: "جزيرة ابن عمر"، ١٩٩٠م(١٣).

إلى جانب بعض الرسائل والأبحاث، والمقالات المتفرقة في الموسوعات المختلفة ومجلات البحث العلمي.

قد يكون أحد الأسباب المهمة لقلة الدراسات حول المنطقة عدم توفر المصادر المتخصصة التي تقدم معلومات تساعد على البحث. أمّا ما يخص ميافارقين فيمكن القول: إنَ المصادر تناولت أوضاعها في العصر الأيوبي تناولاً عاماً، وأمّا ما يتعلق بتفاصيل هجوم المغول عليها وأوضاعها أثناء الحصار وسقوطها، فإن عز الدين بن شداد ٦١٤ـ٦٨٤هـ/١٢١٧ـ١٢٨٥م في كتابه "الأعلاق الخطيرة" يكاد يكون

المصدر الوحيد للكثير من المعلومات المفصلة. ومَرد ذلك إلى أنه كان معاصراً للحدث بل مشاركاً فيه، إذ كان سفيراً للملك الناصر يوسف حاكم بلاد الشام إلى المغول، الذين أرسلوه للتفاوض مع الملك الكامل حاكم ميافارقين من أجل إنهاء الحصار (١٤).

ثانياً: لمحة جغرافية وسياسية:

الجزيرة الفراتية تسمية أطلقت على المنطقة الواقعة بين مجرى نهري دجلة والفرات شماليّ سورية والعراق، من منابع كلا النهرين شمالاً في هضبة الأناضول إلى تكريت في وسط العراق جنوباً، وهي تُقسم وَفْقاً للجغرافيين الكلاسيكيين(١٥) إلى ثلاثة أقسام نسبة إلى القبائل العربية التي سكنتها (دياربكر في الشمال ، وديار ربيعة في حوض الخابور، وديار مضر في حوض البليخ)(١٦)، وقد تميزت منذ القديم بموقعها الجغرافي وغناها الاقتصادي؛ اللّذين أهّلاها لأن تكون مهداً للحضارات المتعاقبة بَدْءاً بالحضارة الآشورية (عاصمتها مدينة نينوى)؛ ولتتوالى عليها العديد من الدول، وتُشَكَّل مسرحاً للأحداث التاريخية والصراعات على مر العصور، وهي تضم عدداً من المدن المهمة (الموصل، سنجار، جزيرة ابن عمر، ميافارقين، آمد، ماردين، حصن كيفا، ونصيبين، إرزن، رأس العين، الرها، حران ... إلخ)، التي كانت مراكزاً لعدد من السلالات الحاكمة عبر التاريخ.

في الحقبة التي يتناولها البحث، تقاسمت السلطة في الجزيرة عدة إمارات وقوى متعددة الأصول، تنافست على الحكم والنفوذ تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية وهي:

١. في ديار ربيعة:

إمارة الموصل Al Mysil :

حكم هذه الإمارة بدر الدين لؤلؤ (الملك الرحيم) الذي انتزع الحكم فيها من آخر حكامها الأتابكة الزنكيين (الملك القاهر نور الدين محمود بن أرسلان شاه الذي كان تحت وصايته) ٦٣١هـ/١٢٣٣م[١٧]، واستطاع أن يستملك إضافة إليها: بلد وسنجار في ٦٤٠هـ/١٢٤٣م، وجزيرة ابن عمر وتل عفر وباقي ديار ربيعة ٦٤٩هـ/١٢٥١م[١٨].

٢. في ديار بكر:

أ. إمارة ماردين Mardin:

حكمها الملك السعيد نجم الدين بن إيلغازي الأرتقي، وضمت إلى جانب ماردين كلاً من: دارا ونصيبين ورأس العين ودنيسير والمنطقة المحيطة بمنابع الخابور؛ وهي آخر مراكز الأراتقة في الجزيرة[١٩].

ب .إمارة ميافارقين Maiyafarikin:

وكانت بيد الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل الأيوبي، الذي حكمها بعد وفاة أخيه الملك الأشرف موسى ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م. تعرضت ميافارقين لاستيلاء المغول المؤقت عليها ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠م بُعَيْدَ مقتل جلال الدين منكبرتي، وانسياح المغول في المنطقة، لتتحول بعد وفاته عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م إلى ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمد[٢٠]. وكان يتبع لها من مراكز الجزيرة: خلاط khilat التي تولاها أخوه الملك الأشرف موسى بن الظاهر غازي، وكذلك إرزن **Arzin**. أما آمد **Amid** فقد أضافها الكامل إلى أملاكه ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وكان له نائب في كل منهما [٢١].

ج. حصن كيفا:

وهي بيد الملك الأوحد بن تورانشاه، كانت ملكاً لجده الملك الصالح نجم الدين أيوب انتقلت إليه بعد أن توجه أبوه إلى مصر، ثم قتل والده على يد المماليك ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩.

٣. ديار مضر:

وأهم مدنها حران، والرُها، وسروج...إلخ، وقد كانت تتبع لإمارة حلب التي حكمها الملك الناصر يوسف الأيوبي الثاني.

بالإضافة إلى هذه القوى المحلية في الجزيرة كان هناك عدد من القوى المجاورة التي تبوّأتْ منزلةً مرموقةً في الحياة السياسية في المنطقة وأهمها:

١. الخلافة العباسية في العراق:

مركزها بغداد بشكل أساسي، وكانت تعاني الانحطاط والتفكك بسبب ضعف القائمين على السلطة واستخفافهم وإهمالهم في حل المشكلات السياسية الاقتصادية والاجتماعية والدينية المتفاقمة التي جعلتها تسقط بيد هولاكو ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م.

٢. الأيوبيون في بلاد الشام:

كان حكمها للناصر يوسف؛ بحيث كان مركز الإمارة في حلب في الشمال، وناب عنه المعظم تورانشاه؛ بينما حكم هو في دمشق. أما في سائر بلاد الشام فقد توزعت السلطة عدة أفرع من الأسرة الأيوبية تحت السيادة الاسمية للناصر يوسف: في حمص الملك الأشرف، وفي حماة الملك المنصور، وفي الكرك الملك المغيث عمر. ومما يؤسف له أن كل واحد من هؤلاء الأمراء عد نفسه مستقلاً عن الآخرين، وكانوا في نزاع مستمر فيما بينهم حتى في الحقبة التي بدأ يظهر فيها شبح الخطر المغولي.

إذ كان من المفروض عليهم أن يتخلوا عن أنانيتهم ويتكاتفوا ليقفوا سداً منيعاً يحمي ديار الإسلام(٢٢).

وعلى فقدان الإيجابية في موقفهم؛ فقد مثل الأيوبيون أهم الأطراف التي شغلت دوراً أساسياً في أحداث تاريخ أواسط القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي في بلاد الشام والجزيرة.

٣. دولة سلاجقة الروم:

في آسية الصغرى وعاصمتها إرزن الروم (أرضروم) ويحكمها كلٌ من عز الدين وركن الدين ابنَيّ قليج أرسلان السلجوقي.

٤. السلطنة الخوارزمية:

في بلاد فارس وما وراء النهر، عاصمتها بخارى، وكان يحكمها في أوائل القرن ٧هـ/ ١٣م السلطان محمد علاء الدين الثاني، وقد اجتاحها جنكيزخان، وقضى على وحدتها ٦١٧ هـ/١٢٢٠م، لتنتهي بنهاية ابنه جلال الدين منكبرتي ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م، في عهد الخان الأعظم أوكتاي Yqtai ٦٢٧ ـ٦٣٩ هـ / ١٢٢٩ـ ١٢٤١م(٢٣).

٥. الإسماعيلية (الحشيشة، النزارية...)(٢٤):

ومركزهم في قلعة آلموت في جبال قهستان إلى الجنوب من بحر الخزر (قزوين)، إذ قضى عليهم هولاكو في سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م قبل إسقاطه للخلافة العباسية في بغداد (٢٥)

٦. **الصليبيون في سواحل بلاد الشام وفلسطين:**

إمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس (كانت تشمل عدة حصون على الساحل: بيروت، وصور، وعكا، ويافا ...، ولم يدخل في نطاقها بيت المقدس نفسه، لأنّه كان قد حرّره الملك الصالح أيوب) وقد كان الصليبيون في حالة ضعف شديد بسبب النزاعات القائمة بينهم على السلطة وانقطاع الإمداد عنهم من أوربة؛ وكذلك استعار المنافسة والغيرة بين أهل بيزا والبندقية؛ مما دفعهم للاستعانة بالمسلمين بعضهم ضدَ بعضٍ، ولاحقاً بالمغول ضد المسلمين للحصول على بعض المكاسب(٢٦).

٧.**مملكة أرمينية:** في مناطق متفرقة من آسية الصغرى.

٨. **أتابكية أربل:** وكان أميرها تاج الدين بن صلايا.

٩ .**المماليك:** في مصر، كانوا في بدايات ظهورهم على مسرح الأحداث في المشرق العربي الإسلامي.

ثالثاً: لمحة تارخية عامة عن إمارة ميافارقين:

أ. لمحة تاريخية موجزة حتى نهاية العصر الأموي:

أهم مراكز هذه الإمارة ــ موضوع البحث ــ مدينة ميافارقين وهي قاعدة (عاصمة) ديار بكر، تقع في الجزء الأعلى من الجزيرة الفراتية؛ وتبعد عن نهر دجلة ٢٠ ميلاً إلى الشمال و١٢ ميلاً إلى الشرق منه على الطريق بين الجزيرة وأرمينية، وهي مدينة عريقة في القدم. إذ يذكر المؤرخ الألماني هربت ليهمان H. Lehman أنه وجد فيها ما يدل على أنها كانت من مراكز الآشوريين في الشمال. أما المؤرخ ملتكه Molteke فيعتقد أنها هي المدينة التي أسسها الملك الأرميني ديكران Digran عام ٨٠ ق.م وجعلها عاصمة له، وقد استولى عليها الرومان في عهد الإمبراطور نيرون Niroun

٦٣ ق.م. فقد حَرَص الروم على إدخالها في حوزتهم لما كان لها من أهمية بسبب موقعها على الحدود مع الفرس وازدهار تجارتها. ثم استعادها ملك الفرس قباذ بن نيروز Kebath Bn Nairouz ٤٨٨ ـ ٥٣١ م، إلا أنها بقيت بين أخذ ورد بين الجانبين إلى أن كانت بآخَرَةٍ في يد الروم، ثم فتحها العرب المسلمون صلحاً على يد عياض بن غَنْم الفهري في عام ١٨هـ/ ٦٤٠م وظلت جزءاً من أراضي الخلافة الأموية تتأثر بمجريات الأحداث فيها[٢٧].

ب. لمحة عامة عن إمارة ميافارقين قبيل الغزو المغولي:

في العصر العباسي كانت ميافارقين مسرحاً للتقلبات السياسية، فهي أحد مراكز الأسرة الحمدانية، ودخلت تحت حكم البويهيين، ثم صارت مركزاً للدولة المروانية[٢٨]؛ وسيطر عليها المرداسيون، ثم صارت للسلاجقة ٤٧٨ هـ /١٠٨٥م وهي من أقدم مراكز الأراتقة؛ إذ دخلت ضمن سلطانهم ٥١٢ هـ / ١١١٨م؛ وكان للزنكيين نصيب في امتلاكها إلى أن آلت إلى الأيوبيين ٥٨١هـ/١١٨٥م[٢٩].

ولمَا استولى عليها صلاح الدين الأيوبي جعل عليها تقي الدين عمر بن شاهنشاه نائباً عنه، ثم صارت من أملاك الملك العادل سيف الدين أبي بكر أخي صلاح الدين سنة ٥٩١ هـ/١١٩٤م، ولمّا صار العادل سلطاناً ٥٩٦ هـ/١١٩٩م جعل ابنه الأوحد نجم الدين أيوب والياً عليها، فتأسست بذلك سلالة أيوبية في ميافارقين وسنجار من أبناء الملك العادل وحفدائه، وبقيت هذه الدولة قائمة حتى استيلاء المغول عليها سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م ، إذ توالى على حكمها بعد العادل كلٌّ من :

- الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل ٥٩٦ ـ ٦٠٧ هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٠م.
- الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل ٦٠٧- ٦١٧ هـ /١٢١٠ -١٢٢٠م.

- الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل ٦١٧-٦٤٥ هـ/٢٢٠-١٢٤٧م، تخللها استيلاء المغول المؤقت عليها ٦٢٨ هـ / ١٢٢٠م.

- الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر غازي ٦٤٥–٦٥٨ هـ/٢٤٧-١٢٦٠م. إذ استولى المغول على ميافارقين ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م [٣٠].

ميافارقين وفقاً للمعلومات التي يقدمها في وصفها كلٌ من ابن الأزرق الفارقي المتوفى بعد ٥٧٧هـ/ ١١٨١م في تاريخه [٣١]، وعز الدين بن شداد المتوفى ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م في كتابه "الأعلاق الخطيرة"؛ يتبين أنها كانت أيام الغزو المغولي مدينة كبيرة وفي وضع سياسي وأمني واقتصادي وحضاري جيد. فقد كان يحيط بها سور مزدوج مع فصيل، ولسورها ٤٢ برجاً، وأربعة أبواب، ولها خندق، وفيها قصر عظيم كان داراً للسلطنة، ويتبع لها ربض[٣٢] من جهة الشمال، فيه عين ماء تروي المدينة وتدير أربع أرحاء؛ ومن جهة الجنوب لها ربض آخر يسمى المحدثة فيه العديد من الأسواق والخانات، وفيها سوق للخيل، وجامع، وفي شمالها جبل حرم عباد الذي يضم أديرة عامرة بالرهبان، وإلى الشرق منها ميدان وجوسق[٣٣]، وفيها مدارس للحنفية والشافعية والحنابلة، وفيها كذلك ما يقارب مئتي مسجد والعديد من الحمامات[٣٤].

وكان يتبع لها كلٌ من:

١. مدينة آمد:

وهي تقع على نهر دجلة، يحيط بها سوران أحدهما كبير والآخر فصيل، وللسور الكبير ٦٠ برجاً، وله خمسة أبواب، وخلف السور قلعة، وهي وافرة المياه من عيون فيها، وفيها جامع ومدرستان وبيعتان.

وقد ضمّها الملك الكامل إلى أملاكه ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧م، إذ قصدها على رأس جيشه ابن عمه الملك المشمر الذي سيطر عليها بعد مدة من الحصار، وعين فيها سيف الدين ابن علي نائباً عنه[٣٥].

٢. أرزن:

قلعة إلى الشرق من ميافارقين تبعد عنها سبعة فراسخ(٣٦)، دائرية الشكل يحيط بها خندق، لها ٣٥ برجاً، وفيها مدرسة وبيمارستان، وهي غنية بالكروم والفواكه، ولها حمّة غنية بالأسماك، وتصنع فيها ملابس فاخرة تعد للتصدير إلى مختلف الأقاليم. كانت بيد حسام الدين من بيت طغان أرسلان إلى أن انكسر السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي(٣٧). حينئذٍ سار إليه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، وحصره فيها وملكها صلحاً، وعوّضه عنها مدينة حاني من ديار بكر، وبقيت في يد نواب شهاب الدين غازي إلى أن توفي ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧م، ووُليها بعده ابنه الملك الكامل(٣٨).

٣. خلاط:

ضمها الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى سلطته في الوقت نفسه الذي سيطر فيه على ميافارقين بمباركة من الخليفة العباسي آنذاك، بعد وفاة صاحبها شاه أرمن ٥٨١ هـ / ١١٥٨م وحصول مناوشات على تولي السلطة فيها. إذ خطب في هذه السنة لصلاح الدين في جميع بلاد الموصل وديار بكر أيضاً، وضربت السكة باسمه، ثم آلت إلى الملك الأوحد ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧م، وعشية ظهور المغول كان متوليها الملك الأشرف بن الظاهر غازي نائباً عن الملك الكامل(٣٩).

رابعاً: أعمال المغول في الجزيرة وميافارقين في عهد الخان الأعظم أوكتاي Yqtai Khan ٦٢٧ ـ ٦٣٩ هـ / ١٢٢٩ ـ ١٢٤١م:

١. ظهور المغول في الجزيرة والغارات الأولى ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠م:

ظهرت بوادر الغزو المغولي في الجزيرة عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م بقيادة جرماغون نويان(٤٠) Churmagun Nuaian وبايجو نويان Baichu Nuaian في عهد أوكتاي خان(٤١)، حين كانوا يلاحقون السلطان جلال الدين أثناء تراجعه أمامهم من بلاد

فارس. إذ حاول تشكيل تحالف مع الحكام المسلمين في المنطقة (الخليفة العباسي والأمراء الأيوبيين والأراتقة وحاكم الموصل وسلطان سلاجقة الروم، وحاكم إربل) للتصدي للخطر المغولي ولكن دون جدوى، مما مكن المغول من السيطرة على الري وهمذان وأذربيجان، وتمزيق قوات جلال الدين، وبذلك انفتح الطريق أمامهم للإغارة على ديار بكر، فراحوا ينهبون ويخربون، وكان أن عانت بَغْيَهم أرياف آمد وأرزن وإسعرد؛ ولمّا هاجمت طائفة من المغول ميافارقين خرج إليهم حاكمها آنذاك الملك المظفر غازي وكسرهم وغنم أسلحتهم، حتى إن غاراتهم تجاوزت منطقة حوض الخابور إلى شواطئ الفرات. كان هدف هذه الغارات معرفة قوة المنطقة الدفاعية التي ثبت لهم ضعفها بسبب التناحر السائد بين أمرائها من جهة، وعدم استجابتهم لدعوة جلال الدين الذي انهارت بمقتله ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م القوة الإسلامية الوحيدة التي وقفت في وجه المغول حتى ذلك الحين من جهة أخرى[٤٢].

٢. سياسة المغول للسيطرة في الجزيرة:

بِدءاً من ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م يمكن ملاحظة تطور جديد في مخطط المغول فقد باشروا العمل على إيجاد قواعد دائمة لهم في المنطقة، وقد أرسل أوكتاي خان رسالة إلى صاحب ميافارقين آنذاك الملك المظفر شهاب الدين غازي مستهلاً لها بما يأتي: " من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب خاقان... "؛ وأبلغ الرسول المظفر : " قد جعلك خاقان سلاح داره[٤٣] وأمرك أن تخرب أسوار بلدك... " فكان رده: " أنا من جملة ملوك وبلادي حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر، فتوجه إليهم وما فعلوه فعلْتُه". هذا الجواب كان بهدف كسب الوقت والتسويف لمعرفة موقف بقية القوى الإسلامية من مطالب المغول الجديدة. لكن المغول باشروا الهجوم على المنطقة وسيطروا في عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م على أجزاء من بلاد سلاجقة الروم جعلوا منها قواعد لشن هجماتهم[٤٤] .

٣. الهجوم الأول على ميافارقين ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م:

عشية الهجوم المغولي الأول على ميافارقين كانت المدينة ملكاً للملك المظفر شهاب الدين غازي الذي ما إن علم بتوجه المغول إلى مدينته حتى حصّنها معداً إياها للحصار؛ غير أنه غادرها متوجهاً إلى حلب تاركاً فيها نائباً عنه، ولمّا فرض المغول الحصار عليها؛ وعاثوا في المنطقة، راسلهم النائب واتفق معهم على أن يرحلوا عنها مقابل مبلغ من المال[٤٥].

٤. الهجوم الثاني ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢م:

بعد وفاة الملك المظفر شهاب الدين غازي وتولي ابنه الملك الكامل للحكم بخمس سنوات، تعرضت الجزيرة لأعنف هجوم مغولي إذ نهبت معظم أراضيها، وقتل وأسر الكثير من أهلها، فقد اجتاح المغول مناطق الجبال، وأوقعوا بالأكراد، ووصلوا إلى حران والرها، وهوجمت ميافارقين بقيادة بايجو نويان الذي اتُفِقَ معه بوساطة من باتو خان على رحيل المغول على أن يتوجه الملك الكامل إلى إمبراطور المغول منكوخان ٦٤٩ ـ ٦٥٨ هـ / ١٢٥١ ـ ١٢٥٩م[٤٦]. إذ أنّ الملك الكامل لمّا علم بتوجه المغول للهجوم على ميافارقين غادرها، ووضع فيها نائباً عنه، وأرسل أخاه الملك الأشرف إلى باتو خان Batou Khan [٤٧] طالباً إليه أن يمنع بايجو عن بلده وإن كان قد نزل أن يأمره بالرحيل، فوافق باتو على أن يأتي الملك الكامل إليه بعد رحيل بايجو لكي يوجهه إلى منكو خان. ولمّا عاد الأشرف وجد أن بايجو قد حاصر ميافارقين منذ أحد عشر يوماً، ولمّا أبلغه رسالة باتو رحل عنها؛[٤٨]، وهكذا اضطر أمراء المنطقة للتوجه إلى البلاط المغولي في قراقورم Qarakourm[٤٩]. صاغرين حاملين الهدايا والتحف، آملين الوصول مع منكوخان إلى صيغة تمكنهم من حفظ أملاكهم لقاء تقديم بعض التنازلات.

فاجتمع هناك رسل ومبعوثو كلٍ من:

- صاحب ماردين (الملك المظفر بن الملك السعيد آخر أمراء سلالة الأراتقة).

- صاحب الموصل (الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ).

- الملك الكامل الأيوبي صاحب ميافارقين.

- الملك الجواد رسول الملك الناصر يوسف صاحب بلاد الشام.

- ليفون بن هيثوم Livon Bn Hetoum صاحب سيس Sise الأرمني[٥٠]

كانت هذه المقابلة بمثابة بداية مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة. إذ أعلن بعدها صاحب ماردين بإعلان للمغول، علّه يتمكن من التوسع على حساب جاره الملك الكامل، ـ هنا لا بد من التنويه أنه من المحتمل أن صاحب ماردين رغب في كسب الوقت ليعرف نتائج الصراع بين المغول والقوى الإسلامية ليحدد بعد ذلك موقفه منهم ـ أما الملك الكامل فقد أظهر مروءةً ورفضاً للخضوع للمغول، وتفانياً في الحفاظ على كرامته واستقلاله على الرغم من أن جيرانه من الحكام المسلمين رفضوا مساعدته وتركوه وحيداً، -إذ شعر بأن منكوخان لم يتعامل معه باحترام؛ ولاسيّما بعد تشجيعه له ولصاحب ماردين على التنافس أمامه بطريقة أوصلتهما للتصارع، ليحكم من منهما أكبر (أعظم) من الآخر. فكتب على أثر ذلك كتاباً إلى أخيه هولاكو الموجود في المنطقة يوصيه بهما، وقال لهما عند وداعه لهما: " لا تجتمعا بي بعد ذلك إلا من أطلبه، وأمركم عائد إلى هولاكو " -ثم قام الملك الكامل بعد عودته باتصالات مع الملك الناصر يوسف حاكم بلاد الشام لتوحيد الصفوف لمواجهة الخطر المغولي [٥١]، وأعلن خلع طاعة المغول، وسجن نوابهم في ميافارقين.

خامساً: الهجوم على ميافارقين في عهد الخان الأعظم منكوخان ٦٤٩ ـ ٦٥٨هـ / ١٢٥١ـ١٢٥٩م:

١.غزو هولاكو Hulagu للخلافة العباسية وإسقاطها ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م:

لمّا نزل هولاكو على بغداد في سنة ٦٥٥ هـ /١٢٥٧م توجه الكامل إلى حران، ومنها إلى دمشق لمقابلة الناصر يوسف. بغية طلب نجدة منه لمنع المغول من دخول بلاد الشام. لكن الناصر يوسف استخف برأيه، وسوّفه بالكلام، وصرفه بالأمان، وذهب إلى أبعد من ذلك إذ بعث بولده العزيز محملاً بالهدايا إلى هولاكو. وهنا جاءته الأخبار عن تقدم المغول لاكتساح بلاده، فخاف (الكامل) من انتقام هولاكو إذا عرف باتصاله مع الناصر يوسف، فأعلن العصيان وخلع طاعة المغول، وطرد شحنتهم(٥٢) من مدينته وصلب قسيساً يعقوبياً كان قد وصل إليه من خدمة الخان الأعظم باليراليغ والبوايز(٥٣)، وباشر باتخاذ الاحتياطات الدفاعية للوقوف في وجه الهجوم المغولي، فأرسل حريمه إلى قلعة اليمانية(٥٤)، وتوجه إلى آمد ليجرد قوة عسكرية إلى ميافارقين. وحين ذاك انشق عنه شرف الدين عبد الله الآوي أحد كبار أمرائه بسبب حقده على سيده في قضية شخصية، مما دفعه إلى مراسلة المغول وإعطائهم وعداً بالعمل على تسليمهم ميافارقين، إذ غادر إلى ماردين، وبقي فيها إلى أن وصل المغول إلى ميافارقين فتوجه للانضمام إليهم(٥٥).

ولمّا أن أسقط المغول الخلافة العباسية، وسيطروا على العراق بقيادة هولاكو ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م، بدؤوا الزحف على بلاد الشام، ولقسوة المغول والأخبار عن وحشيتهم أسرع الحكام المسلمون لاسترضائهم؛ فأرسلوا لهم الهدايا الثمينة والتعزيزات العسكرية ــ الناصر يوسف صاحب بلاد الشام، بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، زعماء سلاجقة الروم عز الدين وركن الدين ...إلخ-(٥٦)، وانضمت إليهم وحدات

عسكرية من الكرج[٥٧]، والأرمن من جيش هيثوم (Hetoum) ملك أرمينيا، وقوات صليبية لبوهيموند السادس (Bohemond VI) أمير أنطاكية الفرنجي (الصليبي). فقد انحاز مسيحيو الشرق والفرنجة ــ وفقاً لما اتفقت عليه المصادر ــ إلى المغول لقتال المسلمين إسهاماً منهم في حملة صليبية جديدة [٥٨]، إلا أن الملك الكامل صاحب إمارة ميافارقين التي تتمتع بموقع مهم على الطريق إلى بلاد الشام رفض الخضوع لهولاكو، وقرر المواجهة، ومن ثم كان لزاماً على الأخير اجتياز المنطقة الواقعة تحت سيطرة الكامل بالقوة؛ فوجه هولاكو قسماً من الجيش المغولي إلى ميافارقين بقيادة كلٌ من الأمير: يشموت بن هولاكو (Yachmout)والقادة: إيلكا نويان (Ilka Noyen)، وسونتاي نويان (Suntai Noyen). وما إن نزل المغول على ميافارقين حتى وصلتهم النجدات من: صاحب الموصل مع ولديه الملك المجاهد سيف الدين إسحاق والملك المظفر علاء الدين علي وعلم الدين سنجر الآمدي؛ وصاحب ماردين مع ولده الملك المظفر، ونجدة سلاجقة الروم[٥٩]، وكان المغول لمّا وصلوا حدود ميافارقين أرسلوا من قبل القائد كهداي (Kahdaie)[٦٠] رسولاً إلى الملك الكامل يدعونه فيه إلى الطاعة والخضوع ومضايفة المغول، فأجابهم رافضاً بكل جرأة وإباء:

" ينبغي أن لا يضرب الأمير في حديد بارد، ولا يتوقع الشيء المستحيل إذ لا يوثق بوعدكم، وإنني لن أنخدع بكلامكم المعسول، ولن أخشى جيش المغول، وسأضرب بالسيف ما دمت حياً، إذ كيف أثق بابن رجل نكث العهد والميثاق مع خورشاه [٦١] والخليفة المستعصم ٦٠٩ ــ ٦٥٦هـ/ ١٢١٢ــ ١٢٥٨م، وحسام الدين عكة (صاحب أرزن) وتاج الدين أربل ... وغيرهم، وقد جاء الملك الناصر بأمانكم، فرأى في نهاية الأمر ما رأى، وسوف أرى أنا أيضاً ما سبق أن رأوه"[٦٢].

لمّا بلَّغ الرسل الرسالة توجه الملك الكامل إلى الأمراء حاثاً لهم على الجهاد متفقاً معهم على القتال، وإلى أهالي المدينة الذين طيب خواطرهم قائلاً:

" سوف لا أبخل عليكم بالذهب والفضة والغلات الموجودة في المخازن، وسأوثر بها كلها المحتاجين، فإني بحمد الله لست كالمستعصم عبداً للدينار والدرهم الذي طوح برأسه وبملك بغداد بسبب بخله وشحه" [٦٣]؛ ثم توجه الكامل ثانية إلى الناصر يوسف صاحب حلب يطلب إليه مؤازرته للتصدي للمغول؛ لكنه خذله، واستخف بموقفه، وصرفه بالأمان، ولم يكتف بهذا، بل تمادى وأرسل ابنه العزيز محملاً بالهدايا ونوادر التحف إلى هولاكو[٦٤]؛ حتى إنه طلب المساعدة من هولاكو ليسترجع مصر من أيدي المماليك، غير أن هولاكو أراد من الناصر أن يتوجه إليه في عسكر يقارب العشرين ألفاً[٦٥].

٢. المرحلة الأولى من الحصار ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م:

في هذه الأثناء أحاطت عساكر يشموت بالمدينة وبنوا حولها سوراً وحفروا خندقاً عميقاً، ثم نصبوا عليها المجانيق وابتدؤوا بالحصار والقتال الذي كان شديداً من الطرفين. ولما رأى المغول أنه لا يمكن أخذ المدينة بالقتال بسبب حصانتها لأنّها تقع بين سلسلة جبال البحر الأسود من جهة؛ ومن جهة أخرى بسبب إمكانية تعاطف حكام المسلمين مع الكامل في أي لحظة- ذلك أنهم رغبوا في التحالف مع هولاكو بغية الحفاظ على أماكنهم يحكمون بلادهم حكماً ذاتياً تحت السلطة المغولية، بينما هدف هولاكو كان السيطرة الكاملة بحيث يعين ويعزل كما يريد- أبطلوا القتال، وحاصروا المدينة، ومنعوا الناس من الدخول إليها أو الخروج منها[٦٦]. فخرج الملك الكامل وفرسانه وقاتلوا الأعداء، واشتُهِرَ من جملة فرسانه فارسان هما: سيف الدين لوكبلي وعنبر الحبشي، اللذان قتلا عدةَ أشخاص، وأنزلا أفدح الخسائر بالجيش المغولي بفضل بسالتهما وإحكامهما الرماية، ثم دخل الفارسان المدينة، وفي اليوم الثالث من الحصار بدأ القتال من الأبراج، وفي اليوم الرابع تصدى لهما المقاتل الشجاع المعروف في الجيش المغولي ناوري (Naoury)الكرجي ليُقْتَلَ بأيديهما مما أثر تأثيراً كبيراً في المغول الذين هاجوا وتوعدوا بالانتقام، واستمروا على هذا الحال طوال عام،

وعملا على إقامة سبيى دقيق محكم الرمي، فكان يقتل الكثير من المغول، وقد كان لصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ منجنيقي ماهر جدا، فأُحْضِرَ وأقام منجنيقاً مرتفعاً في مواجهة منجنيق المدينة، واستمر التراشق بالمجانيق يومياً، فكان الحجران يرميان من كفتي المنجنيقين فيصطدمان بعضهما ببعض في الهواء فيتفتتان وفي النهاية أُحرِق المنجنيق المغولي(٦٧).

واستمرت المدينة في حالة حصار وأهلها يتابعون صامدين مستبسلين دون أي تراجع، وفي أواخر ربيع الأول ٦٥٧ هـ/ آذار ١٢٥٨م وحين اطلع هولاكو على أحوال المدافعين فيها، أرسل جيشاً بقيادة أرقتو نويان (Ariqto Nuaian) لمساعدة إيلكا نويان، وأصدر توجيهاته بأن يتابعوا الحصار حتى لا يبقى علف في المدينة. ولكن بسبب كثرة الأمطار والثلوج وانعدام الأقوات وانتشار الوباء في خيول المغول ـ إذ لم يَبْقَ لديهم سوى ١٥٠٠ فرس ـ قرر يشموت الرحيل عن ميافارقين مستخلفاً عليها القائد سنتاي في ٣٠٠٠ رجل ليمنعوا الملك الكامل من الخروج(٦٨).

٤.سفارة الناصر الأيوبي إلى المغول برئاسة ابن شداد(٦٩):

كان ابن شداد موضع ثقة السلطان الناصر يوسف، ولهذا أوفده رسولاً إلى المغول المحاصرين لميافارقين، فأخذ طريقه في المحرم سنة ٦٥٧ هـ / كانون الأول ١٢٥٨م من دمشق إلى حلب ومنها إلى حران ليصل إلى ماردين في صفر / كانون الثاني ١٢٥٩م، إذ استشار حاكمها الملك السعيد في أمر المغول بناء على رسالة شفوية من الناصر يوسف، ولكنه لم يُطِ جواباً غير قوله: ضجرت من نصحي إياه (يقصد للملك الكامل الذي لم يكن على وفاق معه)، ثم تابعت السفارة لمقابلة الإيل خان (هولاكو)، الذي حملوا له هدية قيمة، وبلغ برسالة الناصر التي يهنئه بقدومه، ويشكو من هجوم المغول على الجزيرة على الرغم من قيام الناصر بإرسال الهدايا والأموال للمغول؛ وطلب بتعويض عن ذلك، ولكن المغول حذروا ابن شداد من هذا الطلب!!

ولا سيّما أن مخاطبته لهم كانت حازمة استفزتهم حتى إنّ مرافقيه حذروه من عاقبة ذلك.

استغل المغول وجود ابن شداد ليرسلوه إلى الملك الكامل ويبلغه " قد جئنا من الملك الناصر لنشفع فيك، على أن تخرج إلى إيل خان وتكون في طاعته"، فأبى أن يحمل رسالة كهذه، فهدده المغول، فوافق على أن لا يخرج الكامل إليهم أو من البلد، وأنهم يرحلون متى تم الصلح بينه وبينهم، فتقدم من باب المدينة ومعه ابن بايجو، وتفاوض مع واليها علم الدين الأعسر، وتقرر الصلح على مئة ألف درهم سلطانية وستة آلاف نصفية، وثلاثين جملاً وثلاثين بغلاً وسبعين فرساً، وأخرج قسماً منها على أن تستكمل بعد رحيل المغول وهكذا تحرك المغول باتجاه شرق البلد، ولكن صاحب الموصل أرسل يخبرهم أن الناصر مهدد بالهرب بسبب اتفاق الشهرزورية(٧٠) والصالحية وصاحب الكرك عليه، في الوقت الذي كانت كتب الناصر تصل إلى ابن شداد لتؤكد له العمل على إنهاء حصار ميافارقين والإصلاح بين المغول والكامل. فوقعت بأيدي المغول فتراجعوا عن الصلح، و ظلت هذه المحاولة دون نتيجة، وعاد المغول للقتال وأُمِرَ ابن شداد بالعودة.

غادر ابن شداد ماراً في طريق العودة بماردين، فقال له الملك السعيد إنَه على استعداد أن يقرض الناصر مبلغ ثلاث مئة ألف دينار على أن يرسل الناصر ثلاثة آلاف فارس، وهو يتعهد بترحيل المغول على أن يساعده الناصر في استخلاص الموصل لنفسه، وحلف على ذلك، ولكن لم يخرج هذا الاقتراح إلى حيز التطبيق.

على ما يبدو أراد المغول أن يعودوا لتنفيذ الاتفاق الذي أبرمه ابن شداد، فوصله عند حران كتاب من الملك السعيد يخبره بهذا، ويطلب إليه العودة للتوفيق بينهم وصاحب ميافارقين، ولكن ابن شداد تابع طريق العودة ولمّا وصل إلى حلب تلقى كتاباً آخر بأن

يشموت رحل رافعاً الحصار مؤقتاً، في الوقت الذي لم تنقطع فيه رسائل الملك الكامل إلى الناصر يوسف مستصرخة تطلب المساعدة والدعم دون جدوى [٧١].

٣. المرحلة الثانية من الحصار ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩م:

طول مدة الحصار ورداءة الحالة التي وصلت إليها المدينة يَسَّرا على المغول الاستيلاء عليها عندما رجعوا إليها بعد انقضاء الشتاء بجيوش كثيفة ليجدوا أن أهالي المدينة أعادوا تحصينها. فقد قاموا ببناء سور، وحفروا خندقاً، وأجروا فيه الماء، وبنو الشراريف، ومنعوا الهروب من البلد، واستمروا بالاستنجاد بدمشق.

خلال هذه المرحلة من الحصار يذكر ابن شداد عدة محاولات من القوى المجاورة لاستخلاص ميافارقين لمصلحتها وهي:

أ. **قدوم أمير القراغلية** [٧٢] وادّعاؤه بأنه اشترى ميافارقين من هولاكو بسبعين ألف دينار، وطلب إليهم بَرَانِسَ جُوْخٍ ليحضر نساءَه إليهم، فوثقوا به وأعطوه سبعين برنساً، ولكنها كانت حيلة منه.

ب. وصول **مملوك من بدر الدين لؤلؤ** أخبر أهالي المدينة أن بدر الدين بذل روحه وماله وابتاع البلد من هولاكو، فقال له الأمراء: نحن نعرف محال أستاذك، والله ما ينزل إلا مع حجارتها، فإنا قد بايعنا الله تعالى، وهَمُوا بقتل المملوك لولا شفاعة بعضهم.

ت. وصول **سلطان سلاجقة الروم عز الدين** إلى ميافارقين ووقوفه تجاه سورها وطلبه لأربعة من أمرائها، فلما حضروا قال لهم: "المصلحة أن يخرج الملك الكامل إلى هولاكو، فإني قد استطلقته منه، وقد عفا عنه.

فقالوا له: إن رحل عسكر التتر (المغول) عنا إلى جسر القرمان خرجنا بحريمنا وأولادنا، ونحضر مع الملك الكامل إلى بين يدي هولاكو. ولكن المغول لم يوافقوا، بل قالوا: متى خرج الملك الكامل من ميافارقين تعلق بالحبال.

هذه المواقف من هؤلاء المسلمين تدعو للأسف وهي إن دلت على شيء فهي تدل على الأنانية وانعدام البصيرة، وسوء التقدير لعواقب هذه المحالات الدنيئة على أهالي ميافارقين أولاً، وعليهم هم أنفسهم ثانياً. فالمعروف أن المغول لا يمكن أن يثقوا بالخونة الذين يغدرون بأهلهم وأوطانهم (٧٣).

حتى الموقف غير المقنع للملك الناصر يوسف حاكم بلاد الشام، نابع من مصلحته فهو على عداء مع باقي الأمراء الأيوبيين؛ وعلى علاقة سيئة مع المماليك. من هنا يمكن القول إنَه لربما ظن أنه وجد في المغول حليفاً يمكن أن يساعده في إحكام قبضته على بلاد الشام على الأقل.

سادساً: سقوط ميافارقين ونهاية الملك الكامل ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م:

١. إحكام الحصار ودخول المغول إلى المدينة:

وهكذا شدد المغول الحصار هذه المرة، وقلّت الأقوات في البلد، ووقع الوباء في أهله، ونصب المغول السلالم على الأسوار- ٦٠٠ سلماً يصعد في عرض الدرجة ١٦ نفساً- وفي النهاية تمكنوا من صعودها بعد استخدام الحيلة وخيانة بعض الأفراد من مماليك الأمراء بسبب ضغائن وأحقاد خاصة بهم، فقد كتبوا إلى يشموت رسالة يقولون فيها: إنه " لم يبق في المدينة أحد له طاقة وقدرة ما باستثناء عدة أفراد هم أحياء بأرواحهم أموات بأجسادهم، وصار الأب يأكل ابنه، والأم تأكل وليدها. فلو أقبل الآن جيش فليس هناك مخلوق يستطيع مواجهته". فقام يشموت بإرسال أرقتو (Ariqtu)نويان وصعد المغول إلى المدينة، فأمر الملك الكامل بمنع المغول من الدخول، ودار القتال

بشراسة ووحشية، واضطروا لمفاوضة المغول، واتفقوا على رحيلهم مقابل قلعة السنانية على أن يخرج الملك الأشرف إلى سونتاي. وكانت هذه خديعة إذ ألقي القبض عليه. واحتمى الكامل بأحد الأبراج، فهجم المغول عليه، وقتلوا أكثر من فيه وأسروا الكامل [٧٤]. وانتهى الحصار بسيطرتهم على ميافارقين التي عانت همجيةَ الاجتياح المغولي الذي دَهَمَها، فنهبوا البلد وخربوه، وهدموا الأسوار والفصيل، ورحلوا عنه تاركين به نائباً عن هولاكو هو شرف الدين عبد الله اللّاوي الذي صار أمير آخورعند هولاكو وأضافوا له أرزن[٧٥].

أما آمد التابعة لإمارة ميافارقين فقد وقعت أيضاً في قبضة هولاكو، الذي قام أثناء حصار يشموت لميافارقين والملك الكامل فيها، بالنزول عليها ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩م، واستولى أيضاً على قلعة اليمانية التابعة لميافارقين، وأنزل من كان بها من حريم الملك الكامل وأولاده وأقاربه[٧٦]، واستدعى نائب الملك الكامل فيها سيف الدين ذل بن مجلى، وطلب إليه تسليم المدينة؛ فوافق. عندئذ عين هولاكو نواباً للمغول فيها؛ وسلمها لصاحبي بلاد سلاجقة الروم عز الدين وركن الدين لتصفو لاحقاً لركن الدين قليج أرسلان [٧٨].

٢. معاناة المدينة والأهالي:

صبر أهالي ميافارقين على الحصار قرابة السنتين (٢٠ شهراً) [٧٩] إلى أن استنفدوا ما لديهم من الغذاء والأقواتْ، وعانوا من مجاعة رهيبة؛ هلكت من جرّائها دوابهم؛ فبدأ الناس يأكلون الميتة، وأكلوا الكلاب والقطط والفئران والسنانير وجلود النعال التي تلبس في الرجلين[٨٠]، وعانت المدينة الغلاء وقلة المواد الغذائية معاناةً كبيرة، حيث بيع: القمح المكوك[٨١] بـ ٤٥٠٠٠ درهم، الخبز الرطل[٨٢] بـ ٧٢٠ درهماً، واللحم الرطل بـ ٦٠٠ درهم، ورطل اللبن بـ ٧٠٠ درهم، وأوقية العسل بـ ٦٠٠ درهم، والبصلة بـ ٥٣ درهماً، وفروجان بـ ٧٠٠ درهم وبيع رأس كلب بـ ٦٠ درهماً،

والجلود المسلوقة الرطل بـ ١٤٠ درهماً، وفجلة بـ ١٥ درهماً. وقد بلغت بهم الحال إلى أنه من قوي على صاحبه أكله، وانتشر الوباء والقتل في المدينة. وعلى ذلك حافظ الأهالي على ملِكهم الذي كان ينزل إليهم كل جمعة، ويجتمع بهم في الجامع ويقول لهم: "ليس الغرض من هؤلاء كلهم غيري، دعوني أخرج إليهم، وسلموا البلد إليهم لتؤمنوا على أنفسكم وأموالكم. فيقولون: معاذ الله أن نفارقك حتى تروح أرواحنا؟"[٨٣].

بعد دخولهم المدينة؛ وجد المغول جميع سكانها موتى تكدست جثثهم بعضها فوق بعضٍ، ولم يكن قد بقي فيها من الأحياء سوى ٦٣ نفساً من العوام و٤٢ جندياً، فقام المغول بجمع من تبقى من أعيانها وعددهم سبعة، وطلبوا إليهم المال، ولمّا رفضوا إعطاءَهم مجيبين: إن المسلمين أحق منكم به (المال)؛ عذبوهم ثم أعدموهم جميعاً.

٣ . نهاية الملك الكامل:

لمّا انتهى عساكر المغول من إحكام قبضتهم على ميافارقين، وبطريقة وحشية حملوا الملك الكامل مع أخيه الأشرف موسى إلى حضرة هولاكو ــ الذي كان في تل باشر من أعمال حلب ــ مع أخيه وتسعة من أهالي مدينته وأبلغوا هولاكو أنهم أخذوا ميافارقين وقتلوا كل من فيها، وأنه لم يبق إلا أعداد قليلة لأنهم هلكوا جوعاً. ولولا ذلك لما تمكن المغول من أخذها، فأخذ هولاكو يعد على الكامل جرائمه مذكراً إياه قائلاً: " ألم يعطف عليك أخي، ويشملك برعايته، ومنحك فرماناً أنت وأهلك وأتباعك، فهل يكون جزاؤه العصيان؟ ". ثم قتل قتلاً وحشياً إذ أمر هولاكو ــ الذي ندم هولاكو على قتله فيما بعد - بتعذيبه حتى إنّهم كانوا يقطعون أجزاء من جسمه يجبرونه على تناولها حتى استشهد رحمه الله [٨٤]، فقطع رأسه، وعلق من شعره في شبكة على رأس رمح قصير، وطِيْفَ به في مختلف مدن بلاد الشام من حلب وصولاً إلى دمشق التي وصل الرأس إليها يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأولى ٦٥٨ هـ / نيسان ١٢٥٩م، يسير خلفه المغنون والطبالون ثم علق على باب الفراديس في دمشق، وبقي معلقاً حتى

تم انتصار المسلمين في معركة عين جالوت ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ/٣ أيلول ١٢٦٠م. إذ دفن في مسجد الرأس (رأس الحسين) داخل باب الفراديس شرقي باب المحراب في أصل الجدار، وقد كان الشهيد الملك الكامل معروفاً بتقواه وورعه وشجاعته وعدله وإحسانه لرعيته، يعيش من تعب يده، إذ كان يعمل حائكاً، وكان عالماً شجاعاً أديباً فاضلاً، وله نظم جيد ومتّزن؛ منه:

تُرَى تَسْمَحُ الدُنيا بِمَا أَنَا طَالبٌ ... فلي عَزْمَاتٌ دُونَهُنَّ الكَوَاكِبُ

وإن يَكُنِ النَّاعي بمَوْتي مُعَرِّضاً ... فأيُّ كريمٍ ما نَعَتْهُ النوائِبُ

وما عَجَبي إلاَّ تَأسُّفَ عَاقِلٍ ... عَلَى ذَاهِبٍ مِنْ مَالِه وَهْوَ ذَاهِبُ(٨٥)

وقد رثاه أبو شامة شعراً قائلاً:

ابْنُ غَازٍ غَزَا وجَاهَدَ في ا ... لله قَوْماً أَثْخَنُوا في المَشْرِقَيْنِ

والعِرَاقَيْنِ ظَاهِراً غَالِباً وبها ما ... تَ شَهيداً بَعْدَ صَبْرٍ عليهم عَامَيْنِ(٨٦)

والواضح أن حصار ميافارقين ومحاولة الاستيلاء عليها ليس إلا مرحلة من حرب شاملة شنها المغول على بلاد الشام. فقد هز استيلاؤهم على العراق وإسقاطهم للخلافة العباسية، العالم الإسلامي. وكانت أخبار قسوتهم ووحشيتهم تسبقهم إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد؛ مما يدفع الأمراء والحكام إلى الإسراع في استرضائهم والاستسلام لهم مؤثرين السلامة.

سابعاً: الخاتمة:

هكذا كانت نهاية إمارة ميافارقين الأيوبية وأهلها على يد الغزاة المغول، فقد صارت جزءاً من ممتلكات هولاكو، إذ عين فيها نائباً عنه هو الأمير تودان، وتحولت منذ ذلك

إلى ولاية مغولية، ولكنها كانت مسرحاً للصراعات والسيطرة بين المغول والمماليك من جهة، وبين قادة المغول وأمرائهم من جهة ثانية[٨٧]. مما تقدم يستنتج:

١. إن أي هجوم استعماري ضد وطننا العربي منذ القديم إلى الزمن الحاضر هو تكرار لأسباب واحدة تقريباً: الأنانية والتمزق والتنافس والانقسام ووجود أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية؛ وهي أوضاع تنطبق على الواقع الذي كانت تعانيه مختلف قوى المسلمين في هذه الحقبة (زمن البحث: ق ٧ هـ / ١٣م)، وهي تمثل السبب الأساسي الذي مكّن المغول من تحقيق أهدافهم في السيطرة على المشرق الإسلامي، وهي إن دلت على شيء فإنّما تدل على تمكن المغول من الاستفادة من كل ما يعانيه عدوهم، إلى جانب إمكاناتهم القتالية (المهارة والقدرة في إدارة عملياتهم الحربية) مثل:

ـ الحرب النفسية إذ كانت أخبارهم المروعة ورسائل الإنذار تتقدمهم إلى المناطق التي كانوا يغزونها.

ـ العمل على التجسس على العدو واستغلال أسباب تشتته.

ـ الوعود والضمانات تجاه المتحالفين معهم والمستسلمين لهم.

٢. إن في مساعدة الحكام المسلمين للمغول في الهجوم على ميافارقين دلالةً واضحةً على مدى الضعف والتهاون والذل والجبن، الذي تردوا إليه أمام العنف والجبروت اللذين أظهرهما المغول، مماأدى مِن ثمّ لأن تفقد ميافارقين مكانتها في المرحلة اللاحقة على أنّها مركزٌ سياسي مهم للمناطق المحيطة بها؛ ونقطةٌ مهمة على طريق المواصلات بين أرمينيا وأعالي بلاد الرافدين.

٣. كان لخيانة بعض الأفراد بسبب أنانيتهم وضعف نفوسهم وانعدام بصيرتهم، أثرٌ مهم في تسريع إنهاء المراحل الأخيرة من الحصار ومن ثمّ سقوط ميافارقين النهائي.

٤. مشاركة وحدات من الكرج والأرمن ومساندتهم للمغول إن دلت على شيء فإنما تدل وتؤكد انحياز مسيحيي الشرق إلى جانبهم لقتال المسلمين؛ وإسهامهم في حملة صليبية جديدة زاحفة من الشرق الأقصى باتجاه المشرق الإسلامي وسواحل البحر المتوسط.

٥. إن ميزان القوى في القتال في ميافارقين الذي كان لصالح المغول إجمالاً يؤكد على أنه مهما بلغت شدة العدوان وقسوته فإن المعتدي دائماً يجد نفوساً تأبى الضيم وتعشق الاستشهاد في سبيل الوطن ولا ترضى بالخضوع والاستسلام، وأكبر مثال: الملك الكامل الذي كان الحاكم المسلم الوحيد بعد جلال الدين منكبرتي خوارزمشاه الذي تصدى للغزو المغولي على الرغم من الأخبار الأسطورية التي كانت تسبقه، وتروج وحشيته وقسوة جيوشه في التعامل مع البلاد التي كان يجتاحها.

٦. إن التصميم على الدفاع عن ميافارقين واستمرار الحصار مدة سنتين تقريباً قد أوجد أملاً في النفوس وقوّى من عزيمتها، وسمح بالتالي بإعطاء وقت أطول للمماليك للاستعداد لمواجهة المغول، لأنه كان لا بد من توفر قوة ضخمة من القوات المغولية في محاصرتها، وبذلك ولو من المنظور البعيد كانت مقاومة ميافارقين سبباً من أسباب الانتصار في معركة عين جالوت التي أوقفت الزحف المغولي نهائياً ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م. ولعل هذا هو السبب نفسه الذي لازال يملأ النفوس بالأمل بانقشاع غيمة التحامل الغربي والصهيوني على الأمة العربية؛

وبإعادة رونق التاريخ المزدهر والتقدم العلمي والحضاري للوطن العربي الموغل في القدم والعراقة في مسيرة التاريخ الإنساني.

٧. يجب أن يحفظ التاريخ لأهالي ميافارقين مأثرة صمودهم على شدة الحصار وقلة الأقوات، ولاسيّما أن أزمة عدم توفر المواد الغذائية والتموينية والغلاء كابدتْها حتى المناطق التي لم تكن تحت الحصار. فمن المؤكد أن الوضع كان أسوأ بالنسبة إليهم، وعلى ذلك أُهْمِلَ ذِكْرُ أخبار صمودهم وبطولة أميرهم الكامل في بَعْض المصادر المعاصرة، حتى إنّه لم تكن هناك أية معلومة حول الحدث.

٨. على أيِّ حال إن النتيجة في هذه المعركة غير مفاجئة؛ فميزان القوى لصالح المغول، لأن ميافارقين ليست بالإمارة الكبيرة وهي وحيدة في وجه عدو لم يعرف الهزيمة بعد.

وقد زار المدينة عام ١٨٣٨م المؤرخ الألماني مولتكه Molteke، فوجدها أقرب إلى الخراب، بسبب توالي الحروب، والثورات، وفوضى الحكم. وتعرف اليوم ميافارقين ومقاطعتها باسم "سيلواني" Siluany التي تمثل مركز قضاء يعرف بهذا الاسم ملحق بديار بكر (آمد القديمة)، أما لفظ ميافارقين فقد زال وبطل تداوله منذ نحو القرنين من الزمن(٨٨).

وفي الختام يمكن الاستشهاد بوجهة نظر رينيه غروسيه R. Grousai في تقويمه للحروب المغولية التي كانت محوراً لأحداث حقبة مهمة من تاريخ المشرق العربي الإسلامي في العصور الوسطى إذ قال: " مهما كانت المجاملات التي استعملت في وصف الحقائق الموضوعية التاريخية إلا أنه لا يسعنا إلا أن نبدي الاشمئزاز وروح الرعب للمذابح المروِّعة التي حدثت بقضها وقضيضها، ونحن نقف إلى جانب الحضارة العربية التي سعى البرابرة والمغول إلى هدمها والقضاء عليها، إنما حمداً لله أخفقوا في تدميرها وإزالتها من الوجود (٨٩). ويتفق مع غروسيه العديد من المؤرخين الذين يرون أن هذه الحقبة من التاريخ العربي الإسلامي تعد من أشد المراحل التي

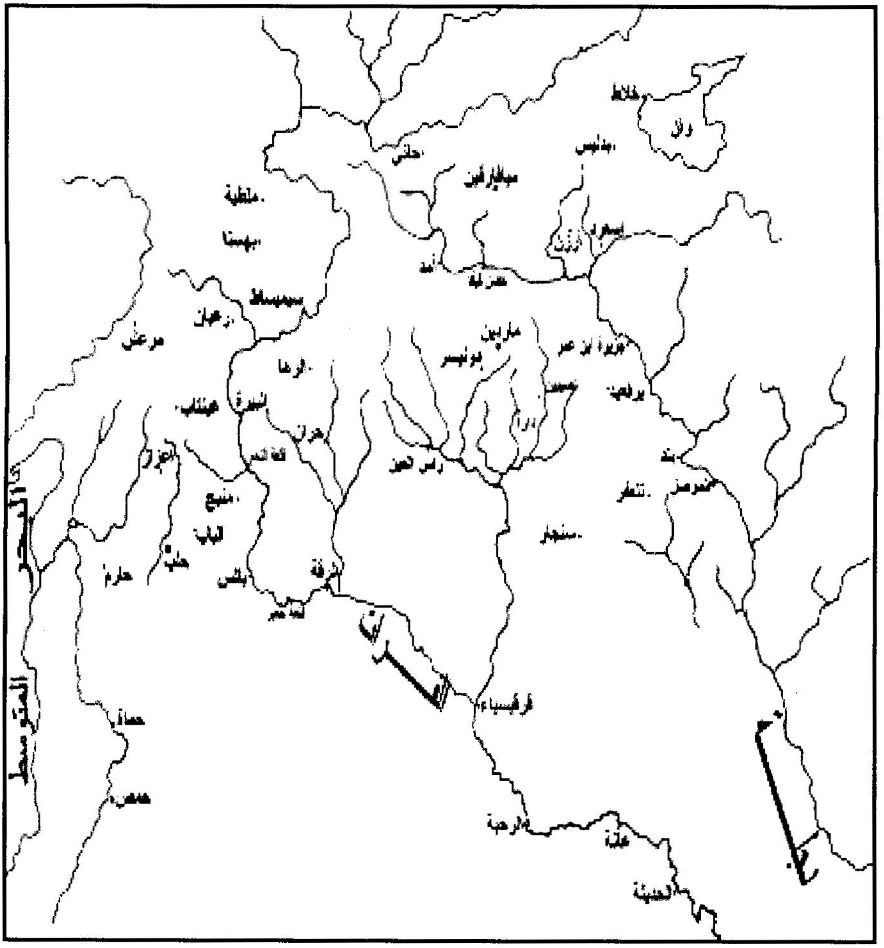
عاشتها الحضارة العربية الإسلامية رعباً وهولاً وتهديداً. إذ عانت التـدمير الفجـائي على أيدي المغول الذين أغاروا وارتدوا في مدة لا تزيد على أربعين عاماً؛ إذ لم يكن هدفهم السيطرة والاستقرار، بل جاؤوا ليقتلوا وينهبوا ويحملوا ما سلبوا إلى منغوليـة، مخلفين بعد ارتداد تيار اجتياحهم الدموي اقتصاداً مضطرباً، وقنوات للري مطمـورةً، ومدارسَ ومكتباتٍ رماداً تذروه الرياح، وحكوماتٍ منقـسمةً علـى نفـسها، معدمـةً وضعيفةً لا تقوى على حكم البلاد، وسكاناً هلك نصفهم وتحطمت نفوسهم (٩٠).

فالتنافس والتفرق في أي دولة يجعلها عرضة لأطماع الأعداء الذين يتربـصون بهـا، وهذه إحدى عِبَر التاريخ، التي يجب أن تكون حافزاً لتفادي الكثير مما يُعانيه الـوطن العربي من التمزق وضعف الصف الداخلي والتنافس بين حكوماته، لأن هـذا يـسهل تحقيق أهداف القوى الاستعمارية في ربوعه الخيرة وغاياته.

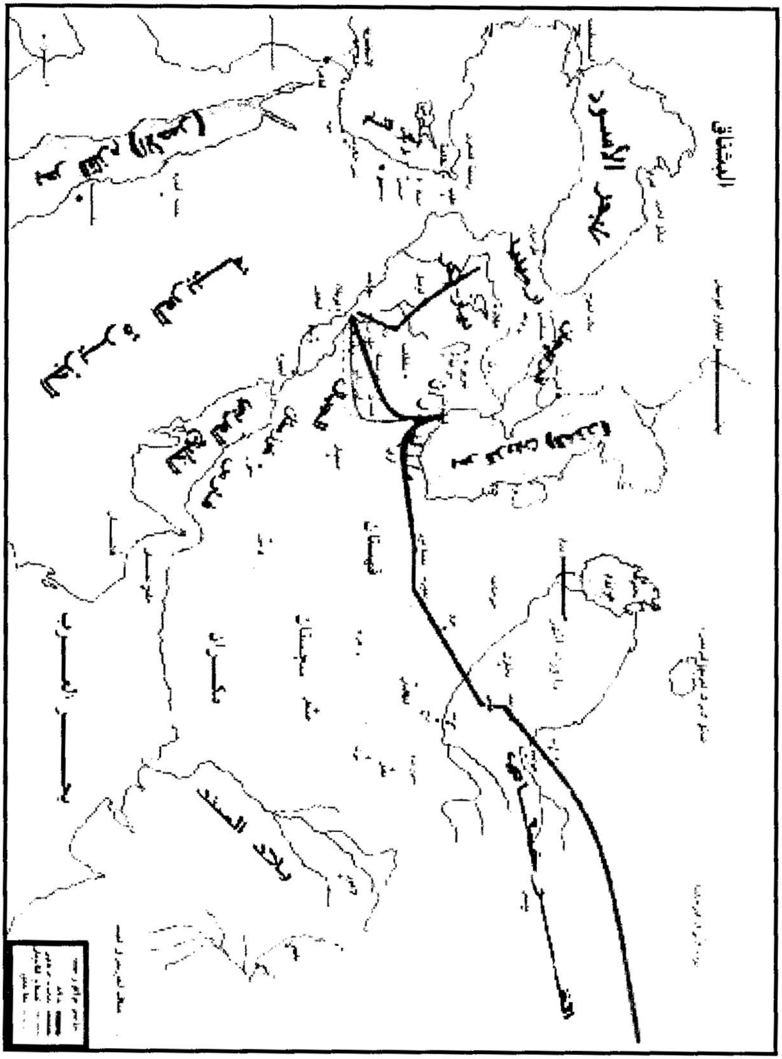
رموز الاختصارات

الاختصارات العربية	الاختصارات الأجنبية	
تح : تحقيق	B	قرن
تر: ترجمة	BB	قرون
ج: جزء	p	صفحة بالإنكليزية
د.ت: دون تاريخ	стр	صفحة بالروسية
د.م: دون مكان	г	عام بالروسية
ص: صفحة	НАУКА	أكاديمية العلوم السوفيتية
ط: طبعة	En. Of Is	الموسوعة الإسلامية
م: ميلادي		
مج: مجلد		
هـ : هجري		

المصورات وقوائم الخلفاء والخانات والسلاطين إعداد الباحثة



الجزيرة الفراتية الملحق (١)



خط سير حملة هولاكو إلى المشرق الإسلامي ٦٥٣ـ ٦٥٩هـ/١٢٥٥ ـ ١٢٥٩م

الملحق (٢)

المستعصم

١ ــ القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد الله بن القادر: ٤٢٢ ــ ٤٦٧هـ / ١٠٣١ ــ ١٠٧٥ م

٢ ــ المقتدى بأمر الله، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم: ٤٦٧ ــ ٤٨٧ هـ/١٠٧٥ ــ ١٠٩٤ م

٣ ــ المستظهر بالله، أبو العباس أحمد بن المقتدى : ٤٨٧ ــ ٥١٢هـ / ١٠٩٤ ــ ١١١٨م

٤ ــ المسترشد بالله، أبو منصور الفضل بن المستظهر : ٥١٢ ــ ٥٢٩هـ / ١١١٨ ــ ١١٣٥م

٥ ــ الراشد، أبو جعفر المنصور بن المسترشد : ٥٢٩ ــ ٥٣٠هـ / ١١٣٥ ــ ١١٣٦ م

٦ ــ المقتفي لأمر الله، أبو عبد الله محمد بن المستظهر: ٥٣٠ ــ ٥٥٥هـ / ١١٣٦ ــ ١١٦٠م

٧ ــ المستنجد بالله، أبو المظفر يوسف بن المقتفي : ٥٥٥ ــ ٥٦٦هـ / ١١٦٠ ــ ١١٧٠ م

٨ ــ المستضيء بأمر الله، أبو محمد الحسن بن المستنجد: ٥٦٦ ــ ٥٧٥ هـ /١١٧٠ ــ ١١٨٠م

٩ ــ الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء: ٥٧٥ ــ ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ ــ ١٢٢٥ م

١٠ ــ الظاهر بأمر الله، أبو نصر محمد بن الناصر : ٦٢٢ ــ ٦٢٣ هـ / ١٢٢٥ ــ ١٢٢٦ م

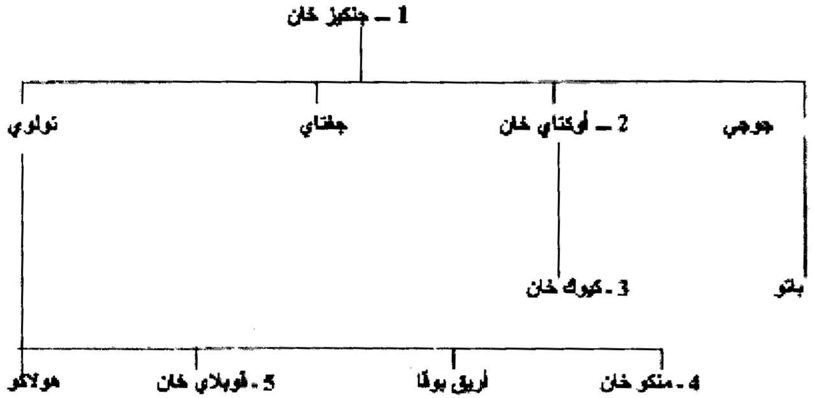
١١ ــ المستنصر بالله، أبو جعفر المنصور بن الظاهر: ٦٢٣ ــ ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ ــ ١٢٤٢م

١٢ ــ المستعصم بالله، أبو أحمد عبد الله بن المستنصر: ٦٤٠ ــ ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ ــ ١٢٥٨ م

الملحق (٤)

خانات المغول منذ جنكيز خان حتى قوبلاي

٦٠٣ ــ ٦٥٩ هــ/ ١٢٠٦ ــ ١٢٩٥م



١ ــ جنكيز خان: ٦٠٣ ــ ٦٢٤ هــ / ١٢٠٦ ــ ١٢٢٧ م

٢ ــ أوكتاي خان: ٦٢٦ ــ ٦٣٩ هــ / ١٢٢٩ ــ ١٢٤١ م

٣ ــ كيوك خان: ٦٤٤ ــ ٦٤٦ هــ / ١٢٤٦ ــ ١٢٤٨ م

٤ ــ منكو خان: ٦٤٨ ــ٦٥٥ هــ / ١٢٥٠ ــ ١٢٥٧ م

٥ ــ قوبلاي خان: ٦٥٩ ــ ٦٩٥ هــ / ١٢٦٠ ــ ١٢٩٥ م.

الملحق (٥)

الأيوبيون في ميافارقين

١. الناصر صلاح الدين الأيوبي:٥٨١ هـ / ١١٨٥م

٢. الملك العادل الأول:٥٩١ هـ / ١١٩٤م

٣. الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العـادل: ٥٩٦ ـ ٦٠٧ هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٠م

٤. الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل: ٦٠٧ ـ ٦١٧ هـ / ١٢١٠ ـ ١٢٢٠م

٥. الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل: ٦١٧ ـ ٦٤٥ هـ / ١٢٢٠ ـ ١٢٤٧م

٦. الملك الكامل ناصرالدين محمد بن المظفرغازي: ٦٤٥ ـ ٦٥٨ هـ /١٢٤٧ ـ ١٢٦٠م

الملحق (٦)

ما أورده ابن شداد حول لقاء الكامل بهولاكو وكيفية قتله

عندما ألقى المغول القبض على الكامل أُخذ أسيراً وقالوا له:

" نحن ما نقتلك، لأنا لم نؤمر بذلك. وسلموه إلى صاحب كنجة وجعلوا في عنقه دوشاخ خشب، وحمل وأخوه الأشرف إلى هولاكو فلقوه قريباً من سروج عائداً من الشام، فاستحضر الملك الأشرف أولاً، وقال: لأي شيء كنت معنا إلى أن كان الحصار، فخرجت عنا إلى أخيك وصرت معه؟.

ولما لا خرجت إلى ولدي؟. فقال: إني لم يكن لي حكم، وإنما لأخي، وكنت تبعاً له. فأمر بقتله فقتل.

ثم أحضر الملك الكامل، فلما مَثَل بين يديه قال: إنه أنت/ تعلم سياسة المغول وما هم عليه، وإنهم إذا عمل أحدهم ثلاثة ذنوب يعفى عنه، وفي الرابع يقتل، وأنت: سقيتك في همذان فما شربت؟ وأمرتك بهدم سور آمد وتعطيها لركن الدين ـ صاحب بلاد الروم ـ ما فعلت! وقلت لك: خذ إخوتك وأموالك وعسكرك والتقيني على بغداد حتى نقاتل الخليفة فامتنعت!!

والذنب الرابع: أني عبرت على بيوتك فلم تخرج إلي، ولا سيرت لي هدية ولا ضيافة، ولا أبصرت وجهي حتى لا تموت.

فأجابه الملك الكامل: من أنت حتى أتحمل المشقة في رؤية وجهك؟!

أنت ما لك قول ولا دين؛ بل خارجي يجب علي قتالك، وأنا خير منك.

فقال هولاكو : بأي شيء أنت خير مني؟

فقال: لأنني أومن بالله وبرسوله، ولي دين وأمانة، ومع هذا فإن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء. وكان لنا من عدن إلى تبريز، فذهب منا ذلك. وكذلك يفعل الله بك إذا أراد، يرسل عليك من يقتلك، ويسبي ذريتك، ولا يترك من عسكرك أحداً.

فقال له: كلامك أكبر منك: لأنك من السلاطين الصغار؟.

ثم وكزه بسيف كان في يده فخرق بطنه. وأمر سونجق فضرب عنقه، وبعث برأسه إلى الشام، فطِيْفَ به في البلاد، وعلق على باب الفراديس بدمشق، فبقي مدة. ثم سرقه مجد الدين ــ إمام مسجد رقية ــ ودفنه في طاق إلى جانب محراب المسجد. ــ رحمه الله ــ .

ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٥٠٤ ــ ٥٠٦، وهناك روايات أخرى عن كيفية القتل التي إن دلت على شيء فإنما تدل على الوحشية والهمجية والبربرية.

الحواشي

(١) ميافارقين: التسمية وفقاً للشرقي بن القطامي: جاءت من "ميّا": اسم الأودية، و"فارقين": اسم امرأة بَنَتْها، فكأنهم قالوا: "أودية فارقين"، ابن شداد ج٣ ق ١ ص٢٦٠؛ لكنّ ياقوتاً يذكر: قالوا: سميت بميّا بنْتِ لأنها أول من بناها، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارجين، لأنها كانت أحسنت خندقها، فسميت بذلك، ياقوت: مج٥ ص٢٣٥؛ أما لسترنج فيكتب: الظاهر أن ميافارقين العربية تحريف لاسم ميرفكت (Maypharkath) الآرامي أو موفركن (Moufargin)الأرمني. وسماها اليونان مرتيروبولس (Martyropolis)، **بلدان الخلافة الشرقية**، تر: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، ط١، بغداد، ١٩٥٤م. وهناك روايات لتفاسير أخرى لسبب التسمية.

(٢) شبولر، برتولد: **العالم الإسلامي في العصر المغولي**، تر: خالد أسعد عيسى، مراجعة وتقديم: سهيل زكار، دار حسان، ط١، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٤.

(٣) R. Dussaud: Topographie Historique De La Syrie Antique Et Me'die'vale, Paris, 1927.

(٤) J. Sauvaget : - Esquisse D'une Histoire De La Ville De Damas, REI, 4, 1934.

(٥) Cl. Cahen: La Syrie Du Nord a L'epoque Des Croisades, Paris, 1940.

(٦) О. Г Большаков: Средневековый Город Ближнего Востока 7-середина 13 В НАУКА, Москва, 1984г

(٧) **الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر**، تقديم: سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٩م.

(٨) **"تاريخ الموصل"**، ج١ ١٩٢٣؛ ج٢ ١٩٢٨م؛ ج٣ ١٩٥٦م.

(٩) سوادي عبد محمد: **إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ**، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧١م.

(١٠) الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن ٦ هـ / ١٢م، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٩٨٩م.

(١١) مدينة سنجار من الفتح العربي الإسلامي حتى الفتح العثماني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م.

(١٢) مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥م، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.

(١٣) تاريخ جزيرة ابن عمر منذ تأسيسها حتى الفتح العثماني، دار الفكر اللبناني، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.

(١٤) ابن شداد، عز الدين محمد: **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تح: يحيى عبارة، الجزء الثالث، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م، ص ٤٧٢ ــ ٥١٠.

(١٥) **مدرسة الجغرافيين الكلاسيكيين:** ظهرت في مرحلة ما قبل القرن ٤ هـ / ١٠م، أشهر مؤلفيها: البلخي، وابن حوقل، والإصطخري، وابن خرداذبه، واليعقوبي، وابن الفقيه، وابن رسته، والمسعودي... إلخ، تتميز بكونها قصرت المادة الجغرافية على بلاد الإسلام، وأهملت الأقطار الواقعة خارجها، إذ حاول روادها إعطاء وصف منتظم لتخطيط العالم الإسلامي ونظامه الإداري مع الاهتمام بوصف طرق المواصلات على نحوٍ خاص، وكان للخرائط فيها أثر مهمٌّ. آخر الممثلين الكبار لهذه المدرسة كان المقدسيّ ٣٣٦ نحو ٣٨٠ هـ / ٩٤٧ نحو ٩٩٠م.

И.Ю Крочковский: Избранные Сочинения,Том 4, НАУКА, Москва,1957.Стр 194-212.

(١٦) The Encyclopaedia Of Islam, New ed, Leiden, L : tom 1, p. 1030.

(١٧) اليافعي، عبد الله بن أسعد: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان**، تح: عبد الله الجبوري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م، ج٤ ص٧٣؛ ابي الفدا: المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفدا)، طبعة كوبنهاكن، ١٧٩٥م، ص٥٦٨.

(١٨) ابن شداد: ج٣ ق١ ص ١٦٩، ٢٠٠، ٢٤٣، **ناجي، زهير محمد:** لؤلؤ عبد الله (الملك الرحيم)، الموسوعة العربية، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق،٢٠٠٧م، مج١٧، ص ٢١٤ــ٢١٥.

(١٩) شميساني: ص ١٨٧ ــ ٢١٩.

(٢٠) ــ هناك تضارب بين المصادر في ذكر تاريخ وفاة شهاب الدين؛ إذ جعله ابن الشحنة: ص١٠٠، وأبو الفدا: ص٥٦٢ في سنة ٦٤٢هــ/ ١٢٤٤م، ابن الشحنة: روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، حواشي الجزء التاسع لكتاب **الكامل في التاريخ لابن الأثير**، المطبعة العامرة، القاهرة،١٨٧٣م.

ــ ابن الفوطي: ص١٦٤؛ وابن العبري: ص٤٨٣ اللذان انفردا من بين المصادر بذكرِ الملك الكامل باسم الأشرف علماً أن له أخاً باسم الأشرف كان يتولى خلاط في زمنه، واقتيد ليقتل معه على يد هولاكو. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل: **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة**، دارالفكر الحديث، بيروت،١٩٨٧م؛ ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس الملطي: **تاريخ مختصر الدول**، تصحيح وفهرسة: الأب أنطون صالحاني، دار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٤٦٢ ــ ٤٦٥.

(٢١) ابن شداد: ج٣ ق٢ ص ٥٢٥،٥٤٠.

(٢٢) إقبال، عباس: **تاريخ المغول**، تر: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٠م، ص٢٠٨؛ حمدي، أحمد حافظ: **الدولة الخوارزمية والمغول**، القاهرة، ١٩٤٩م ، ص١٣٣،١١٤.

(٢٣) ابن العبري: ص٤٠٧ ــ ٤٣٢؛ حمدي، أحمد حافظ: **الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٣٦.

(٢٤) **النزارية:** فرقة من الإسماعيلية تعرف أيضاً بلقب: الحشاشين، قالوا بإمامة المصطفى لدين الله نزار بن معد الفاطمي (الخليفة المستنصر) ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧م، وهي من الفرق الباطنية التي تعتمد على السرية في مشروعاتها، استقرو بشكل أساسي في قلاع جبال قهستان متخذين من قلعة آلموت (العقاب) بين قزوين وبحر الخزر كرسياً (عاصمة) لهم، عرفوا منذ أواخر القرن ١٣ هـ / ٢٠م باسم الآغاخانية؛ نسبة إلى الآغا خان الأول حسن علي شاه المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١م. الخطيب، مصطفى عبد الكريم: **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت،١٩٩٦م، ص٤٢١؛ القزويني، زكريا: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨، ص٣٠١ ــ٣٠٢؛ الأمين، حسن: ــ **الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي**، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط٢، بيروت، ١٩٩٧م، ص٨٦ وما يليها.

(٢٥) حمدي: **الشرق**، ص٨٢.

(٢٦) العريني، السيد الباز: **المغول**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م،ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠ ؛ حمدي: الشرق، ص١٢٣.

(٢٧) **داود:** ص ٨٤.

(٢٨) **الدولة المروانية:** المروانيون سلالة كردية حكمت ديار بكر ما يقارب القــرن، واتخذت ميافارقين عاصمة لها، خماش، نجدة: **المروانيّون**، الموسوعة العربيـــة، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٧م، مج ١٨ ص٤٣٣.

(٢٩) خماش، نجدة: **ميافارقين** ، الموسوعة العربيـــة، مؤســسة الــصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٨م، مج٢٠ ص ١٥٧ــ١٥٨، ص ١٥٧.

(٣٠) بيطار، أمينة: **الأيوبيون**، الموســوعة العربيـــة، مؤســسة الــصالحاني، ط١، دمشق،٢٠٠١م مج ٤ ص ٥٠٣ ــ ٥٠٤.

(٣١) الفارقي، أحمد بن يوسف بن الأزرق: **تاريخ الفارقي**، تقديم ومراجعة: حــسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨م،ص٨٢.

(٣٢) **الربض:** ما حول المدينة من بيوت ومساكن، المنجد في اللغـــة والأعـــلام، دار المشرق، ط٣٦، بيروت، ١٩٩٧م. ص٢٤٥.

الفصيل: سور صغير يجعل أمام السور الأصلي الكبير، وهو بمنزلـــة خــط الــدفاع الأول، دهمان: ص ١١٨.

(٣٣) **الرحى:** الطاحون؛ وجمعها أرحاء، المنجد فـــي اللغـــة،ص ٢٥٣؛ **الجوســـق:** القصر، فارسية، المنجد في اللغة: ص ١١٠.

(٣٤) ابن شداد ج٣ ق٢ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٧، لسترنج: ص١٤٣ ــ ١٤٤.

(٣٥) ابن شداد ج٣ ق٢ ص ٥٢٢ ــ ٥٢٨؛ القزويني: ص ٤٩١؛ الفقي، عصام عبد الرؤوف: **بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي**، دار الفكر العربـــي، د.م، د. ت، ص٢١٩.

(٣٦) **الفرسخ:** مقياس يعادل المسافة التي يقطعها الحصان مشياً في مدة ساعة وطوله عند الفرس ٥٢٥٠م؛ وعند العرب ٥٧٦٢م، وطول الفرسخ في مختلف العصور

ومختلف المناطق كان يتـراوح بـين ٥،٥ ــ ٨،٥ كـم. ابـن شـداد ج٣ ق٢ ص٩٣٣.

(٣٧) **جلال الدين منكبرتي خوارزمشاه:** آخر ملوك خوارزم خلف أباه عـلاء الـدين ٦١٧ ــ ٦٢٨ هـ / ١٢٢٠ ــ ١٢٣١م، أحد من يضرب به المثل في الشجاعة والإقدام، قاوم المغول في حدهم وحدتهم، هزمـه جنكيـز خـان ٦١٨هـ / ١٢٢١م، قتل ٦٢٨ هـ /١٢٣١م، كتب سيرته النسوي. المنجد فـي الأعـلام، ص٢٠٣؛ ابن شداد: ج٣ ق٢ ص ٧٢٨.

(٣٨) ابن شداد ج٣ ق٢ ص ٥٣٦ ــ ٥٤١.

(٣٩) أبو شامة: **عيون الروضتين في أخبار الدولتين**، تح: أحمد البيـسومي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م، ق٢ ص١٢٣؛ حمدي: الشرق، ص١٠٢.

(٤٠) **نويان (نوين):** أعلى رتب الأمراء الأربع في الجيش المغولي، وصاحب هـذه الرتبة هو أمير عشرة آلاف، ويعبر عنه أمير تومان، إذ إن التومان عنـد بنـي هولاكو عبارة عن عشرة آلاف. عن **صـبح الأعـشى**، ابـن شـداد: ج٣ ق٢ ص٩٤٧.

(٤١) **أوكتاي خان: ٦٢٧ ــ ٦٣٩ هـ / ١٢٢٩ــ ١٢٤١م**: الابن الثالـث لجنكيـز خان، وقع اختيار جنكيزخان عليه ليخلفه لما تمتع بـه مـن العبقريـة والـذكاء والإدراك السليم للأمور، أنشأ عاصمة المغول قراقورم، واهتم بإدخـال النظـام الإداري ــ الذي غلبت عليه الصفة الحربية ــ في الإمبراطورية المغولية، أتـم المغول في عهده فتح الصين الشمالية وبلاد فارس، وجنوب روسـيا. العرينـي: ص ١٥٨ ــ ١٨٨.

(٤٢) ابن العبري: ص ٤٠٧ـــ ٤٣٢؛ النسوي، محمد بن أحمد: **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي**، تح: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٣٧٤ ـــ ٣٨٣؛ الجويني، عطا ملك: **تاريخ فاتح العالم**، تعريب وتدقيق: محمد التونجي، دار الملاح، ط١، ١٩٨٥، مج٢ ص٨٥ـــ ٩٣؛ الغساني، الملك الأشرف: **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الملوك**، تح: شاكر محمود عبد المنعم، دار البيان بغداد، دار التراث الإسلامي بيروت، ١٩٧٥م، ص٤٤٣- ٤٤٨؛ ابن الوردي، عمر بن حفص: **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، مطبعة القدم العلمية، ط١، ١٣٢٨هـ، ص٢٣٠؛ ٤٤٨؛ ابن خلدون، عبد الرحمن: **العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)**، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج٥ ص٦٦٣ ؛ العريني: ص١٧٤ وما يليها؛ خليل، عماد الدين: **الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة**، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠م، ص٣١٦ ـــ ٣٢١ ؛ حمدي: الدولة، ص ١٩٣؛ الفقي: ص١٩٩ .

Хмейд, Нуха Фадлаллах: Города Северной Сирии (джазиры) В 13 - 14 вв. Диссертаци На Соскание Учёнй Степени Канидата Исторически Наук, Институт Востоковедения,Санкт -Пётербургский Филиал, Свнкт Пётербург, 1991.стр 70_74. 79,.

(٤٣) **سلاح دار(سلحدار):** لفظ فارسي معناه: صانع الأسلحة. دخل العربية في العصر الإسلامي المتأخر لينصرف على المملوك المكلف حمل آلات الحرب الخاصة بالملك أو السلطان أثناء القتال، ثم صار من جملة السلحدارية، وهي فرقة من المماليك السلطانية كانت معروفة عند الأيوبيين والمماليك باسم خاصكية، مهمة عناصرها حراسة السلطان في قصره ومجالسه، كان يتولى شأنهم رئيس منهم يعرف باسم: أمير السلاح، وهو من أصحاب المراتب العالية. تطور مدلول السلحدار ليصبح في نهاية العصر المملوكي مسؤولاً عن أماكن

حفظ السلاح في الدار السلطانية، وكان يتخذ رنوكاً من سيفين يزين بهـا بدلتـه للدلالة على طبيعة وظيفته.استمرت هذه الوظيفة في العصر العثماني بحيث كانت مرتبة السلحدار قريبة من مرتبة الوزير. الخطيب: ص ٢٥٦.

(٤٤) ابن الشحنة: ص٩٨؛ يذكر الغساني أن رسول ملك التتر حضر سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠، ص ٤٩٨؛ خليل: ص ٣٢٢.

(٤٥) ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٤٧٣؛ ابن الفوطي: ص٩٨؛ الغساني: ص ٥٢٧ لكنـه يذكر أن المظفر شهاب الدين توجه إلى مصر.

(٤٦) ابن شـداد: ج٣ ق٢ ص٤٧٧؛ الـذهبي: **دول الإسـلام**، بيـروت، ١٩٨٥م، ص٣٥٨؛ ابن الفوطي: ص١٢٨؛ Хмейд- стр 81-82 ؛ ١٦٠، En Of Is: tom 3 p.

(٤٧) **باتو خان بن جوجي:** أمير مغولي حفيد جنكيز خـان. أسـس مملكـة الأردو (المعسكر) الذهبية في جنوب سيبيريا وروسيا وحوض الفولغا. أغار على بولونيا والمجر وعبر الدانوب إلى بلغاريا. المنجد في الأعلام ص ١٠٠.

(٤٨) ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٤٧٧.

(٤٩) **قراقورم (قره قـرم):** هي مدينة في منغوليا على نهر أرخون، أسست في القرن ٧ هـ / ١٣م وكانت عاصـمة إمبراطوريـة المغـول، ابـن شـداد: ج٣ ق٢ ص٨١٦.

(٥٠) هو ابن صاحب سيس الأرمني، واسمه ليـون الثالـث Leon III ٦٦٩ ـ ٦٨٨ هـ / ١٢٧٠ ـ ١٢٨٩م ، ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٦٩٥.

(٥١) ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٤٨٠؛ ابن العبري: ص٤٨٣؛ خليل: ص٣٢٤.

(٥٢) **الشحنة:** لفظ تركية- مغولية؛ شرطة؛ حاكم عسكري؛ رئيس الشرط. التونجي، محمد: معجم المعربات الفارسية، مراجعة السباعي محمد السباعي، مكتبة لبنان، ط٢، بيروت، ١٩٩٨م، ص١١٨.

(٥٣) **اليرليغ:** (يارليغ) هو بلغة التركمان: الأمر الملكي أو الفرمان الصادر عن السلطان أو الملك، متداول في العصرين الأيوبي والمملوكي، الخطيب: ص٤٤٦؛ **البايزة:** لفظ مغولي أطلق على لوح صغير مصنوع من الذهب، على أحد وجهيه رأس سبع، وهو كالوسام في عصرنا، كان يمنحه الخان في الدولة المغولية لكبار الضباط ورجال الدولة، الخطيب: ص٦٨.

(٥٤) **اليمانية:** (حصن اليمانية) هو ما كان يعرف باسم "أنكل"، وهو قلعة أسلم أهلها، وسميت باليمانية، لأنها فتحت على يد حذيفة بن اليمان، وهي على مسافة ثلاثة فراسخ من آمد، ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٧٨٤.

(٥٥) ابن شداد: ج٣ ص٤٨٨؛ ابن العبري: ص ٤٨٣؛ إقبال: ص٢٠٨.

(٥٦) العريني: ص ٢٢٣.

(٥٧) **الكرج:** مسيحيون يسكنون جبال القبق (القوقاز) قال عنهم ياقوت: الكرج: جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق، فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة برأسها وشوكة وقوة وكثرة عدد، الأمين، السيد حسن: **حقائق تاريخية عن التحالف المغولي الصليبي**، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٢١، ص ١٦٠ ــ ١٧٣، ١٩٨٨م، ص١٧٢؛ الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٩٥م مج٤ ص٤٤٦.

(٥٨) العريني: ص٢٤٩؛ الصياد، فؤاد عبد المعطي: **المغول في التاريخ، دار النهضة العربية**، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٩٣.

(٥٩) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: **جامع التواريخ**، تر: محمد صادق نشأة، محمد موسى الهنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه وقدم له: يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، عن الطبعة التي نشرها كاترمير، القاهرة، ١٩٦٠م،: مج٢ ج١ ص٣٠٦ ، ٣١٩ ؛ ابن شداد: ج٢ ق١ ص٤٩٠؛ ابن خلدون: ج٥ ص٥٩٠ ـ ٥٩٣؛ عاشور، فايد حماد: **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى**، تقديم: جوزيف نسيم، دار المعارف، مصر ١٩٧٤م، ص٤٠ ؛الصياد: ص٢٩٢.

(٦٠) ابن شداد: ج٢ ق١ ص٤٨٩.

(٦١) **خورشاه:** هو ركن الدين بن علاء الدين محمد آخر زعيم للإسماعيلية في فارس الذي وجد مقتولاً ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م، حيث استلم الزعامة بعد أبيه، ثم استسلم لهولاكو الذي عامله معاملة حسنة في البداية، إذ أنعم عليه بزوجة مغولية، ومنحه مدينة قزوين ليقيم فيها؛ آملاً أن يستفيد من مكانته لدى الإسماعيلية في السيطرة على قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، ليتم التخلص منه خلال مدة قصيرة. الهمذاني: مج٢ ج١ ص٢٥٢ ـ ٢٥٨ ؛ الجويني: مج٢ ص ٣٤٤ـ ٣٥٨؛ ابن العبري: ص ٤٦٢ ـ ٤٦٥؛ **الصياد**: ج١ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٥؛ الأمين: **الإسماعيلية**، ص ١٣٨.

(٦٢) الجويني: مج٢ ص ٣٤٤ ـ ٣٥٨؛ ابن شداد: ج٢ ق١ ص٤٨٩؛ **الصياد**: ص ٢٩٢.

(٦٣) الهمذاني: مج٢ ج١ ص٣١٩؛ **الصياد**: ص٢٩٣.

(٦٤) ابن العبري: ص٤٨٣؛ **الصياد**: ص٢٩٠.

(٦٥) العريني: ص٢٢٤.

(٦٦) خماش: ميافارقين الموسوعة، ج٢٠ ص٣٩٨؛ أبو شامة: **الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين** (النورية والصلاحية)، نشر: عزت العطـــار، ط١، القـــاهرة، ١٩٤٧م ، ص٢٠١؛ ابن العبري: ص٤٨٣.

(٦٧) الهمذاني: مج٢ ص٣٢٠؛ ابن شداد: ج٢ ق١ ص٤٩٢.

(٦٨) أبو شامة: الذيل على الروضتين في أخبار الـــدولتين (النوريـــة والـــصلاحية)، **الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية**، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، ج٢٠، دار الفكر، دمشق، ١٩٥٥م، ج٢٠ ص ٣٩٨ ؛ أبو شامة: **الـــذيل**، طبعة القاهرة، ص٢٠١.

(٦٩) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي: أصله من حلب وقد شغل مناصب إداريـــة لدى الأيوبيين، وكان يعد خبيراً في شؤون الميزانية والمالية مما انعكس انعكاساً واضحاً في كتابه الأعلاق الخطيرة (وهو مصدر أساسي في بحث ميافـــارقين)، وقد عاش في مرحلة خطيرة من تاريخ المـــشرق الإســـلامي، مـــارس النـــشاط الدبلوماسي في عصره، وشارك في النضال ضد الزحف المغولي، بعد اســـتيلاء المغول على حلب هاجر إلى القاهرة، وأمضى باقي حياته في كنـــف ســـلاطين المماليك حتى وفاته ٦٨٤ هـــ / ١٢٨٥م، ح كان يحظى بثقة مـــن عمـــل فـــي خدمتهم ، له عدة مؤلفات ، ابن شداد: مـــن مقدمـــة المحقـــق ج٣ ق١ ص ١٣ ـــ٢٧.

(٧٠) **الشهرزورية:** نسبة إلى شهرزور، التي كان يسكن بها الأكراد الكوسية إلى أن استولى عليها هولاكو، ففروا منها إلى بلاد الشام ومصر، ابـــن شـــداد ج٣ ق٢ ص٨٦٦.

(٧١) ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٤٩١ ـــ ٤٩٩.

(٧٢) **القراغلية (القراغلامية)**: جماعة الضبطية: وهم جماعة الجيش لحمايته في الطريق، أو لعدم الفرار منه، أي مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش، دهمان، محمد أحمد: **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٩٩٠م، ص١٢٣؛ القراغول: حافظ الطريق عند التتر، وعربيتها الخفير. والعامة تقول كركون، المنجد في اللغة ص٦٢٢.

(٧٣) ابن شداد ج٣ ق٢ ص ٥٠٠ ــ ٥٠١.

(٧٤) الهمذاني: مج٢ ج١،ص٣٢٠ــ٣٢٣ ؛ En Of Is: Tom3,P160؛ ابن الوردي: ص٢٨٧؛ ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٥٠٠ ــ ٥٠٣ وما يليها.

(٧٥) ابن شداد:ج٢ ق٢ ص٥١٠، ٥٤١؛ ابن العبري: ص٤٨٨؛ **الصياد** ص٢٩٣؛ Хмейд؛ стр 81-82.

(٧٦) الذهبي: **دول**، ص٣٦٢؛ خليل: ص٣٢٧ــ ٣٢٨.

(٧٨) ابن شداد ج٣ ق٢ ص٤٨٣، ٥٢٧.

(٧٩) اليافعي: ج٤، ص ١٥٠.

(٨٠) الهمذاني: مج٢ ج١ ص٣٢١؛ النويري، شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب**، تح: سعيد عاشور، مراجعة: مصطفى زيادة؛ فؤاد عبد المعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥م، ج٢٧ ص٣٨٣؛ العيني، بدر الدين محمود: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، مج١ ص١٧٧؛ أبو الفدا: ص٥٦٢.

(٨١) **المكوك**: مكيال معروف ومعمول به منذ العصر العباسي، في وزنه وسعته اختلاف قيل: إنَّ سعته صاع ونصف الصاع، بينما هو في القرن الثامن عشر الميلادي مكيال زنته من الشعير في حلب ٦١ كغ. جمعه مكاكيك. الخطيب: ص٤٠٦.

(٨٢) ــ **الدرهم:** من أنواع العملات المعدنية التي تداولها العرب المسلمون، وكان وزنه ٢,٩٧ غ من الفضة، وهو أحد كسور الدينار الذهبي، وقد تغيرت قيمة الدرهم من حيث تركيبه وقوته الشرائية بتغير الأزمنة وتعاقب الدول، وفي العصر الأيوبي ضرب الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبي في مصر الدراهم الكاملية سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م، وتداولتها أقاليم الدولة الأيوبية، وهي دراهم مضروبة من معدني الفضة والنحاس معاً بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من النحاس، **غربال**: ج٢ ص١٧٩١؛ الخطيب: ص ١٧٩.

ــ **الرطل:** اثنتا عشرة أوقية أو ٢٥٦٤ غراماً، وهي لفظة آرامية، المنجد في اللغة: ص ٢٦٦.

(٨٣) ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٥٠٧ــ ٥٠٩.

(٨٤) ابن شداد: ج٣ ق٢ ص٥٠٥؛ ابن العبري: ص ٤٨٨ ؛ الهمذاني: مج٢ ج١ ص٣٢٢؛ العيني: مج١ ص١٧٧.

(٨٥) ابن الفوطي:ص١٦٤؛ اليافعي:ج٤ ص١٥٠؛ الحنبلي، أحمد بن إبراهيم: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م. ص٣٨٧؛ عاشور، فايد حماد: **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى**، تقديم: جوزيف نسيم، دار المعارف، مصر١٩٧٤، ص٤١؛ **الصياد**: ص٢٩٠ــ٢٩٣؛ العريني: ص ٢٢٥؛ العيني: مج١ ص ١٧٨؛ P En Of Is Tom 3 p .160؛ ابن سباط، الغربي: **تاريخ ابن سباط**، جروس بروس، ط١، طرابلس، ١٩٩٣م، ص ٣٧٩؛ اليونيني، قطب الدين موسى، **ذيل مرآة الزمان**، حيدر آباد، ١٩٥٤م، ج١ ص٣٥٩؛ شبارو، عصام: **تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة حتى دخول العثمانيين**، دار الفكر اللبناني، بيروت، د.ت، ص٢٧٣؛ الذهبي: **العبر في خبر**

من غبر، ج٣، تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميـــة، ط١؛ بيروت، ١٩٨٥م، ص٢٩٢.

(٨٦) أبوشامة: **الذيل**، ص٢٠٥؛ الحنبلي: ص ٣٨٧.

(٨٧) Бартольд В.В.: Сочинения, НАУКА, Мосва 1971,том 7,стр.512

(٨٨) داود: ص٨٥؛ **المنجد في الأعلام** ص ٥٦٠.

(٨٩) جنكيزخان، تر: خالد عيسى، مراجعة وتقديم: سهيل زكار، دار حـــسان، ط١، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٣٠٣.

(٩٠) ديورانت، ول: **قصة الحضارة**، تر: محمد بدران، جامعة الدول العربيـــة، ط٢، ١٩٦٤، مج١٣، ص ٣٨٠.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١. الجويني، عطا ملك: تاريخ فاتح العالم، تعريب وتدقيق: محمد التونجي، دار الملاح، ط١، ١٩٨٥.

٢. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٩٥م.

٣. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م.

٤. ابن خلدون، عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٥. الذهبي: ـــ دول الإسلام، بيروت، ١٩٨٥م.

٦. العبر في خبر من غبر، تح: محمد سعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ج٣؛ بيروت، ١٩٨٥م.

٧. ابن سباط، الغربي: تاريخ ابن سباط، جروس بروس، ط١، طرابلس، ١٩٩٣م

٨. أبو شامة: ـــ الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، نشر: عزت العطار، ط١، القاهرة، ١٩٤٧م.

٩. الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، ج٢٠، دار الفكر، دمشق، ١٩٥٥م.

١٠. عيون الروضتين في أخبار الدولتين، تح: أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

١١.ابن الشحنة: روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، حواشي الجزء التاسع لكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، المطبعة العامرة، القاهرة، ١٨٧٣م.

١٢.ابن شداد، عز الدين محمد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى عبارة، الجزء الثالث، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م.

١٣.ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول، تصحيح وفهرسة: الأب أنطون صالحاني، دار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م.

١٤.العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

١٥.الغساني، الملك الأشرف: العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الملوك، تح: شاكر محمود عبد المنعم، دار البيان بغداد؛ دار التراث الإسلامي بيروت، ١٩٧٥م.

١٦.الفارقي، أحمد بن يوسف بن الأزرق: تاريخ الفارقي، تقديم ومراجعة: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨م.

١٧.أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفدا)، طبعة كوبنهاكن، ١٧٩٥م.

١٨.ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، دار الفكر الحديث، بيروت،١٩٨٧م.

١٩.القزويني، زكريا: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨.

٢٠.النسوي، محمد بن أحمد: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تح: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م.

٢١.النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: سعيد عاشور، مراجعة: مصطفى زيادة؛ فؤاد عبد المعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥م.

٢٢.الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، تر: محمد صادق نشأة، محمد موسى الهنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه وقدم له: يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، عن الطبعة التي نشرها كاترمير، القاهرة، ١٩٦٠م.

٢٣.ابن الوردي، عمر بن حفص: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة القدم العلمية، ط١، ١٣٢٨هـ.

٢٤.اليافعي، عبد الله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تح: عبد الله الجبوري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.

٢٥.اليونيني، قطب الدين موسى. ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد، ١٩٥٤م.

ثانياً: المراجع:

١. المراجع باللغة العربية:

١. إقبال، عباس: تاريخ المغول، تر: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٠م.

٢. الأمين، حسن: ـ الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط٢، بيروت، ١٩٩٧م.

٣. حقائق تاريخية عن التحالف المغولي الصليبي، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٢١، ص ١٦٠ ــ ١٧٣، ١٩٨٨م.

٤. بيطار، أمينة: الأيوبيون، الموسوعة العربية، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق،٢٠٠١م، مج٤، ص ٤٩٨ـ ٥٠٨.

٥. التونجي، محمد: معجم المعربات الفارسية، مراجعة: السباعي محمد السباعي، مكتبة لبنان، ط٢، بيروت، ١٩٩٨م
٦. حمدي، أحمد حافظ: ـ الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة، ١٩٤٩م.
٧. الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٨. الخطيب، مصطفى عبد الكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت،١٩٩٦م.
٩. خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠م.
١٠.خماش، نجدة: ـ المروانيون، الموسوعة العربية، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٧م، مج١٨ ص٤٣٣.
١١.ميافارقين، الموسوعة العربية، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق، ٢٠٠٨م، مج٢٠ ص١٥٧ـ١٥٨.
١٢.داود، إسكندر: الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر، تقديم: سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٩م.
١٣.دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، ١، دمشق، ١٩٩٠م.
١٤.الرويشيدي، سوادي عبد محمد: ـ إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧١م.
١٥ الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن ٦ هـ / ١٢م، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٩٨٩م
١٦.شبارو، عصام: تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة حتى دخول العثمانيين، دار الفكر اللبناني، بيروت، د.ت.

١٧.شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر: خالد أسعد عيسى، مراجعة وتقديم: سهيل زكار، دار حسان، ط١، دمشق، ١٩٨٢م.
١٨.شميساني، حسن: مدينة سنجار من الفتح العربي الإسلامي حتى الفتح العثماني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م.
١٩. مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥م،عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٠.الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠ م.
٢١.عاشور، فايد حماد: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، تقديم: جوزيف نسيم، دار المعارف، مصر ١٩٧٤م.
٢٢.العريني، السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
٢٣.غروسيه، رينيه: جنكيزخان قاهر العالم، تر: خالد عيسى، مراجعة وتقديم سهيل زكار، دار حسان، ط١، دمشق، ١٩٨٢م.
٢٤.غندور، محمد يوسف: تاريخ جزيرة ابن عمر منذ تأسيسها حتى الفتح العثماني، دار الفكر اللبناني، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.
٢٥.الفقي، عصام عبد الرؤوف: بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، دار الفكر العربي، د.م، د. ت.
٢٦.لسترنج ك.: بلدان الخلافة الشرقية، تر:بشير فرنسيس وكوركيس عواد،ط١، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤م.
٢٧.مجموعة من المؤلفين: المنجد في اللغة، دار المشرق، ط ٣٦، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٨. المنجد في الأعلام، دار المشرق، ط ٢٢، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٩.ناجي، زهير محمد: لؤلؤ عبد الله (الملك الرحيم)، الموسوعة العربية، مؤسسة الصالحاني، ط١، دمشق،٢٠٠٧م، مج١٧، ص ٢١٤ــ٢١٥.

٢. المراجع باللغات الأجنبية:

1. Cahen Cl.: La Syrie Du Nord a L'epoque Des Croisades, Paris, 1940.
2 . Sauvaget J : - Esquisse D'une Histoire De La Ville De Damas, REI, 4, 1934.
3 .- Alep, Essai Sur La De'veloppement D'une Grande Ville Syrienne, Des Origines Au Millieu Du XIX Sie'le, Libraire Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1941.

4. Dussaud R.: Topographie Historique De La Syrie Antique Et Me'die'vale, Paris, 1927.

5.The Encyclopaedia Of Islam, New ed, Leiden, L.Бартольд В.В.: Сочинения, НАУКА, Мосва, 1971,том 7,стр.512

6. Большаков О. Г: Средневековый Город Ближнего Востока

7-середина 13 В. НАУКА, Москва, 1984г

8- Крочковский И.Ю: Избранные Сочинения, Том 4,НАУКА, Москва, 1957. стр 194-212

9. Tsybulsky V.V.: Calendars Of Middle East Countries, Nauka, Moscow, 1979.

10 Хмейд, Нуха Фадлаллах: Города Северной Сирии (джазиры)В 13 - 14 вв. Диссертаци На Соскание Учёнй Степени Канидата Исторически Наук, Институт Востоковедения, Санкт - Пётербургский Филиал, Свнкт Пётербург, 1991.стр

الحركة التأريخية في بلاد الشام

في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

الدكتور سامي مرعي

قسم التاريخ

جامعة تشرين

ـ مقدمة:

تناوبت على إدارة بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي دول وإمارات متعددة متناحرة فيما بينها، وهذا ما جعلها ساحة لاضطرابات وحروب عديدة. فبعد سقوط الدولة الطولونية في سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م، عادت بلاد الشام تتبع للخلافة العباسية، واستمرت تابعة لها حتى سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م عندما أسس محمد بن طغج الإخشيد دولته في بلاد الشام ومصر. لكن لم يصف له حكم بلاد الشام طويلاً، حيث نافسه فيها القائد العباسي محمد بن رائق، ولم يلبث هذا التنافس أن انتقل إلى نزاع إخشيدي ـ حمداني، وذلك بدخول سيف الدولة الحمداني إلى حلب في سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م، وتأسيسه الدولة الحمدانية فيها. فانقسمت بلاد الشام إلى قسمين: جنوبي يتبع الدولة الإخشيدية التي مركزها في مصر، وشمالي يتبع الدولة الحمدانية التي مركزها في حلب. استمر هذا الوضع حتى سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م عندما حدث تغير كبير على الساحة السياسية في بلاد الشام. حيث حل الفاطميون

محل الإخشيديين في السيطرة على القسم الجنوبي منها، فغدت بلاد الشام مسرحاً للتنافس والنزاع بين الفاطميين والحمدانيين. استمر هذا الوضع حتى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. كما وجد إلى جانب الفاطميين والحمدانيين البيزنطيون الذين كانوا قد احتلوا الثغور الشامية الشمالية. وبعض مناطق الساحل الشامي الشمالي، وقاموا بحملات نحو أعماق بلاد الشام، واحتلوا بعض مناطقها. ترافق ذلك مع بداية لهجرات بشرية غير عربية لاسيما من العناصر الأرمنية والكردية إلى بلاد الشام، وتحركات لبني الجراح الطائيين في فلسطين، وحملات قرامطة البحرين نحوها.

على الرغم من التمزق السياسي الذي عانت منه بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكثرة الاضطرابات والحروب التي حصلت في أراضيها إلا أنها عرفت ازدهاراً فكرياً واسعاً في اختصاصات العلوم المختلفة، وكان من هذه العلوم: التأريخ الذي كان محط اهتمام العديد من رجال العلم، فدونوا فيه مؤلفاتهم القيّمة والثمينة.

تنطوي دراسة حركة التأريخ على أهمية بالغة، وذلك لما تحمله من فوائد جليلة وتحليلات ومعطيات هامة، و"التأريخ في اللغة هو الإعلام بالوقت"، وفي الاصطلاح هو "فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت"، وموضوعه هو الإنسان والزمان، و"فائدته هي معرفة الأمور على وجهها"[١]، والأساس في الصناعة التاريخية، كما هو معروف، أن تكون مقصورة في البحث عن الحقائق وتقريرها بعد الحصول عليها، و"هدف التأريخ هو معرفة النشاط الإنساني في كافة الحقول والمجالات وفي كل العصور إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا"[٢]. وعن أهمية التأريخ والشروط الواجب توافرها في المؤرخ، قال ابن خلدون: "اعلم أن فن التأريخ فنٌّ عزيز المذهب، جمُّ الفوائد، شريف الغاية. إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة

الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبَّان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل، ولم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤمن فيها من العثور، ومزلّة القدم والحيد عن جادة الصدق"(٣).

بدأت الكتابات التاريخية في بلاد الشام منذ العصر الأموي، وكانت تتمحور حول العناية بالأنساب وتاريخ العرب قبل الإسلام والمغازي والفتوح. وبعد سقوط الخلافة الأموية. اتجهت الكتابات التاريخية الشامية في اتجاهين هما:

- رواية المغازي وأعمال الرسول ﷺ.
- والتاريخ الأموي، ومناقب الأمويين.

لم يلبث هذان الاتجاهان أن بدأا يضمران في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ليظهر بدلاً منهما اللون المحلي في التدوين التاريخي الذي يهتم بأخبار المدن الشامية وعلمائها ومحدِّثيها(٤).

وقد برز في بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، العديد من المؤرخين الذين كتبوا كتابات تاريخية مهمة، وقد كان معظمهم من الملمين بعلوم أخر. فهناك من كان من المحدثين أو الفقهاء، أمثال: الحسين بن محمد بن أبي معشر مودود أبو عروبة الحراني (ت، ٣١٨هـ/ ٩٣٠م)، ومحمد بن عبد الله بن جعفر أبو الحسين الرازي (ت، ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م)، وعلي بن الحسن بن علان الحراني (ت، ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)، وغيرهم ممن سوف يأتي الحديث عنهم.

وكان بعض الذين صنفوا كتابات تاريخية من الأدباء والكتّاب كما هو الحال مع عثمان بن عبد الله بن إبراهيم أبو عمرو الطرسوسي (ت، ٤٠١هـ/ ١٠١٠م) المحدث والكاتب(٥). هذا ولم تقتصر الدراسات التاريخية في القرن الرابع الهجري/ ١٠م على المسلمين. بل وُجِد بعض المؤرخين المسيحيين الذين صنفوا تصانيف مهمة، كذلك لم تكن الكتابات التاريخية مقصورة على فن من فنون التاريخ، بل جاءت في إطار أنواع تاريخية عديدة أمثال: التاريخ المحلي وكتب البلدان والفضائل، والتاريخ الحولي، والتراجم والطبقات، والسير والأنساب، وكتب الوفيات وغير ذلك.

١- التأريخ المحلي وكتب البلدان:

اختصت بعض الكتابات التاريخية الشامية في التأريخ المحلي. هذا وتعد التواريخ المحلية تعبيراً أدبياً عن الرباط الوثيق الذي يربط الناس بمكان مولدهم. ونشأت من الاعتبارات الدينية والفقهية والمفاخر الإقليمية، وهي تبحث في تاريخ مدينة أو إقليم، وتبين العلماء المشهورين فيه(٦). وأبرز من كتب في التاريخ المحلي:

ـ عبد الصمد بن سعيد بن عبد الله أبو القاسم الكندي القاضي (ت، ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م): محدث حمص، وقاضيها، قَدِمَ دمشق قديماً، وسمع بها أبا الحسن بن جوصاء، ويزيد بن عبد الصّمد، وحدث عنهما وعن غيرهما، وقدم دمشق مرة أخرى حاجًّا، فحدث بها سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م(٧). جمع "تاريخ حمص"(٨)، وقد ذكره ابن عساكر باسم "تاريخ لذكر الصحابة الذين نزلوا حمص"(٩)، وهذا يعني أنه خصصه للصحابة والتابعين ومن تلاهم ممن نزل حمص واستقر بها. وقد شكّل هذا التاريخ مصدراً من المصادر التي نقل عنها ابن عساكر(١٠). كما نقل ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان قطعاً منه(١١). وعاش بعد عبد الصمد بمدة لا تزيد على قرن من الزمن، أبو بكر بن صدقة الذي كتب "تاريخاً لحمص"(١٢) أيضاً.

ـ الحسين بن محمد بن أبي معشر مودود السلمي الجزري أبو عروبة الحراني (ت، ٣١٨هـ/ ٩٣٠م): محدِّث ومفتٍ ومؤرخ من أبناء حران[١٣]، ولد بعد ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م، اتجه نحو سماع الحديث سنة ٢٣٦ هـ/ ٨٥٠م. فسمع في بلاد الشام والجزيرة والعراق والحجاز، ثم عاد إلى بلده، فتولى قضاءها، وتصدر فيها محدثاً ثقة وفقيهاً. كان ذا معارف واسعة بالرجال والمحدثين. لذلك قصده رجال العلم من أمصار مختلفة، ليتزودوا من معارفه، روى عنه: أبو حاتم بن حبان، وأبو أحمد بن عدي الجرجاني وجماعة كثيرة غيرهما[١٤]، صنف تصانيف عديدة، منها: «حديث الشيوخ»[١٥]، و«كتاب الأمثال السائرة عن رسول الله ﷺ»، و«كتاب الأوائل»، و«حديث الجزريين»[١٦]. كما برز مؤرخاً للجزيرة، حيث صنف تاريخاً لحران، ذكر فيه جماعة كثيرة من أهل الجزيرة سماه "تاريخ الجزريين"[١٧]، وقيل "تاريخ الجزيرة"[١٨]، وذكره حاجي خليفة باسم "تاريخ الجزيرتين"[١٩]، ولأبي عروبة أيضاً "تاريخ الرقة"[٢٠].

ـ محمد بن سعيد بن عبد الرحمن بن إبراهيم القشيري الرقي الحافظ أبو علي (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م): عرف بابن الحراني لأن أصله من حران، وعرف بالرقي لأنه ولد ونشأ في الرقة[٢١]. قال السمعاني عنه: "كان إماماً فاضلاً مكثراً في الحديث، صنف كتاب التاريخ للرقيين"[٢٢]، وحدث بكتابه هذا سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وعمره وقتئذ ثمانون سنة، وبالتالي فإن ولادته تكون في حدود ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م[٢٣]. وُصِف القشيري بالمحدث والمؤرخ. قال عنه الذهبي: "الإمام الحافظ المفيد... محدث الرقة ومؤرخها"[٢٤]. وقال عنه الصفدي: "مؤرخ الرقة"[٢٥]، وقد صنف "تاريخاً للرقة"، وهو بعنوان: "تاريخ الرقة، ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين والفقهاء والمحدثين"، وهو يعد من أوائل الكتب التي صنفت في تاريخ البلدان والمدن، ووصلت إلينا، ومع أنه تاريخ مدينة، ويدخل في إطار تاريخ البلدان، غير أنه اقتصر على تراجم للأعلام الذين برزوا فيها. وهو يحتوي على مئة وثلاث وعشرين ترجمة

للأعلام من أهل الرقة، وقد صنفه في ثلاثة أجزاء: أما الجزء الأول منه. فقد أوقفه للحديث عن فتح الرقة، ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ ثم ترجم للتابعين وتابعي التابعين. وترجم في الجزأين الثاني والثالث للأعلام من المحدثين والفقهاء الذين برزوا فيها[٢٦]. وعلى الرغم من أن المادة التي يقدمها في كتابه، جاءت مختصرة، غير أن للكتاب أهمية كبيرة كونه يظهر كيف خرج التاريخ الإسلامي من الحديث إلى التراجم[٢٧]، وكونه مصدراً للمؤرخين اللاحقين الذين نقلوا منه، ومنهم ابن عساكر[٢٨]، وابن العديم[٢٩].

ـ أحمد بن حميد بن سعيد بن خالد أبو الحسن الأزدي المعروف بابن أبي العجائز (القرن ٤هـ/ ١٠م): محدث من أبناء دمشق[٣٠]، عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كان معاصراً لأبي الحسين الرازي المتوفى سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م، صنف كتاباً بعنوان "تاريخ دمشق"، خصصه للحديث عن بني أمية، ومن كان منهم بدمشق وغوطتها. ولهذا الكتاب أهمية كبيرة لمعرفة تاريخ الأمويين في الشام ومنازلهم وأسمائهم، خاصة بعد سقوط الخلافة الأموية[٣١]، وهذا الكتاب بحكم المفقود، ولكنه كان من مصادر ابن عساكر في تاريخه حيث اعتمد عليه، ونقل عنه تراجم بعض الأمويين الدمشقيين[٣٢]، وكذلك هنالك نُقولٌ من هذا الكتاب ترد لدى ياقوت الحموي في معجم البلدان لاسيما عندما تحدث عن قرى غوطة دمشق التي كان يسكن فيها الأمويون[٣٣].

ـ محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد أبو الحسين الرازي (ت، ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م): أصله من الري[٣٤]، وفيها كان يعرف بابن الرستاقي، ولما انتقل إلى الشام صار يعرف بالرازي، كان قد سمع محدثي بلده ثم تنقل في طلب العلم، فزار الكوفة ومكة وبغداد والموصل ومصر وغيرها. في نهاية المطاف جاء إلى دمشق، واستقر فيها حتى توفي، روى عنه ابنه تمام بن محمد، وعبد الرحمن بن عمر ابن نصر وغيرهما[٣٥]. كان أبو الحسين الرازي من الأعلام الثقات في الحديث

والتصنيف، قال الكتاني عنه: "كان ثقة نبيلاً مصنفاً"[٣٦]، وقال ابن عساكر عنه: "كان أحد المكثرين المصنفين الثقات"[٣٧]، ووصفه الذهبي: بـ "الإمام المحدث الحافظ المفيد ...... جمع وصنف وأرّخ، وأفاد الرفاق، وأفنى عمره في الطلب"[٣٨]. عاصر أبو الحسين الرازي أحمد بن أبي العجائز، وأخذ عنه، وتميز بأنه كان يحدث من مصنفاته[٣٩]، وقد صنف مصنفات عديدة عن تاريخ دمشق، أرخ فيها أسماء محدثيها وعلمائها وقوادها وكتابها وأمرائها، والجانب العمراني فيها، وغير ذلك. شكلت هذه المصنفات مصدراً رئيساً من المصادر التي اعتمد عليها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ومن خلاله تمَّ التعرّف على عناوين هذه المؤلفات ومحتواها، ومنها:

- تسمية من سمع منه بدمشق[٤٠].
- تسمية من سمع منه بدمشق في الدفعة الثانية[٤١].
- تسمية من كتب عنه بدمشق[٤٢]
- تسمية من كتب عنه بدمشق في الدفعة الثانية[٤٣].
- تسمية من كتب عنه بدمشق من العرب[٤٤].
- تسمية من كتب عنه بدمشق من الغرباء[٤٥].
- تسمية من كتب عنه في قرى دمشق[٤٦].
- تسمية أمراء دمشق[٤٧].
- تسمية أمراء دمشق في أيام بني العباس[٤٨].
- تسمية كتّاب أمراء دمشق[٤٩].
- كتاب ذكر الدور بدمشق[٥٠].

- جزء فيما أفاده بعض أهل دمشق عن أبيه عن جده، وبعض أهل بيته المؤمنين[٥١].

كذلك صنف كتاباً في مناقب الإمام الشافعي بعنوان «أخبار الشافعي وأحواله»، وهو كتاب جليل حفيل[٥٢]. هذا ولأبي الحسين الرازي أخبار وروايات وأحاديث في فضائل دمشق، وسوف يرد تفصيل ذلك عند الحديث عن كتب فضائل البلدان.

ـ علي بن الحسن بن علان بن عبد الرحمن أبو الحسن الحراني الحافظ (ت، ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م): محدث حران وحافظها، روى عن أبي يعلى الموصلي، وأبي بكر محمد بن أحمد بن أبي شيبة البغدادي، وسعيد بن هاشم الطبراني، وأبي عروبة وغيرهم. قدم دمشق سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م، وحدث بها، فروى عنه تمام بن محمد الرازي وأبو العباس محمد بن موسى بن السمسار، وأبو القاسم عبد الرحمن بن عبد العزيز بن الطبيز وآخرون. توفي بدمشق سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م، وُصِفَ بأنه كان ثقة حافظاً نبيلاً[٥٣]، صنف "تاريخ الجزيرة"[٥٤] وذكر أحياناً باسم "تاريخ الجزريين[٥٥]".

ـ القاضي عبد الجبار بن عبد الله بن محمد الخولاني الداراني المعروف بابن مهنا (ت، بعد ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م): من أبناء داريا[٥٦]، وهو من رجال الحديث، حيث سمعه في دمشق والرملة وأنطاكية وغيرها. روى عن أحمد بن سليمان بن حذلم، ومحمد بن يوسف بن بشر الهروي وأحمد بن عمير بن جوصاء وآخرين. روى عنه العديد من المحدثين، أبرزهم: تمام بن محمد الرازي، وصنف "تاريخاً لداريا"[٥٧]، حدث به سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، قال في أوله: "ذكر من نزل داريا من أصحاب رسول الله والتابعين وتابعي التابعين وأهل العلم على طبقاتهم وأزمانهم وذكر وفاتهم، ومن أعقب منهم، ومن لم يعقب إلى وقتنا هذا"[٥٨]. على الرغم من أن هذا الكتاب كما يشير عنوانه تاريخ مدينة، ويدخل في إطار تاريخ البلدان، غير أنه اقتصر على تراجم للأعلام الذين برزوا فيها، وقد ضم سبعاً وأربعين ترجمة، عرضها وفقاً لثلاث طبقات هي:

ـ ذكر من نزل داريا من أصحاب رسول الله ﷺ (٥٩).

ـ ذكر التابعين الأكابر ممن أدرك مولده حياة رسول الله ﷺ، ولم يهاجر إليه(٦٠).

ـ طبقة بعد هؤلاء(٦١).

ويلاحظ من خلال تاريخ داريا، أن مؤلفه عرض تراجمه بإيجاز واختصار، وكان متمكناً في علم الحديث. فهو يضبط رواياته، وينقد الروايات المشكوك فيها ولو رويت عن كبار المحدثين. تعود أهمية هذا التاريخ لانفراده بروايات وأخبار لا ترد في غيره، لأن مؤلفه كان يلم إلماماً شاملاً بتاريخ داريا وأحوال أهلها وأصولهم وأنسابهم وجماعاتهم(٦٢).

ـ الشاعران الخالديان أبو بكر محمد بن هاشم (ت، ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، وأبو عثمان سعيد بن هاشم (ت، نحو ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م): عرفا بالخالديين نسبة إلى قريتهما الخالدية، وهي من قرى الموصل(٦٣). تعلّما بالموصل وبغداد، ثم التحقا ببلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، فكانا من خواصه(٦٤)، ثم صارا خزنة كتبه(٦٥)، وبقيا في بلاطه إلى ما بعد سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م، حيث شجر خلاف بينه وبينهما، فانحدرا في إثره إلى العراق، ودخلا في حاشية الوزير المهلبي. بعد وفاة هذا الوزير في سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م، انقطعا إلى التأليف والتصنيف حتى توفيا، فجمعا مجاميع أدبية مليحة، واختارا من الدواوين كثيراً، ومن تصانيفهما: «كتاب في أخبار أبي تمام ومحاسن شعره»، و«كتاب في أخبار وشعر ابن الرومي»، و«كتاب اختيار شعر البحتري»، و«كتاب اختيار شعر مسلم بن الوليد»(٦٦)، وكتاب الأشباه والنظائر «حماسة الخالديين»، و«كتاب التحف والهدايا» (٦٧)، هذا ولم يقتصرا على تصنيف الكتب الأدبية، بل صنفا في الميدان التاريخي: "كتاب أخبار الموصل"(٦٨)

ـ عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد أبو عمرو الطرسوسي (ت، ٤٠١هـ/ ١٠١٠م): من أبناء طرسوس[٦٩]، لم يرد في المصادر التي ترجمت له[٧٠] كثير من التفصيلات عن حياته، كما أنها لم تشر إلى سنة ولادته، ولكن من المرجح أنها كانت في الربع الأول من القرن الرابع الهجري/ ١٠م في طرسوس، نظراً لأنه بدأ بسماع الحديث سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، وفيها سمع أبا الحسن علان بن عيسى بن مشكان القاساني[٧١].

اتجه منذ طفولته للتحصيل العلمي في دور طرسوس ومسجدها الجامع، ففي سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م، سمع أبا الحسن علي بن جعفر بن عقبة الأعرابي صاحب الجيش بطرسوس[٧٢]، وسمع في سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م إملاء أبي عمير عدي بن أحمد الأذني في داره[٧٣]، وفي السنة نفسها تعلم على الحسين بن علي أبي عبد الله العلوي الطبري الذي كان يسكن في دار سلسبيل بطرسوس[٧٤]، وسمع في السنة نفسها أيضاً إملاء أبي العباس أحمد بن محمد بن يعقوب بن أبي أحمد الطبري المعروف بابن القاص الفقيه الشافعي قاضي طرسوس في المسجد الجامع[٧٥]، وفي هذا الجامع حدثه أبو العباس أحمد بن رمضان المصري قراءةً، وهما يتماشيان في صحنه[٧٦]، وكذلك فيه قرأ القرآن الكريم على إسحق بن خلاد أبو يعقوب التيلمي المقرئ بجامع طرسوس مراراً، وبقراءات متعددة، وسمع منه كتاب القراءات لأبي بكر بن مجاهد من أوله إلى آخره[٧٧]، وقرأ أيضاً على أبي بكر بن الأصبهاني المقرئ المعروف بأبي بكر الأسكاف أحد أئمة المسجد الجامع بطرسوس، ومن الذين سمع منهم بطرسوس أيضاً: أبو الطيب يمن بن عبد الله الريداني أحد فرسان طرسوس وقوادها، وكان يقيم في دار راغب الكبرى من دور طرسوس[٧٨]، وسمع أبا عبد الله محمد بن عيسى التميمي البغدادي الذي قدم طرسوس سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م[٧٩]، وغيرهم.

اتجه الطرسوسي بعدما حصّل علوم بلاده للتنقل والارتحال في سبيل طلب العلم، فزار بعض مدن الثغور الأخرى[٨٠]. كما زار بعض مناطق بلاد الشام

الأخرى، والواقع أنه لا يعرف متى غادر الطرسوسي مدينة طرسوس، وهل غادرها قبل سقوطها بيد البيزنطيين سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م[٨١]، أم كانت مغادرته لها بسبب الاحتلال البيزنطي في السنة السالفة الذكر. كل ما يُعرف عن حياته أنه ارتحل في سبيل طلب العلم، فزار مناطق متعددة في بلاد الشام. فقد زار حلب، وسمع فيها إسماعيل بن القاسم بن إسماعيل الإمام أبا القاسم الحلبي (ت، بعد ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)[٨٢]، وأحمد بن هارون بن محمد بن الزباب الحلبي (ت، ٣٨١هـ/ ٩٩١م)[٨٣]، وسمع بدمشق أبا علي محمد بن آدم الفزاري، وأبا هاشم عبد الجبار بن عبد الصمد السلمي، وسمع بطرابلس خيثمة بن سليمان بن حيدرة وغيره، وببيروت أبا عمران موسى بن عبد الرحمن إمام المسجد الجامع فيها. ويظهر أنه بعد ذلك استقر في معرة النعمان، حيث تولى القضاء فيها ثم في كفرطاب التي توفي فيها سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م[٨٤]، تاركاً ولدين من المحدثين المغمورين هما: أبو الفتح أحمد، وأبو الحسين علي[٨٥].

روى عن الطرسوسي أبو حصين عبد الله بن المحسن بن عبد الله بن عمرو المعري، وعبد الواحد بن محمد بن الحسين الكفرطابي، وأبو علي الأهوازي المقرئ المشهور[٨٦]، وأبو العلاء المعري فيلسوف المعرة[٨٧] وآخرون.

هكذا فإنه كان محدثاً "فاضلاً مسنداً"[٨٨]، وكان كاتباً بارعاً، تميز بسرعة الكتابة، حيث نسخ كثيراً من كتب الأدب، وجمع دواوين الشعر لبعض شعراء عصره، ممن عاصر سيف الدولة الحمداني وابنه شريف الدولة. قال عنه ياقوت الحموي: "كان من الأدباء الفضلاء، رأيت بخطه الكثير من كتب الأدب والشعر، وجمع شعر جماعة من أهل عصره، منهم أبو العباس الصقري، وأبو العباس الناشئ وغيرهما من شعراء سيف الدولة وابنه شريف الدولة"[٨٩].

صنف الطرسوسي مصنفات متعددة كما تفيد إحدى إشـارات ابـن العـديم[٩٠]، وذكر ياقوت الحموي أيضاً أنه صنف كتباً، غير أنه لم يذكر منها إلا كتابـاً واحـداً هو: "أخبار الحجاب"[٩١]، وهو مفقود، ومن خلال ابن العديم في "بغية الطلـب" تـمّ التعرف على عنوان كتاب آخر له هو "سير الثغور"، وهذا الكتاب مفقود أيضاً، لكـن جانباً مهماً منه نجا من الضياع من خلال ابن العديم الذي نقل عنه مباشرة في كتابـه السالف الذكر حوالي ثلاثين قطعة متفاوتة في الطول. فبينما بعضها لا يزيـد علـى سطر، يمتد بعضها الآخر صفحات عديدة، وتحتوي هذه القطـع علـى معلومـات تاريخية في غاية الأهمية حول تكوين طرسوس وأخبارها وأحوال الثغور عامة، وقد لا توجد هذه المعلومات في أي كتاب آخر في التاريخ.

أشار ابن العديم إلى أن أبا عمرو الطرسوسي صنف كتابه هـذا للـوزير أبـي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات[٩٢] الذي وزر للإخشيديين، كما وزر للفـاطميين. لكنه لم يشر إلى الكيفية التي تمّ فيها التواصل بين هذا الوزير والطرسوسي، وفي هذا ما يدفع للتساؤل هل تمَّ هذا التوصل في مصر؟ ما يعني أن الطرسوسي سافر إليها، أم أنه تمَّ في مناطق بلاد الشام أو شمالها خصوصاً؟ وهذا يعنـي أن الـوزير ابـن الفرات جاء إلى هذه المناطق. كما أنه لم يشر إلى الزمن الذي كتب فيه الطرسوسي كتابه، هذا وترجح الدراسات أن التواصل بينهما تمّ في وزارة ابن الفرات الثانيـة أي التي وزر فيها للعزيز بالله الفاطمي بين سنتي ٣٨٣ ــ ٣٨٤هـ/ ٩٩٣ ــ ٩٩٤م. ففي تلك الآونة كان الفاطميون مهتمين بالتحرك نحو شمال بلاد الشام، والحرب مـع بيزنطة، واستعادة الثغور السليبة، وبالتالي فإن طلب ابن الفرات مـن الطرسوسـي وضع كتاب سير الثغور، قد يكون جاء في وقته، لتلبية حاجـة الخلافـة الفاطميـة العسكرية[٩٣].

مع أن معظم المقتطفات والقطع ــ من كتاب سير الثغـور ــ المحفوظـة فـي الأجزاء الباقية من "بغية الطلب" لابن العديم تخص مدينة طرسوس وحصونها فقـط،

لا يمكن القول إن الطرسوسي قد حصر كتابه على طرسوس فقط. فمن المرجح أنــه ضمّنه الحديث عن ثغور أُخر، ولعل عنوان الكتاب "سير الثغور" الذي لم يخصــصه على طرسوس. مما يؤكد ذلك. هذا ويمكن من خلال النصوص الباقيــة مــن هــذا الكتاب التعرّف إلى الموضوعات التي عالجها وخطة الكتاب، وهي:

ـ مقدمة(٩٤).

ـ باب في فضائل الثغور وبخاصة طرسوس ومكانتها وفضل الجهاد والمرابطة فيها(٩٥).

ـ باب في ذكر صفة طرسوس، ويتضمن الحديث عن بنائها، ووصف خططها، والأسوار والأبواب والخندق والأبراج والسكك والدور والحوانيت والمسجد الجــامع والقبور والنقوش الكتابية والآثار فيها(٩٦).

ـ باب في ذكر كيفية النفير بطرسوس، وكيف كان يجري أمره(٩٧).

ـ باب في سقوط طرسوس والثغور بيد الروم(٩٨).

ـ باب في ذكر حصون مذكورة مجاورة لطرسوس والمصيصة وأنطاكية كانت مضافة إلى هذه المدن، ومنها: مدينة إقليقية بين المصيصة وأذنة، ذكر حصن ثابــت بن نصر بالمصيصة، ذكر حصن عجيف وأبرجته من حصون طرســوس، حــصن شاكر قرب طرسوس، فصل في ذكر حصن الجوزات وهو على ثمانية فراسخ مــن طرسوس(٩٩).

ـ باب في الثغور الأخرى: أذنة، المصيصة، أنطاكية(١٠٠).

ـ باب في تراجم الأعلام الذين برزوا في طرسوس سواء كانوا من أبنائها، أو من الذين عاشوا فيها أو زاروها، ويشمل الحديث عن المحدثين والقــرّاء والفقهــاء،

وأئمة المسجد الجامع وخطبائه، والصالحين والزهاد والمرابطين والفرسان وغيرهم[١٠١]، ويظهر أنه كان يترجم لهم أثناء الحديث عن دور طرسوس وسككها.

يلاحظ أن الطرسوسي عرض مادته وفقاً للمنهج الوصفي، ويعود هذا لمعاصرته كثيراً من الأحداث التي كتب عنها، وكونه شاهد عيان للأماكن التي وصفها، وكانت ملاحظاته ومشاهداته وسماعاته هي مصدره الأساس في تأليف كتابه. إذ لم يرد في الشذرات التي حفظها ابن العديم من هذا الكتاب ما يشير إلى اعتماده على مصادر خطية أو كتب أخر[١٠٢].

تعود أهمية هذا الكتاب لكونه يؤرخ لمدن ثغور الشام، وخصوصاً مدينة طرسوس، وهو يقدم صورة حية عن واقعها من جوانبها المتعددة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والفكرية. كما يقدم كثيراً من التفاصيل لبعض الأحداث التاريخية التي مرت بها تلك المنطقة، ومما يؤكد أهمية هذا الكتاب اعتماد ابن العديم عليه، وكثرة النصوص التي نقلها عنه، وقد وصف صاحبه بأنه كان ضابطاً[١٠٣].

٢ - فضائل البلدان:

برز من صُوَرِ التاريخ المحلي تيار يمتدح بعض المدن والبلدان الشامية، ويروي الأحاديث الدينية حول قدسيتها، ويتحدث عن الصحابة الذين عاشوا وماتوا فيها، وقد عرف هذا التيار باسم فضائل البلدان[١٠٤]. فقد حظيت بعض المدن بعددٍ من المحدثين والكتّاب الذين تحدثوا عن فضائلها، ومن هذه المدن: دمشق التي تحدث عن فضائلها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله ابن الجنيد أبو الحسين الرازي (ت، ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م). وقد نقل عنه ابن عساكر مرات عديدة أخباراً وروايات وأحاديث في فضائل دمشق[١٠٥]. هذا يعني أنه ربما وضع كتاباً في فضائلها جمع فيه ما قيل في فضلها، وكان النواة الأساسية لسلسلة الكتب التي وضعت في فضائلها رداً على ما تعرضت إليه من محن ونكبات في

عصورها المختلفة[١٠٦]. واشتهر تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن الجنيد الرازي (ت، ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) مثل أبيه بحفظ كثير من الأحاديث والروايات في فضائل الشام ودمشق[١٠٧]. وصنف المحدث والحافظ الوليد بن حماد بن جابر أبو العباس الرملي الزيات (ت، قريباً من ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) كتاباً في "فضائل بيت المقدس"[١٠٨].

٣- التاريخ الحولي:

إن كتب التاريخ الحولي هي الكتب التي تكتب وفقاً لتعاقب السنين، وفيها تعدد مختلف الحوادث التي تحدث في كل سنة على حدةٍ[١٠٩]. من الذين صنفوا وفقاً لهذا المنهج: أغابيوس (محبوب) بن قسطنطين المنبجي (القرن ٤ هـ/ ١٠م)، وهو من أبناء بلاد الشام. لا يعرف عن حياته شيئاً سوى أنه عاش ما بين النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، والنصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكان معاصراً لسعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م[١١٠]، وتوفي بعده بمدة قصيرة من الزمن[١١١]، والظاهر أنه عرف بالمنبجي لأنه كان أسقفاً لمدينة منبج[١١٢].

صنف المنبجي كتاباً في تاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى عصره، وهو يعد من أوائل الكتب التي صنفها أحد المسيحيين في بلاد الشام باللغة العربية[١١٣]، وقد أرسله إلى رجل فاضل يقال له: عيسى بن الحسين[١١٤]. عن أهمية هذا الكتاب، قال المسعودي: "وأحسن كتاب رأيته للملكية في تاريخ الملوك والأنبياء والأمم والبلدان وغير ذلك، كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي"[١١٥].

تميز المنبجي بالمعالجة العلمية للأفكار، واستفادته التامة من أخبار الحوليات البيزنطية[١١٦]، وعن ذلك، قال روزنتال: "يتميز [تاريخ المنبجي] بمعالجة علمية للموضوع من حيث وصفه الجغرافي للعالم، واستفادته التامة من الأخبار التي نجدها

في الحوليات البيزنطية، أي تاريخ بني إسرائيل الممتزج بالأساطير .وبتاريخ الثقافة الإغريقية مع التواريخ السياسية الهللينية والرومانية والشرقية"[١١٧].

على الرغم من أن المنبجي أرخ في كتابه من بدء الخليقة حتى عصره، لكن ما وُجِد من كتابه يتوقف عند حوادث سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م، وذلك بسبب التلف الذي أصاب النسخة المخطوطة عن الأصل، وضياع أوراق كثيرة منها، وخصوصاً من آخرها.

وقد حظي تاريخ المنبجي باهتمام الأب لويس شيخو الذي حققه، ونشره في جزأين ضمن مجلد واحد، وصدر عن مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت عام ١٩٠٧م. تحت عنوان: "كتاب العنوان المكلل بفضائل الحكمة، المتوج بأنواع الفلسفة، الممدوح بحقائق المعرفة"، وصدرت طبعة جديدة منقحة منه عام ١٩٦٢م بمدينة "لوفان" في بلجيكا تحت عنوان "تاريخ العالم" لأغابيوس أسقف منبج[١١٨]، وأعاد عمر عبد السلام تدمري، تحقيق القسم الأخير منه الذي يتضمن أحداث التاريخ الإسلامي بدءاً من الهجرة النبوية الشريفة حتى مطلع عهد الخليفة العباسي المهدي سنة ١٥٩هـ/ ٧٨٥م، ونشره بعنوان "المنتخب من تاريخ المنبجي". لهذا القسم من تاريخ المنبجي أهمية كبيرة، لأنه اعتمد في كتابته "أي كتابة تاريخ المسلمين" على الكتاب الذي صنفه العالم المنجم توفيل بن توما النصراني الرهاوي المتوفى في مطلع سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م[١١٩]، وهو مؤرخ معاصر وشاهد عيان لسقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية. فقد ذكر المنبجي، وهو يؤرخ للحوادث في أيام مروان بن محمد (١٢٦ـ ١٣٢هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٥٠م) آخر الخلفاء الأمويين ما يلي: "قال توفيل المنجم الذي أخذنا عنه هذه الأخبار: إني لم أزل مشاهداً لهذه الحروب بنفسي، وكنت أكتب أشياء حتى لم يشذّ عني منها شيء"، وعلّق المنبجي على ذلك مضيفاً: "وله في ذلك كتب كثيرة، إلا أنَّا اختصرنا منها هذا الكتاب، وألحقنا فيه ما علمنا أنَّ لا غناء عنه فيه، وتجنبنا التطويل جهدنا"[١٢٠].

عرض المنبجي مادته وفقاً للنظم أو الفن الحولي حسب تسلسل السنين، وبلغ من أهمية كتابه هذا أنه كان من المصادر التي قرأها ابن شداد، وأخذ عنها(١٢١).

كما وصنف وفقاً للتاريخ الحولي أيضاً: عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني الأمير القائد الجندي (ت، بمصر سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م)، وهو في أصله من فرغانة(١٢٢)، كان جده قد جُلب منها إلى الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) (١٢٣). ولد عبد الله في بغداد، وعاش حياته ما بين بغداد والشام ومصر التي توفي فيها، ومع أنه ليس شامياً في أصله، لكن ترجمة ابن عساكر له، وقد تحدث عن قدومه إلى دمشق، وروايته الحديث فيها، هي التي دفعت لذكره، فقد وصفه بأنه: محدث ثقة، كان صاحباً لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وحدث عنه، وقدم دمشق، فحدث بها سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، روى عنه من أهلها: تمام بن محمد الرازي وأبو سليمان بن زبر وغيرهما. وقد صنف كتاباً في التاريخ ذيّل به على تاريخ الطبري(١٢٤)، وقد سماه كتاب "الصلة"(١٢٥)، وقيل "الصلة في ذيل تاريخ الطبري"(١٢٦)، وهذا الكتاب مفقود، لكنه كان من مصادر ابن العديم في "بغية الطلب". فقد نقل عنه مرتين في المجلدات الباقية من البغية، مرة عن حوادث سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، وأخرى عن حوادث سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م(١٢٧). ويظهر أنه قد رتب كتابه وفقاً للنهج الحولي الذي سار عليه الطبري، ولا يعرف في أية سنة بدأ تاريخه، ولا في أية سنة أنهاه. هذا وترجح الدراسات أنه وصل به إلى حوالي سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م، وهي سنة وفاته. تأتي أهمية هذا التاريخ من أجل مؤلفه كان معاصراً لكثير من الوقائع التي أرخ لها(١٢٨)، فجاء غنياً بالتفاصيل. لذلك حاز ثناء المؤرخين الذين ذكروه أو نقلوا عنه(١٢٩).

وصنف علي بن محمد العدوي الشمشاطي أبو الحسن (ت، بعد ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م) بعض المؤلفات التاريخية وفقاً للتاريخ الحولي، وهو شاعر ومصنف وراوية أخبار، أصله من شمشاط في بلاد أرمينية من الثغور، كان يعلم أبا تغلب بن

ناصر الدولة الحمداني وأخاه، ثم نادمهما[١٣٠]، وكان على صلة وثيقة بسيف الدولة الحمداني. فتولى جمع مختارات الأشعار التي قيلت في مدحه، وذلك بالتعاون مع أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب[١٣١]. يظهر أن الشمشاطي انتقل بعد وفاة سيف الدولة إلى العراق، فسكن بغداد، ودخل واسط في سنة ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٣م[١٣٢]، وبذلك تكون وفاته بعد هذا التاريخ الأخير.

كان الشمشاطي شاعراً مُجيداً[١٣٣]، ومصنفاً مؤلفاً، واسع الرواية، ومن مصنفاته الأدبية: «كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار»، و«كتاب أخبار أبي تمام والمختار من شعره»، و«كتاب القلم»، و«كتاب التنزه والابتهاج»[١٣٤]، وغيرها. أما في الميدان التاريخي، فقد اختصر "تاريخ الطبري"[١٣٥]، وحذف أسانيده، وزاد عليه من سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م إلى أيامه، كذلك تمّم كتاب "تاريخ الموصل" لأبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي المتوفى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وكان فيه إلى سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م، فعمل فيه من سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م إلى وقته، فدخلت فيه زيادة كبيرة[١٣٦].

٤- الطبقات والتراجم:

صُنفت بعض الكتابات التاريخية الشامية وفقاً للطبقات والتراجم، ويعد هذا التصنيف ابتكاراً إسلامياً صرفاً. يتوقف المعيار الأساسي لاختيار الترجمة على الإسهام الفردي الذي يقوم به صاحبها في الثقافة العربية الإسلامية، وقد تعددت معاجم التراجم والطبقات تبعاً لاهتمامات المؤرخين. وهكذا فإن المؤرخين من رجال الدين جمعوا تراجم المحدثين والفقهاء والقرّاء والمفسرين، وجمع رجال الأدب معاجم الشعراء والأدباء. وجمع الكتّاب معاجم للوزراء والكتّاب والعلماء. أما الفلاسفة، فجمعوا معاجم خاصة بهم[١٣٧].

تجدر الإشارة إلى أن تقسيم الطبقات يقوم على أساس التعاقب الزمني، بحيث جعلت مدة الطبقة الواحدة عشرين سنة أو عشر سنوات[١٣٨]، ومن الذين صنفوا وفقاً للطبقات: الحسين بن محمد أبو عروبة الجزري الحراني (ت، ٣١٨هـ/ ٩٣٠م)، وله "كتاب الطبقات"[١٣٩]، وقد كان من المصادر التي اعتمد عليها ابن عساكر[١٤٠]، ولأبي عروبة أيضاً: "المنتقى من كتاب الطبقات"، و"كتاب الأوائل"[١٤١].

تتميز كتب التراجم عن كتب الطبقات بأنها غالباً ما تُرتَّب فيها التراجم تبعاً لحروف الهجاء، ومن الذين صنفوا طبقاً للتراجم: عبد الوهاب بن الحسن بن الوليد أبو الحسين الكلابي المعروف بأخي تبوك العدل (ت، ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م)، وهو من أعلام المحدثين في دمشق[١٤٢]، أرخ أسماء شيوخه في كتاب صنفه بعنوان "تسمية شيوخه الذين سمع منهم"، وقد شكّل هذا الكتاب مصدراً من المصادر التي نقل عنها ابن عساكر[١٤٣].

٥- السِيَر والأنساب:

أُفردت بعض الكتابات التاريخية الشامية للسير، والفرق بين السيرة والترجمة يعود للاختلاف في الطول، فالترجمة تكون موجزة، وإذا ما توسع المؤلف في حديثه عن المُترجم له، وطوّل ترجمته، صارت هذه الترجمة تسمى سيرة، وأول ما استعملت كلمة سيرة، كانت للإشارة إلى سيرة الرسول ﷺ[١٤٤]. وأبرز من صنف في السير عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان بن زبر أبو محمد الربعي (ت، بمصر سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م): أصله من بغداد، تولى قضاء دمشق من سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م إلى سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م، وتولى قضاء مصر مرات عديدة، وفيها توفي. كان قد سمع عدداً كبيراً من المحدثين، وروى عنه العديدُ من المحدثين، أبرزهم: ابنه أبو سليمان بن زبر، وأبو الحسن الدارقطني[١٤٥]، وقد ذكره أبو الحسين الرازي في تسمية من كتب عنه بدمشق في الدفعة الثانية، ووصفه بأنه من "أهل بيت العلم"[١٤٦]، وهذا وتشير المصادر

إلى أنه قد صنف كتباً في الحديث، وكان عارفاً بالأخبار والكتب والسير في الدولتين، ومن مصنفاته: "كتاب سيرة الدولتين"، و"الشروط العمرية"[١٤٧]، و"أخبار الأصمعي"، و"كتاب تشريف الغنى على الفقر"[١٤٨].

كما جمع علي بن الحسين الديلمي الزراد أبو الحسن (القرن ٤هـ/ ١٠م) تاريخ سيف الدولة الحمداني وأخباره في كتاب صنفه بعنوان "سيرة سيف الدولة"، ويلاحظ من خلال النتف التي بقيت من هذه السيرة، والتي حفظها ابن العديم، أنه قد تفرد بذكر بعض الأخبار والتفاصيل التي قد لا توجد عند غيره[١٤٩].

ومن الذين صنفوا في السير أيضاً: أحمد بن علي بن أبي أسامة الحلبي (القرن ٤ هـ/ ١٠م): وهو من أسرة بني أبي أسامة في حلب، التي خرّجت جماعة من أهل العلم والأدب والحديث والخطابة. فقد كان ابنه أبو أسامة عبد الله بن أحمد بن علي معاصراً لأبي عمرو عثمان بن عبد الطرسوسي، وقد روى عن أحمد بن هارون بن محمد بن الحسن الزباب الحلبي المتوفى ٣٨١هـ / ٩٩١ م، وكان حفيده حيدرة بن الحسن بن أحمد بن علي بن عبيد الله ابن أبي أسامة (ت، ٤٩٠هـ أو بعدها/ ١٠٩٧م) خطيباً بليغاً[١٥٠]. صنف أحمد بن علي كتاباً في التاريخ بعنوان "معرفة شرف الملوك"، ولم يصلنا هذا الكتاب. لكن يمكن التعرف إلى محتواه من خلال ابن العديم الذي قرأه، ونقل عنه خبراً يتعلق بأيام سيف الدولة الحمداني أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[١٥١]، ولمّا أنه لم نعثر على أي نص آخر مقتبس من هذا الكتاب، لذلك لم نعرف سيرة أي من الملوك احتوى عليها.

كذلك صُنفت بعض الكتابات التاريخية الشامية وفقاً للأنساب، وهي تهتم بدراسة تسلسل نسب الأفراد أو الأسر أو القبائل، ومن الذين صنفوا وفقاً لهذا الاتجاه: علي ابن محمد العدوي الشمشاطي أبو الحسن الشاعر (ت، بعد ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣م)

الذي صنف كتاباً في الأنساب بعنوان " كتاب نسب ولد معد بن عدنان ولمع من أخبارهم وأيامهم"[١٥٢].

كما صَنَّف وفقاً للأنساب صالح بن جعفر بن عبد الوهاب بن أحمد الصالحي أبو طاهر الهاشمي (ت، ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م)، وهو من أعيان حلب المشهورين بالأدب والدين. كان فاضلاً، تولى قضاء حلب في أيام سعيد الدولة الحمداني أو بعدها. كان قد تأدب على ابن خالويه، وروى عنه، كما زار دمشق، وسمع من محدثيها، صنف كتاب "الحنين إلى الأوطان[١٥٣]"، وكتاب "الصبر والعزاء"[١٥٤]. وصنف أيضاً كتاباً أو جزءاً يتضمن "نسب بني صالح بن علي"[١٥٥]، وقد استفاد ابن العديم من هذا الكتاب، في أثناء ترجمته لأعيان بني صالح بن علي الذين ينتهي نسبهم إلى بني العباس، ممن اجتازوا حلب أو أقاموا فيها[١٥٦]. هذا وبحكم أن هذا الكتاب مفقود لا يعرف إن كان جزءاً من "كتاب الحنين إلى الأوطان" أم كتاباً مستقلاً[١٥٧].

وبرز في الأنساب أيضاً محمد بن علي بن الحسين بن أحمد أبو الحسين العلوي المعروف بأخي محسن، وعرف أيضاً بالشريف العابد (ت، ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م)، وكان زاهداً صالحاً متعبداً منقطعاً في بيته بدمشق، وصنف تصانيف[١٥٨]، قال عنه الدواداري: " كان سيداً فاضلاً عالماً محققاً لأنساب أهل بيته". وضع كتاباً "في ذكر الخلفاء الفاطميين"[١٥٩]، وفيه شكك في نسبهم، وطعن فيه، وكان هذا الكتاب من المصادر التي اعتمد عليها كل من النويري[١٦٠]، والدواداري[١٦١]، والمقريزي[١٦٢].

٦- كتب الوفيات:

كانت كتب الوفيات من اتجاهات الكتابة التاريخية في بلاد الشام. تعود فكرة تصنيف هذه الكتب إلى علماء الحديث الذين كانوا مهتمين برواية الأحاديث والآثار، ولذلك صنفوا المؤلفات التي تضمن الصحة والسلامة في كل ما ينقل. وكان من هذه المؤلفات، كتب الوفيات، وذلك نظراً لما لها من أهمية كبيرة في الجرح

والتعديل[١٦٣]، ومعرفة الاتصال والانقطاع في الأسانيد، ونقد الروايات الضعيفة، وفضح الكذابين[١٦٤]. وقد صنف في الوفيات: محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان بن زبر أبو سليمان الربعي الدمشقي (ت، ٣٧٩هـ / ٩٨٩م): وهو ابن القاضي أبو محمد بن زبر الربعي[١٦٥]، ولد بالرقة سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م[١٦٦]، نشأ نشأة علمية دينية. وقد وفَّرت له مكانة أبيه الاجتماعية، سهولة الالتقاء بمن يريد من العلماء والمحدثين، والأخذ عنهم، وقد بلغ عدد الشيوخ الذين روى عنهم ستة وأربعين شيخاً، أبرزهم: محمد بن الفيض بن محمد الغساني، ومحمد بن يوسف بن بشر الهروي، ومكحول البيروتي، وجماهير بن محمد الزملكاني، وعبد الله بن محمد البغوي البغدادي، وأحمد بن عمير بن جوصاء، وعلي بن محمد النخعي المعروف بابن كاس.

رحل أبو سليمان الربعي في طلب الحديث، فكان من الأماكن التي زارها مصر، ومكة المكرمة، وقد زارها لأداء فريضة الحج، والأخذ عن شيوخها، والشيوخ الذين يفدون إليها في موسم الحج. كما زار بغداد، وأخذ عن بعض علمائها، واستقر بعدئذ في دمشق، وصار يدرس الحديث، ويملي في المسجد الجامع. فكان من تلامذته تسعة عشر محدثاً، أبرزهم: تمام بن محمد الرازي، وعبد الرحمن بن أبي نصر وابناه أحمد ومحمد، وعبد الوهاب الميداني[١٦٧].

كان أبو سليمان الربعي موضع ثقة العلماء وثنائهم. قال عنه الكتاني: "كان ثقة نبيلاً مأموناً"[١٦٨]، ووصفه ابن عساكر بالحافظ[١٦٩]، وقال عنه الذهبي: "الشيخ العالم الحافظ... محدث دمشق"[١٧٠]. ولم يقتصر أبو سليمان على تدريس الحديث، بل صنف مصنفات مهمة، حازت إعجاب العلماء وثناءَهم[١٧١]، ومن هذه المصنفات: "كتاب الوفيات على السنين"[١٧٢]، المنشور باسم "تاريخ مولد العلماء ووفياتهم"[١٧٣]، وهو يعد أول كتاب وصل في الوفيات، ومن مصادر الوفيات المبكرة، وقد شكّل الأساس لكتب الذيل التي ذيّلت عليه من قبل الكتاني[١٧٤] وابن الأكفاني"[١٧٥]. ويمكن

إدراك مدى أهمية هذا الكتاب، من خلال اعتماد الكثير من المصادر عليه لا سيما الخطيب البغدادي، وقد نقل عنه أكثر من ست عشرة مرة، ونقل عنه ابن عساكر في تاريخ دمشق أربعمئة وثلاث وعشرين مرة، هذا وكان من المصادر التي اعتمدها ابن خلكان في وفيات الأعيان، والذهبي في تاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، وابن كثير في البداية والنهاية وغيرهم(١٧٦).

رتّبَ أبو سليمان بن زبر الربعي كتابه على السنين، فابتدأ من السنة الأولى للهجرة/ ٦٢٢م، وانتهى إلى سنة ٣٥٧ هـ/ ٩٦٧م، غير أن ما يخص السنوات بعد ٣٣٨ هـ/ ٩٤٩م، بقي بعضها مسودة، ولم يبيِضها ابن زبر في حياته بسبب انشغاله في تدريس الحديث، ولذلك لما صنف الكتاني كتاب الذيل، بدأ من سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م(١٧٧). ويظهر من خلال الكتاب أن ابن زبر، كان ذا اطلاع واسع في التاريخ الإسلامي، ودقيقاً في تسجيل معلوماته، وقد عرض مادته باختصار، وتطرق في ثنايا كتابه لكثير من الأمور التاريخية المهمة.

ولابن زبر كتب أخر، هي: "كتاب معرفة الصحابة"(١٧٨)، و"أخبار ابن أبي ذئب"(١٧٩)، و"كتاب وصايا العلماء عند حضور الموت"، رواه عنه تلميذه أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان بن أبي نصر (ت، ٤٤١ هـ / ١٠٤٩م)، وكان قد قرأه على أستاذه ابن زبر في سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٢م(١٨٠).

٧- بقية المؤرخين:

هناك العديد من المؤرخين والمهتمين بالكتابة التاريخية الذين صنفوا مصنفات تاريخية مهمة، غير أن عدم توافر معظمها، لم يمكن من التعرف على المنهج الذي كتبت وفقه، ومن هؤلاء المؤرخين:

ـ محمد بن العباس بن محمد بن الحسن الكناني الدمشقي أبو الحسن (القرن ٤هـ / ١٠م): صنف كتاب "التاريخ المجدد"، وقد نقل عنه ابن العديم في ترجمة أبي

القاسم الأفطسي أحمد بن الحسين بن علي بن محمد العلوي الشريف الشاعر بحلب أيام سيف الدولة، وقد كانت بين الكناني الدمشقي والشريف الشاعر هذا مودة كبيرة، وصداقة متينة(١٨١).

ـ أبو الحسن الحلبي (القرن ٤ هـ / ١٠م): عاصر سيف الدولة الحمداني، حكى عن السري الرفاء، روى عنه أبو الحسن محمد بن علي بن نصر الكاتب، وصف بأنه كان شيخاً عارفاً بأخبار سيف الدولة، ومن طريقه، نقل ابن العديم أخباراً(١٨٢).

ـ طلحة بن عبدالله بن قنّاش أبو جعفر (القرن، ٤هـ/١٠م): كان من ندماء سيف الدولة الحمداني، صنف كتاباً بعنوان "كتاب القضاة"(١٨٣).

ـ محمد بن يوسف بن يعقوب الرقي أبو بكر وقيل أبو عبد الله (ت، ٣٨٢ هـ / ٩٩٢م): محدث جوّال من أبناء الرقة، سمع بالشام ومكة وبغداد وواسط، وصف بالمؤرخ دون أن يرد في مصادر ترجمته أسماء مصنفات صنفها(١٨٤).

٨- الأخباريون:

هناك بعض الأدباء والمحدثين ممن برزوا في التاريخ، واشتهروا برواية الأخبار، فُصِفوا بالمؤرخين أو الأخباريين(١٨٥)، دون أن يرد في المصادر عناوين المصنفات التي صنفوها. هذا وقد كان الأخباريون بحكم ثقافتهم الشعبية الواسعة، وحفظهم للأخبار والروايات والنوادر التي تخص ماضي العرب والأقوام الأخرى، محط إعجاب بعض رجال السلطة الذين حرصوا على اتخاذهم بطانة وسماراً لهم للاستمتاع بأحاديثهم، فلما نزل الخليفة المتقي الرقة سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، اتخذ من أبنائها رجلاً أخبارياً يحفظ أيام الناس. فكان يستأنس به في خلواته وأوقات همه، ويسمع لما يحدثه به هو وغلامه من أخبار وحكايات وأشعار، وقد بلغ من إعجاب المتقي بما رواه هذا الأخباري وغلامه، أن أمر بتدوين بعضه وتثبيته(١٨٦)، وكان من

الأخباريين: يموت بن المزرع بن يموت العبدي الأديب (ت، ٣٠٣ أو ٣٠٤هـ/ ٩١٥-٩١٦م): قيل اسمه محمد، أصله من العراق، قدم الشام في أواخر عمره، فحدث في دمشق وصيدا، وسكن طبرية، وتوفي فيها، وقيل توفي بدمشق، كان أديباً أخبارياً وصاحب ملح وآداب[١٨٧].

ومن الأخباريين: الحسن بن القاسم بن عبد الرحمن دحيم بن إبراهيم أبو علي القاضي (ت، بمصر سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، وهو محدث ثقة، من أبناء دمشق، حدث بمصر، وكان أخبارياً، وكانت الأخبار تغلب عليه، وله مصنفات فيها[١٨٨].

وتميز المحدث محمد بن القاسم بن معروف التميمي الدمشقي (ت، ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨م) بأنه كان صاحب دنيا، ويحب أهل الحديث، وصنف كتباً كثيرة من الأخبار والحكايات والنوادر[١٨٩]. لكن لم يبق من مصنفاته إلا " الفوائد"[١٩٠]. كذلك وُصِف المحدث محمد بن أحمد بن طالب أبو الحسن البغدادي (نزيل الشام، ت، بعد ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) بأنه كان أخبارياً[١٩١].

كما كان من الأخباريين أيضاً: أحمد بن سعيد بن عبد الله الدمشقي (ت، ٣٠٦هـ/٩١٨م) الذي وصف بـ «النحوي الأخباري»[١٩٢]، ومحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر الذهلي البغدادي (ت، بمصر ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م): قاضي دمشق، الذي كان فقيهاً ومفسراً وأديباً وأخبارياً عارفاً بأيام الناس[١٩٣].

ـ خاتمة:

من خلال ما تقدم يلاحظ كثرة المشتغلين والمهتمين بالدراسات التاريخية في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وازدياد نشاطهم، ووفرة مؤلفاتهم. حيث قدموا أعمال مهمة، وقد أتاحت هذه الدراسات المبكرة لعلم التاريخ الإسلامي أن يساهم مساهمة إيجابية في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية، وحفظ تراث الأمة وأمجادها.

هذا وقد كان معظم الذين عنوا بالتأريخ وتدوينه والتأليف فيه من الملمين بعلوم أخر وخصوصاً العلوم الدينية، وقد جاءت مؤلفاتهم التأريخية في إطار فنون تاريخية مختلفة أمثال: التاريخ المحلي، وكتب البلدان والفضائل، والتاريخ الحولي، والتراجم والطبقات، والسير والأنساب، والوفيات. كذلك كان هناك الأخباريون، على أن أبرز الفنون التي صنفوا فيها تَمَثَّل في التاريخ المحلي وكتب البلدان وفضائلها التي تتحدث عن مدن بلاد الشام وفضائلها والأعلام الذين برزوا فيها.

وبينما وصلت بعض الكتابات التاريخية للمؤرخين الذين برزوا في هذا القرن مباشرة، وهي ذات أهمية كبيرة، لأنها من المصادر الأساسية، ولمّا تقدمه من معلومات قيّمة – بشكل خاص - عن تاريخ بلاد الشام وعلمائها، فُقِدَت كثيرٌ من هذه المؤلفات، ولم تصلنا مباشرة، غير أنها كانت من موارد المؤرخين في القرون التالية. حيث اعتمدوا عليها، وحفظوا الكثير مما احتوته في مؤلفاتهم التاريخية، يبرز هذا بشكل خاص لدى المؤرخين الشاميين الذي أرَّخوا لبلاد الشام ومدنها وأمرائها وعلمائها وشيوخها وشعرائها وأدبائها، ويلاحظ هذا بشكل كبير لدى أهم مؤرخي بلاد الشام، وهما ابن عساكر الدمشقي (ت، ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، وابن العديم الحلبي (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، حيث كانت مؤلفات المؤرخين في هذا القرن من الموارد الأساسية التي اعتمد عليها هذان المؤرخان في كتابتهما، وخصوصاً "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر، و"بغية الطلب في تاريخ حلب" لابن العديم، حيث شَكَّلت المادة التي قدمها مؤرخو القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في مؤلفاتهم التاريخية لَبناتٍ أساسية اعتمد عليها هذا المؤرخان في بناء كتابيهما السالفي الذكر.

ويظهر من خلال بعض الكتابات التاريخية التي وصلتنا مباشرة، أن مؤلفيها دونوها بعبارات سهلة لا حشو فيها، ولا زخارف لفظية، وجاءت المادة التي قدموها– بشكل عام - مختصرة، أمثال: "تاريخ الرقة" للقشيري، و"تاريخ داريا" للخولاني، وكتاب "تاريخ مولد العلماء ووفياتهم" لابن زبر الربعي، وغيرها. لكن مع

ذلك، فإن لهذه المادة قيمتها التي لا تُقَدَّر، نظراً لأن مؤلفي هـذه المـصادر، كـانوا معاصرين لكثير من الأحداث التي أرَّخوا لها، ولأن مؤلفاتهم مـن الأصـول التـي اعتمدت عليها المصادر في العصور التالية.

أما عن مصادر هؤلاء المؤرخين، فيلاحظ أن بعضهم اهـتم بالروايـة عمـن عاصر الأحداث، واستعمل بعضهم مناهج البحث عند أهل الحـديث فـي عـرض الروايات، إذ اهتم بإيراد الإسناد. أما الأحداث التي عاصروها، فقـد اعتمـدوا فـي تدوينها على الاطلاع الشخصي والمشاهدة العيانية، وذلك إضافة إلى جمع الشهادات الشفوية من الشهود والمعاصرين.

ومن الأهمية الإشارة إلى أن للمؤلفات التأريخية التي وضعها مؤرخو بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أهمية كبيرة في رصد أوجه الحياة فـي ذلك القرن، في المجالات المختلفة: السياسية والفكرية والاقتـصادية والاجتماعيـة، وذلك في بلاد الشام خاصة، وبلاد الإسلام عامة.

(١) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ**، عني بنشره: القدسي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص٦-٧.

(٢) حاطوم، نور الدين، وآخرون، **المدخل إلى التاريخ**، "في التاريخ والمؤرخين منذ القديم حتى اليوم"، دمشق، مطبعة الإنشاء، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م، ص٩٥.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت، ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، **مقدمة ابن خلدون**، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، ص٢١.

(٤) مصطفى، شاكر، **التاريخ العربي والمؤرخون**، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣م، ج١، ص ١١٩، ١٣٤.

(٥) الأرمنازي، غيث بن علي بن عبد السلام الصوري (ت، ٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، **المجموع من المنتخب المنثور في أخبار الشيوخ من تاريخ دمشق وصور**، براوية مؤرخ دمشق الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت، ٥٧١ هـ / ١١٧٥م)، جمعه واعتنى به: عمر عبد السلام تدمري، صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، ص١٨١؛ ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت، ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها**، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ج ٣٨، ص٤١٨ـ ٤٢٠؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، **معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ ـ

١٩٩١م، مج٣، ص٤٨٧ـ ٤٨٨؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، [ح. و] ٤٠١ـ ٤٢٠هـ، ص ٤٥؛ ابن منظور، محمد بن مكرم (ت، ٧١١هـ/ ١٣١١م)، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق: روحية النحاس وآخرون، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ج١٦، ص١٠٢.

(٦) روزنتال، فرانز، **علم التأريخ عند المسلمين**، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م، ص٢٠٦ـ ٢٠٧؛ حاطوم وآخرون، **المدخل إلى التاريخ**، ص٢٨٦؛ الخطيب، **نشأت، التاريخ والمؤرخون العرب "تصور ومنهج"**، بيروت، شركة النعمات التجارية، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص٢٣٤؛ سالم، السيد عبد العزيز، **التاريخ والمؤرخون العرب**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ص١٠٤.

(٧) ابن عساكر، تاريخ، ج٣٦، ص٢٢٩ـ ٢٣١؛ ابن منظور، مختصر، ج١٥، ص١٢٠؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت، وزارة الإعلام، ط٢، ١٩٨٤م، ج٢، ص٢٠٨.

(٨) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ**، منشور ضمن كتاب **علم التأريخ عند المسلمين**، لـ فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م، ص٥٤٢، ٦٢٩؛ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت، ١٠٦٧هـ /

١٦٥٦م)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ ــ ٢٠٠٨م، ج١، ص٣٤٠؛ سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي**، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، فهمي أبو الفضل، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨م، ج١، ص٥٥٩ ــ ٥٦٠.

(٩) تاريخ، ج ٣٦، ص٢٣٠.

(١٠) المصدر نفسه، ج٥٦، ص٥١٤.

(١١) الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م، مج١، ص ٥٢٦؛ مج٢، ص٣٠٤، ٣٢٤، ٤٧٨؛ مج٣، ص٤١٩؛ مج٤، ص١٨٣؛ مج٥، ص١١٩.

(١٢) السخاوي، **الإعلان**، طبعة روزنتال، ص٦٢٩؛ مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج٢، ص٢٧٣.

(١٣) حرَّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج ٢، ص ٢٣٥.

(١٤) ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م، ، مج٦، ص٢٧٨٠ ــ ٢٧٨١؛ ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (ت، ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، **طبقات علماء الحديث**، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م، ج٢، ص٢٣٩ــ ٢٤٠؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/

١٣٤٧م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ج١٤، ص٥١٠ ـ ٥١١؛ العبر، ج٢، ص١٧٨ – ١٧٩؛ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (ت، ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الفكر، (د.ت)، ج٢، ص٢٧٩.

(١٥) النديم، محمد بن إسحاق (ت، ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، **الفهرست**، ضبطه وشرحه وعلّق عليه وقدّم له: يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، ص ٣٨٠.

(١٦) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ج١، ص٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(١٧) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت، ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، **الأنساب**، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، مج٢، ص٢٣٢.

(١٨) الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص٢٣٦؛ الذهبي، **سير**، ج١٤، ص٥١١؛ السخاوي، **الإعلان**، طبعة روزنتال، ص٦٢٦.

(١٩) حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج١، ص٣٣٠.

(٢٠) السخاوي، **الإعلان**، طبعة روزنتال، ص٦٣٢.

(٢١) السمعاني، **الأنساب**، مج٢، ص٢٣٣؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص٣٨؛ الرقة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٣، ص٥٩.

(٢٢) **الأنساب**، مج٣، ص٩٢.

(٢٣) السمعاني، المصدر نفسه، مج٣، ص٩٢؛ الذهبي، **سير**، ج١٥، ص٣٣٥.

(٢٤) سير، المصدر نفسه، ج١٥، ص٣٣٥.

(٢٥) الصفدي، خليل بن أيبك (ت، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **الوافي بالوفيات**، باعتناء: س. ديدرينغ، ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م، فيسبادن، فرانزشتاينر، ١٣٩١هـ ــ ١٩٦٢م، ج٣، ص٩٥ ــ ٩٦.

(٢٦) القشيري، محمد بن سعيد بن عبد الرحمن (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، **تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين والفقهاء والمحدثين**، عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، ط١، ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م، ص١٨٧، ٢٢٦ ــ ٢٣٠؛ ومما تجدر الإشارة إليه أن تاريخ الرقة للقشيري حقق أول مرة من قبل طاهر النعساني، وطبع بمطابع الإصلاح في حماة، ونشر عام ١٩٥٩م.

(٢٧) العش، يوسف، **تاريخ الرقة ومن نزلها للقشيري**، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج١٧، ١٣٦١هـ ــ ١٩٤٢م، ج٢٥، ص٢٧١.

(٢٨) تاريخ، ج٥، ص١٢٥؛ ج٢٠، ص٩.

(٢٩) بغية، مج٤، ص١٦٥٩؛ مج٥، ص٢١٠٢، ٢٥٠٢.

(٣٠) ابن عساكر، تاريخ، ج٧١، ص٩٧؛ ابن منظور، مختصر، ج٣، ص٦٠.

(٣١) المنجد، صلاح الدين، **معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة**، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م، ص١٦.

(٣٢) **تاريخ**، ج٢١، ص٩٨؛ ج٣٧، ص١٩٩؛ ج٣٨، ص٢٩٠، ٣١٩؛ ج٤٠، ص١٩.

(٣٣) **معجم البلدان**، مج١، ص٥٢٠؛ مج٢، ص٩٦، ٤٣٣، ٤٩٦، ٥٢٩، ٥٤٣؛ مج٣، ص٢٢٠، ٢٢٩، ٣٢١، ٤١٤؛ مج٤، ٤١٧؛ مج٥، ٢٤١، ٤٤١.

(٣٤) الري: بلدة كبيرة من بلاد الديلم بين قومس والجبال؛ السمعاني، **الأنساب**، مج٣، ص٢٥.

(٣٥) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٥٣، ص ٣٣٥– ٣٣٧؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **كتاب تذكرة الحفاظ**، وضع حواشيه: زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، ج٣، ص ٤٧٦؛ سير، ج ١٦، ص١٧ – ١٨؛ ابن منظور، **مختصر**، ج٢٢، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٣٦) **ذيل تاريخ**، ص٨١.

(٣٧) **تاريخ**، ج ٥٣، ص ٣٣٦.

(٣٨) **سير**، ج ١٦، ص ١٧ – ١٨.

(٣٩) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥٣، ص٣٣٦.

(٤٠) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٥٢؛ ج ٣٦، ص ١٣٣؛ ج ٥٥، ص ١٩٤.

(٤١) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج ٥١، ص ١٥٩.

(٤٢) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٨٧؛ ج ٢٤، ص ٤٥٢؛ ج ٣٧، ص ٣٣٣؛ ج٤١، ص ٣٢٦، ٥٢٨؛ ج٤٣، ص ١٩١؛ ج ٥٢، ص ٢١٤، ٢٦٧؛ ج ٥٣، ص ٣١٣، ٤٠٣.

(٤٣) ابن عساكر، المصدر نفسه، وقد نقل عنه أكثر من خمسين مرة، وخشية من تضخم الحواشي، لذلك سوف اقتصر على ذكر بعضها ، ج٧، ص٢٦، ١٠٢، ١٠٤؛ ج١٩، ص١٣، ٥٩، ٣٥٢؛ ج٣٥، ص٥٩، ٣٧٠، ٣٨٣، ٣٨٨؛ ج٥٢، ص١٠٨، ٣٠٧، ٣٧٢.

(٤٤) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٦، ص٣٨٦.

(٤٥) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٢٦، ص٣٨٨؛ ج٣٦، ص١٣٣؛ ج٤١، ص٢٠٤؛ ج٥١، ص١١١؛ ج٥٤، ص١٠٢.

(٤٦) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٥، ص٣٧٣؛ ج٢٥، ص٢١٦؛ ج٣٥، ص٧؛ ج٤٥، ص٧٠، ٨٤؛ ج٥٥، ص٧٦، ٢١٩.

(٤٧) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٩، ص١٧٤؛ المزي، يوسف بن عبد الرحمن (ت، ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، راجعه وقدّم له: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م، ج١٠، ص٥٨٩.

(٤٨) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٩، ص١٦٣.

(٤٩) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٦، ص٩٧، ٣٧٦؛ ج٨، ص٨٣، ٢٨٠؛ ج٢١، ص٤٥، ٢٣٦، ٣٦٧؛ المزي، **تهذيب الكمال**، ج١٠، ص١٧٥؛ ج٢٠، ص١٦٢.

(٥٠) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤٢٩.

(٥١) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٥٩، ص٣٨٦، (وفيه ترد كلمة المؤمنين بـ "المريين")؛ المنجد، **معجم المؤرخين**، ص١٨.

(٥٢) ابن عساكر، تاريخ، ج ٥٤، ص ١٧٣؛ ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، **طبقات الفقهاء الشافعية**، هذّبه ورتبه واستدرك عليه: يحيى بن شرف النووي (ت، ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، بيّض أصوله ونقّحه: يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت، ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، حققه وعلّق عليه: محيي الدين علي نجيب، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م، ج١، ص ١٨٣؛ الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي (ت، ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠م)، **طبقات الشافعية**، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة

الإرشاد، ط١، ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٧٠م، ج١، ص ٥٧٩؛ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، **الجواهر والدرر**، منشور ضمن **كتاب علم التاريخ عند المسلمين**، لـ فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م، ص ٧٣٤.

(٥٣) الكتاني، عبد العزيز بن أحمد (ت، ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م)، **ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ص٨٦ ــ ٨٧؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٤١، ص٣٣٢ ــ ٣٣٣؛ الذهبي، **سير**، ج١٦، ص٢٠.

(٥٤) ابن عساكر، **تاريخ**، ج١٧، ص١٤؛ ج٤١، ص٣٣٢؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص١١٦؛ ابن العديم، **بغية**، مج٧، ص٣٣٤٩؛ ابن منظور، **مختصر**، ج١٧، ص٢٢٠؛ **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م،ج٢٠، ص٢١٤.

(٥٥) الحموي، **معجم البلدان**، مج١، ص٣٨٣؛ مج٣، ص١٥٧، ٢٤٠.

(٥٦) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص٤٣١.

(٥٧) الخولاني، عبد الجبار بن عبد الله بن محمد (ت، بعد ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، **تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين**، حققه وقدم له: سعيد الأفغاني، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، مقدمة المحقق، ص١٢ ــ ١٣؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٤، ص٢٣ ــ ٢٤، (وفيه ابن مهنا مكتوبة بالألف المقصورة)؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص٤٣٢؛ دهمان، محمد أحمد،

القاضي عبد الجبار الخولاني، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج٢٦، ١٣٧٠هـ ــ ١٩٥١م، ج٢، ص٣١٦ــ ٣١٧.

(٥٨) الخولاني، **تاريخ داريا**، ص٥٢.

(٥٩) الخولاني، المصدر نفسه، ص٥٢.

(٦٠) الخولاني، المصدر نفسه، ص٥٩.

(٦١) الخولاني، المصدر نفسه، ص٨١.

(٦٢) الخولاني، المصدر نفسه، ص ١٤ ــ ١٦.

(٦٣) الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص ٣٣٨؛ ابن العديم، **بغية**، مج ١٠، ص ٤٧٥٩.

(٦٤) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت، ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، حققه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ط٢، ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦م، ج ١، ص ٣٤.

(٦٥) الكتبي، محمد بن شاكر (ت، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **فوات الوفيات**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م، ج٤، ص٥٢؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٥، فيسبادن، باعتناء: س. ديدرينغ، ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م، ص ١٤٩.

(٦٦) النديم، **الفهرست**، ص ٢٧٨.

(٦٧) الصفدي، **الوافي**، طبعة دار إحياء التراث العربي، ج١٥، ص١٦٤؛ الكتبي، **فوات**، ج٢، ص٥٢ ــ ٥٣.

(٦٨) النديم، **الفهرست**، ص٢٧٨؛ الكتبي، فوات، ج٢، ص ٥٢ــــ ٥٣؛ ج ٤، ص ٥٢؛ الصفدي، **الوافي**، طبعة فيسبادن، ج٥، ص ١٤٩؛ طبعة دار إحياء التــراث العربي، ج١٥، ص ١٦٤؛ بروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العربي**، ج٣، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٥م، ج٣، ص٧١.

(٦٩) طرسوس: مدينة مشهورة من ثغور المسلمين في بلاد الشام، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، كانت موطناً للصالحين والزهاد والغزاة الذين يقصدونها مــن أنحاء العالم الإسلامي المختلفة للجهاد ضد البيزنطيين، سقطت بأيدي البيــزنطيين سنة ٣٥٤هــ/ ٩٦٥م؛ ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت، نحــو ٣٦٧ هــ/ ٩٧٧م)، **صورة الأرض**، ليدن، مطبعة بريل، ط٢، ١٩٣٨م، قــسم١، ص١٨٣ ــ ١٨٤؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٢٨.

(٧٠) ترد ترجمته لدى: الأرمنازي، المجموع، ص١٨١؛ ابــن عــساكر، **تــاريخ**، ج٣٨، ص٤١٨ــ ٤٢٠؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٧ ــ ٤٨٨؛ ابــن منظور، **مختصر**، ج١٦، ص١٠٢ــ١٠٣؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، [ج. و] ٤٠١ ــ ٤٢٠هــ، ص٤٥.

(٧١) ابن العديم، **بغية**، مج١، ص ١٠٢.

(٧٢) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص ٢٠٥.

(٧٣) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص ٢٠١.

(٧٤) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٦، ص٢٧٢٢.

(٧٥) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٣، ص١٠٦١.

(٧٦) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٢، ص٧٤٧.

(٧٧) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٣، ص١٤٦١.

(٧٨) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١٠، ص٤٣٥٩، ٤٦٥٤.

(٧٩) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤١٩.

(٨٠) ابن العديم، **بغية**، مج١٠، ص٤٣١٩، ٤٣٩٠.

(٨١) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت، ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م)، **تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا**، حققه ووضع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، جروس برس، ١٩٩٠م، ص١٠٧ ــ ١٠٨؛ ابن العديم، **بغية**، مج١، ص ١٩٥ ــ ١٩٧.

(٨٢) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٤، ص١٧٤٦.

(٨٣) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٣، ص١١٩٩.

(٨٤) الأرمنازي، **المجموع**، ص١٨١؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤١٨ــ ٤٢٠؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٧ــ ٤٨٨؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، [ح. و] ٤٠١ــ ٤٢٠هـ، ص٤٥.

(٨٥) ابن العديم، **بغية**، مج٤، ص١٧٠٧.

(٨٦) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤١٩؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٨؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، [ح. و] ٤٠١ ــ ٤٢٠هـ، ص٤٥.

(٨٧) ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، **الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري**، دراسة وتحقيق: عبد العزيز حرفوش، (د. م)، دار الجولان، ط١، ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م، ص٦٦، ٩٤؛ **بغية**، مج٢، ص٨٦٣.

(٨٨) ابن العديم، **بغية**، المصدر نفسه، مج١، ص١٠١.

(٨٩) **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٧.

(٩٠) **بغية**، مج٣، ص١٠٦١.

(٩١) **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٧.

(٩٢) **بغية**، مج١، ص١٨٠؛ مج٨، ص٣٥٥٥؛ مج١٠، ص٤٦٥٤؛ جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات الوزير أبو الفضل المعروف بابن حنزابة (ت، ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م): بغدادي الأصل، مصري الدار والوفاة، تولى الوزارة للإخشيديين سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م، واستمر بشكل يكاد يكون مستمراً حتى سقوط الدولة الإخشيدية على أيدي الفاطميين، ووزر للخليفة العزيز الفاطمي سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م، واستمر إلى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، كان عالماً محباً للعلماء، ومحدثاً، وصنف مصنفات في أسماء الرجال والأنساب؛ ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت)، مج١، ص٣٤٦ ـ ٣٥٠؛ المقريزي، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، **المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، ج٣، ص٤١ ـ ٥٠.

(٩٣) الطرسوسي، عثمان بن عبد الله (ت، ٤٠١هـ/ ١٠١٠م)، **بقايا كتاب سير الثغور من خلال مخطوطة بغية الطلب لابن العديم**، تقديم ودراسة: شاكر مصطفى، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩٨م، مقدمة المحقق، ص١٨.

(٩٤) ابن العديم، **بغية**، مج١، ص١٩٢.

(٩٥) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٨٧، ١٩٩ ـ ٢٠٤.

(٩٦) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٨٠ ــ ١٨٧، ٤٥٣ ــ ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٦٩ ــ ٤٧٠.

(٩٧) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٨٨ ــ ١٩١.

(٩٨) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٩٥ــ ١٩٧.

(٩٩) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص٢٠٥ ــ ٢١٢.

(١٠٠) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٠٢ ــ ١٠٣، ١٦٥، ١٧٠.

(١٠١) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٩٢؛ مج٢، ص٧٤٧، ٨٥٣؛ مج٣، ص١٠٥٩، ١١٦٨، ١١٩٩، ١٤٦١؛ مج٦، ص٢٧٢٢؛ مج٧، ص٣٤٦٨؛ مج٨، ص٣٧٤٤؛ مج١٠، ص٤٣١٩، ٤٣٥٩، ٤٣٦٩، ٤٣٩٠، ٤٥٩٠ ــ ٤٥٩١، ٤٦٥٣، ٤٧٠٤؛ الطرسوسي، **بقايا كتاب سير الثغور**، ص٤٣ــ ٤٨؛ ٥٨– ٦٣.

(١٠٢) عباس، إحسان، **شذرات من كتب مفقودة في التاريخ**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ج١، ص٣٩؛ الدرع، مريم، موارد ابن العديم التاريخية ومنهجه في كتاب (بغية في تاريخ حلب)، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٢٦هــ ــ ٢٠٠٥م، ص٧٤٨.

(١٠٣) **بغية**، مج٣، ص١٠٦٢.

(١٠٤) لويس، برنارد، ب. م. هولت، **مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث**، نقله إلى العربية وقدم له: سهيل زكار، دمشق، دار التكوين، ٢٠٠٨م، ص١٧١.

(١٠٥) ابن عساكر، **تاريخ**، ج١، ص١٣ ــ ١٤؛ ج٢، ص٣٢٨، ٣٤٩، ٣٩١؛ المنجد، **معجم المؤرخين**، ص١٨.

(١٠٦) مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج٢، ص٢٢٨.

(١٠٧) الربعي، علي بن محمد (ت، ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، **فضائل الشام ودمشق**، حققه: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٠م، ص١٧، وانظر: الكتاب، حيث أكثر من نصف الأخبار التي وردت فيه، كانت من طريق تمام بن محمد؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج١، ص١٠١ ـ ١٠٦، ١٥٣، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٦ـ ٢٣١، ٢٤٩- ٢٥٨، ٢٦٨، ٢٧٦- ٢٧٩، ٢٨٨، ٣٣٢ ـ ٣٣٥.

(١٠٨) الذهبي، **سير**، ج١٤، ص٧٨ ـ ٧٩.

(١٠٩) روزنتال، **علم التأريخ**، ص ١٠١ـ ١٠٢؛ حاطوم وآخرون، **المدخل إلى التاريخ**، ص٢٨٦؛ الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٢٢١ـ ٢٢٢.

(١١٠) سعيد بن البطريق: من أهل فسطاط مصر، كان طبيباً مسيحياً مشهوراً عارفاً بعلم الطب وممارسته، وكان على دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم، ولد سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، وفي سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م صيّر بطريركاً على الإسكندرية، وسمّي أوثوشيوس، وبقي في منصبه حتى توفي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م، وله عدة كتب، منها: "كتاب في الطب علم وعمل"، و"كتاب نظم الجوهر ثلاث مقالات"، وهو الذي ذيّل عليه يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي؛ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت، ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ص٥٠٠ ـ ٥٠١.

(١١١) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ج١، ص٥٤٤ ـ ٥٤٥.

(١١٢) المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين (القرن ٤ هـ/ ١٠م)، **المنتخب من تاريخ المنبجي**، انتخبه وحققه: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، دار المنصور، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، مقدمة المحقق، ص٩؛ منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات

خيرات كثيرة، تقع في شمال بلاد الشام، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٥، ص٢٠٥-٢٠٦.

(١١٣) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ج١، ص٥٤٥.

(١١٤) المنبجي، **المنتخب من تاريخ المنبجي**، مقدمة المحقق، ص٥.

(١١٥) المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، **التنبيه والإشراف**، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م، ص١٥٤.

(١١٦) سالم، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٩٩.

(١١٧) **علم التأريخ**، ص ١٩٠.

(١١٨) المنبجي، **المنتخب من تاريخ المنبجي**، مقدمة المحقق، ص٨ ــ ٩.

(١١٩) توفيل بن توما النصراني: وقيل اسمه ثئوفيل أو ثوفيل، كان خبيراً بالتنجيم والفلك، استلم رئاسة منجمي الخليفة العباسي المهدي، صنف تاريخاً معتبراً باللغة السريانية، توفي في مطلع ١٦٩هـ/ ٧٨٥م؛ ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون الملطي (ت، ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، **تاريخ الزمان**، نقله إلى العربية: إسحق أرملة، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦م، ص١١ ــ ١٢؛ القفطي، علي بن يوسف (ت، ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، القاهرة، مكتبة المتنبي، (د.ت)، ص ٧٧.

(١٢٠) المنبجي، **المنتخب من تاريخ المنبجي**، ص١٠٩.

(١٢١) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت، ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩١م، ج١، قسم ٢، ص٣٦٢.

(١٢٢) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٢٥٣.

(١٢٣) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت، ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م، مج٩، ص٣٩٦.

(١٢٤) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٧، ص١١؛ ابن منظور، **مختصر**، ج١٢، ص١٥؛ الصفدي، **الوافي**، طبعة دار إحياء التراث العربي، ج١٧، ص٢٠؛ بدران، عبد القادر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر**، بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م، ج٧، ص٢٨٠.

(١٢٥) الحموي، **معجم الأدباء**، مج٥، ص٢٤٤.

(١٢٦) البغدادي، إسماعيل باشا، **هدية العارفين** «أسماء المؤلفين وآثار المصنفين»، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ ــ ٢٠٠٨م، ج١، ص٤٠٧.

(١٢٧) **بغية**، مج٥، ص ٢٠٦٨؛ مج٢، ص٦٨٠ ــ ٦٨١.

(١٢٨) **الدرع**، موارد ابن العديم، ص ٣١١ ــ ٣١٢.

(١٢٩) القفطي، **إخبار العلماء**، ص٧٧.

(١٣٠) النديم، **الفهرست**، ص ٢٤٨؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج ٤، ص ٢٨٢.

(١٣١) الثعالبي، **يتيمة**، ج ١، ص ٢٨.

(١٣٢) ابن النجار، محمد بن محمود البغدادي (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، **ذيل تاريخ بغداد**، ملحق بتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر

عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، مج ١٨، ج ١٩، ص ٩٣.

(١٣٣) الثعالبي، **يتيمة**، ج ١، ص ١٢٥.

(١٣٤) النديم، **الفهرست**، ص ٢٤٨؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج ٤، ص ٢٨٣.

(١٣٥) النديم، **الفهرست**، ص ٣٨٦.

(١٣٦) الشمشاطي، علي بن محمد العدوي (ت، بعد ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م)، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، تحقيق: السيد محمد يوسف، الكويت، وزارة الأعلام، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، ج١، مقدمة المحقق، ص١١.

(١٣٧) لويس، هولت، **مؤرخو العرب والإسلام**، ص٩١ ـ ٩٣؛ حاطوم وآخرون، **المدخل إلى التاريخ**، ص٢٤٧، ٢٧٦.

(١٣٨) الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٢٥٤.

(١٣٩) الذهبي، **سير**، ج١٤، ص٥١١؛ بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج٣، ص١٦٢.

(١٤٠) **تاريخ**، ج٥، ص١٢٥؛ ج٣٨، ص٤٣٢.

(١٤١) السخاوي، **الإعلان**، طبعة روزنتال، ص٥٠٩؛ مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج٢، ص٢٧٢.

(١٤٢) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٣٧، ص ٣١٤؛ الذهبي، **سير**، ج ١٦، ص ٥٥٧.

(١٤٣) **تاريخ**، ج١١، ص٢٥؛ ج١٣، ص٣٧١، ٣٨٥؛ ج٣٧، ص٣٥٣؛ ج٤١، ص٥٢٤؛ ج٤٩، ص٣٢٨؛ ج٥٣، ص١١٨، ٢٧٤، ٣٠١، ٣٦٩؛ ج٥٥، ص١٥٤.

(١٤٤) الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٢٦٣.

(١٤٥) ابن زبر، محمد بن عبد الله بن أحمد الربعي الدمشقي (ت، ٣٧٩هـ / ٩٨٩م)، **تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، دراسة وتحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، النشرة الأولى، ١٤١٠هـ، ج٢، ص٦٦٢؛ الكندي، محمد بن يوسف (ت، ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، كتاب **الولاة وكتاب القضاة**، تحقيق: رفن كست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د.ت)، ص٤٨٣- ٤٨٤، ٤٨٧ ـ ٤٨٩؛ الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج٩، ص ٣٩٤ـ ٣٩٥؛ السمعاني، **الأنساب**، مج٣، ص١٤٧؛ ابن منظور، **مختصر**، ج١٢، ص١٨؛ ابن طولون، محمد بن علي (ت، ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، **قضاة دمشق**، الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٦م، ص٢٩.

(١٤٦) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٧، ص٢٩.

(١٤٧) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٥٩، ص٣١٣؛ المنجد، **معجم المؤرخين**، ص١٩.

(١٤٨) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٧، ص٢٧؛ الأرمنازي، المجموع، ص١٤٦؛ الذهبي، **سير**، ج١٥، ص٣١٦؛ من الأهمية الإشارة إلى أن كتاب أخبار الأصمعي لأبي محمد بن زبر لقي الاهتمام من الضياء المقدسي محمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، فانتقى منه رسالة سماها "المنتقى من أخبار الأصمعي، وقد نشر ما بقي من هذا المنتقى عز الدين التنوخي في مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مج١٣، ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م، ص٣٢١ ـ ٣٣٠، ٤١٣ ـ ٤٢٠، ٤٧٥ ـ ٤٨٨؛ مج١٤، ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م، ص٤١ ـ ٥٣".

(١٤٩) **بغية**، مج٢، ص٦٧٣- ٦٧٤؛ مج٥، ص٢٤٠٨؛ مج٦، ص٢٥٢٨، ٢٥٣١؛ مج١٠، ص٤٤٩٠؛ عباس، **شذرات من كتب مفقودة**، ج٢، ص٢٨١-٢٨٤.

(١٥٠) ابن العديم، **بغية**، مج٣، ص١١٩٩؛ مج٦، ص٣٠١٢.

(١٥١) ابن العديم، المصدر نفسه، مج ٣، ص ١١٧٦.

(١٥٢) الشمشاطي، **الأنوار**، ج١، مقدمة المحقق، ص١٢.

(١٥٣) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٣، ص٣٢٤ـــ ٣٢٥؛ ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، حققه وقدم له: سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م، ج١، ص١٧٥.

(١٥٤) الصفدي، **الوافي**، طبعة دار إحياء التراث العربي، ج١٦، ص١٤٧.

(١٥٥) ابن العديم، **بغية**، مج٢، ص٩١٣، ١٠٠١.

(١٥٦) **بغية**، المصدر نفسه، مج٢، ص ٩١٣، ١٠٠١ ـ ١٠٠٢؛ مج٣، ص ١٢٩٦، ١٤٦٧؛ مج٦، ص٢٧٥٢ ـ ٢٧٥٣.

(١٥٧) الدرع، **موارد ابن العديم**، ص٣٨٨.

(١٥٨) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥٤، ص ٣٠٧.

(١٥٩) الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت، بعد ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥م)، **كنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء السادس، **الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، المعهد الألماني للآثار، ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١م، ج٦، ص٦.

(١٦٠) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت، ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، حققه: محمد أمين، محمد أحمد، القاهرة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ج٢٨، ص٧٠ـ ٧٣.

(١٦١) الدرة، ج٦، ص٦، ١٧، ٤٤، ٩٦، ١٤٨.

(١٦٢) المقريزي، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ج١، ص١١٨ـ١٢٢؛ المقفى، ج٤، ص٥٢٥ ـ ٥٢٩.

(١٦٣) علم الجرح والتعديل: هو فرع من فروع علم رجال الحديث، ويبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة؛ الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي (ت، ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، كتاب **الجرح والتعديل**، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م، **مقدمة**، ص (ب).

(١٦٤) ابن زبر، **تاريخ مولد العلماء**، ج١، مقدمة المحقق، ص ٣٣ـ ٣٤، ٣٨ـ ٣٩؛ الكتاني، **ذيل تاريخ**، مقدمة المحقق، ص ٣٧ ـ ٣٩.

(١٦٥) سلف الحديث عنه في **السير والأنساب**.

(١٦٦) ابن زبر، **تاريخ مولد العلماء**، ج ٢، ص ٦٢٧.

(١٦٧) ابن زبر، المصدر نفسه، ج١، مقدمة المحقق، ص ١٢ـ ١٩، ٢٢ـ ٢٤؛ الكتاني، **ذيل تاريخ**، ص١١٢؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥٣، ص ٣١٥ـ ٣١٦؛ الذهبي، **تذكرة**، ج٣، ص ١٣٥؛ ابن منظور، **مختصر**، ج٢٢، ص٢٥٩ـ٢٦٠.

(١٦٨) **ذيل تاريخ**، ص ١١٢.

(١٦٩) تاريخ، ج٥٣، ص٣١٥.

(١٧٠) سير، ج١٦، ص٤٤٠.

(١٧١) ابن عساكر، تاريخ، ج ٥٣، ص ٣١٨.

(١٧٢) الذهبي، سير، ج١٦، ص٤٤١؛ تذكرة، ج٣، ص١٣٥؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص١٨٧؛ السخاوي، **الإعلان**، طبعة روزنتال، ص٧٠١.

(١٧٣) وقد نشر في جزأين، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، النشرة الأولى، ١٤١٠هـ، وهو من المصادر المعتمد عليها في هذا البحث.

(١٧٤) عبد العزيز بن أحمد بن محمد التميمي الكتاني الدمشقي الصوفي الحافظ (ت، ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م): محدث دمشقي، سمع الكثير، وكتب الكثير، ورحل في طلب الحديث، كان حافظاً ثقة أميناً متقناً، وصنف وجمع مصنفات عديدة، غير أنه لم يصلنا منها إلا كتاب «الوفيات على السنين»، كذلك ترك إجازة، أجاز فيها لكل مولود في الإسلام قبل موته مروياته؛ ابن الأكفاني، هبة الله بن أحمد بن محمد بن هبة الله (ت، ٥٢٤هـ / ١١٣٠م)، ذيل **ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص٤٠؛ السمعاني، **الأنساب**، مج٤ مج٤، ص٥٨٨؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٦، ص٢٦٢ ـ ٢٦٤؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥؛ الذهبي، **تذكرة**، ج٣، ص٢٤١.

(١٧٥) أبو محمد بن الأكفاني هبة الله بن أحمد بن محمد الأنصاري الدمشقي الحافظ (ت، ٥٢٤ هـ / ١١٣٠م): محدث دمشقي، سمع أباه وأبا القاسم الحنائي وأبا بكر

الخطيب، ولزم أبا محمد الكتاني مدة، وكان ثقة فهماً شديد العناية بالحديث والتاريخ، كتب الكثير، وكان من كبار العدول، ذيّل على كتاب الكتاني في **الوفيات**؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٧٣، ص٣٥٩؛ الذهبي، **العبر**، ج٤، ص٦٣؛ سير، ج١٩، ص٥٧٦؛ السخاوي، **الإعلان**، طبعة روزنتال، ص٧٠١.

(١٧٦) ابن زبر، **تاريخ مولد العلماء**، ج١، مقدمة المحقق، ص٤٠ ــ ٤١.

(١٧٧) ابن زبر، المصدر نفسه، ج١، مقدمة المحقق، ص٤٣.

(١٧٨) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت، ٨٥٤ هــ / ١٤٤٨م)، **رفع الأصر عن قضاة مصر**، ملحق بكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي، تحقيق: رفن كست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د. ت)، ص ٥٤٣.

(١٧٩) ابن أبي ذئب: هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب هشام بن شعبة القرشي المدني الفقيه: فقيه أهل المدينة، ولد سنة ٨٠هــ/ ٦٩٩م، كان فقيهاً صالحاً ورعاً، أقدمه الخليفة المهدي إلى بغداد، فحدث بها، وفي طريق عودته منها توفي بالكوفة سنة ١٥٩هــ/ ٧٧٥م؛ الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج٣، ص٩٧ ــ ١٠٦؛ الذهبي، **تذكرة**، ج١، ص١٤٣ ــ ١٤٤.

(١٨٠) ابن زبر، **تاريخ مولد العلماء**، ج١، مقدمة المحقق، ص ٢٥ــ ٢٦؛ المنجد، معجم المؤرخين، ص٢٢؛ خلوصي، إحسان بنت سعيد، أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة، دمشق، دار يعرب، ط١، ١٤١٤هــ ــ ١٩٩٤م، ص٣٢٧؛ بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج٣، ص٢٢٧.

(١٨١) ابن العديم، **بغية**، مج ١٠، ص ٤٥٩٢.

(١٨٢) **بغية**، مج٩، ص٤٢٠٨ ــ ٤٢٠٩؛ مج١٠، ص ٤٤٠٢ ــ ٤٤٠٣.

(١٨٣) الحموي، **معجم الأدباء**، مج٢، ص٤٤.

(١٨٤) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج٤، ص١٧٩ ــ ١٨٠؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص٢٠٦؛ الذهبي، سير، ج١٦، ص٤٧٣ــ ٤٧٤؛ **تذكرة**، ج ٣، ص ١٤٥.

(١٨٥) الأخباري: نسبة إلى الأخبار، ويقال: لمن يروي الحكايات والقصص والنوادر والأخبار؛ السمعاني، **الأنساب**، مج١، ص٩٢.

(١٨٦) المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: شارل بلا، بيروت، انتشارات الشريف الرضى، ط١، ١٤٢٢هـ، ج٥، ص٢٣٤ــ ٢٤١.

(١٨٧) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، مج١٤، ص ٣٦٠-٣٦١؛ السمعاني، **الأنساب**، مج١، ص٩٢.

(١٨٨) ابن عساكر، **تاريخ**، ج١٣، ص ٣٤٧ ــ ٣٤٩؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن ابن علي بن محمد (ت، ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩٢م، ج١٣، ص٣٧٨؛ ابن منظور، **مختصر**، ج٧، ص٦٠؛ الذهبي، **سير**، ج١٥، ص٣٠٩ ــ ٣١٠؛ بدران، **تهذيب**، ج٤، ص٢٤٢.

(١٨٩) الكتاني، **ذيل تاريخ**، ص٨٠ ــ ٨١؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥٥، ص١٠٢ــ ١٠٤؛ الذهبي، **سير**، ج١٥، ص٥٧٢ ــ ٥٧٣؛ ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٢، ص٣٧٦.

(١٩٠) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، ج١، ص٣٠٣.

(١٩١) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، مـج١، ص ٣٢٦؛ السمعاني، **الأنساب**، مج١، ص٩٢-٩٣؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥١، ص٥٧-٥٨؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج٥، ص١١٤.

(١٩٢) القفطي، علي بن يوسف (ت، ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ط٢، ١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م، ج١، ص ٤٤.

(١٩٣) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٥١، ص ٦٢ــ ٦٦؛ الذهبي، **العبر**، ج٢، ص ٣٥٠-٣٥١؛ الصفدي، الوافي، ج٢، باعتناء: س ديدرينغ، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٧٤م، ص ٤٥؛ المقريزي، **المقفى**، ج ٥، ص١٨٩؛ ابن طولون، **قضاة دمشق**، ص٣٤ــ ٣٥.

المصادر والمراجع

أولاً – المصادر:

١- الأرمنازي، غيث بن علي بن عبد السلام الصوري (ت، ٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، المجموع من المنتخب المنثور في أخبار الشيوخ من تاريخ دمشق وصور، براوية مؤرخ دمشق الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت، ٥٧١ هـ / ١١٧٥م)، جمعه واعتنى به: عمر عبد السلام تدمري، صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢- الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي (ت، ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠م)، طبقات الشافعية، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة الإرشاد، ط١، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م.

٣- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت، ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٤- ابن الأكفاني، هبة الله بن أحمد بن محمد بن هبة الله (ت، ٥٢٤هـ / ١١٣٠م)، ذيل ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٥- الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت، ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م)، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، حققه ووضع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، جروس برس، ١٩٩٠م.

٦- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت، ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، حققه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ط٢، ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م.

٧- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت، ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.

٨- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت، ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٩- الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٠- ـــــ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م.

١١- ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت، نحو ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م)، صورة الأرض، ليدن، مطبعة بريل، ط٢، ١٩٣٨م.

١٢- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت، ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٣- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت، ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٤-ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت).

١٥-الخولاني، عبد الجبار بن عبد الله بن محمد (ت، بعد ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، حققه وقدم له: سعيد الأفغاني، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٦-الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت، بعد ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥م)، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، المعهد الألماني للآثار، ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١م.

١٧-الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٨-ـــــ سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٩-ـــــ العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت، وزارة الأعلام، ط٢، ١٩٨٤م.

٢٠-ـــــ كتاب تذكرة الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢١-الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي (ت، ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، كتاب الجرح والتعديل، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

٢٢-الربعي، علي بن محمد (ت، ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، فضائل الشام ودمشق، حققه: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٠م.

٢٣-ابن زبر، محمد بن عبد الله بن أحمد الربعي الدمشقي (ت، ٣٧٩هـ / ٩٨٩م)، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، دراسة وتحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، النشرة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٤-السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، منشور ضمن كتاب علم التأريخ عند المسلمين، لـ فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م. مطبعة القدسي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٢٥-ـــــــ الجواهر والدرر، منشور ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين، لـ فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م.

٢٦-السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت، ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، الأنساب، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٧- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت، ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، الجزء ١، قسم ١ + ٢، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩١م.

٢٨- الشمشاطي، علي بن محمد العدوي (ت، بعد ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م)، الأنوار ومحاسن الأشعار، تحقيق: السيد محمد يوسف، الكويت، وزارة الأعلام، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٢٩- الصفدي، خليل بن أيبك (ت، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، فيسبادن، فرانز شتاينر،ج٢، باعتناء: س ديدرينغ، ١٩٧٤م؛ ج٣، باعتناء: س. ديدرينغ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م؛ ج٥، باعتناء: س. ديدرينغ، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٣٠- ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، طبقات الفقهاء الشافعية، هذّبه ورتبه واستدرك عليه: يحيى بن شرف النووي (ت، ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، بيّض أصوله ونقّحه: يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت، ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، حققه وعلّق عليه: محيي الدين علي نجيب، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

٣١- الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، "المنتقى من أخبار الأصمعي لأبي محمد بن زبر"، نشر: عز الدين التنوخي، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج١٣، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م؛ مج١٤، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م،.

٣٢-الطرسوسي، عثمان بن عبد الله (ت، ٤٠١هـ/ ١٠١٠م)، بقايا كتاب سير الثغور من خلال مخطوطة بغية الطلب لابن العديم، تقديم ودراسة: شاكر مصطفى، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩٨م.

٣٣-ابن طولون، محمد بن علي (ت، ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، قضاة دمشق، الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٦م.

٣٤-ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (ت، ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، طبقات علماء الحديث، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٣٥-ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون الملطي (ت، ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، تاريخ الزمان، نقله إلى العربية: إسحق أرملة، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦م.

٣٦-ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م.

٣٧-ــــــــ زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه وقدم له: سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م.

٣٨-ــــــــ الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري، دراسة وتحقيق: عبد العزيز حرفوش، (د. م)، دار الجولان، ط١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م،

٣٩- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت، ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو

اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٤٠- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت، ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، رفع الأصر عن قضاة مصر، ملحق بكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي، تحقيق: رفن كست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د.ت).

٤١- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (ت، ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الفكر، (د.ت).

٤٢- القشيري، محمد بن سعيد بن عبد الرحمن (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين والفقهاء والمحدثين، عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٤٣- القفطي، علي بن يوسف (ت، ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبي، (د.ت).

٤٤- ــــ إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٤٥- الكتاني، عبد العزيز بن أحمد (ت، ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م)، ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٤٦- الكتبي، محمد بن شاكر (ت، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م.

٤٧- الكندي، محمد بن يوسف (ت، ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: رفن كست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د.ت).

٤٨- المزي، يوسف بن عبد الرحمن (ت، ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، راجعه وقدّم له: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م.

٤٩- المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، التنبيه والإشراف، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م.

٥٠- ــــــ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: شارل بلا، بيروت، انتشارات الشريف الرضى، ط١، ١٤٢٢هـ.

٥١- المقريزي، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٥٢- ــــــ إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

٥٣- المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين (القرن ٤هـ/ ١٠م)، المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، دار المنصور، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٥٤- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت، ٧١١هـ/ ١٣١١م)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس وآخرون، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٥٥- ابن النجار، محمد بن محمود البغدادي (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، ذيل تاريخ بغداد، ملحق بتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

٥٦- النديم، محمد بن إسحاق (ت، ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، الفهرست، ضبطه وشرحه وعلّق عليه وقدّم له: يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

٥٧-النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت، ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، حققه: محمد أمين، محمد أحمد، القاهرة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

ثانياً – المراجع العربية:

١- بدران، عبد القادر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٢- البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين «أسماء المؤلفين وآثار المصنفين»، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

٣- حاطوم، نور الدين، وآخرون، المدخل إلى التاريخ، "في التاريخ والمؤرخين منذ القديم حتى اليوم"، دمشق، مطبعة الإنشاء، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٤- الخطيب، نشأت، التاريخ والمؤرخون العرب «تصور ومنهج»، بيروت، شركة النعمات التجارية، ط١، ١٤١٠هـ /١٩٩٠م.

٥- خلوصي، إحسان بنت سعيد، أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة، دمشق، دار يعرب، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٦- الدرع، مريم، موارد ابن العديم التاريخية ومنهجه في كتاب (بغية الطلب في تاريخ حلب)، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

٧- سالم، السيد عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٨- عباس، إحسان، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م.

٩- مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣م.

١٠-المنجد، صلاح الدين، معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

ثالثاً – المراجع المترجمة إلى العربية:

١- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ج٣، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٥م.

٢- روزنتال، فرانز، علم التأريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م.

٣- سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، ج١، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، فهمي أبو الفضل، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧ – ١٩٧٨م.

٤- لويس، برنارد، ب. م. هولت، مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث، نقله إلى العربية وقدم له: سهيل زكار، دمشق، دار التكوين، ٢٠٠٨م.

رابعاً – الأبحاث والمقالات:

١- دهمان، محمد أحمد، القاضي عبد الجبار الخولاني، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج٢٦، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م، ج٢.

٢- العش، يوسف، تاريخ الرقة ومن نزلها للقشيري، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج١٧، ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م، ج٢٥.

دور أهل الذمة والجاليات الغربية ونشاطهم في عصر المماليك

أ. م. د.(١)عمار محمد النهار

قسم التاريخ

جامعة دمشق

_ مقدمة:

يحفل التاريخ العربي الإسلامي بنماذج عن التفاعل بين عناصر المجتمع مهما اختلفت دياناتهم وتوجهاتهم، ومن ذلك ما سيتحدث عنه هذا البحث الذي يشرح دور أهل الذمة والجاليات الغربية ونشاطهم في عصر المماليك.

أهل الذمة هو مصطلح فقهي إسلامي يقصد به كلٌ من اليهود والمسيحيين، أو على حسب الوصف الإسلامي إجمالاً أهل الكتاب الذين يعيشون تحت الحكم الإسلامي أو في البلاد ذات الأغلبية المسلمة.

والمقصود بأنهم أهل ذمة هو كونهم تحت الحماية الإسلامية وتحت مسؤولية الدولة. ولا تقصر الشريعة الإسلامية تلك المسؤولية على الدولة فقط ولكن تصرفها أيضاً على المواطن المسلم، فلا يجوز له الإساءة للذمي تحت عذر أنه من غير المؤمنين بالقرآن أو برسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما أوضحت الشريعة أن مسألة الإيمان يحاسب عليها الله وحده يوم القيامة.

وأشير بدايةً إلى أحد الكتب الهامة التي تخص قضايا أهل الذمة، وقد ألّفه محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) أحد علماء عصر المماليك، وجعل عنوانه: «أحكام أهل الذمة»، وهو من الكتب المتعلقة بفقه تنظيم الجاليات غير الإسلامية في دار الإسلام، وإن كان الفقهاء قد كتبوا فيه قديماً، لكن ابن قيم تميز عن كل من سبقه بالدقة والعمق والشمول، فكان كتابه أول كتاب جامع في بابه، تناول فيه كل شاردة وواردة بموضوعات تفصيلية تكاد تكون كافية ووافية لمن يقرؤها(١).

أولاً – أهل الذمة في مجتمع عصر المماليك:

خلص الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بعد دراسات عديدة إلى تقسيم المجتمع في عصر المماليك إلى فئات ثمان، وهي: المماليك، والمعممون، والتجار، وطوائف السكان، وأرباب المهن في المدن، وأهل الذمة، والفلاحون، والأعراب، والأقليات الأجنبية.

إذن، وُجدت في عصر المماليك فئات عديدة من أهل الذمة والأقليات الأجنبية، من اليهود ومن المسيحيين الغربيين، والمسيحيين الوافدين من جورجيا والحبشة وأرمينيا، واختارت هذه الأقليات الإقامة في المدن التجارية والثغور، وكان لكل جالية منهم قنصل يشرف على شؤونهم ومصالحهم(٢).

يشير المستشرق لابدوس في دراسة متخصصة أن الأحياء السكنية كانت تشكل مجتمعات متجانسة ووثيقة الصلة بين أفرادها، كما يؤكد حدوث تضامن بين الأقاليم على أساس من الهويّة الدينية، فكان في القاهرة لكل طائفة مسيحية أو يهودية شارعها الخاص بها. وفي دمشق كشف النقاب عن وجود أحياء يهودية، واحتل الأرمن والموارنة أحياء في القسم الشمالي الغربي من مدينة حلب. كذلك وجدت أحياء مسيحية ويهودية في القدس.

إن ورود إشارات في المصادر على حدوث خلافات حول المساجد والكنائس المتجاورة، أو حول ارتفاع المنازل، يدل على أن الأقليات اليهودية والمسيحية كانت مبعثرة بين السكان، أو أن أفرادها كانوا يسكنون في أحياء منفصلة لكنها متاخمة للشوارع الإسلامية. غير أنه لم يكن هنالك أي انعزال بين الجماعات ككل[٣].

ومن جانب متصل؛ نصّت بعض مصادر عصر المماليك ــ ككتب ابن الأخوة (ت ٧٢٩هــ/ ١٣٢٨م) وابن قيم الجوزية ــ على أن أهل الذمة من يهود ومسيحيين قد تمتعوا بكل ما تمتع به المسلمون من حقوق وامتيازات [٤].

تدل المراسيم الصادرة عن سلاطين المماليك على ذلك. فمثلاً أصدر السلطان الملك المظفر سيف الدين ططر سنة ٨٢٤هــ / ١٤٢١م، مرسوماً يوصي به بالسريان ويطالب بالإحسان إليهم. كما أصدر السلطان برسباي سنة ٨٢٥هــ / ١٤٢٢م مرسوماً يوصي فيه ببطريرك السريان في بيت المقدس والبلاد الشامية، ويمنح السريان إعفاءات مالية، وأصدر السلطان قايتباي مرسوماً سنة ٨٨٤ هــ / ١٤٧٩م يسمح فيه للسريان بالاستمرار في عاداتهم القديمة المتعلقة بزيارة الأماكن المقدسة. ثم أصدر مرسوماً ثانياً سنة ٨٨٦هــ / ١٤٨١م يمنع فيه الاعتداء على دير السيدة للسريان.

وفي سنة ٩١٩ هــ = ١٥١٣م أصدر السلطان قانصوه الغوري مرسوماً أمر فيه بمعاملة النصارى معاملة حسنة، وألغى ما كان يؤخذ منهم من رسوم عند دخولهم كنيسة القيامة أو عند دخولهم فلسطين عن طريق يافا أو غزة، و نقش هذا المرسوم على بلاطة وألصقها على باب كنيسة القيامة [٥].

وتجاوزت قضية الإنصاف المراسيم السلطانية (كما ذكر رنسيمان)، ففي سنة ٧٠٥ هــ / ١٣٠٦م وصل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون وفد من الكرج ــ الذين طالما حاربوه وانضموا إلى التتار ــ، وسألوه أن يعيد إليهم كنيسة لهم في

بيت المقدس تدعى الكنيسة المصلّبة، كان قد أخذها المسلمون وجعلوها مسجداً، فعرض السلطان الأمر على القضاة، فأفتوا بإعادة الكنيسة إلى أصحابها فأعيدت إليهم(٦).

ومن جهة مشابهة حُفظت حقوق اليهود بالإجمال في عصر المماليك. فإذا مات أحدهم تُقام له إجراءات مشابهة لتلك التي تُقام عندما يموت أحد المسلمين. ومن ذلك عملية حصر الإرث والممتلكات وتسجيلها لتورّث على حسب القوانين الإسلامية، وتتم هذه العملية بحضور ممثلين عن بيت المال والقاضي والشهود، فعلى سبيل المثال تضمنت الوثيقة رقم ١٩٧ المؤرخة في ٢٩ صفر ٧٩٥ هـ / ١٤ كانون الثاني ١٣٩٣م حصر ممتلكات رجل يهودي هو إسحاق بن شمويل الذي كان يسكن بدار القرموني في حارة اليهود في بيت المقدس، وحددت الوثيقة ورثته وهم (زوجته سمحا وابنته يهودا الإفرنجية وأمه دوسا بنت سلتّين الإفرنجية)(٧).

ومن صور التسامح والحفاظ على حقوق الذميين ما أنبأت به الوثائق أيضاً، ومن ذلك ما ورد في الوثيقة رقم ٣٣٥ سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢ م، وفيها أن شيخ المغاربة تولى بنفسه حماية حقوق أحد اليهود في بيت المقدس(٨).

وعندما دب نزاع بين المسلمين واليهود عام ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣م على الكنيس الموجود في حي اليهود ببيت المقدس، حيث منع المسلمون اليهود من دخوله والتعبد فيه بحجة أنه محدث في دار الإسلام ولا حق لليهود فيه، وعلى الرغم من إثبات المسلمين لحقهم، أصدر السلطان قايتباي أوامره بأحقية اليهود بكنيسهم(٩).

ومن الصور التي قدمتها وثائق الحرم القدسي والتي تدل على وجود علاقات تجارية وأعمال متنوعة بين أتباع مختلف الديانات. أنه في سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١م قام عطار مسلم بإقراض بعض اليهود مالاً في سوق الصلاحية في بيت المقدس.

ودلت وثيقة تعود إلى سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤٣م أن حي النصارى في بيت المقدس سكنه مسلمون إلى جانب المسيحيين. بل تدل وثيقة أخرى على حالات تزاوج بين الطرفين، وهي وثيقة تعود إلى سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢م، وفيها أن جمال الدين بن عبد الله بن منصور بن إبراهيم قد تزوج من سعيدة بنت توما النصرانية ودفع لها صداقاً قدره ٤٠٠ درهم.

كما تشير وثيقة أخرى سنة ٧٩٦ هـ /١٣٩٤م إلى وجود مسجد في حارة اليهود(١٠).

ومن جهة أخرى تدل الأخبار التي وردت في مصادر العصر المملوكي على أن المسيحية واليهود قد شاركوا في نشاط المجتمع وتأثروا بأحداثه، وخاصة في المناسبات والأحداث الهامة. ومن الأمثلة على ذلك ما حدث عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م، حين أعاد الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية، فخرج في هذا الاحتفال جميع طوائف المجتمع للقاء الخليفة أبي القاسم أحمد، ومن بينهم اليهود وهم يحملون التوراة، والمسيحيون وهم يحملون الإنجيل(١١).

وفي عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م جفّت مياه النيل فارتفعت أسعار المياه، ورأوا أن يبنوا جسراً على النيل. فتقرر جمع النفقات من الطوائف كافة، بما في ذلك اليهود والمسيحيين ولم يُعفَ أحد من ذلك(١٢).

وفي عام ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣م، انحسر قطر السماء واختفى الخبز من الأسواق. فخرج الجميع إلى الصحراء لإقامة صلاة الاستسقاء، وكان من بين هذه الجموع اليهود وهم يحملون التوراة، والمسيحيون وهم يحملون الإنجيل(١٣).

وثمة أخبار تشير إلى حال من الألفة والتضافر الاجتماعي بين مختلف الأديان، ومن ذلك ما حدث عام ٧١٤ هـ/ ١٣١٤م حين استعار الأقباط بعض القناديل

والأثاث من جامع عمرو بن العاص ليستخدموها في كنيستهم في إحدى اجتماعاتهم الدينية(١٤)

وذكر ابن فضل الله العمري الدمشقي كذلك أن جميع ملوك المسيحية كانت تهادي سلطان المماليك وتراسله لكي يتمكنوا من زيارة مزاراتهم(١٥).

ومن الأمثلة العملية على ذلك ما ذكره شيخ الربوة (ت٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) خلال حديثه عن مدينة الناصرة. إذ ذكر موقع البشارة - حيث بشرت السيدة مريم العذراء بالنبي عيسى عليه السلام، فوصفه بأنه قبلة للزوار المسيحيين. كما قال الصفدي العثماني (ت٧٨٠هـ = ١٣٧٨م) عنه:«به جماعة من الرهبان وعباد النصارى يتعبدون فيه» (١٦).

وتوزعت الأعياد في عصر المماليك على جميع فئات المجتمع من مسلمين ويهود ومسيحيين دون أي تمييز. فأما أعياد اليهود فهي خمسة أعياد رئيسية. أولها عيد رأس السنة، والعيد الثاني هو عيد صوماريا أو الكيبور، والعيد الثالث هو عيد المظلة، والعيد الرابع هو عيد الفطير، والعيد الخامس هو عيد الأسابيع أو العنصرة أو الخطاب.

وللمسيحيين أعيادهم الخاصة بهم أيضاً. ومن أعيادهم الأساسية عيد البشارة، وعيد الزيتونة، وعيدهم الثالث هو عيد الفصح، وعيدهم الرابع هو خمسين الأربعين، وهو ذكرى صعود المسيح إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامه حسب معتقدهم والعيد الخامس هو عيد الخميس أو عيد العنصرة، والعيد السادس هو عيد الميلاد، والسابع هو عيد الغطاس(١٧).

هذا التعداد السريع عن أعياد اليهود والمسيحيين في ذلك العصر يعكس لنا مايلي:

- شيئاً من الحياة التي كانوا يعيشها الناس آنذاك التي تدل على تكافل وتضافر وتضامن اجتماعي.

- ما أشارت إليه بعض مصادر ذلك العصر – ككتاب الفقيه ابن الحاج (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) - إلى أن المسلمين كانوا يشاركون أهل الذمة في أعيادهم، وكانوا يتبادلون معهم الهدايا، ويرسلون إليهم ما يحتاجونه لمواسمهم الدينية[١٨].

- كما يدل احتفال كل طائفة من هذه الطوائف بأعيادها على أن المماليك المسلمين ـ بالإجمال ـ لم يتدخلوا في معتقدات أحد من هذه الطوائف، بل تركوا لهم حرية تطبيق معتقداتهم والاحتفال بأعيادهم من دون المساس بهم أو التعرض لهم.

ثانياً ـ أهل الذمة والنشاطات الاقتصادية:

يعكس مجال الحياة الاقتصادية إلى حد كبير الحالة المعيشية لأهل الذمة ودرجتها، ويُظهر النشاطات التي شاركوا بها في عصر المماليك، وأبدأ بوظائفهم التي مارسوها. إذ كانت الوظائف في عصر المماليك تنقسم إلى وظائف عسكرية (أرباب السيوف)، ووظائف إدارية (أرباب الأقلام)، ووظائف دينية (أرباب العمائم)[١٩].

وتقتصر الوظائف العسكرية (أرباب السيوف) على رجال الجيش، وكانوا من المماليك فقط، وينفذون أوامر السلطان وينصرونه ويعتمدون عليه في أمورهم المعاشية، وفي بعض الأحيان كانوا يسيئون استعمال النفوذ الذي يتمتعون به.

أما الوظائف الديوانية المدنية (أرباب الأقلام) فكان معظم أصحابها من غير المماليك. إذ كان سلاطين المماليك في البداية يعينون المماليك في كل الوظائف أو معظمها، وقد احتفظوا بهذه القاعدة إلى نهاية حكمهم فيما يختص بالوظائف الكبيرة.

لكنهم اضطروا إلى أن يتخذوا في وظائف مثل كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء وغيرها موظفين من غير المماليك. بل كانوا يستخدمون اليهود والمسيحيين من أهل الذمة، لأن المماليك لم يكونوا يتقنون مثل هذه الأعمال، وكان معظم الموظفين الماليين من القبط لما اشتهروا به من نشاط وكفاية في تولي مثل هذه الأعمال[٢٠].

وكان من بين الوظائف الدينية (أرباب العمائم) وظائف زعماء أهل الذمة: وفيها بطرك النصارى اليعاقبة، وبطرك النصارى الملكانية، ورئيس اليهود القرائين والربانيين، ورئيس السامرة [٢١].

فضلاً عن كل ذلك فإن أهل الذمة قد تولوا المناصب الجليلة في الدولة المملوكية؛ ومن ذلك الوزارة التي تولاها عدد لا بأس به منهم، ونظر [٢٢] الخاص كذلك، ونظر الدولة، ونظر الشام، ونظر الجيش، وكشف الجهات بالديار المصرية[٢٣].

هنا اعتمد المماليك أيضاً على الذميين، باعتبارهم المسيطرين على الأعمال الديوانية، وكانوا يشكلون العدد الأكبر في كثير من الوظائف الإدارية. فأساء بعضهم استعمال نفوذه لتحقيق مكاسب مالية، وأساء بعضهم بالإجحاف على العامة وقسوة تصرفهم تجاههم، مما استدعى السلطان للتدخل إما بالمصادرة أو بطرد الذميين من الوظائف الإدارية حين تصل سوء تصرفاتهم لدرجة من العمومية والاتساع لتهدد بثورة شعبية عارمة، ونرى الطرد قد يكون للذميين في المؤسسات الإدارية، إما في مصر أو في سائر أنحاء السلطنة المملوكية[٢٤].

أما المهن التي امتهنوها، فيشير الخبر التالي إلى بعض مهن اليهود في عصر المماليك، ففي عام ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م هاجر إلى بيت المقدس رجل يهودي اسمه إسحق بن تشلو، وبعث برسالة إلى والده وأصدقائه يصف فيها حال اليهود قائلاً: «كثيرون من أفراد الطائفة يعملون بالصناعة كالدباغة والخياطة وصنع الأحذية وغير ذلك، وغيرهم يعملون في التجارة ولهم حوانيت أنيقة»[٢٥].

وتشير الوثائق إلى ممارسة اليهود أعمالاً متنوعة في بيت المقدس كالقصابة والصرافة؛ وهي المهنة التي اشتُهروا بها عبر التاريخ[٢٦].

وفي رحلته إلى بيت المقدس يذكر الرحالة فابري (الذي زار الأماكن المقدسة مرتين: الأولى حوالي سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م، والثانية حوالي سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م) أن اليهود قد مارسوا مهنة المرشدين والأدلاء والمترجمين للحجاج المسيحيين[٢٧].

كما كان لأهل الذمة أسواقهم الخاصة، كما في دمشق. فكانت المنطقة المحيطة بالجامع الأموي وقلعة دمشق هي المنطقة المزدهرة بالتجارة والأسواق والخانات والقياسر. وكان لكل سوق شيخ يكون صلة الوصل بين التجار والحكام. كما كان هناك المحتسب الذي يُشرف على جميع الأسواق لمراقبة الأسعار والمكاييل والموازين ومعرفة المطففين والغشاشين. حيث كادت بعض هذه الأسواق تكون حكراً على أهل الذمة، مثل سوق الصباغين وسوق الصرف.

وكان في دمشق مجموعة من الأسواق زادت على مائة سوق داخلها وخارجها، منها: سوق الصاغة، وسوق الصرف، ومعظم أصحابه من اليهود [٢٨]. وتحدث ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) عن مطابخ للسكر يملكها اليهود ويعملون بها [٢٩].

من جهة أخرى؛ عندما كانت التجارة الداخلية تنشط في بيت المقدس والرملة وبيت لحم والخليل في مواسم الحج وزيارة الأماكن المقدسة، كانت تحتشد أعداد كبيرة من المسلمين والنصارى واليهود، وتقام لهم أسواق خاصة يتبادلون فيها المنافع التجارية[٣٠].

بل كان من أسباب ازدهار تجارة دولة المماليك ما ساد بين التجار المسلمين والتجار الإيطاليين والصليبيين من علاقة حسنة جداً، على الرغم من الاختلاف الديني وفتاوى الباباوات. وكانت عكا تزخر بمثل هؤلاء التجار الذين كانوا يحملون

إليها البضائع المحلية، علاوة على البضائع المستوردة من الهند والصين مثل الفلفل والبهار والقرفة والخولنجان والقرنفل والزنجبيل وحبّ الهال، وكذلك الحرير والخزف والأحجار الكريمة والسجاد والنيلة والموسلين. وظلت عكا ميناءً رئيسياً قبل وبعد تحريرها، حيث وصفها العثماني الصفدي بقوله: «بعكا ميناء يقصده تجار الإفرنج بالبضائع»[٣١].

وكان التجار أحراراً في بيع بضائعهم لمن أرادوا ومتى أرادوا. كما كان لهم الحق في شراء لوازمهم بدون تدخل من أحد. وكان الصليبيون يدفعون رسوماً ثابتة عند دخول دولة المماليك، وكذلك كان يفعل الآخرون.

أما التجار المسلمون المقيمون تحت سلطة الصليبيين فقد أُنشئت لهم محاكم تجارية، يرأسها قاض يُعينه حاكم البلد، ويساعده اثنان من الفرنجة وأربعة من السكان المحليين، ويحلف كل منهم على كتابه المقدّس، وتتولى محكمة المدينة تسجيل عقود البيع واستيفاء الرسوم المقررة عليها.

وذكر رنسيمان أن معظم موارد الإمارات الصليبية كانت من الرسوم التجارية المقررة على البضائع المتوجّهة من الداخل إلى الساحل.

نجم عن هذه الصلات التجارية قيام صداقات بين الطرفين، حتى إن طائفة الداوية[٣٢]المشهورة بنشاطها المصرفي أبدت استعدادها للتوسع في أعمالها المصرفية مع المسلمين، وتعلّم موظفوها اللغة العربية لاجتذاب الزبائن العرب[٣٣].

وتطورت هكذا علاقات إلى معاهدات سياسية تجارية، تضمنت التصريح للتجار القادمين من أوربا بمزاولة أعمال التبادل التجاري بشرط أن لا تضر الإسلام والمسلمين. وكان من أهم هذه المعاهدات تلك التي عقدت مع البندقية والتي ترجع إلى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ثم تلتها ست معاهدات أخرى في القرن التالي، وثلاث معاهدات في القرن الذي يليه[٣٤].

انطلقت هذه الممارسات المملوكية على صعيد العلاقات السلمية التجارية من وضع القوة والمناورة وليس الضعف والخضوع. كما أنها كانت تخدم وتدعم المصالح السياسية والعسكرية المصرية في مواجهة الأعداء من الشرق والغرب على حد سواء. يتضح هذا على ضوء النتائج الثلاث التالية التي توصل إليها ثمانية من الباحثين في المعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ وهي مستخلصة من واقع التحليل التاريخي:

الأولى: تعد هذه الممارسات وغيرها (وخاصة الاتصالات بين المماليك والممالك الأوربية حول أوضاع الكنائس والأديرة ببيت المقدس، وشؤون الأسرى المسيحيين، وأهل الذمة في مصر) مراعاة للسياسة التي اقتضتها حالة مهادنة الممالك الأوربية. وبفضل هذه السياسة السلمية قضى المماليك على خطر شديد ربما كان تجدد باتحاد بعض الممالك التي كان لها مصالح أساسية مع المماليك مع غيرهم ممن تحركهم بالدرجة الأولى المشروعات الصليبية. بعبارة أخرى اختبرت الدولة المملوكية العلاقات الإسلامية الإفرنجية السلمية بميزان استبعاد الخطر الصليبي في مقابل منح تجارية جديدة. فعلى سبيل المثال أضحت البندقية أكبر شريك تجاري لمصر منذ أن نجحت في تحويل الحملة الصليبية الرابعة من الإسكندرية إلى القسطنطينية سنة٦٠١ هـ/١٢٠٤م. هكذا كانت مصر المملوكية تستخدم الأداة التجارية لتحجيم الأساليب الصليبية الجديدة أو القضاء عليها وذلك من خلال المناورة بالمصالح الاقتصادية المتضاربة لبعض الأطراف الأوربية[٣٥].

أما النتيجة الثانية: فهي أن مصر، وإن كانت تعد واحدة من أغنى الدول في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فإن سر هذا الثراء لم يكن مكمنه في داخل مصر أي في عناصر وموارد النشاط الاقتصادي الداخلي مثل الزراعة. كما لم تتوافر لديها الموارد الأولية اللازمة لإقامة وتدعيم الجيوش في هذه المرحلة أي الخشب والمعادن والعبيد، ولم تكن أموال هذه التجارة

تنفق على اللهو والبذخ فقط وخاصة في عصر السلاطين الأقوياء، ولكن كان الجزء الأعظم ينفق من أجل الحفاظ على مستوى تدريب الجيش وتسليحه حتى يواجه العدوان الصليبي من الغرب والخطر المغولي من الشرق.

كما كانت هذه التجارة أيضاً سبيل حصول هذا الجيش على عناصره الأساسية، العنصر البشري من المماليك، والحديد والخشب والمعدات الحربية والمعادن الثمينة مثل الذهب والفضة، والاقتصادية مثل النحاس والرصاص والقصدير. ولقد ساهم التجار المسيحيون ــ وخاصة الجنوبيون ــ في توفير هذه العناصر متحدّين بذلك أوامر البابا التي تمنع الاتجار مع مصر بهذه العناصر.

أما النتيجة الثالثة: فهي أن امتيازات التجار المسيحيين الأوربيين لم تكن مطلقة أو ثابتة. لكنها كانت تتعرض لتقلبات عنيفة مع تغير مجال العلاقات بين المماليك وبين الدول الأوربية المسيحية، ففي حالة اندلاع حرب بين مصر وبين هذه الدول كانت تغلق الفنادق ويسجن التجار والقناصل.

وكان الحرص على عودة الامتيازات وانتظام التجارة يدفع بعض الأطراف الأوربية ذات المصالح للوساطة لدى السلطة المملوكية التي كانت تتوقف على إرادتها عودة الأمور إلى ما كانت عليه، فلقد كانت الأداة الاقتصادية ذات وزن هام في إدارة علاقاتها مع الأطراف الأوربية المتنافسة المصالح، وبرز ذلك واضحاً عقب الغارة على ميناء الإسكندرية سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م. حيث أحدثت اضطراباً شديداً في مصالح الجمهوريات الإيطالية. لهذا سارعت البندقية وجنوة لتؤكدا عدم اشتراكهما في الحملة. لكن السلطان رفض أن يسمح لهما بالعودة إلى المتاجرة إلا إذا أعاد ملك قبرص الأسرى المسلمين. ثم لم يستجب السلطان المملوكي لطلب عقد صلح حتى بعد إطلاق الأسرى[٣٦].

ثالثاً ــ أهل الذمة والنشاط الفكري:

شارك أهل الذمة من يهود ومسيحيين مشاركة فعالة في نشاطات المجتمع الفكرية في عصر المماليك، على الرغم من قلة أعدادهم مقارنة بالمسلمين. فقد كان لهم أثر مهم في الحياة الفكرية بمشاركتهم في النشاطات العلمية المتعددة.

فقد كان لليهود كنائسهم الخاصة بطوائفهم، ككنيسة القرائين التي اختصت بطائفة اليهود القرائين، وكنيسة اليهود الربانيين، وكنيسة دموه التي كانت أعظم معبد لليهود في أرض مصر لاعتقادهم أنه المكان الذي كان يأوي إليه سيدنا موسى عليه السلام حين كان يُبلِّغ رسالات الله عز وجل إلى فرعون، وكنيسة المصاصة وكنيسة الجودرية، وغيرها من معابد اليهود.

كان لهذه المعابد شأن مهم في حياة الطوائف اليهودية، ففيها كانوا يقيمون صلواتهم، وفيها كانوا يتعلمون التوراة، وبها أُلحقت المدارس الخاصة بتعليم أطفالهم. فقد جرت العادة أن يلحق الكتَّاب بالمعبد حيث تقع قاعة الصلوات، أو تخصص له إحدى غرف المعبد. فكان الأطفال من الذكور يقضون معظم اليوم في الكتَّاب. أما البنات فقد كنَّ يأخذن قسطاً من الثقافة، ولاسيما في الشؤون الدينية، وكانوا يتعاقدون مع المعلمين من أجل تعليمهن الصلوات وبعض التفسيرات باللغة العربية(٣٧).

أنتج النضال المذهبي ــ ولاسيما بين القرائين والربانيين ــ الذي كان يتمحور حول ترجمة الكتاب المقدس وتفسيره؛ نشاطاً فكرياً واسعاً في العصور الوسطى. وعلى الرغم من تمسك اليهود في معظم أنحاء العالم باللغة العبرية إلا أنهم استخدموا اللغتين العربية والعبرية في بلاد دولة المماليك، والواضح أن لغة الحياة اليومية لديهم كانت هي اللغة العربية، في حين ظلت العبرية اللغة المرتبطة بالتراث الديني.

وقد استخدم اليهود في عصر المماليك اللغة العربية في شروح الكتاب المقدس والتعليق على التلمود، وذلك خلاف ما فعله يهود البلاد المسيحية الأوربية الذين لم

يستخدموا في الكتابات ذات الطابع الديني لغة أخرى غير اللغة العبرية. يرى بعض الباحثين أن السبب في ذلك يعود إلى سيادة اللغة العربية في ذلك الحين، والدليل القوي على سيادة اللغة العربية في ذلك العصر هو أن وثائق الجينيزا كتبت باللغة العربية بحروف عبرية، أو بالعربية اليهودية التي كانت لغة يهود مصر[38] والجينيزا نصوص تتحدث عن طائفة اليهود في مصر إبان العصر المملوكي، وهي وثائق على درجة كبيرة من الأهمية، دُونت باللغة العربية بحروف عبرية، والجينيزا كلمة عبرية تشبه الكلمة العربية (جنز)؛ بمعنى دفن، وتشبه الكلمة الفارسية (كيج) التي تعني المخزن أو المستودع[39].

كما كان لليهود مشاركة فعالة ودور فكريٌ مهم في مجالات عدة؛ ولاسيما في مجال الطب. وتقدم لنا المصادر المملوكية دليلاً على ذلك حين تذكر أن «أكثر ما يتعيش به اليهود والنصارى في كتابة الخراج والطب»[40].

وقد أشار ابن الأخوة إلى أن بعض الأماكن كادت تخلو من الأطباء المسلمين، ولم يكن فيها إلا أطباء من أهل الذمة[41].

وثمة أدلة على أن اليهود كانوا ينالون حقهم في تقلد المناصب في دولة المماليك، ومنها تولي أحمد بن المغربي منصب رئيس الأطباء. كذلك كان السيد الدمياطي من أطباء السلطان الناصر محمد بن قلاوون. كما تولى الطبيب اليهودي مهذب الدين أبو الحسن بن الموفق بن النجم بن المهذب مهمة تدريس الطب بالبيمارستان المنصوري، وتدل نسخة كتاب تعيينه على الثقة به و بطبه؛ ومما ورد فيها: «وارتدنا له ــ أي للبيمارستان المنصوري ــ من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل الصناعة والمرؤوس ... فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة ... علماً بأنه المتمهر في هذا الفن، وأنه عند الفراسة فيه والظن»[42]

من جهة هامة أخرى، نرى أن بيوت علماء ذلك العصر قد عمرت بدروس العلم، فعُقدت فيها المجالس العلمية، وكان من بين الحاضرين: اليهود والمسيحيون. فيكون العلماء قد شغلوا جلّ أوقاتهم بالأنشطة التعليمية متنقلين بين المسجد والمدرسة والمنزل. وهذا ما يخبرنا به ابن تغري بردي في معرض حديثه عن عالم العربية والنحو والأدب وعلوم الأوائل الحسن ابن محمد بن أحمد بن نجا (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م). فهو يقول عنه: «كان منقطعاً في منزله يتردد إليه من يقرأ تلك العلوم، وكان يتردد إليه جماعة من المسلمين، ومن اليهود، ومن النصارى، والسامرة، يُقرئ الجميع» [٤٣].

وكان للمسيحيين أديرتهم وكنائسهم الخاصة بهم أيضاً، وفيها كانوا يتعبدون، ويتعلمون شؤون دينهم؛ منها دير شعران ودير بطرس وبولس ودير القصير ودير مرحنا ودير الطير. ومن كنائسهم كنيسة مريم وكنيسة بربارة وكنسية الزهري وكنيسة ميكائيل وكنيسة أنطونيوس وكنيسة شنودة.

وتركزت مراكز الثقافة عند المسيحيين في دور العبادة. فكانت الأديرة دوراً واسعة للعلم والأدب، وشملت هذه الدور الكتاتيب أو المكاتب التي يتلقى فيها الطفل المسيحي العلوم الأولية، وتشمل مبادئ الديانة المسيحية وبعض القصص الديني، فضلاً عن مبادئ اللغة العربية وبعض العلوم التي برعوا فيها مثل علم الحساب[44].

وتولى الرهبان مهمة التدريس في هذه الدور، ولم يكن التعليم مقصوراً على الذكور، بل كان يشمل الإناث. وقد عثر على مؤلفات مكتوبة بخط الراهبات يظهر منها أنه كان بينهم بنات يُحسنَّ القراءة والكتابة بالقبطية واليونانية، مما يشير إلى أن التعليم في الأديرة استهدف إحياء اللغة القبطية وآدابها. كما أقبل الرهبان كذلك على التأليف والتصنيف ونسخ الكتب، وكانت مكتبات الأديرة غنية بالمؤلفات القبطية التي تتناول موضوعات دينية وعلمية وأدبية.

وقد اشتهر من بين المسيحيين عدد لا بأس به في الساحة الثقافية، وإن كانت معظم كتاباتهم تعنى بالأمور الدينية أو الكهنوتية، وهو ما يفسر لنا قلة إشارات المؤرخين المسلمين إلى العلماء منهم، ذلك لأن معظم هذه الكتابات تركز حول الموضوعات الدينية والكهنوتية مما قلل تأثير المسيحيين في النشاط الثقافي. فقد ألّف في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أحد مثقفي الأقباط وهو بطرس أسقف مليج بعض الكتب دفاعاً عن المذهب اليعقوبي ضد أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى، كما ألف كتاباً يرد فيه على المسلمين دفاعاً عن المسيحية.

ولئن زالت اللغة القبطية من الحياة اليومية منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وضعف أمرها في الأديرة التي أخذ أصحابها يكتبون رسائلهم باللغة العربية، إلا أن بعض الأقليات القبطية التي ظلت على مسيحيتها في العصرين الأيوبي والمملوكي قد تمسكت بلغتها الأصلية إلى جانب اللغة العربية، وحافظت هذه الأقلية على عقيدتها، واتخذت الدراسات العلمية سبيلاً إلى ذلك، وبرز منهم مثقفون أسهموا في مجال الفكر[45].

وقد لُقب علماء أهل الذمة من يهود ومسيحيين بألقاب تدل على مكانتهم ودرجتهم في ذلك المجتمع آنذاك، وغالباً ما صُدِّرت هذا الألقاب بلقب الشيخ، ومنها: الشيخ الشمسي، والشيخ الصفي، والشيخ الموفق. فإذا أسلم أحدهم أُسقطت الألف واللام من أول «لقبه» وألحقت بكلمة «دين»؛ فيقال في الشيخ الشمسي: «شمس الدين»، وفي الصفي «صفي الدين»، وما أشبه ذلك[46].

ويدل دخول الكثير من علماء اليهود والمسيحيين في دين الإسلام على قيام حوارات ومجادلات كثيرة بينهم وبين المسلمين، فدخل من دخل منهم في الإسلام، وبرهان قيام هذه المحاورات والمجادلات الكثيرة ما وصلنا من ذلك العصر من كتب الجدل والخلاف الكثيرة، التي قدمت إحدى صور الحياة الفكرية، وأغنتها بلون جديد

من المعارف [47]. ومثال ذلك منظومة شعرية في حق اليهود والمسيحيين نظمها البوصيري محمد بن سعيد (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م)، وقال عن سبب نظمه إياها: «لما رأيت كتب النصارى الآن مشحونة بما ينكرون من بعث النبي صلى الله عليه وسلم وفيها من القول بخلاف ما يدعونه من إلهية المسيح ومن صلبه وإثبات رسالته التي نقمها اليهود والنصارى مما لا يخفى ... تعرضت في هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نظمه من ذلك، وأردت أن أورد تحت كل أبيات ما أشارت إليه من النصوص التي لا يستطاع ذكرها بالنظم بلفظها ولا ترتيبها»[48].

وأخيراً هذه نماذج من علماء اليهود والمسيحيين:

إذ أنتج عصر المماليك الكثير من العلماء والمفكرين وفي كل العلوم والمعارف والاختصاصات. فازدهرت الحركة العلمية وارتقت حتى قاربت نهضة العصور العربية الإسلامية الأولى، وكان ممن ساهم في هذه النهضة المتميزة اليهود والمسيحيون. فقدموا العديد من العلماء المميزين والمبدعين الذين أخلصوا للعلم والمعرفة، فكان منهم النماذج التالية:

ـ ابن العميد جرجس: نشط التأليف في التاريخ في عصر المماليك، في التاريخ العام والخاص والتراجم والسير وغير ذلك، ومن أبرز كتّابه ابن العميد جرجس بن أبي اليسر بن أبي المكارم (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)، الذي ولد عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، وخدم سلاطين المماليك إلى أن تغيروا عليه، وحبسوه مدة ثم أطلقوا سراحه. وله كتاب «المجموع المبارك» وهو تاريخ عام في قسمين؛ تحدث في القسم الأول عن التاريخ من بداية الخلق إلى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي القسم الثاني من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عام ٦٥٨هـ = ١٢٥٩م، وقد نُقل إلى اللاتينية وترجم إلى الإنكليزية[٤٩].

ـ بطرس بن الراهب القبطي: (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) العالم المسيحي الذي كتب تاريخاً منذ بدء الخليقة إلى زمانه[٥٠].

ـ ابن القف الكركي: أبو الفرج بن يعقوب بن اسحق بن القف الكركي المسيحي (ت ٦٨٥هـ /١٢٨٦م)، ولد عام ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م في مدينة الكرك بالأردن، وتعلم الطب أولاً في صرخد في حوران بإشراف الطبيب المؤرخ أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة. ثم انتقل إلى دمشق وأكمل دراسته فيها، وترك لنا من آثاره في الطب الكتب التالية: «الشافي» في أربع مجلدات، و«شرح كتاب من كتب القانون لابن سينا» في ست مجلدات و«شرح الفصول لأبقراط» في مجلدين، و«جامع الغرض» و«العمدة في صناعة الجراحة»[٥١].

وتعكس مؤلفات الكركي الطبية البراعة التي يمتلكها في هذا العلم، وبخاصة الجراحة. حيث عدّ من خلال كتابه «العمدة في صناعة الجراحة» أعظم جرّاحي العرب بعد الزهراوي أبي القاسم خلف ابن عباس (ت نحو ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م)، وكتابه المذكور هو أشهر كتاب مستقل في التشريح في العربية حتى عصر المؤلف، وهو كتاب فريد من نوعه، ولخّص ابن أبي أُصيبعة أهمية هذا الكتاب بقوله: «علم وعمل يذكر فيه جميع ما يحتاج إليه الجرائحي بحيث لا يحتاج إلى غيره»[٥٢].

وتحدث الكركي في كتابه «جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض» عن كل ما يحتاج إليه الإنسان من رعاية وعلاج منذ مرحلة تكوين الجنين في بطن أُمه في ستين فصلاً في تسلسل منطقي[٥٣].

ـ داود العطار: عالم من علماء القرن السابع الهجري / الرابع عشر الميلادي، وهو داود بن أبي نصر المعروف بالكوهين العطار الإسرائيلي، إلا أن الإشارات إليه نادرة، وقد عرفناه من خلال مؤلفه المسمى «منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان»، وقال عنه حاجي خليفة: «الكوهين

الإسرائيلي، داود بن ابي نصر بن حفاظ، أبو المنا الطبيب المصري المعروف بالكوهين العطار الإسرائيلي، له «منهاج الدكان ودستور الأعيان في تراكيب الأدوية النافعة للأبدان»، فرغ منه عام ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م »[٥٤]

ويُعد كتابه هذا موسوعة صيدلانية ودائرة معارف طبية، جمعت إلى جانب التجربة والاختبار إرث الإنسانية حتى عصر المؤلف في صناعتي الطب والصيدلة[٥٥].

ـ مهذب الدين أبو سعيد محمد أبي حليقة: (من علماء القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) ولد عام ٦٢٠ هـ / ١٢٣، وأتقن الصناعة الطبية، وخدم الظاهر بيبرس بها، وله فيها «كتاب في الطب»[٥٦].

ـ إبراهيم بن أبي الوحش بن أبي حليقة: (ت ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) عُيّن رئيساً للأطباء بمصر والشام. ثم أسلم بعد أن كان نصرانياً، ولازم الظاهر بيبرس لمرضٍ ألمّ به واستطاع علاجه. فأثابه بيبرس على ذلك. من إبداعاته في العلاج تركيبه لشراب الورد الطري، ولم يعهد ذلك قبله على مرور الأيام[٥٧].

ـ أسرة بني كوجك الطبية: اشتهرت أُسر يهودية بأكملها بتخصصها بالطب كأسرة بني كوجك أو كجك. اشتهر من هذه الأسرة الطبيب السديد الدمياطي؛ ويعرف بابن كوجك (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م)، وكان من أطباء الناصر محمد بن قلاوون، والطبيب فرج الله بن صغير (عاش في عصر محمد بن قلاوون)، ومحمد بن محمد بن عبد الله بن صغير (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)[٥٨].

ـ العالم موسى بن كجك: (ت ٧٦١هـ / ١٣٥٩م) الذي برع في الطب، واشتغل بالعلوم العقلية، وكتب بخطه فقهاً وتفسيراً، واشتغل بتدريس الطلبة، وأعلن إسلامه في نهاية المطاف[٥٩].

ـ عبد السيد بن إسحاق بن يحيى الإسرائيلي: من اليهود الذين برعوا في علم الطب (ت ٧١٥هـ / ١٣١٥م) و دخل في دين الإسلام فيما بعد وتعلم القرآن الكريم وجالس العلماء[٦٠].

- يوسف بن عبد السيد بن إسحاق بن يحيى الإسرائيلي (ت ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م) الذي كان ماهراً بالطب، وأسلم مع أبيه عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م[٦١].

ـ العالم أحمد بن المغربي الإشبيلي اليهودي: (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م) تاذي برع في علوم عديدة، وكان إماماً بالفلسفة، وتولى رئاسة الأطباء عند المماليك، ودخل في الإسلام عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م[٦٢].

ـ نفيس بن داود بن عانان التبريزي: (ت ٧٥٢هـ /١٣٥١م) وعُرف بالتقدم في علم الطب وعلم الجواهر، وعندما أعلن إسلامه سُمي بعبد السلام[٦٣].

ـ بولس البوشي: وُلد في بوش من صعيد مصر الأوسط، ونشأ فيها بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. تلقى علومه في أحد أديرة الفيوم، ثم نبغ في الدراسات القبطية، وأظهر نشاطاً في مختلف نواحي المعارف المسيحية، وألف عدة كتب في علوم اللاهوت النظري والأدبي والفصاحة الدينية وأصول الجدل وتفسير الكتاب، حتى صار من أشهر من عالج العقائد والقضايا في الأدب المسيحي.

ـ فرج الله الأخميمي: ظهر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وقد نبغ في العلوم الدينية واللغوية والفلسفية والتاريخية[٦٤].

ـ ابن البقري: العالم شمس الدين شاكر بن غزيل المعروف بابن البقري (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) باني المدرسة البقرية، وكان يعرف الحساب، وأعلن إسلامه ومات على ذلك ودُفن بمدرسته[٦٥].

ـ أسرة أبناء العسال: ومن أسر أهل الذمة التي شاركت في الحياة الفكرية أسرة أبناء العسال، ومنهم أبو إسحاق بن فخر الدولة أبو الفضل بن أبي البشر العسال، وله عدة مؤلفات دينية، وألف أخوه الصفي أبو الفضائل ماجد كتاباً في الرد على تقي الدين بن تيمية(٦٦).

رابعاً ـ نمط الاتفاقيات والدبلوماسيات:

حرصت الممالك الكاثوليكية الإسبانية ومملكة صقلية وجنوة والبندقية على تأكيد علاقتها مع سلطنة المماليك من خلال إرسال السفراء محملين بالهدايا الثمينة، ومفوضين لعقد الاتفاقيات التجارية، والمعاهدات السياسية. مع تلاشي الوجود الصليبي وسقوط معاقله وحصونه، شملت نصوص الاتفاقيات الدولية هذه استعداد تلك الممالك المسيحية الوقوف إلى جانب سلطنة المماليك في حالة تعرضها لأي خطر يأتي من أوربة الكاثوليكية(٦٧).

فمثلاً عقد الملك الأراغوني جيمس الثاني المعاهدة الدبلوماسية الثانية مع سلطنة المماليك سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩١م في أعقاب انتصار السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في فتح عكا آخر معقل صليبي في ساحل الشام.

ولقد كانت سلطنة المماليك حريصة على تقوية علاقتها بهذه الممالك الإسبانية، إما بدافع حماية مسلمي المدن الإسبانية التي وقعت قبل تلك الفترة بقليل تحت السيطرة الإسبانية، وإما لتحقيق مكاسب مادية عن طريق توطيد علاقتها التجارية معها، وتشجيع حركة التبادل التجاري، وفتح أسواق جديدة بصفة دائمة في المدن والموانئ(٦٨).

من جانب آخر يظهر حرص تلك الممالك على تسهيل حج رعاياها المسيحيين إلى القدس الشريف، وعقد الصفقات التجارية المربحة، وتوثيق العلاقات السياسية مع سريان تنفيذ شروط الهدنات السلمية من خلال عقد هذه المعاهدات الدبلوماسية مع

أكبر قوة إسلامية في تلك الفترة. وهذا يوضح الرغبة الشديدة لدى هذه الممالك في عقد الصلح مع سلطنة المماليك خدمة لكثير من المصالح المشتركة معها، بل إن تلك المعاهدات التي عقدت بين هذه الممالك الأوربية وسلطنة المماليك تضمنت كثيراً من الشروط التي كان يمليها السلاطين المماليك على ملوك هذه الدول، والتي تخدم إلى حد كبير مصالح سلطنة المماليك خاصة في تلك الحقبة من التاريخ التي شهدت تلاشي الخطر الصليبي أمام قوة دولة المماليك(٦٩).

مع انتهاء الصورة التقليدية للحروب الصليبية في وسط العصور الوسطى الأوربية بدأت أوضاع متغيرة ولّدت أفكاراً ومعطيات جديدة لدى الأطراف المسيحية ولدى الطرف المملوكي، أدت إلى ظهور نمط جديد من العلاقات لم ينه الصراع السياسي والعقدي، ولكنه أفرز أدوات جديدة لإدارته. حيث أن المرحلة الزمنية التي تبدأ منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي قد شهدت على عكس العصرين الأموي والعباسي تطوراً في طبيعة العلاقات السلمية بين مراكز القوة الإسلامية والطرف الآخر وتطوراً في قنواتها والدوافع إليها، فلقد أخذت هذه العلاقات السلمية دفعة قوية مع نهاية الحروب الصليبية، واتسمت بطابع وسمة خاصة مع الطرف المملوكي ثم العثماني. فما هي الأسباب التي أفرزت هذا النمط وكيف تم تقويمه؟.

رأى البعض أن هذا النمط وأدواته الجديدة هي نهاية فعلية للروح الصليبية. لكن البعض الآخر لم ير فيها إلا مجرد قناع جديد لهذه الروح، وفي حين رأى البعض فيها انتهاء للجهاد الإسلامي لدى المماليك، فإن البعض الآخر رأى فيه جهاداً بأساليب جديدة(٧٠).

لكن الالتحام الجديد بين شعوب أوربا والشعب العربي الإسلامي سواء في «حركة الاسترداد الإسبانية» أو في ميادين القتال الصليبية دفع كلاً من الطرفين إلى

محاولة جدية للتعرف على أحوال خصمه وعقائده ونظمه وتاريخه. ثم بدأت حركة الاهتمام الأوربي بالتاريخ الإسلامي، ليس بدافع البحث العلمي فقط ولكن بدوافع دينية ثم بدوافع سياسية مختلفة [٧١].

وإذا كان أحد رواد الدراسات الاستشراقية بصفة عامة (والعثمانية بصفة خاصة) وهو برنارد لويس قد بيّن كيف أن أحد أهم آثار الحروب الصليبية هو التزايد في أهمية العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع أوربا، والاتصالات التجارية والشخصية بين المسلمين والمسيحيين الأوربيين، والتي كانت من قبل ضيقة النطاق وقليلة الأهمية لدرجة لم تجذب اهتمام المؤرخين المسلمين الأوائل، إلا أنه أثبت هذا بعد أن أشار إلى أمرين وهما: أن أوربا قد فقدت اهتمامها بالصليبيات من ناحية أولى وكانت مشغولة بأمور أخرى بالرغم من أن دافع بعض الحملات الفاشلة ضد سلطنة المماليك وضد القوة الجديدة التركية العثمانية كان بقاء شيء من الروح الصليبية في أوربا. ومن ناحية أخرى أشار إلى أنه بينما نسي المسيحيون الحرب الصليبية فقد تذكَّر المسلمون الجهاد، ومرة أخرى شنوا حرباً مقدسة ومن أجل الدين أولاً من أجل استعادة ما استولى عليه الغزاة (الكفار) والدفاع عنه، ثم في حالة النصر من أجل إدخال رسالة الإسلام وسلطته إلى أراضٍ جديدة وشعوب جديدة لم يسبق لها أن عرفتهما من قبل[٧٢].

ينتقل البحث الآن إلى مضامين هذه الاتفاقيات، وهي متنوعة، منها الهدنة مع جنوة سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٨٩م. إذ كان بعض الأمراء الجنويين يغيرون على مناطق المسلمين، وينهبون بضائعهم ويأسرون رجالهم، ورداً على ذلك ألقى السلطان قلاوون القبض على جميع رعايا جنوة في بلاده. فبادر حكامها إلى إعادة المنهوبات والأسرى إلى السلطان، والتمسوا منه إمضاء معاهدة سلام وهدنة. ومما جاء فيها على لسان زعيم الجنوية (اسبنيولا) ما أورده ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)، ومن ذلك: «إنني ألتزم لمولانا السلطان الملك المنصور، سلطان مصر

والشام وحلب واليمن والحجاز وسلطان مكة البيت العالي أعزه الله تعالى، وسلطان القدس والساحل حتى طرابلس الغرب وسلطان جميع المسلمين: قلاوون الصالحي، وولده الملك الأشرف خليل؛ أن حكومة جنوة تحفظ وتكرم جميع المسلمين التابعين لمولانا السلطان الملك المنصور الذين يدخلون بلادنا من الرسل والتجار، وتحفظ سفنهم ومراكبهم والشواني ومماليكهم في البر والبحر، وفى جميع أنحاء كومونة جنوة من تاريخ هذه الهدنة»(٧٣).

من ناحية ثانية حاول الفرنج بعد أن اتضحت نية السلطان المملوكي في القيام بعمل انتقامي بعد حملة الإسكندرية(٧٤) أن يهادنوه. فأرسلوا وفداً للمفاوضة في تجديد الصلح، وفتح كنيسة القيامة في بيت المقدس. لكن الأمير يلبغا رفض مطالبهم، وأصر على أن يبدأ ملك قبرص بطلب الصلح، وعندما شعر بطرس بابتعاد الصليبيين عنه وتنكرهم لما قام به من اعتداء على الإسكندرية استجاب لطلب الأمير يلبغا، وأرسل وفداً عنه إلى مصر محملاً بالهدايا في محاولة للوصول إلى اتفاق ودي مع المماليك. فطلب السلطان إطلاق سراح الأسرى المسلمين، فاستجاب بطرس لطلب السلطان، وأرسل ما تبقى من الأسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضته(٧٥).

يظهر – بعد التطورات المتلاحقة – أن علاقة الود قد تغيرت وخاصة في عهد دولة المماليك الجركسية. إذ تفوقت البندقية على جنوة واحتكرت التجارة مع المماليك، فردت جنوة بالإغارة على موانئ دولة المماليك بعد تحالفها مع القطالونيين والقبارصة والروادسة. فهاجمت ستة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م مدينتي صيدا وبيروت. ثم هاجمت ثغري رشيد ودمياط، فتصدى المماليك لكل هذه المحاولات، لذا لجأ الجنويون إلى عقد صلح مع السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م، لكن سرعان ما نقضوه حين هاجموا سفن المماليك في الحوض الشرقي للمتوسط. فانتقم برقوق عندها من الرعايا الأوربيين. فسارع الجنويون إلى عقد اتفاق جديد معه. وفي سنة

٧٩٢هـ / ١٣٩٠م قام أسطول أوربي مشترك مؤلف من سفن جنوية وصقلية وبيزية بمهاجمة ميناء طرابلس، لكن الرياح دفعتهم إلى اتجاه آخر.

وفي سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م وفي عهد السلطان فرج تعرض التجار البنادقة إلى مضايقات من السلطات المملوكية، ومع ذلك آثروا التفاهم مع المماليك للحفاظ على منافعهم التجارية. فعقدوا مع السلطان فرج صلحاً، وقد أثار هذا الصلح حفيظة الجنويين الذين سارعوا إلى التعدي على سواحل بلاد الشام للضغط على فرج كي ينتزعوا من المماليك مكاسب تجارية كالتي كسبها البنادقة، فلم تجن جنوة من ذلك شيئاً فمالت إلى التفاهم مع الدولة المملوكية، وعقدت معها صلحاً سنة ٨١٠هـ / ١٤٠٧م. وأقامت إمارات أوربية أخرى علاقات تجارية مع المماليك، مثل فلورنسة وفرنسا(٧٦).

من تلك الاتفاقيات الاتفاق مع بيزنطة سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م الذي وقّعه المنصور قلاوون، ومن بنوده:

ـ حرية التجارة لتجار البلدين دون مضايقات، وعلى التجار المذكورين أن يدفعوا ما عليهم من رسوم في التعرض لهم.

- تسهيل تجارة أهل الذمة المقيمين على أراضي دولة المماليك.

ـ كل من يتعرض لظلم من كلا الجانبين يُنصف، وتُعاد له حقوقه كاملة، ولا تفرض على أحد أي غرامات من أي نوع(٧٧).

وكانت هناك علاقات واتفاقيات واتفاقات بين المماليك والإمارات الصليبية نفسها، وهي كثيرة، كانت خلاصاتها تسيير وتيسير تجارة المماليك مع البلدان التجارية العالمية آنذاك، وسأُقدم النماذج التالية عنها.

* الاتفاق مع إمارة طرابلس سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م، ومن بنوده:

ـ تقاسم الغلات مناصفة في بعض المناطق.

ـ تبادل التجارة بين الطرفين، على أن تكون المعاملة بالمثل، أي إذا أراد السلطان المملوكي إعفاء تجار طرابلس في بلاده أُعفي تجارهُ منها في طرابلس، والعكس صحيح.

ـ تبادل تصدير البضائع بين الطرفين(٧٨).

* الاتفاق مع إمارة عكا سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٢م، ومن أهم بنوده:

ـ تأمين التجار من الطرفين على أنفسهم وأموالهم حتى يصلوا إلى بلادهم.

ـ لا تُفرض على تجار الطرفين أي رسوم جديدة، بينما تؤخذ منهم الرسوم المعتادة بدون زيادة.

ـ إذا توفي أحد التجار من بلاد الطرفين، تحفظ أمواله إلى أن تسلَّم إلى أهله.

ـ إذا تعرضت سفن الطرفين في البحر أو الموانئ لأي أذى، يحتفظ بها وبما معها حتى يتم تسليم ذلك إلى أصحابها.

ـ يتعاون الطرفان في القضاء على اللصوص والقراصنة.

ـ من كان من فلاحي بلاد الإسلام يعود إلى بلاد المسلمين، مُسلماً كان أم نصرانياً، وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج يعود إلى بلاد الفرنج مسلماً كان أم نصرانياً، ومن لم يعد يُطرد من الجهتين(٧٩).

* ومنها الهدنة مع عكا وصيدا وعثليث سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م، وقد وقّعها السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين علي مع حكام مملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها، وأهم بنودها:

ـ لا يتعرض الفرنجة الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة بأي سوء لأراضي السّلطان وولده ولا لرعاياهما على اختلاف أجناسهم.

ـ تكون بالمقابل جميع بلاد عكا وملحقاتها آمنة من السلطان وولده ومن عساكره ورعاياه.

ـ إذا حاول أحد ملوك الفرنجة أو التتار غزو بلاد السلطان يلزم نائب عكا أن يخبر السلطان بحركته قبل وصوله إلى البلاد الإسلامية الداخلة في الهدنة بشهرين.

ـ الحجاج المسيحيون آمنون في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة.

ـ يتعهد السلطان بحماية البلاد التي عقد معها هذه المعاهدة من اعتداء جنوده، كذلك يتعّهد حاكم عكا بنفس الأمر(٨٠).

خامساً ـ معاناة أهل الذمة:

ننهي هذا البحث بصور من بعض معاناة أهل الذمة:

لم تكن حال أهل الذمة واحدة في ذلك العصر، بل كانت طريقة معاملتهم متقلبة بين اللين والشدة. وتورد مصادر ذلك العصر كثيراً من الصور التي تؤكد هذا، ومنها تلك المراسيم التي كانت تصدر بحق هؤلاء. من هذه المراسيم ذلك المرسوم الذي صدر في رجب من عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م وفرض قيوداً على أهل الذمة، ومما جاء فيه: «اقتضت المباحث الشريفة بين العلماء أن يُميّز النصارى بلبس العمائم الزرق ... واليهود يلبسون العمائم الصفر ... ولا يركبون الخيول ولا يحملون سلاحاً ... ولا يرفعون أصواتهم على أصوات المسلمين ... ولا يضربون النواقيس». وكان أثر هذا المرسوم سلبياً في حالة الأمن العام في مصر، فقد امتدت أيدي العامة إلى كنائس اليهود والمسيحيين وهدموها.

وصدر عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، مرسوم آخر يشبه في كثير من نقاطه مرسوم عام ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠م.

وفي عام ٧٢١ هـ/ ١٣٢١م هدم العامة بعض الكنائس بمصر، ولم ينكر أمراء المماليك عليهم ذلك. بل يشير الخبر إلى حدوث تنسيق وتآمر بين العامة والمماليك على ذلك[٨١].

كما ذكر المقريزي خبراً عن كثرة دخول المسيحيين في الإسلام، وأرجع ذلك إلى رغبتهم في التخلص من الفقر ومعاملة العامة السيئة لهم. يقول في أحداث عام ٧٥٥ هـ/ ١٣٥٤م: «وكثرت الأخبار من الوجه القبلي والوجه البحري عن دخول النصارى في الإسلام ومواظبتهم في المساجد وحفظ القرآن، حتى إن منهم من ثبتت عدالته وجلس مع الشهود ... فلما عظم البلاء على النصارى وقلت أرزاقهم رأوا أن يدخلوا في الإسلام، ففشى الإسلام في عامة النصارى بأرض مصر، حتى إنه أسلم في مدينة قليوب خاصة في يوم واحد أربعمئة وخمسون نفراً ... وحمل كثير من الناس فعلهم هذا كله على أنه من جملة مكرهم لكثرة ما شنع العامة في أمرهم»[٨٢].

من جهة ثانية كان أهل الذمة يقومون أحياناً بأعمال سلبية تسيء إلى أحوالهم، ومنها تعاطي الخمرة. ففي أحداث عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥ م «أمر نائب السلطنة بكبس بساتين أهل الذمة، فوجد فيها من الخمر المعتصر ومن الخوابي والحباب فأريقت عن آخرها»[٨٣].

ومن ذلك افتعال الحرائق، ففي عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م «كثر الحريق بالقاهرة ومصر ... وأُشيع أن ذلك من النصارى، ونزل بالناس من الحريق في كل مكان شدة عظيمة، ووجد في بعض المواضع التي احترقت نفط وكبريت. فأمر السلطان بجمع اليهود والنصارى، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم ... فلاذوا بعفوه وسألوه المن عليهم ... فشفع لهم على أن يغرموا بالأموال التي أحرقت،

وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار. فأفرج عنهم السلطان وتولى البطريرك توزيع المال، والتزموا ألا يعودوا إلى شيء من المنكرات »[٨٤].

ومن ذلك أيضاً ما أوقعوه عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م من حرائق في الجوامع والدور، وأُلقي القبض على الكثير منهم[٨٥].

وفي عام ٧٩٣هـ / ١٣٩١م توجه مجموعة من الرهبان الفرنسيسكان إلى المسجد الأقصى وصمموا على مقابلة القاضي، ولما دخلوا إلى حضرته قاموا بشتم النبي صلى الله عليه وسلم وسبه[٨٦]. وفي عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م أثناء مناظرة بين رهبان فرنسيسكان وعلماء مسلمين أخذ الرهبان يدينون الرسول صلى الله عليه وسلم بأشد الألفاظ فظاظة[٨٧]. وفي عام ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م، قام شخص مسيحي بسب علي رضي الله عنه والسيدة فاطمة زوجته بنت الرسول صلى الله عليه وسلم[٨٨].

ومن ذلك ما ورد في الوثيقة رقم ٦٤٦ المؤرخة في شعبان ٧٩٦هـ = حزيران ١٣٩٤م التي تتحدث عن اعتداء قام به مجموعة من الرجال المسيحيين في قرية تقوع قرب بيت لحم على رجل مسلم[٨٩].

من ناحية ثانية كان المسيحيون المقيمون في أراضي دولة المماليك يتأثرون بالأحوال السياسية والعسكرية. فمثلاً بعد الحملة الصليبية على الإسكندرية أصدر يلبغا الخاصكي مرسوماً يقضي بتغريم النصارى بربع أموالهم ليستعين بها على إصلاح ما خربه الفرنج بالإسكندرية، وإعداد أسطول كبير يتم به غزو قبرص للانتقام منها. كما قبض يلبغا على جميع النصارى وألزمهم حمل المال لافتداء أسرى المسلمين. كذلك لجأت السلطنة المملوكية إلى إغلاق كنيسة القيامة في بيت المقدس في محاولة للضغط على النصارى الأوربيين لإطلاق سراح الأسرى المسلمين، ولكي يكفوا عن المشاركة في حملات صليبية جديدة[٩٠].

كما يدخل ضمن ما نتحدث عنه دور الرهبان الفرنسيسكان الذين كانوا من الفرنج الصليبيين المقيمين في بيت المقدس، ويجمعهم مع إخوانهم في الغرب الأوربي هدف سياسي واحد. فما لبث نشاطهم أن امتد إلى فلسطين كلها، ثم ما لبث أن اتخذ صفة سياسية، أدت إلى حذر السلطات الإسلامية منهم بوصفهم من الفرنج الصليبيين المعادين لها.

ارتبط تاريخ هؤلاء الرهبان في بيت المقدس بإقامتهم فوق جبل صهيون في دير يضم المقدسات المسيحية المتعلقة بحياة السيد المسيح عليه السلام، وعلى وجه التخصيص علية صهيون وقاعة الحواريين.

يختلف بعض المؤرخين في تحديد تاريخ وجود وإقامة هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان. ففريق يرى أن البابا غريغوري التاسع (ت ٦٣٩ هـ / ١٢٤١م) عهد إليهم بخدمة كنيسة القيامة عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٦م، وأنهم تزعموا حراسة الأماكن المقدسة اللاتينية منذ سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م. بينما يرى فريق آخر أن إقامة هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس ترجع إلى عام ٦١٨هـ / ١٢١٩م، عندما سمح لهم المعظم عيسى صاحب دمشق بناءً على طلب أخيه الكامل محمد صاحب مصر بالإقامة فوق جبل صهيون. وفي عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م أصدر البابا هونوريوس الثالث مرسوماً بابوياً اعترفت بموجبه الكنيسة الكاثولكية بطائفة الرهبان الفرنسيسكان، وتمكنت هذه الطائفة عام ٦٤٥هـ / ١٢٤٥ م من الحصول على الموافقة من السلطات الأيوبية على حق توليهم رعاية الأماكن المقدسة فوق جبل صهيون. وفي عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م قاموا بتوسيع مقرهم وبناء دير صهيون الذي ضم علية صهيون وكنيستها والأماكن المسيحية المجاورة لها فوق الجبل.

في عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢م منحهم السلطان الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد حق الإقامة داخل كنيسة القيامة كممثلين لطوائف الفرنج. وفي العام

نفسه عهد إليهم البابا كليمنث السادس مهمة رعاية كنيسة القيامة والأماكن المسيحية فوق جبل صهيون. فأصبح رئيسهم يسمى (حارس كنيسة القيامة وجبل صهيون)، وازداد نفوذهم وأصبح لهم دير ثان في بيت لحم، وثالث في بيروت، ودار لاستضافة حجاج الفرنج بالرملة، ثم دير رابع بالرملة أواخر عصر المماليك، فضلاً عن دير لراهباتهم بالقدس الشريف. وتزايد نفوذهم السياسي ليطغى على نفوذهم الديني. فأصبح لهم قنصل يمثلهم عند السلطات المملوكية، وترجمان معتمد عند هذه السلطات للقيام بعملية الترجمة. وحسب ما جاء في وثائق دير صهيون فإن رئيسهم أصبح يلقب بـ (الريس بدير صهيون وعين كارم وبيت لحم وكبير طائفة الفرنج المقيمين بالقدس الشريف ودير صهيون).

وكان من أعمالهم السياسية القيام بدور تجسسي لصالح الغرب. فعلى سبيل المثال قام رئيس هذه الطائفة عام ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م بإبلاغ البابا نبأ فشل السفارة الكاثولكية للحبشة والقبض على أعضائها. وكان الفرنسيسكان هم الذين نقلوا إلى الإسبتارية في رودس أنباء استعدادات السلطان جقمق للهجوم على الجزيرة عام ٨٤١ هـ / ١٤٤٠م، مما جعل السلطان ينتقم منهم.

هكذا نجد أن هؤلاء الرهبان قد تطور بهم الأمر وخرجوا عن حدود رسالتهم الدينية وأصبحوا دعاة وخداماً للفكرة الصليبية. فكانوا يقومون بتيسير الاتصال بين البابوات وملوك الفرنج وملوك الحبشة، وذلك عن طريق الرهبان الأحباش المقيمين معهم ببيت المقدس. كما كان منهم الرسل والسفراء لدى ملوك الحبشة للاتفاق على تنفيذ المشروعات الصليبية. هكذا طغت عليهم الصبغة السياسية واضطرت السلطات المملوكية من جانبها عندما كانت تحيق بها الأخطار إلى أن تنظر إليهم من هذه الزاوية. فأصبحوا في نظرهم يمثلون من الناحية السياسية البابوية وأمم الفرنج، وأصبح لهم وضع متميز عن وضع بقية طوائف الرهبان الأخرى المقيمة معهم ببيت المقدس(٩١).

فهذه هي أدوار ونشاطات أهل الذمة في عصر المماليك، وقد تبين أنهم شاركوا في نشاطات المجتمع الاجتماعية والدينية والاقتصادية والفكرية. كما كانت أحداث الحروب الفرنجية الصليبية تلقي بظلالها على أحوالهم سلباً أو إيجاباً، ولم تمنع هذه الحروب من قيام علاقات إيجابية بين المسلمين وأهل الذمة، سواء المقيمين، أو أصحاب الإمارات الصليبية. وتعكس الاتفاقيات أو المعاهدات التجارية ذلك، وتعكسها أيضاً الهدن التي كان يُتفق عليها بين الطرفين.

الهوامش

(١) انظر ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر) **أحكام أهل الذمة**، تح: صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٦١م، ج١، **المقدمة**، ص: ٥- ٦، وانظر الكتاب بجزأيه.

(٢) عاشور (سعيد): **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، القاهرة، دار النهضة، ١٩٩٢م، ص: ١٦، ٦٣-٦٦.

(٣) انظر لابدوس (إيرا): **مدن إسلامية في عهد المماليك**، ترجمة علي ماضي، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص١٤٧.

(٤) انظر ابن الأخوة (محمد بن محمد): **معالم القربة في أحكام الحسبة**، نقل وتصحيح روبن ليوي، القاهرة، مكتبة المتنبي، ص: ٣٨- ٤٥. ابن قيم الجوزية: **أحكام أهل الذمة**.

(5) المحمد (أنس): **الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف**، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠١٠م، ص١٤٤.

(٦) رنسيمان (ستيفن): **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة: الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م، م٣، ص ٧٢٥ - ٧٢٨.

(٧) العسلي (كامل جميل): **وثائق مقدسية تاريخية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٨٥م، ج٢، ص٤٢.

(٨) صالحية (محمد عيسى): **من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية**، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، الرسالة السادسة والعشرون، ١٩٨٥م، ص٩٠.

(٩) الحنبلي (مجير الدين): **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، تح عدنان أبو تبانة، عمّان، الأردن، مكته دنديس، ط١، ١٩٩٩م، ج٢، ص٣٠٢-٣١٣.

(١٠) المحمد: **الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف**، ص١٣٦ - ١٤٢.

(١١) ابن تغري بردي (يوسف): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، ج٧، ص: ٩٩.

(١٢) المقريزي (أحمد بن علي): **الخطط المقريزية**، بيروت، دار صادر، ج٢، ص: ١٦٨.

(١٣) ابن إياس (محمد بن أحمد): **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تح: محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٢م، ج١، ق٢، ص: ١٢٤.

(١٤) المقريزي: **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، صححه ووضع حواشيه أحمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط١، ١٩٥٨م، ج٢، ق٢، ص: ١٣٥.

(١٥) العمري (أحمد بن يحيى): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح: دوريتيا كرافولسكي، قطعة منه بعنوان: **مملكة مصر والشام والحجاز**، **المركز الإسلامي للبحوث**، ط١، ١٩٨٦م، ص: ١٣٨.

(١٦) العثماني (محمد بن عبد الرحمن)، **تاريخ صفد**، تحقيق سهيل زكار، **دار التكوين**، دمشق، ط١، ٢٠٠٩،، ص ٢٨٠. شيخ الربوة (محمد أبو طالب)، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨١ ، ص ١٢٢.

(١٧) القلقشندي (أحمد بن علي): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلميـــة، ط١، ١٩٨٧م، ج٢، ص: ٤٥٤ - ٤٦٥.

ابن الحاج (أحمد بن علي): **المدخل**، دار الفكر، مج٢، ص: ٥٩، ٦٠.

(١٨) ابن الحاج: **المدخل**، مج٢، ص: ٤٦، ٤٧.

(١٩) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٧، ص٢٠٢، ٢٠٣.

(٢٠) حسن (علي): **تاريخ المماليك البحرية**، مصر، مكتبة النهـضة، ط٢، ١٩٤٨م، ص: ٢٦١، ٢٦٢.

(٢١) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٤، ص١٩٢ ـــ ١٩٤. ابن شاهين (خليل): **زبـدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تصحيح بولس راويس، القاهرة، دار العرب، ط٢، ١٩٨٨م، ص١٣١. العلبي (أكرم): **دمشق بين عصر المماليــك والعثمــانيين**، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ١٩٨٢م، ص٣٢٠:، ٣٢١.

(٢٢) وظيفة النظر مأخوذة إما من النظر الذي هو رأي العين، فهي بمعنى الرعايـــة والإدارة، وإما من النظر الذي بمعنى التفكير فيما فيه المصلحة من ذلـــك، ويختلـــف النظر باختلاف ما يضاف إليه كناظر الجيش وناظر المال ونـــاظر الجـــامع، انظـــر القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٥، ص٤٣٧.

(٢٣) انظر المقريزي: **السلوك**، ج٢، ق٢، ص: ١٣٥. العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح: دوريتيا كرافولسكي، ص: ١٣٨. اليوسفي (موسى بن محمـــد): **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تح: أحمد حطيط، بيروت، عالم الكتـــب، ط١، ١٩٨٦م، ص: ٨٦.

(٢٤) سبانو (أحمد): **نظام الحكم والإدارة في بلاد الشام فـــي العـــصر المملـــوكي**، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ٢٠١٠، ص:٣٦.

(٢٥) المحمد: **الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف**، ص:١٣٩.

(٢٦) العسلي: **وثائق مقدسية**، ج٢، ص:٤٢، ٦٦.

(٢٧) فابري (فيلكس): **رحلته**، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ج٤٢، ص:٩١٦ - ٩٢١.

(٢٨) القلقشندي : **صبح الأعشى**، ج١٠، ص: ٢١٤. أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين**، تح: إبراهيم الزيبق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص:٦٦ ــ ٧٥.

(٢٩) ابن دقماق (إبراهيم بن محمد): **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، بيروت، لجنة إحياء التراث، دار الآفاق، ق١، ص: ٤١-٤٤.

(٣٠) غوانمة (يوسف): **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٩م، ص: ١٣٨- ١٤٢.

(٣١) العثماني: **تاريخ صفد**، ص:١٢١.

(٣٢) هم جمعية فرسان المعبد (Templien)؛ وهي جمعية دينية أُنشئت أول الأمر لحماية الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس، ثم تحولت إلى منظمة حربية إرهابية دموية. انظر دهمان (محمد أحمد): **معجم المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي**، دمشق، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م، ص:٧٣.

(٣٣) العثماني: **تاريخ صفد**، ص:١٢١. زيتون (عادل): **العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دار دمشق للطباعة والنشر، القاهرة، ط١،

١٩٨٠م، ص: ١٧٦، ٢٣٨. رنسيمان: **تاريخ الحروب الصليبية**، م٢، ص: ٤٨٤ — ٤٨٧.

(٣٤) مصطفى (نادية) وآخرون: **العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، ص:٤٩.

(٣٥) مصطفى وآخرون: **العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية**، ص:٥٠، ٥١.

(٣٦) مصطفى وآخرون: **العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية**، ص:٥١.

(٣٧) انظر: المقريزي: **الخطط**، ج٢، ص:٤٦٤، ٤٧١، ٤٧٢. ابن دقماق: **الانتصار**، ق١، ص١٠٨. الوقاد (محاسن): **اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجينيزا**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص:٣٣٦ - ٢٣٩.

(٣٨) قاسم (قاسم): **اليهود في مصر**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص٤٠، ٤١.

(٣٩) انظر: الوقاد: **اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجينيزا**، ص:٨، ١٥.

(٤٠) المقريزي: **الخطط**، ج١، ص٣٦٧، ابن سعيد المغربي (علي بن موسى): **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة**، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب، تح: حسين نصار، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠م، ص:٢٨.

(٤١) ابن الأخوة: **معالم القربة**، ص٢٥٤.

(٤٢) ابن الأخوة: **معالم القربة**، ص:٢٥٤. ابن عبد الظاهر (محي الدين): **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تح: مراد كامل، القاهرة، الشركة العربية، ط١، ١٩٦١م، ص٢١٦:، القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج١١، ص:٢٤٩ــ ٢٥١.

(٤٣) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص:١٨٢.

(٤٤) المقريزي: **الخطط**، ج٢، ص:٥٠١، ٥٠٣، ٥١١ - ٥١٧. ابن دقماق: **الانتصار**، ق١، ص:١٠٧، ١٠٨. ابن الحاج: **المدخل**، ج١، ص٣٢٦ــ ٣٣٠.

(٤٥) أحمد محمد (محمد): **مظاهر الحضارة في مصر العليا**، القاهرة، دار الهداية، ١٩٨٧م، ص٣١٨، ٣١٩. قاسم: **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي** ــ عصر سلاطين المماليك ــ القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣م، ص:٩٠، ٩١.

(٤٦) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٥، ص:٤٦٠.

(٤٧) ومنها كتب الأصبهاني محمد بن محمود بن محمد (ت ٦٨٨هــ/ ١٢٨٩م)، الذي كان إماماً بارعاً بالجدل والمنطق، وعارفاً بالنحو والشعر، ولي قضاء قوص، وتوفي في القاهرة، ومن كتبه في الجدل والخلاف والمنطق: «القواعد» و«غاية المطلب»، انظر الذهبي (محمد بن أحمد): **العبر في خبر من غبر**، تح: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م، ج٥، ص: ٣٥٩، السيوطي (عبد الرحمن): حسن المحاضرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص: ٤٤٤، ٤٤٥، ابن العماد (عبد الحي أحمد): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م، مج٧، ص: ٧١٠.

(٤٨) البوصيري (محمد بن سعيد): **منظومة الإمام البوصيري في الرد على النصارى واليهود**، تح: أحمد حجازي السقا، مصر، مكتبة المدينة المنورة، ط١، ١٩٧٩م، ص:٢١.

(٤٩) حاجي خلفية (مصطفى القسطنطني): **كشف الظنــون**، بيــروت، دار الفكــر، ١٩٨٢م، ج٥، ص٤٦٢، ضيف (شوقي): **عصر الدول والإمارات**، مصر، القــاهرة، دار المعارف، ط٢، ص: ١٥٤.

(٥٠) كحالة (عمر): **معجم المؤلفين**، بيروت، مؤسسة الرســالة،ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص: ٤٣٢.

(٥١) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، ص: ٧٦٧، ٧٦٨. اليونيني (موسى بن محمــد): **ذيــل مرآة الزمان**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٢م، ج٤، ص: ٣١٢، ٣١٤.

(٥٢) ابن القف الكركي (أبو الفرج يعقوب): **العمدة في صناعة الجراحة**، تح: سامي خلف الحمارنة، عمان، الأردن، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤م، المقدمــة، ص: ٢١، ٢٢. وانظر الكتاب. ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص: ٧٦٨.

(٥٣) ابن القف الكركي: **جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض**، تح: ســامي خلف العمارنة، عمان، الأردن، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩م، ص: ٧٦ وما بعد.

(٥٤) حاجي خليفة: **كشف الظنون**، مج ٥، ص: ٣٦٠.

(٥٥) العطار (داود بن أبي نصر): **منهاج الدكان ودستور الأعيــان فــي تراكيــب الأدوية النافعة للأبدان**، تح: حسن عاصي، بيروت، دار المناهل، ط١، ١٩٩٢م، ص: ١٥ـــ٢٦١، وانظر مقدمة الكتاب.

(٥٦) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص: ٥٩٨، ٥٩٩.

(٥٧) الصفدي: **أعيان العصر**، ج١، ص: ١٣٤، ١٣٥، الصقاعي (عبــد الله): تــالي كتاب **وفيات الأعيان لابن خلكان**، تح: جاكلين سوبلة، دمشق، ١٩٧٤م، ص: ٤٦. ابن

حجر (أحمد بن علي): **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٦٦م، ج١، ص: ٧٧.

(٥٨) العمري (أحمد بن يحيى): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، مخطوط، آياصوفيا، استنبول، مكتبة السليمانية، نشرة فؤاد سزكين التصويرية، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية، ج٩، ص:٣٥٤- ٣٥٩. الصفدي: **أعيان العصر**، ج٢، ص٤٠٤، ج٥، ص:١٨١. ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٤، ص:٣٠٩، ٣١٠.

(٥٩) ابن قاضي شهبه (أبو بكر بن أحمد): **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تح: عدنان درويش، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٤م، ج٢، ص:١٧٨. المقريزي: **السلوك**، ج٣، ق١، ص:٥٦.

(٦٠) الصفدي (خليل بن أيبك): **أعيان العصر وأعوان النصر**، تح: محمد أبو زيد وآخرون، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م، ج٣، ص:٦٥. ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٢، ص٤٧٦.

(٦١) ابن حجر: **الدرر الكامنة**، ج٥، ص:٢٣٧.

(٦٢) المقريزي: **السلوك**، ج٢، ق١، ص:١٨٧، ١٨٨.

(٦٣) ابن حجر: **الدر الكامنة**، ج٥، ص:١٦٩.

(٦٤) قاسم: **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي**، ص:٣٢٠، ٣٢١.

(٦٥) المقريزي: **الخطط**، ج٢، ص:٣٩١.

(٦٦) قاسم: **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي**، ص:٩٠، ٩١، نقلاً عن شيخو (لويس): **المخطوطات العربية لكتبة النصرانية**، بيروت، ١٩٤٢م، ج٤، ص١١، ١٣، ٦٢.

(٦٧) الحجي (حياة): **بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك**، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، مجلس النشر العلمي، الحولية الثالثة والعشرون، ٢٠٠٣م، ص: ٤٤.

(٦٨) الحجي: **بعض الأبعاد الاقتصادية لدولة المماليك**، ص٤٤.

(٦٩) الحجي: **بعض الأبعاد الاقتصادية لدولة المماليك**، ص٤٥.

(٧٠) مصطفى وآخرون: **العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية**، ص:٣٨.

(٧١) مصطفى وآخرون: **العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية**، ص:٣٩.

(٧٢) مصطفى وآخرون: **العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية**، ص:٤٠، ٤١.

(٧٣) ابن عبد الظاهر : **تشريف الأيام والعصور**، ص: ١٠٣ - ١٦٩. القلقشندي: **صبح الأعشى**، م٥، ص: ٢٠٧ ـ ٢٣٠.

(٧٤) في عام (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) وصلت حملة صليبية جديدة إلى الإسكندرية، فعمل الناس على مواجهتها، ولكنهم فشلوا، فارتكب الصليبيون فيها أعمال القتل والإحراق والتخريب. إثر ذلك استنفر السلطان شعبان من القاهرة وأرسل جيشاً كبيراً بقيادة ثلاثة من أكبر قادة أمرائه لاستدراك ما حدث، فعلم بذلك قادة الجيش الصليبي، ففضلوا الانسحاب من الإسكندرية على المواجهة، عندها أمر السلطان بإصلاح ما تهدم من المدينة. انظر ابن حبيب (الحسن بن عمر): **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تح: محمد أمين، مصر، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م، ج٣، ص: ٢٨٨، ٢٨٩، المقريزي:

السلوك، ج٣، ق١، ص: ١٠٤، ١٠٥. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص: ٢٥.

(٧٥) النويري السكندراني (محمد بن قاسم): **الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية**، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ج٣، ص:٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤. سالم (عبد العزيز): **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص:٣٤٦، ٣٤٧. سرور (محمد جمال الدين): **دولة بني قلاوون** في مصر، دار الفكر العربي، ص:٢٥٢.

(٧٦) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص:٣٣٥، ٦٨٠، ٦٨١. عبد السيد (حكيم): **قيام دولة المماليك الثانية**، القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٦م، ص:١٥٠، ١٥١. طقوش (محمد سهيل): **تاريخ المماليك في مصر والشام، بيروت**، دار النفائس، ط١، ١٩٩٧م، ص٤٠٦- ٤٠٨، ٤٣٦- ٤٣٩.

(٧٧) ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم): **تاريخ ابن الفرات**، تح: قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الأمريكية، ١٩٣٩م، م٧، ص: ٢٣٠.

(٧٨) ابن عبد الظاهر: **تشريف الأيام والعصور**، ص: ٢١٠، ٢١١. ابن الفرات: **تاريخ الدول والملوك**، م٧، ص: ٢٠٥.

(٧٩) ابن الفرات: **تاريخ الدول والملوك**، م٧، ص: ٢٦٧. ابن عبد الظاهر : **تشريف الأيام والعصور**، ص: ٣٤ – ٤٣.

(٨٠) ابن عبد الظاهر: **تشريف الأيام والعصور**، ص٣٤:، ٩٣- ١٠٣. المقريزي: **السلوك**، م١، ص: ٩٨٦. ابن الفرات: **تاريخ الدول والملوك**، م٧، ص:٢٦٢ -٢٧٠. سرور: **دولة بني قلاوون** ، ص: ٢٣٣ ــ ٢٣٦.

(٨١) النويري (أحمد بن عبد الوهاب): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح: الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ج٣١، ص: ٤١٧، ٤١٨. المقريزي: **السلوك**، ج١، ق٣، ص: ٩١٢. ج٢، ق١، ص: ٢١٦ – ٢١٨، ق٣، ص: ٩٢٢، ٩٢٣.

(٨٢) المقريزي: **السلوك**، ج٢، ق٣، ص: ٩٢٧.

(٨٣) ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص: ٣٢٦. ج١، ق٢، ص: ٢٠٢.

(٨٤) المقريزي: **السلوك**، ج١، ق٢، ص: ٥٣٥.

(٨٥) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص: ٥٦، ٥٧.

(٨٦) أرمسترونج (كارولين): **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، ١٩٩٨م، ص:٥١٢.

(٨٧) أرمسترونج: **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص:٥١٣.

(٨٨) مجير الدين: **الأنس الجليل**، ج٢، ص:٣١٧.

(٨٩) العسلي: **وثائق مقدسية**، ج١، ص:٢٢٤.

(٩٠) المقريزي: **السلوك**، ج٣، ص:١٠٧، ١١٩.

(٩١) العارف (عارف): **المفصل في تاريخ القدس**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م، ص:٢٤٥. دراج (أحمد): **وثائق دير صهيون**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، ص:٢٢ – ٣٨، ١٤٠. دراج: **المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م، ص:٥١ - ٥٤.

الاحتلال الإنكليزي لمتصرفية دير الزور

(١٩١٨-١٩١٩م)

الدكتور رامي وحيد الدين الضللي

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الفرات – دير الزور

ملخص البحث:

يستعرض البحث دراسة منطقة جغرافية مهمة تمتد على الزاوية الشمالية الشرقية لبلاد الشام. المكان هو لواء الفرات والجزيرة السورية، أما الزمان فهو خلال الفترة مابين (١٩١٨و١٩١٩م)، والمدة هي أقل من عام وثلاثة أشهر.

أما الحدث فهو يتعلق بجانبين الأول: هو انسحاب العثمانيين من آخر المناطق المهمة لهم في بلاد الشام دون أي صدام أو قتال يذكر، وبالتالي تركت المنطقة دون سلطة سياسية أو قيادة تذكر، أي للفوضى. أما الجانب الثاني: فهو الاحتلال الإنكليزي للمنطقة، إذ استغل الإنكليز حالة الفراغ السياسي التي ترك فيها لواء الفرات والجزيرة بعد انسحاب العثمانيين سنة ١٩١٨م لِتُقدم إنكلترا على احتلالها لمدة عام تقريبا.

إن هذه الحقبة لم تنل حقها في الدراسة والبحث مع العلم أنها تمثل أرضاً خصبة للدراسات والأبحاث في تاريخ المنطقة.

تعد متصرفية دير الزور جزءاً مهماً من بلاد الشام، إذ كانت أراضـيها تمتـد علـى الزاوية الشمالية الشرقية منها، كما تمتد أراضيها على المنطقة الواقعـة لمـا يعـرف بوادي الفرات الأوسط والجزيرة المحصورة بـين نهـري دجلـة والفـرات، ويحـد المتصرفية شمالاً ولاية ديار بكر ولواء ماردين، ومن الشرق ولايتا الموصل وبغداد، وجنوباً ولاية سورية (الشام) من خلال بادية الشام، وغربا" ولاية حلب وبادية حمص وحماة، أما مساحة المتصرفية فهي١٠٠ألف كم٢.

تتمتع متصرفية دير الزور بموقع استراتيجي مهم يتوسط مابين بلاد الشام والعراق من جهة، وما بين العراق مع حلب والساحل من جهة أخرى، وهي تحظى بطابع اجتماعي خاص، إذ اختلط فيه طابع المدينة مع الريف والبادية، إضافة لقربها من قلب ولايـات الأناضول تلك هي أبرز الأسباب وأهمها التي دفعت بالسلطان العثماني عبـد الحميـد الثاني(١٨٧٦-١٩٠٩م) لإصدار فرمان يقضي بفصل لواء دير الزور عن ولاية حلب وجعله متصرفية مستقلة ممتازة، وذلك في عام (١٨٨١م)، وعرفت بتسميتها رسـميا" في (سالنامات) أي سجلات التقويم الإداري السنوي الرسمية للدولـة العثمانيـة بـ(متصرفية دير الزور)، وقد استمرت تحت السيطرة العثمانية منذ دخولها تحت نفوذهم عام (١٥١٦م)، حتى انسحاب قوات الحامية العثمانية بقيادة المتصرف، منها في عـام (١٩١٨م) .

أولا"_ الواقع السياسي في متصرفية دير الزور بعد انسحاب العثمـانيين حتى الاحتلال الإنكليزي(١٩١٨- ١٩١٩م):

شكل انسحاب العثمانيين من متصرفية دير الزور (منطقة الفرات الأوسط والجزيـرة السورية) في (٦/تشرين الأول/١٩١٨م) نقطة تحول تاريخية مهمة، إذ أنها تمثل نهاية حقبة تاريخية استمرت أربعمئة عام من الاحتلال، وذلك بانسحاب القوات العثمانية من

آخر معقل لها في المنطقة باتجاه ماردين، وتركت الأوضاع دون سلطة سياسية أو قيادة تدبر الأمور فيها، فأصبحت متصرفية دير الزور تعاني بين عشية وضحاها من حالة فراغ سياسي واضطراب أمني جعل أبناء المنطقة يطلقون عليها تسمية (مرحلة الفلت).

ولهذا فقد سارع الزعماء المحليون ووجهاء المدن وشيوخ العشائر في مختلف مدن وبلدات وقرى وبادية المتصرفية إلى عقد اجتماع قرروا فيه ضبط الأمور ووقعوا وثيقة تقضي بتشكيل لجنة تصريف أمور محلية، أطلق عليها تسمية حكومة محلية تضم /٢١/ واحداً وعشرين عضواً يمثلون مختلف مناطق الفرات الأوسط والجزيرة (متصرفية دير الزور)، إذ اتفق على أن يقوم أحدهم بتولي رئاسة المجلس كل يوم بالتناوب فيما بينهم وبشكل دوري، وتعدّ دار المتصرفية في دير الزور قصبة منطقة الفرات الأوسط والجزيرة مقراً لإدارة الحكومة المؤقتة يجتمعون فيه لإدارة شؤون اللواء [١].

لقد استمرت تلك الحكومة الانتقالية في إدارة المنطقة ما يزيد عن أربعين يوماً، إذ انتهت أعمالها عند وصول الشريف ناصر بن عمر بن فيصل بن الحسين إلى دير الزور بترحيب شعبي، وبعد أيام لحق به مرعي باشا الملاح في (١٧ كانون الأول ١٩١٨م) الذي كُلف من قبل الشريف كمتصرف على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية متصرفية دير الزور من قبل الحكومة العربية، والتي أَطلقت عليه تسمية لواء دير الزور وغدا يعرف منذ ذلك الحين بتسمية لواء بدل متصرفية، وكذلك أبقت مركز اللواء هو مدينة دير الزور، وكانت أول أعمال المتصرف مرعي باشا الملاح هي حل المجلس المحلي السابق ومن ثم القيام بتشكيل مجلس أهلي من وجهاء لواء الفرات والجزيرة ضم من بين أعضائه عدداً كبيراً من أعضاء الحكومة المؤقتة السابقة، وبذلك تكون قد انتقلت السلطة من الحكومة المحلية المؤقتة إلى الحكومة العربية، التي استلمت زمام الأمور فيها [٢].

لكن هذا الإجراء لم يدم سوى أيامٍ قليلةٍ وذلك بسبب زحف القوات الإنكليزية إلى لواء دير الزور واحتلاله على مرأى ومسمع قوات الحكومة العربية التي أخلت الساحة لهم وانسحبت من اللواء بمباركة من الملك فيصل(٣).

ولعل أهم ما ميّز هذه الفترة شدة الفوضى والاضطرابات الداخلية بين زعماء العشائر المحلية ووجهائها وبين بعضها وبين الزعماء المحليين والمتصرف إضافة إلى انعدام الأمن والقلق اللذين سادا أوساط المنطقة لدرجة الاضطراب والإرباك.

ثانياً_ المتغيرات الدولية والأوضاع السياسية في سورية (١٩١٨-١٩١٩م):

لابد من الحديث عن المتغيرات الدولية ومنعكساتها على الوضع السياسي العام في سورية وتأثيرها على منطقة دير الزور حتى نتعرف على الدوافع المخفية للاحتلال الإنكليزي لها خلال هذه المرحلة التي تُعدّ مهمة تاريخياً على الرغم من قصر مدتها الزمنية، غير أنها كانت غنية بالأحداث والمتغيرات السياسية نتيجة" لتضارب المصالح الاستعمارية والصراع فيما بين القوى الكبرى، ونقطة البداية كانت بنجاح الجيوش العربية التي كان قوامها ما يقارب أربعة آلاف مقاتل، إذ استطاعت هزيمة القوات العثمانية في نحو خمسين معركة جرت بينهما(٤)، وبدخول القوات العربية دمشق بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، الذي استقبل بالزغاريد والهتاف أفضل استقبال، وذلك في (٣ تشرين الأول ١٩١٨م) (٥).

اجتمع الأمير فيصل بالجنرال اللنبي فوراً في فندق فكتوريا بدمشق، ليبلغه اللنبي السياسة التي يجب على فيصل أن يطبقها، التي تقضي بوضع هذه الأرض تحت إمرة القائد العام للقوات الحليفة، أي (الجنرال اللنبي) إلى أن تتم التسوية النهائية(٦).

وتمهيداً لما كان يخطط له الحلفاء، فقد أُبلغت إدارة الأمير فيصل من قبل اللنبي بتقسيم سورية إلى ثلاثة أقسام تتطابق ومخططات الطرفين، أي الاستعمار الإنكليزي والفرنسي، وقد كانت على النحو الآتي:

- المنطقة الغربية: وتمتد من جنوب صور إلى ما وراء أنطاكية وإسكندرون بما فيها لبنان واللاذقية ولواء طرابلس، وتصبح تحت الإدارة الفرنسية(٧).

- المنطقة الشرقية: وتضم شرقي الأردن، وجبل حوران وما يوازيها من مدن داخلية شمالاً دمشق وحلب وحمص وحماة، ويتولى حكمها الأمير فيصل بن الحسين(٨)، وبما أنها منطقة عسكرية فقد عُيّن قائدٌ عسكري عربي ليديرها وهو اللواء علي رضا الركابي، وذلك بأمر من الجنرال اللنبي الذي أوكل إلى لورانس مستشار الأمير فيصل مهمة تعيين الركابي، ويعاونه ضابطا ارتباط (إنكليزي - وفرنسي) يعملان تحت إشراف كلايتون الإنكليزي (٩).

- المنطقة الجنوبية: وتضم فلسطين تحت الحكم الإنكليزي مباشرة(١٠).

حاول فيصل الاحتجاج على هذا التقسيم السياسي، إلاّ أنّ اللنبي أرغمه على قبوله لكونه أحد قادة الحلفاء، مدعياً أن هذا الإجراء مؤقتٌ ريثما يصدر القرار النهائي من مؤتمر الصلح، فقبل فيصل مرغماً(١١).

وعلى الرغم من الإرهاق الذي أصاب الجيش العربي مع نقص في التموين والإمدادات، فقد تابع الجيش العربي، ومعه قوات إنكليزية – وفرنسية زحفه نحو مناطق بلاد الشام ومدنها الباقية، فوصل حمص في (١٥ تشرين الأول ١٩١٨م)(١٢)، ثم دخل القائد نوري السعيد، عراقي الأصل مدينة حماة مع قوة مدعمة بقوات إنكليزية، وذلك في(٢٠ تشرين الأول)(١٣).

ثم تابعت القوات زحفها نحو المدن الشمالية. وفي(٢٥ تشرين الأول) وصلت إلى مدينة حلب ودخلتها من دون مقاومة كبيرة، إذ حدثت آخر المعارك في قرية حريتان[١٤]، وهُزمت فيها القوات العثمانية[١٥].

وصلت القوات العربية تساندها قوات الحلفاء (الإنكليزية والفرنسية) إلى منطقة كيليكية فأسرعت الدولة العثمانية إلى طلب الهدنة، فعقدت في جزيرة موندروس في (٣٠ تشرين الأول ١٩١٨م) [١٦] هدنة وضعت حداً للقتال بين الطرفين، شريطة أن يحتل الحلفاء كل النقاط الاستراتيجية التي يختارونها، وتسرّح كل القوات التركية باستثناء القوات الضرورية لحفظ النظام[١٧].

وبتحليل سريع لتلك الأحداث يتبيّن أنها جاءت مطابقة لما خططت له السياسة الاستعمارية الإنكليزية والفرنسية تجاه سورية، التي تم الاتفاق على تقسيمها إلى ثلاث مناطق هي:

الأولى وهي منطقة الساحل السوري، وعُهدت إدارته للفرنسيين، إذ بدأت الجيوش الفرنسية منذ العاشر من تشرين الأول (١٩١٨م) باحتلال جميع مدن الساحل الممتدة من صور جنوباً حتى مدينة مرسين شمالاً، وقام الجنرال اللنبي بتوضيح الأمر لفيصل بأنه مؤقت لحين عقد مؤتمر الصلح، وانتهت القوات الفرنسية من احتلال جميع مدن الساحل والشريط الساحلي لسورية في (٧ كانون الثاني ١٩١٩م) [١٨]، وترتب على هذا الأمر عدم قبول ممثلي الحكومة العربية في المنطقة الساحلية، واستبدلوهم بحكام فرنسيين، وذلك بأمر من الجنرال اللنبي[١٩].

أما المنطقة الثانية فهي المنطقة الداخلية التي تقع شرقي السواحل السورية، فقد كانت تحت قيادة الحكومة العربية يشاركها مجموعة من الضباط الإنكليز وعلى رأسهم الجنرال اللنبي[٢٠].

أمّا المنطقة الثالثة وهي فلسطين، فقد جُعلت تحت سيادة الاحتلال الإنكليـزي، وبناءً عليه فإن هذا التقسيم، وتلك التحركات السياسية وما ترتب عليها من تبـدل فـي الأوضاع الإدارية، واحتلال الجيوش الفرنسية (قوات الـشرق الفرنـسية) للـسواحل السورية، يشكّل خطواتٍ تمهيدية للشروع بتنفيذ اتفاقية سـايكس- بيكـو[٢١]، ووعـد بلفور، على الرغم من جميع محاولات الإنكليز لتهدئة الأوضاع داخل الشارع السوري لترويج فكرة إعلامية بأن هذه الإجراءات لا تعني تقسيم سورية، بل أن أمـر الـبلاد مرتبط بما سيتوصل إليه مؤتمر الصلح[٢٢].

وفي (١٨ تشرين الثاني ١٩١٨م) أبحر الأمير فيصل من ميناء بيروت علـى متن مركب إنكليزي، ومعه وفد يرافقه، وذلك بناء على توجيهات والده الشريف حسين التي وصلته عندما كان في حلب، فغادر على أثرها لحضور المؤتمر السوري[٢٣]، إلاّ أنّه عندما وصل إلى باريس وأراد حضور مؤتمر الصلح عـارض رئـيس الـوزراء الفرنسي (كليمنصو) دخوله المؤتمر ورفض قبوله لولا تدخل إنكلترا لتـسوية الأمـر بشرط أن يكون فيصل حاضراً في المؤتمر كممثل للحجاز فقط، وليس عن سورية، أو أي منطقة عربية أخرى[٢٤]، وقد كان السبب الرئيس لاعتـراض الفرنـسيين علـى حضور الأمير فيصل مؤتمر الصلح أنه لا يجوز إغفال ما توصلت إليه اتفاقية سايكس - بيكو، وما أعطته من مكتسبات للفرنسيين في سورية ولبنان، وقد تـذرعت فرنـسا بأنها تعدّ هذه البلاد جزءاً من بلاد العدو المحتلة، وليست بلاداً ذات سيادة[٢٥].

وبعد أن بدأ مؤتمر الصلح جلساته، عَقَدَ جلسة افتتاحية في (١٨ كـانون الأول ١٩١٩م)، حضر فيصل أعمال هذه الجلسة بصفته ممثلاً عن منطقة الحجاز، إذ كـان يرافق فيصل (لورنس)، وقد شارك معه في التحضير للمطالب التـي قـدّمها الأميـر فيصل في المؤتمر، التي بيّن فيها جملة من حقوق العرب، وعلى رأسها حـق تقريـر المصير، مذكّراً قادة الحلفاء، لاسيما الإنكليز بالإعلان الإنكليزي - الفرنسي الـصادر في (٨ تشرين الثاني ١٩١٨م) الذي كان جوابه مرتكزاً على مخاوف حول ما سـمعه

عن اتفاقية سايكس – بيكو. وكذلك ذكّر بالوعود والالتزامات التي تعهدت بها إنكلترا على لسان (مكماهون)[٢٦]. كما أشار فيصل إلى استعداده أن يتقبل العراق المساعدة من إنكلترا، وجبل لبنان المساعدة من فرنسا[٢٧]، كما تعهد باستثناء عدن عن المطالبة باستقلالها لأنها قاعدة إنكليزية، وأقرّ بأن تكون فلسطين ذات نظام خاص، ورضوخ فيصل هذا يعود إلى إعطائه كتاباً موقعاً من قبله إلى وايزمن (رئيس الجمعية الصهيونية) يتضمن تسهيل تعاون العرب مع اليهود، وقد عدّ هذا الكتاب تعهداً رسمياً لإجراء وعد بلفور والبدء بتنفيذه[٢٨]. أمّا بقية المناطق العربية فكان مطلب فيصل هو استقلالها.

ونتيجة لما سبق، وبعد مطالبة من الولايات المتحدة الأمريكية، وافق ممثلو كل من إنكلترا وفرنسا وإيطاليا في الجلسة المنعقدة في يوم (٣٠ كانون الثاني ١٩١٩م) على فصل البلاد التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، على إجراء استفتاء لسكانها في حق تقرير مصيرها، وفي اختيار وصي ينتدب عليها إلى أن تصبح تلك البلاد قادرة على تدبير وإدارة شؤونها بنفسها. فشكل هذا القرار البنية الأساسية التي استندت إليها المادة /٢٢/ وهي (استحداث نظام الانتداب في عصبة الأمم المتحدة) [٢٩].

وفي (٢٥ آذار ١٩١٩م) اتخذ مؤتمر الصلح قراراً ببعث لجنة دولية إلى الشرق الأوسط بغية التحقيق لإجراء تصويت عام للسكان، وذلك بناء على مقترح الرئيس الأمريكي ولسن، وقد اقتصرت هذه اللجنة على عضوين أمريكيين هما (كينغ وكراين)[٣٠].

وخلال الفترة نفسها التي كانت تجري فيها جلسات مؤتمر الصلح، كانت تعقد محادثات بين فرنسا وإنكلترا، عرفت باسم (كليمنصو) و(لويد جورج) [٣١]، وبموجبها صدر اتفاق رسمي بين الدولتين عرف بـ (اتفاق لندن) وفيه تركت فرنسا منطقة الموصل التي كانت تابعة لها وفق ما ورد في اتفاقية سايكس– بيكو للنفوذ الإنكليزي

مقابل أن تسحب إنكلترا جيوشها من المنطقة الشرقية لسورية، لتحل محلها الجيوش الفرنسية، وفق انسحاب تدريجي للقوات الإنكليزية، ودخول تدريجي يعقبها فوراً للقوات الفرنسية، وقد وُقِّع اتفاق لندن (كليمنصو) و (لويد جورج) في (كانون الأول ١٩١٩م) [٣٢]، ووصل الخبر حول الاتفاق الذي جرى (اتفاق لندن) إلى الأمير فيصل قبل رجوعه إلى سورية، فقام بإلقاء خطابه المشهور أمام حشد كبير من الناس في بيروت أوضح فيه حق العرب بنيل استقلالهم، وكان لهذا الخطاب وقع مؤثر في الشارع السوري بعامة[٣٣]، ومن ثمّ أعلن الأمير فيصل في (١٧ أيار ١٩١٩م) قرار إرسال لجنة أمريكية إلى المنطقة بصفتها لجنة دولية تقوم بإجراء استفتاء لأهالي البلاد في الحكم الذي يرغبون به بناء على مقررات مؤتمر الصلح. كما أعلن أن هذه الانتخابات سوف تجري في ثلاث ولايات في حلب ودمشق وبيروت وسنجق فلسطين لانتخاب نواب إلى المؤتمر السوري الذي سيقرر مصير البلاد بلقاء هذه اللجنة (لجنة كينغ - كراين). كما دعا فيصل الشباب العربي في سورية إلى التطوع في الجيش العربي[٣٤].

وبالفعل عقد المؤتمر السوري واجتمع أعضاؤه في (حزيران ١٩١٩م) واتخذ مجموعة من القرارات، أبرزها:

- استقلال سورية التام ضمن إطار وحدة عربية مستقلة من دون وصاية دولية، أو من أي دولة أوروبية.
- وضع الثقة بمقررات مؤتمر الصلح ومبادئ الرئيس الأمريكي ولسن.
- احتجاج أعضاء المؤتمر على المادة /٢٢/ من ميثاق عصبة الأمم المتحدة، التي جعلت سورية ضمن قائمة الأمم المحتاجة إلى وصاية انتداب.
- طلب موافقة مؤتمر الصلح على إرسال ممثلين عنه إلى المؤتمر للدفاع عن حقوقهم[٣٥].

لقد كانت هذه بعضاً من مقررات المؤتمر السوري التي مثلت رغبة الشعب السوري في مختلف المدن والمناطق والقرى، بما فيها أمنيات أبناء منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية الذين شاركوا في هذا المؤتمر بممثلين عنهم هما أمين العليوي والملا عيسى العزاوي وقد أحضروا كتاباً موقعاً من عدد كبير من أبناء منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية، وتم تسليمه إلى المؤتمر، وقد نقله السيد أمين العليوي (من الحسكة)، وقام بتسليمه إلى المؤتمر الملا عيسى العزاوي (من دير الزور)، ورافقهم عدد من أبناء المنطقة ممثلين عنها[٣٦]، فكانت آراء أبناء الفرات والجزيرة ومطالبهم مشابهة لرغبات الشعب السوري ولمقررات مؤتمره.

قدمت لجنة (كينغ – كراين) تقريرها بعد أن انتهت من أعمالها، وعادت إلى بلادها التي جعلت هذا الملف طي الكتمان كونه لا يتلاءم وما اتفقت عليه السياسة الخارجية الأمريكية مع كل من فرنسا وإنكلترا، وعلى الرغم من أن التقرير قُدِّم في (خريف١٩١٩م)، إلاّ أنّه لم يظهر ولم يكشف إلا بعد ثلاثة أعوام، وذلك حين كانت كل من فرنسا وإنكلترا قد نقلت بعض فرقها العسكرية وقواتها في المناطق التي اقتسمت النفوذ عليها وفقاً لاتفاقياتهما السرية والعلنية السابقة[٣٧].

كان الشارع العربي في سورية يمنّي النفس بتحقيق المطالب التي حملتها اللجنة، لكنه اصطدم ببدء زحف القوات الإنكليزية من السواحل السورية تجاه المناطق الداخلية، وباشرت القوات الفرنسية بإرسال قوات إضافية بقيادة الجنرال غورو[٣٨] لاحتلال سورية[٣٩].

سارع فيصل إلى التوصل إلى تفاهم مع فرنسا عن طريق تدخل إنكليزي، إذ توسط (لويد جورج) في المفاوضات التي جرت ما بين (فيصل - كليمنصو)، وتوصلت المباحثات إلى اتفاقية تظهر ضعف الجانب العربي وتم التوقيع عليها في (٦ كانون الثاني ١٩٢٠م) وأهم بنودها كانت:

- اعتراف فيصل بحاجة سورية إلى التنظيم والإصلاح.

- حق الحكومة الفرنسية في الأولوية التامة بالتعهدات والقروض وقيامها بمهمة تنظيم الجيش والشرطة.

- حصر تعيين المستشارين والموظفين الفنيين لتنظيم الإدارتين المدنية والعسكرية بالحكومة الفرنسية.

- تمثيل فرنسا للمصالح السورية الخارجية بمندوبيها السياسيين وقناصلها.

- جعل اللغة الفرنسية إجبارية في التدريس(٤٠).

عارض الأحرار الوطنيون فيصلاً الذي عاد إلى سورية يحمل معه مشروع الاتفاق (فيصل – كليمنصو)، وعُقِدَ العَزْمُ على إعلان استقلال سورية الطبيعية، وتنصيب فيصل ملكاً، وعدم الاعتراف بالحكومات ذات القوة العسكرية التي تسيطر على مناطق متعددة من الوطن(٤١)،ودعوا إلى الكفاح المسلح ضد الفرنسيين في المناطق التي كانوا قد احتلوها(٤٢)، لذلك سارع الحلفاء إلى عدم الاعتراف بهذا الإعلان الداعي لاستقلال سورية عادّين أن فيصلاً أمير من الحجاز، ولا يعدّ سوى قائد للجيوش الشمالية فقط(٤٣). وسارع الحلفاء إلى عقد مجلسهم لدراسة الأحداث في المنطقة العربية، فعقدوا المؤتمر في (سان ريمو) الإيطالية في الفترة ما بين ١٨-٢٥ نيسان ١٩٢٠، وأهم ما قرروا فيه تقسيم المنطقة إلى ثلاثة أقاليم:

آ- العراق، تُوضع تحت الانتداب الإنكليزي، إضافة إلى الموصل السورية.

ب- سورية، وتضم ولايتي الشام وحلب، وقسماً من ولاية أضنة ومتصرفية بيروت ودير الزور تحت الانتداب الفرنسي .

ج- فلسطين تحت الانتداب الإنكليزي مع البدء بتأسيس وطن قومي لليهود فيها.

فكانت مقررات المؤتمر مؤثرة في البلاد العربية، فسارع فيصل إلى اتخاذ بعض الإجراءات، وعلى رأسها حل وزارة الركابي المعتدلة. وفي (٧ أيار ١٩٢٠م)، كلف هاشم الأتاسي بتشكيل وزارة وطنية، وقد أضافت الحكومة الجديدة قانوناً لعقد قرض وطني لجمع الأموال اللازمة لتجهيز الجيش، كما وسعت قانون التجنيد، فصار يخضع له كل أبناء الأمة[٤٤]. وفي هذه المرحلة كانت المنطقة الوسطى والجنوبية بيد قوات الحكومة الفيصلية، بينما وقَعَت المنطقة الشمالية الشرقية السورية بيد الاحتلال الإنكليزي، في حين كانت المنطقة الساحلية والشمالية الغربية تعاني من الاحتلال الفرنسي وقد بدأت الثورات تشتعل في المنطقتين ضد الاحتلال الجديد الذي تعرضت له كلٌ منهما[٤٥]، وهي لم تكد تتخلص من الاحتلال العثماني حتى وقعت تحت أسلوب جديد من الاحتلال والاستغلال، ألا وهو الاستعمار الأوربي، لذلك كان على المحتل أن يخلق الحجج لتوسيع سيطرته في المنطقة .

من العبث القول إن الخطط الاستعمارية تلك كانت وليد الساعة، فالإجراءات السياسية التي عمل الحلفاء على تنفيذها سابقة للحرب العالمية الأولى، وإذا كان انتصار الحلفاء في الحرب الأولى تأكيداً على تنفيذ مخططاتهم، فإن الشريف حسين وحسب ما ذكرته بعض المصادر لم يكن على علم بما اتفق عليه الحلفاء، ولكن هذا لا يعفي فيصل من الانزلاق السياسي الذي وقع به في لندن وباريس.

يصعب على الباحث تطبيق مفهوم العصر على تلك المرحلة التي كان العرب يعيشونها وسط تخبطات صنعتها الدولة العثمانية من دون علم مسبق منها. وإن كنا قد تعاطفنا مع الأتراك في الفترة الحميدية وذلك لكون السلطان عبد الحميد وقف خلال فترة حكمه (١٨٧٦-١٩٠٩م) بصدق مع العرب، ورفض إعطاء اليهود شرعية اغتصاب فلسطين.

أما سكان لواء الفرات والجزيرة فقد كانوا يحذرون من تخبط وعشوائية الإدارة العثمانية، غير أن الشعور القومي في أي منطقة كان واحداً، وبالتالي فان الغالبية من العرب قد طالب بالاستقلال سواء عن الدولة العثمانية أو الغرب الأوروبي[٤٦]

لم تكن حكومة فيصل ذات نفوذ لفرض سيطرتها على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، وفي الوقت نفسه لم تكن فرنسا بقادرة على دخول منطقة تحولت إلى كتلة لهب مشتعلة ضد فرنسا، ولهذا لم تجرؤ على مدى أشهر من دخولها، وحينما دخلت حدثت صدامات مسلحة، كادت أن تعصف بالجميع لولا تدخل العقلاء فيها[٤٧].

ثانياً _ الاحتلال الإنكليزي لمنطقة الفرات والجزيرة (كانون الثاني – تشرين الثاني١٩١٩م) :

١ – احتلال الإنكليز لدير الزور (كانون الأول١٩١٩م):

دخلت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة تحت الاحتلال الإنكليزي بوساطة قوة عسكرية وجهت إليها عن طريق القوات الإنكليزية المرابطة في العراق، إذ أعدت حملة عسكرية عُيّن عليها قائداً (الميجر كاروير)[٤٨]، إذ قام الإنكليز بتوجيه حملة عسكرية نحو منطقة الفرات الأوسط والجزيرة مكونة من ثماني شاحنات كبيرة مليئة بالجنود والعتاد وأربع مصفحات تحمل جنوداً وأسلحة متنوعة تجر معها عدداً من المدافع، فاحتلت المنطقة بما فيها دير الزور التي تقابل فيها الميجر الإنكليزي كاروير مع متصرف دير الزور مرعي باشا الملاح وطلب منه تسليمه مقاليد الأمور في المدينة وتركها، وأكد له أن الحكومة الفيصلية بدمشق تقر بدخول بريطانيا إلى دير الزور ولا تعارضه، فرفض المتصرف مرعي باشا دخول القوات الإنكليزية إلى دير الزور وكان يشد من أزره وجهاء المدينة وأهلها، فاضطر كاروير لاصطحاب المتصرف معه إلى حلب للتأكد من صحة ذلك لدى حاكم حلب العسكري آنذاك شكري باشا الأيوبي[٤٩]. وفعلاً ذهبا إلى حلب، فإذا بالأمور تتضح للملاح وتبيّن له أن كل ما

يجري إنما هو متفق عليه، وإذا بدير الزور وقسم كبير من الفرات الأوسط والجزيرة السفلى تقع لقمة سائغة للبريطانيين. فعاد كاروير من حلب يحمل معه رسالة فيها تصريح واضح من حاكم حلب تشير إلى أن حكومة الملك فيصل بدمشق راضية بتسليم دير الزور للبريطانيين.

لقد استطاعت الحملة أن تحتل المنطقة وتدخل إلى دير الزور قصبة المتصرفية ليستمر وجودها أقل من سنة، إذ صارت تتبع للقوة الإنكليزية الحاكمة في بغداد وفرضوا عليها حاكماً جائراً هو (كاروير)، وذلك لمعرفتهم بطبيعته الدكتاتورية. إذ فرض الضرائب الباهظة على الناس، وابتكر قانوناً لحماية الحيوانات التي جعل لها كرامة فوق كرامة الإنسان، وفرض الضرائب الباهظة على الحيوانات والزرع وعلى مرور الطرقات، فعاش الناس في خُنقةٍ تعمها الفوضى، مما زاد من حقد أبناء المنطقة على الإنكليز فضلاً عن تجاهلهم لحالات السلب والنهب الذي مورس من قبل الأهالي فيما بينهم مما خلق نوعاً من الفوضى المقصودة .

لقد عانت المنطقة خلال الاحتلال الإنكليزي لها الويلات مما دفع أبناءها إلى توحيد صفوفهم للدفاع عن أنفسهم وعن أهلهم وبحكم الحس القومي والوطني التحرري لديهم، والذي دفعهم إلى رد المعتدي والدفاع عن أرضهم، فقاد النضال الوطني ضد قوات الاحتلال الإنكليزي أحد أبناء هذه المنطقة المخلصين لوطنهم، وهو (العقيد رمضان الشلاش)[٥٠] الذي راسله زعماء وشيوخ الفرات الأوسط والجزيرة يطلبون منه التدخل .

٢- المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإنكليزي وثورة رمضان شلاش ١٩تشرين الثاني١٩١٩م

تعدّ ثورة رمضان الشلاش أول ثورة منظمة في منطقة دير الزور نظراً لأن الاحتلال الإنكليزي لدير الزور كان قاسياً، ولم يكن لرجال دير الزور من يسعفهم غير ابنهم البار العقيد رمضان الشلاش، الذي كان حاكماً لمنطقتي الخابور والرقة.

لقد أرسل وجهاء المدينة وزعماؤها رسالة سرية له يطلبون فيها أن يتدخل في شؤون دير الزور ليخلصهم من الاحتلال الإنكليزي، وكان من بين هؤلاء الذين وقعوا هذه العريضة السادة: عياش الحاج، حسين الجاسم، الشيخ محمد سعيد العرفي، الشاعر محمد الفراتى، السيد تحسين الجوهري، والسيد جلال السيد، والسيد سعيد السيد، والسيد ثابت عزاوي وغيرهم، وطلبوا منه أن يلحق دير الزور بالحكومة العربية الهاشمية بدمشق(٥١).

وفي (١٩ تشرين الثاني ١٩١٩م) تسلمت السلطات العسكرية العليا في بغداد برقية من المندوب السامي في القاهرة، تفيد أن رمضان الشلاش ترك حلب مزوداً بالتعليمات للسير إلى دير الزور، وقد وصل الرقة وشرع يتصل بالقبائل، وفي (١٠ كانون الأول ١٩١٩م) سمع الكابتن (كاميرا) معاون الحاكم السياسي الإنكليزي بدير الزور، أن قوة عربية تزحف من الرقة لتهاجم دير الزور، فاصطحب معه ضابط السيارات المصفحة، وذهبا للاستطلاع في طريق الرقة، وفي أثناء عودتهم علم بهم رجال العشائر من أبناء البوسرايا فأطلقوا عليهما النار، وقد استطاعا النجاة بأعجوبة، فلما وصل الكابتن أبرق إلى بغداد يخبر أسياده بوجود قلاقل خطيرة بدير الزور، وأمر باعتقال فاضل العبود رئيس البلدية، مع اتخاذ التدابير للمحافظة على الأمن والنظام، ثم اعتصم بالثكنة الكبرى(٥٢).

وفي فجر يوم (١١ كانون الأول ١٩١٩م) دخلت إلى مدينة دير الزور قوات رمضان الشلاش ورجال قبيلة البوسرايا يعاونهم ويشد أزرهم رجال عشائر العفادلة والولدة والسبخة والعنزة تلك العشائر المجاورة للبوسرايا، وقد آزرهم سكان المدينة في الوصول إلى دائرة الحاكم السياسي الإنكليزي، فاستولوا على المال الموجود فيها، ونسفوا خزان البترول، ونهبوا دائرة الحاكم السياسي الإنكليزي، وفتحوا السجن، وأخرجوا جميع المساجين.

وفي اليوم الثاني للثورة هاجمت قوات رمضان الشلاش الثكنة التي يعتصم بها الكابتن كاميرا وأعوانه، واستطاعوا إسكات الرشاشات والمدافع التي نصبت فوق أسطحتها، ودعي الكابتن كاميرا للنزول من المدينة إلى دار الحاج فاضل العبود رئيس البلدية لإجراء مفاوضات مع رجال رمضان شلاش، وكان في المجلس عدد من وجهاء المدينة الذين طلبوا من كاميرا عقد هدنة مع رمضان شلاش حالاً، وقد كان رجال الثورة من عشيرة البوسرايا ومن أبناء مدينة دير الزور وريفها في حالة هياج كبير، إذ أظهروا له العداء السافر، والوطنية الوثابة، وتوعدوه بقتل جميع الضباط الإنكليز وموظفيهم[٥٣].

وفي أثناء تلك المفاوضات أرسل الإنكليز طائرتين من مطار الحبانية، قصفتا دير الزور مركز المدينة بنيران قنابلهما المدمرة، فوجَّه رجال الثورة إنذاراً إلى القائد الإنكليزي (كاميرا) لوقف القصف الجوي على المدينة، وعلى إثر ذلك اتفق الطرفان على عقد هدنة بينهما ولمدة ٢٤ ساعة فقط .

وبعد ظهر (١٣ كانون الأول ١٩١٩م) دخل دير الزور القائد رمضان الشلاش وتوجَّه إلى دار الحكومة، واستدعي القائد الإنكليزي (كاميرا) لمقابلته، وفي الحال حضر كاميرا مستسلماً له، إذ أمر القائد رمضان أن يؤخذ (كاميرا) وجميع موظفيه كرهائن مقابل سلامة البلد من القصف البري والجوي[٥٤].

قام الإنكليز بإلقاء منشورات فوق مدينة دير الزور تتضمن نص البرقية، وتنذر العقيد الشلاش بإرسال جميع الضباط الإنكليز ومن معهم إلى البوكمال وتوعدوه إن لم يفعل بأقسى العقوبات. كان الشلاش يعامل أسراه من الإنكليز معاملة إنسانية حسنة[٥٥]، وقد اعترفت (السيدة بل) - محركة السياسة الإنكليزية في العراق في بداية عهد الانتداب_ أن الشلاش عامل الأسرى معاملة حسنة.

وقد طار صواب الإنكليز لعمليات الشلاش الجريئة، أذ وقف وزير المستعمرات الإنكليزي ونستون تشرشل بعد دخول رمضان الشلاش لدير الزور وطرد الإنكليز منها فقال: إن لإنكلترا عدوين في الشرق: (أحدهما لينين في الشمال والآخر رمضان الشلاش في الجنوب)[٥٦].

راح بعدها العقيد رمضان الشلاش يجبي الضرائب داخل حدود الاحتلال الإنكليزي، ثم أرسل إنذارات خطية إلى الحكام السياسيين الذين يحيطون بمنطقة نفوذه، كما أرسل الرسائل الحماسية التي تثير حمية شيوخ العشائر الذين يخضعون للحكم الإنكليزي، يستنهض هممهم، ويطلب منهم مناصرته لطرد الإنكليز من هذه البلاد ونبذ أعوانهم.

أعلن الشلاش أنه يشق عصا طاعة الحكومة العربية الهاشمية بدمشق، ويتحدى الأمير فيصل، وأصرّ على انسحاب الإنكليز إلى بعد خمسين ميلاً جنوبي عانة، وكان ينوي توسيع سيطرته إلى الموصل. وراح الإنكليز يرسلون الإنذارت والاحتجاجات بواسطة منشورات تلقى من الطائرات كتهديد للثوار. لكن العقيد الشلاش تقدم بقواته فاحتل الميادين والبوكمال، وراح يتقدم ليحتل عانة لولا أن أرسل الأمير فيصل السيد الوزير مولود مخلص خصم رمضان متصرفاً لدير الزور، الذي سيطر على المدينة بواسطة وجهائها وزعمائها، فلما عاد رمضان بقواته إلى دير الزور لم يتمكن من دخول المدينة[٥٧].

بعد الهزيمة التي لحقت بالقوات الإنكليزية على يد رمضان الشلاش الذي أخرجهم من المنطقة تولى زمام الأمور فيها مدة شهرين تقريباً واحتفظ بالعديد من الأسرى الإنكليز كورقة تفاوضية مع الحكومة الإنكليزية. وقد بقيت دير الزور مركزاً للمتصرفية التي أصبحت لواءً ضمن البلاد العربية التي استقلت من الحكم العثماني وقصبة متصرفية دير الزور المدينة الأهم في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية. وقد تصرف شلاش خلال هذه المدة كحاكم مستقل. فقد التف حوله وجهاء المراكز الحضرية وزعماء العشائر وشيوخ القبائل في المنطقة، وخلالها استطاع أن يحمي المنطقة من عودة القوات الإنكليزية إليها، إذ استخدمهم كورقة تهديد في حال أقدمت إنكلترا على أي عمل عسكري ضد أراضي دير الزور أو يهدد أمنها وسلامتها فإنه سوف يقوم بإعدامهم جميعاً، فلم يجد الإنكليز خلاصاً سوى الموافقة على طلبات المجاهد رمضان الشلاش والانسحاب [٥٨].

استمر رمضان الشلاش يحكم المنطقة حتى قامت الحكومة العربية بإرسال (مولود مخلص العراقي) ممثلاً لها وحاكم للمنطقة ومتصرفاً، وقد استغل مولود العراقي وجود الشلاش خارج مركز دير الزور مع معظم قواته لإرجاع الإنكليز إلى حدود عانة، فقام العراقي بدخول مركز المتصرفية وسيطر عليها لصالح الحكومة العربية، غير أن وجوده لم يدم طويلاً. إذ تم استبداله وعُيّن مظهر بك بدلاً منه من قبل الحكومة[٥٩]. ولعل أبرز ما أُنجز في فترة حكم مظهر بك هو ترسيم الحدود للواء دير الزور من الجهة الشرقية مع الاحتلال الإنكليزي في العراق، وجاء ذلك نتيجة للمواقف البطولية والجبارة لأبناء الفرات والجزيرة السورية [٦٠].

لقد استمرت فترة الحكم الفيصلي لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة حتى (٩ تشرين الأول ١٩٢٠م) أي قبل دخول الاحتلال الفرنسي إلى المنطقة، وبالتالي فإن تلك الفترة لم تقدم أي جديد في الجانب الإداري، فكل ما في الأمر أن تميزت التنظيمات الإدارية فيها بسيطرة رئيس البلدية على أمورها وهو الحاج فاضل

العبود[٦١]، الذي كرّس قوة الزعامات العشائرية، مدركاً أنهم يمثلون القوة الفعالة في ومواجهة المعتدين على المنطقة. كذلك فإن التأثيرات الإيجابية التي أسفرت عنها ثورة رمضان شلاش تجسدت في المنطقة وأهلها في حسب التضحية والفداء. وعلى الرغم من الطبيعة القاسية للمنطقة، إلا أن الأهالي ولا سيما قادتها يتمتعون بإنسانية، غدت مضرب مثل يحتذى[٦٢].

٣_ رمضان الشلاش:

بعد تلك المواقف والبطولات التي قدمها أبناء دير الزور ريف ومدينة بقيادة المجاهد رمضان الشلاش فلابد لنا من الوقوف عند تلك الشخصية والتعرف عليها.

هو رمضان بن شلاش بن عبد السليمان، من عشيرة البوسريا (عرب تقطن دير الزور وريفها وهي من العشائر الكبيرة في المنطقة)، ولد في قرية الشميطية عام (١٨٨٢م/١٣٠٠هـ)، أُخذ إلى المدرسة الحربية في الأستانة مع أبناء العشائر، وتخرج منها ضابطاً، عيّن قائداً لسلاح الفرسان في الحدود السورية - الحجازية، شارك في الدفاع عن طرابلس الغرب، التحق بالثورة العربية ومنح لقب باشا، دخل دمشق مع الجيوش العربية، عيّن حاكماً عسكرياً لمنطقة الرقة والخابور، ومنها تقدم إلى دير الزور، وحرَّر وادي الفرات الأوسط من الإنكليز، كما قاد العديد من مجموعات الثوار ضد الفرنسيين في دير الزور، ودمشق وريفها. قبضت عليه قوات الاحتلال فأجبروه على الإقامة في دمشق، ثم نُقل إلى بيروت في عام (١٩٣٧ م)، ثم انتقل إلى حلب في عام (١٩٤١ م)، عاد ليثور في منطقة البصيرة، ثم اعتقل ونفي إلى بيروت تحت الإقامة الجبرية إلى أن تم الاستقلال في عام (١٩٤٦م). من أبرز صفاته الشخصية أنه شديد الصراحة، حاد الطباع، عصبي، شديد الدفاع عن القومية العربية حتى أنه قد غلب على حديثه القسم (بشرف العرب). عاد إلى دير

الزور وعاش فيها فترة طويلة حظي خلالها بمكانة اجتماعية مرموقة، توفي في دمشق في (٢١ آب ١٩٦١ م).

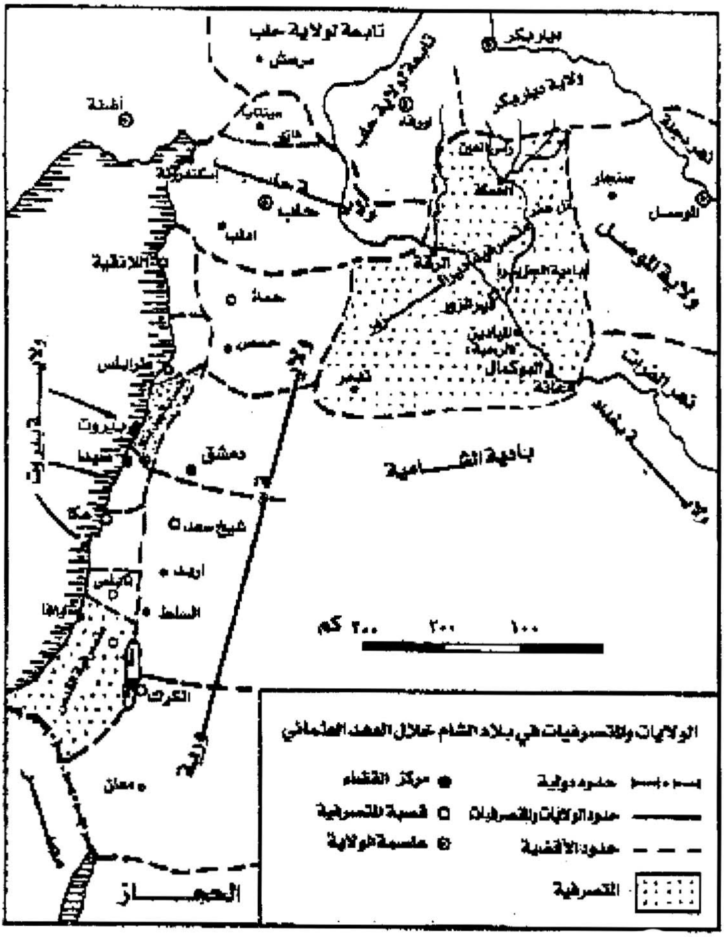
_ الخلاصة:

في نهاية هذا البحث لا بد لنا من خلاصة لأهم النتائج والتوصيات التي توصل لها البحث، إذ سلط الضوء على حدث تاريخي هام قل التطرق له، وهو الاحتلال الإنكليزي لجزء هام من سورية ألا وهو متصرفية دير الزور. إذ يعد هذا الأمر جزءاً من السياسة الاستعمارية التي كانت تنتهجها إنكلترا لفرض هيمنتها العالمية، وكشفت عن نواياها لإضعاف الوطن العربي وتقسيمه. وما ذلك الاحتلال لدير الزور إلا جزء من سياستها وخطوة تنفيذية لاتفاق سايكس- بيكو، وما الثورة التي قام بها أبناء دير الزور إلا حراك شعبي بقيادة زعامة محلية حركها الشعور الوطني بقيادة أحد أبنائها وهو المجاهد رمضان الشلاش. وهو دليل واضح لنمو الوعي القومي العربي لدى أبناء المنطقة، إذ ظهر جليا" خبث المقاصد الإنكليزية والفرنسية الاستعمارية، من خلال البدء بعزل الموصل وتقسيم بلاد الشام لدويلات صغيرة فخشي أبناء دير الزور من هذا التقسيم وكان ذلك من أهم الدوافع لتلك الثورة.

كذلك كانت رغبة أبناء دير الزور بالدفاع عن أرضهم وصون كرامتهم حافزاً هاماً دفعهم للقتال حتى هزموا القوات الإنكليزية. وما تراجع القوة الإنكليزية وانسحابها من دير الزور إلى قواعدها في العراق إلا دليل على رغبة الشعب في منع تلك الخطوة الاستعمارية التي حاولت من خلالها إنكلترا سلخ دير الزور عن بلاد الشام وضمها لمنطقة سيطرتها في العراق، وبالتالي أبرزت الأهمية الإستراتيجية لمنطقة دير الزور ودفعت إنكلترا لمحاولة ضمها إلى مستعمراتها في العراق. وقد أفشل أبناء المنطقة ذلك بنجاح ثورتهم وإرجاع المحتل الإنكليزي إلى الأراضي العراقية، وكان نجاح تلك الثورة عاملاً مفاجئاً في موازين حسابات الحكومة العربية

التي سارعت إلى إعلان عدم مسؤوليتها عن تصرفات رمضان الشلاش وثـوار ديـر الزور، بل ووجهت إنذاراً إلى الشلاش لوقف عملياته العسكرية، وهذا يدل على مـدى استسلام الأمير فيصل للإنكليز وإذعان الحكومة الفيصلية لهم، في حين كانت الثـورة تعبيراً ناجحاً لإرادة الشعوب .

صحيح أن هذه الفترة من تاريخ الفرات والجزيرة كانت مضطربة لكنها خلفت أحداثاً، مثّلها مجاهدون، أدوا دوراً مهماً وبارزاً في تاريخ الفرات والجزيـرة عامـة، وديـر الزور خاصة. حيث تعرضت خلال هذه الفترة الاستعمارية للنهب المحلي، غيـر أن الأحرار من أبناء المنطقة تمكنوا من ضبط الأمور علماً بأن رمضان شلاش وبحسب ما أفادت الوثائق الانجليزية أنه يرغب بالانفصال عن الحكومة العربيـة تطلعـاً إلـى الاستقلال بها ولكن لظروف الداخلية والخارجية لـم تـساعده علـى إعـلان نوايـاه الاستقلال وماتت بموته، لكن بريطانيا زودت تركيا بجزء من هذه الوثائق



خريطة متصرفية دير الزور

الهوامش

(١) شوحان؛ أحمد: **تاريخ دير الزور**، دمشق، مطبعة الفوال، ط١، ١٩٨٩م،ص ٧٧.وسميت بالمتصرفية نسبة إلى المكلف بإدارتها

(٢) عياش، عبد القادر: **حضارة وادي الفرات**، إعداد: وليد مشوح، دمشق، مطبعة الأهالي، ط٢، ١٩٩٩م، ص٢٤.

(٣) تضاربت الآراء والأقوال حول مباركة الملك فيصل الذي نفي ذلك في المقابلة التي أجريت معه في لندن أواخر سنة ١٩١٦م، وأقواله موجودة حتى الآن في متحف لندن تحت عنوان فيصل واليهود.

(٤) أشرفي؛ منير، **تاريخ سورية السياسي**، حلب، مطبعة العصر الحديث، ط١، ١٩٣٧م، ص ٢٥.

(٥) المالكي؛ منير: **من ميسلون إلى الجلاء (سيرة سياسية)**، دمشق، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩١، ص ٥٣.

(٦) لوتسكي؛ فلاديمير: **الحرب الوطنية التحررية في سورية (١٩٢٥-١٩٢٧م)**، ترجمة: محمد ذياب، بيروت، دار الفارابي، ط١، ١٩٨٧م، ص ٨٠.

(٧) الحكيم: **سورية والانتداب الفرنسي**، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٨٣، ص ٨.

(٨) العظمة؛ عبد العزيز: **مرآة الشام (تاريخ دمشق وأهلها)**، تحقيق نجدة فتحي صفوة، لندن، دار رياض الريس للكتب والنشر، ط٢، ١٩٩٥م. ص ٤٤١.

(٩) قاسمية؛ خيرية: **الحكومة العربية في دمشق**، مصر، دار المعارف، ط١،١٩٧١م، ص٢٤.

(١٠) لوتسكي: المرجع السابق، ص ٨٠.

(١١) سلطان؛ علي: **تاريخ سورية (١٩١٨-١٩٢٠م) حكم فيصل بن الحسين**، دمشق، دار طلاس، ط٢، ١٩٩٦م، ص ٢٧-٢٨.

(١٢) الريس؛ منير: **الكتاب الذهبي**، بيروت، ط١، (د.ت)، ١٩٦٩م، ص ٩٦-٩٧.

(١٣) لونغريغ؛ همسلي: **سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي**، ترجمة: بيار عقل، بيروت، دار الحقيقة، ط١، ١٩٧٨، ص ٨٦.

(١٤) عينتابي؛ محمد وعثمان؛ نجوى: **حلب في مئة عام (١٨٥٠-١٩٥٠م)**، ٣ أجزاء، حلب، معهد التراث العلمي العربي، ط١، ١٩٩٣م، ج٣، ص ١٦٧-١٦٩.

(١٥) Sander (V): Five years in Turkey, London, 1927, p. 317.

(١٦) المعلم؛ وليد: **سورية ١٩١٦-١٩٤٦م**، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٨٨م، ص ٨٧.

(١٧) لونغريغ: المرجع السابق، ص ٨٧.

(١٨) هندي؛ إحسان: **معركة ميسلون**، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ط١، ١٩٦٧م، ص ٢٢.

(١٩) بيهم؛ محمد جميل: **قوافل العروبة ومواكبها عبر العصور**، بيروت، دار الكشاف، ط١، ١٩٥٠م، ص ٣٥.

(٢٠) الحكيم؛ يوسف: **سورية والانتداب الفرنسي**، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٨٣م، ص ٨.

(٢١) الجندي؛ أدهم: **تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي**، دمشق، مطبعة الاتحاد، ط١، ١٩٦٠م، ص ٦٥.

(٢٢) قاسمية؛ خيرية: **الحكومة العربية في دمشق**، مصر، دار المعارف، ط١، ١٩٧١م، ص ٧٤-٧٦.

(٢٣) لونغريغ: المرجع السابق ، ص ١١٣.

(٢٤) هندي: المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢٥) المالكي: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٢٦) لوتسكي: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢٧) لونغريغ: المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٢٨) العظمة: المرجع السابق، ص ٤٤٩.

(٢٩) هندي: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٣٠) لوتسكي: المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣١) قرقوط؛ ذوقان: **المشرق العربي في مواجهة الاستعمار**، القاهرة، المكتبة الأنجلو الفرنسية، ط١، ١٩٧٨م، ص ٢٧.

(٣٢) الحكيم: المرجع السابق، ص ٦١.

(٣٣) افتتح الأمير فيصل خطابه بقوله: (الاستقلال يؤخذ ولا يعطى...) فكانت هذه الجملة قد لاقت صداها وشهرتها في الشارع العربي. للمزيد انظر: سعيد؛ أمين: **الثورة العربية الكبرى**، ص ٢٩.

(٣٤) المالكي: المرجع السابق، ص ٢٩.

(٣٥) الحكيم: المرجع السابق، ص ٨٥-٨٨.

(٣٦) نخبة من الباحثين: **دير الزور ماضٍ عريق وحاضر مشرق**، إشراف: علي الشعبي، دمشق، دار الجمهورية، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٢٠-١٢٢.

(٣٧) قاسمية: المرجع السابق، ص ١٢٠-١٢٢.

(٣٨) عيّن الجنرال غورو مفوضاً سامياً لفرنسا في سورية وكيليكية خلفاً لجورج بيكو، وذلك في (٨ تشرين الأول عام ١٩١٩م)، وقد عرف بمزاجه الحاد وشدة قسوته، وقد كان رئيس وزراء فرنسا (كليمنصو) يفخر بشخصية غورو، إذ خاطبه عندما كلفه بهذه المهمة قائلاً لغورو: (ستكون الجندي الأعظم الذي سيخلق موطناً لفرنسا في الشرق). انظر: هندي؛ إحسان: **معركة ميسلون**، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ط١، ١٩٦٧م، ص ٣١.

(٣٩) لونغريغ: المرجع السابق، ص١٢٢.

(٤٠) سعيد؛ أمين: **الثورة العربية الكبرى**، المجلد الأول (النضال بين العرب والترك)، القاهرة، ط١، (د.ت)، ج٢، ص ١١٩-١٢٣. وانظر: العظمة: المرجع السابق، ص ٤٦٥.

(٤١) هندي: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٤٢) شوكت؛ آصف: **الثورات السورية في المنطقة الساحلية والشمالية الغربية (١٩١٨-١٩٢١م)**، رسالة ماجستير،بإشراف: د. محمد خير فارس، عام ١٩٩٧م، غير منشورة، ص٤١.

(٤٣) إسماعيل؛ حكمت: **نظام الانتداب الفرنسي على سورية**، دمشق، دارطلاس، ط١، ١٩٩٣م ، ص٧١.

(٤٤) عيّن يوسف العظمة وزيراً للحربية في هذه الحكومة، فحصلت على مبلغ مليون دينار مقابل رهن مليوني دونم من أراضي الدولة في حمص وحماة وحلب

للأهالي. انظر: قاسمية؛ خيرية: المرجع السابق، ص ١٧٩. والعظمة: المرجع السابق، ص ٤٧٤.

(٤٥) وعلى رأس هذه الثورات كانت ثورة الشيخ صالح العلي في الساحل، وثورة إبراهيم هنانو في المنطقة الشمالية وكيليكية. للمزيد انظر: وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، مكتبة الأسد، مجلد ١٢، ص ١٠٣-١٠٥. وانظر: الحصري؛ ساطع: **يوم ميسلون**، بيروت، دار الكشاف، ط١، ١٩٧٤م. وانظر: الحكيم؛ حسن: **الوثائق المتعلقة بالقضية السورية**، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٧٤م، ص ١٥٠.

(٤٦) البيرقدار؛ سعاد محمد: **العرب في المنتصف**،(د.ن)، ط١، ١٩٧٧م،ص٣٤٠.

(٤٧) نور، المرجع السابق ، ج٣، ص ٢٥٧.

(٤٨) الجندي؛ أدهم: **تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي**، دمشق، مطبعة الاتحاد، ط١، ١٩٦٠م، ص٦٥. وانظر:الجندي؛ أدهم: **صفحات منسية من بطولات أبناء دير الزور**، مجلة العمران، العدد ٣٩+٤٠، ١٩٧١م، ص ٩٦.

(٤٩) البيرقدار، مرجع سابق، ص ٤٠٠.

(٥٠) للمزيد انظر: جريدة المعرض اللبنانية: العدد ٤٦٦، تاريخ ٤/شباط/ ١٩٢٦، وانظر: سلوم؛ شادي: **رمضان الشلاش رجل من الفرات**، دمشق، دار الطليعة الجديدة، ط ٢٠٠٤،١م،ص١١٢، كذلك قمنا بمقابلة شخصية مع أحد حفداء رمضان الشلاش، وهو أحمد الشلاش المقيم في محافظة دير الزور.

(٥١) شوحان: المرجع السابق، ص ٨١-٨٣.

(٥٢) البيرقدار: المرجع السابق، ص ٤١٥.

(٥٣) تقرير مصطفى باشا الذي عمل خلال تلك المدة قاضياً في دير الزور، وقد شهد بنفسه التفاف الأهالي حول رمضان الشلاش.

(٥٤) تقرير مصطفى باشا: المصدر السابق، ص ٧٣.

(٥٥) سلوم: المصدر السابق، ص ٧١.

(٥٦) سلوم: المصدر السابق، ص ٧١-٨٠، وكذلك أجرينا مقابلة مع عدد من المعمرين، فأجابوا أن رمضان الشلاش عسكري متميز سبق عصره بكثير، لكن ضعف إمكاناته حال دون تحقيق آماله الوطنية .

(٥٧) الجندي: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٥٨) تقرير مصطفى باشا، المصدر السابق.

(٥٩) بل؛ جروترود: **فصول من تاريخ العراق القريب**، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٤١١، وانظر: عياش: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٦٠) علوان: **النضال القومي لدير الزور**، المرجع السابق، ص ٧٤-٧٥.

(٦١) فاضل العبود الحسن: هو أحد وجهاء دير الزور وولد فيها عام (١٨٧٢م) كان وطنياً ورجل سياسة استطاع تسيير الأمور في منطقة الفرات والجزيرة، تولى عدة مهام خلال أواخر العهد العثماني وفي فترة الاحتلال البريطاني والفرنسي وهي:

- تسلمه رئاسة بلدية دير الزور في عهد الحكم العثماني، وفي فترة الاحتلال الفرنسي.

- قام بتأسيس دولة سميت باسمه (حكومة الحاج فاضل) وأطلق عليها أبناء المنطقة تسمية (الدولة الفاضلية) حتى الفترة مابين خروج العثمانيين وصول الشريف

ناصر وتعيين مرعي باشا الملاح متصرفا" على دير الزور وقيامه بحل المجلس المحلي فيها .

- أصبح متصرفاً وحاكما مدنياً على دير الزور ثلاث مرات متفرقة.
- مثّل دير الزور في المؤتمر السوري الأول عام ١٩٢٠م.
- شارك في تتويج الملك فيصل بن الحسين ملكاً على سورية كأحد ممثلي متصرفية دير الزور.
- انتخب مرة ثانية في المجلس النيابي السوري عام ١٩٣٢م.
- في آذار ١٩٣٦م انتقل إلى جوار ربه.

(٦٢) مما قاله فاضل العبود: (لم يكن أهل المنطقة يمارسون الظلم ضد الآخرين، ولكن الظلم ندفعه لرده عن أنفسنا لا للانتقام من الآخرين).

المصادر والمراجع العربية

- إسماعيل؛ حكمت: نظام الانتداب الفرنسي على سورية، دمشق، دارطلاس ،ط١، ١٩٩٣م .
- أشرفي؛ منير: تاريخ سورية السياسي، حلب، مطبعة العصر الحديث، ط١، ١٩٣٧م.
- بل؛ جروترود: فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت، ١٩٧٠م.
- البيرقدار؛ سعاد محمد: العرب في المنتصف،(د.ن)، ط١، ١٩٧٧م.
- بيهم؛ محمد جميل: قوافل العروبة ومواكبها عبر العصور، بيروت، دار الكشاف، ط١، ١٩٥٠م.
- جريدة المعرض اللبنانية: العدد ٤٦٦، تاريخ ٤/شباط/ ١٩٢٦.
- الجندي؛ أدهم: صفحات منسية من بطولات أبناء دير الزور، مجلة العمران، العدد ٣٩+٤٠، ١٩٧١م.
- الجندي؛ أدهم: تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، دمشق، مطبعة الاتحاد، ط١، ١٩٦٠م.
- الحصري؛ ساطع: يوم ميسلون، بيروت، دار الكشاف، ط١، ١٩٧٤م. وانظر: الحكيم؛ حسن: الوثائق المتعلقة بالقضية السورية، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٧٤م.
- الحكيم؛ يوسف: سورية والانتداب الفرنسي، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٨٣م.
- الريس؛ منير: الكتاب الذهبي، بيروت، ط١، (د.ن)، ١٩٦٩م.

- سعيد؛ أمين: الثورة العربية الكبرى، المجلد الأول (النضال بين العرب والترك)، القاهرة، ط١، (د.ت)، ج٢.
- سلطان؛ علي: تاريخ سورية (١٩١٨-١٩٢٠م) حكم فيصل بن الحسين، دمشق، دار طلاس، ط٢، ١٩٩٦م.
- سلوم؛ شادي: رمضان الشلاش رجل من الفرات، دمشق، دار الطليعة الجديدة، ط ٢٠٠٤،١م.
- شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، دمشق، مطبعة الفوال، ط١، ١٩٨٩م.
- شوكت؛ آصف: الثورات السورية في المنطقة الساحلية والشمالية الغربية (١٩١٨-١٩٢١م)، رسالة ماجستير، غير منشورة، بإشراف: د. محمد خير فارس، عام ١٩٩٧م، غير منشورة .
- العظمة؛ عبد العزيز: مرآة الشام (تاريخ دمشق وأهلها)، تحقيق نجدة فتحي صفوة، لندن، دار رياض الريس للكتب والنشر، ط٢، ١٩٩٥م.
- عياش، عبد القادر: حضارة وادي الفرات، إعداد: وليد مشوح، دمشق، مطبعة الأهالي، ط٢، ١٩٩٩م.
- عينتابي؛ محمد وعثمان؛ نجوى، حلب في مئة عام (١٨٥٠-١٩٥٠م)، ٣ أجزاء، حلب، معهد التراث العلمي العربي، ط١، ١٩٩٣م، ج٣.
- قاسمية؛ خيرية: الحكومة العربية في دمشق، مصر، دار المعارف، ط١، ١٩٧١م.
- قرقوط؛ ذوقان: المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، القاهرة، مكتبة الأنجلو الفرنسية، ط١، ١٩٧٨م.

• لوتسكي؛ فلاديمير: الحرب الوطنية التحررية في سورية (١٩٢٥-١٩٢٧م)، ترجمة: محمد ذياب، بيروت، دار الفارابي، ط١، ١٩٨٧م.

• لونغريغ؛ همسلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقل، بيروت، دار الحقيقة، ط١، ١٩٧٨.

• المالكي؛ منير: من ميسلون إلى الجلاء (سيرة سياسية)، دمشق، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩١.

• المعلم؛ وليد: سورية ١٩١٦-١٩٤٦م، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٨٨م.

• نخبة من الباحثين: دير الزور ماضٍ عريق وحاضر مشرق،إشراف:علي الشعبي، دمشق،دار الجمهورية، ط١، ١٩٩٨م.

• هندي؛ إحسان: معركة ميسلون، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ط١، ١٩٦٧م.

• وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، مكتبة الأسد، مجلد ١٢.

المصادر الأجنبية :

- Sander (V): Five years in Turkey, London, 1927, p. 317.

نظام الإمامة في عُمان بين عامي ١٩١٣ - ١٩٢٠م

بحث في تاريخ العرب الحديث والمعاصر

الدكتور مؤيد باسم حمزة

مخطط البحث

تمهيد

المقدمة

١. أسباب ثورة القبائل الإباضية ومقدماتها

٢. إعلان الثورة وانتخاب الإمام وموقف بريطانيا منها

٣. تطور الثورة في عهد السلطان تيمور

٤. بدء المفاوضات بين السلطنة والإمامة

٥.مفاوضات السيب عام ١٩١٩ ١٩٢٠م

٦. الخاتمة

٧. الهوامش

٨. المصادر والمراجع

التمهيد:

منذ توقيع معاهدة الحماية بين سلطنة عمان وحكومة الهند البريطانية عام ١٨٩١م تحولت العلاقة بين الجانبين إلى حكم غير مباشر من قبل بريطانيا لعمان عبر الوكيل السياسي والقنصل البريطاني في مسقط، فتم منع تجارة الرقيق وتجارة السلاح. وتحت ذريعة مقاومة التجارتين تم تضييق الخناق على القبائل العمانية وتدمير كثير من سفنها التجارية. في المقابل تم منح الرعايا البريطانيين مزيداً من الحرية والمميزات القضائية والتجارية.

أدت تلك الإجراءات إلى تجمع القبائل العمانية ومعظمها من القبائل الإباضية، وانتخاب إمام من بينهم عام ١٩١٣م ، وتشكلت حكومة محلية داخل عمان، فنقضت معظم القبائل بيعتها للسلطان، وأنشأت قوة عسكرية استطاعت أن تستولي بها على معظم المناطق العمانية عدا بعض الموانئ المهمة مثل مسقط ومطرح .

تدخلت بريطانيا إلى جانب السلطان فيصل بن تركي، ثم إلى جانب ابنه تيمور بن فيصل بالدعم المادي والعسكري، ثم دخلت بوساطة بين الإمام والسلطان، وعقدت لقاءات عدة بين الجانبين أسفرت عن توقيع اتفاقية السيب عام ١٩٢٠م. وبموجب تلك الاتفاقية انقسمت عمان إلى دولتين: الداخل تحت حكم الإمام، والساحل تحت حكم السلطان وعاصمتها مسقط.

يهدف هذا البحث إلى دراسة عودة نظام الإمامة(١) في عمان وظهوره كقوة منافسة للسلطان العماني ومناوئة للنفوذ البريطاني في المنطقة، ومحاولة تلمس الأسباب التي أدت إلى نجاحه كقوة داخلية استطاعت أن تستقطب عدداً كبيراً من القبائل العمانية وذلك في العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري، العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي، ثم تتبع مراحل نزاع الإمامة مع السلطان العماني حتى توقيع اتفاقية السيب(٢) عام ١٩٢٠م بين السلطنة العمانية والإمامة الإباضية(٣) بوساطة

بريطانية. الجديد الذي تضيفه هذه الدراسة أنها تعتمد على وثائق عربية وإنجليزية جديدة من أرشيف وزارة الهند في لندن، إضافة إلى عدد من المصادر العربية والأجنبية الأخرى.

المقدمة:

نظام الإمامة في عمان:

يعود نظام الإمامة في عمان إلى القرن الثاني الهجري، القرن الثامن الميلادي، حيث أنشأ الإباضيون هذا النظام هناك، وعادة ما يُختار الإمام عن طريق الانتخاب من بين أهل الديانة والصلاح. وكان انتخاب الإمام في عمان مستمراً حتى النصف الأول من القرن السادس الهجري، النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، ثم تلا تلك القرون فترة انقطاع وظل منصب الإمام شاغراً فترات زمنية غير متعاقبة حتى عام ١٦٢٤م، عندما تم اختيار ناصر بن مرشد اليعربي(٤) إماماً، وظل الأئمة في عمان يُختارون من هذه القبيلة ما يزيد على قرن من الزمان، وبالتحديد حتى قيام دولة آلبوسعيد عام ١٧٤١م(٥).

عندما قامت الدولة البوسعيدية في عمان عام ١٧٤١م ضعف أمر الإمامة ولم يهتم من تولى عرش السلطنة من هذه الأسرة باتخاذ لقب إمام إلا في عهد أحمد بن سعيد الذي تولى الحكم في الفترة ما بين عامي ١٧٤١ – ١٧٨٣م، وفي عهد ابنه سعيد بن أحمد الذي تولى الحكم من بعده بين عامي ١٧٨٣ – ١٨٠٣م، وبوفاة هذه الأخير لم يسع أي سلطان من البوسعيديين ممن توارثوا السلطة إلى اتخاذ لقب إمام، ولم يحاول أي منهم أن يظفر بتأييد ديني له(٦).

في عام ١٨٦٧م استولى عزان بن قيس البوسعيدي على الحكم في عمان بعد ثورة القبائل العمانية، وأعلن نفسه إماماً على عمان، واصطبغت فترة حكمه التي استمرت

حتى عام ١٨٧١م بالصبغة الإسلامية الإباضية. إلا أن حكومة الهند الشرقية البريطانية عملت على إسقاطه(٧). ومنذ ذلك التاريخ لم تجر محاولة لإعادة نظام الإمامة إلا عندما قامت ثورة القبائل الإباضية عام ١٩١٣م .

١. أسباب ثورة القبائل الإباضية:

ازدادت الهيمنة البريطانية على حكومة مسقط منذ توقيع اتفاقية الصداقة والتجارة بين عمان وبريطانيا عام ١٨٩١م، وخضع السلطان العماني فيصل بن تركي للنفوذ البريطاني(٨)، ما أدى إلى استياء كثير من القبائل العمانية التي رأت أن السلطان تعاون مع حكومة الهند البريطانية فيما يتعارض مع مصالح الشعب العماني. ويمكن هنا إجمال الأسباب التي أدت إلى ثورة القبائل العمانية وقيام نظام الإمامة الإباضية:

١. إن كثيراً من الإباضيين لم يتقبلوا نظام الحكم في السلطنة القائم على الوراثة، وليس الانتخاب، وهذا ما يتعارض مع الإسلام حسب رأيهم(٩).

٢. أثار خضوع السلطان العماني فيصل بن تركي للحكومة البريطانية، فيما طلبته منه فيما يتعلق بمكافحة تجارتي الأسلحة والرقيق غضب هذه القبائل، لاسيما بعد أن أدى ذلك إلى التضييق على تجارتهم وتدمير سفنهم.

٣ تزايد استغلال بريطانيا لموارد عمان الداخلية، لاسيما بعد أن التزم السلطان فيصل ابن تركي بمنح إحدى الشركات البريطانية امتيازاً للبحث عن الأسفنج في مياه عمان الإقليمية، وقد عدّ الإباضيون عمل هذه الشركة منافساً لهم في كسب قوتهم من البحر.

٤. انتشار الجمعيات التبشيرية في عمان، وتشجيع السلطان فيصل بن تركي لهم، لاسيما المبشرين الأمريكيين الذين وجدوا في عمان مرتعاً خصباً لنشر المسيحية .

٥. أخذ علماء الإباضية في عمان على السلطان فيصل بن تركي أنه لم يتمسك بتعاليم الإسلام، وبما يمليه عليه المذهب الإباضي.[١٠]

تؤكد بعض المصادر البريطانية[١١] هذه الأسباب، وتذكر بأن طبيعة الحكم السلطاني كانت فاسدة لدرجة كبيرة، وكانت تصرفات السلطان الشخصية في إدارة شؤون السلطنة هي السمة التي ميزت السياسة العمانية آنذاك، وهذا ما عدّهُ الإباضيون نوعاً من أنواع الفساد الإداري.

إزاء هذه المخالفات رأى الإباضيون أن الالتفاف حول علمائهم، والعمل على إعادة الإمامة من جديد هو المخرج الوحيد لإنقاذ الأمة. لذا اجتمع أربعة عشر عالماً ورئيس قبيلة، وأصبح نور الدين عبد الله السالمي[١٢] موجهاً لهم، واتفقوا على إنشاء تجمع باسم حركة النهضة العمانية[١٣] من أجل العمل على إقامة دولة إمامية إباضية يحكمها إمام ينتخبونه من بينهم .

وجّهَ الإباضيون على لسان الشيخ عبد الله السالمي الذي تربطه بالسلطان علاقة وثيقة تحذيراً إلى السلطان فيصل بأن يغير مواقفه وسياسته تجاه البريطانيين، إلا أن السلطان تجاهل هذا التحذير [١٤].

من هنا نجد أن السالمي قام بعد ذلك بجولة داخل عُمان من أجل الاتصال بزعماء القبائل العمانية وتهيئتهم للثورة، واستطاع إقناع الشيخ حمير بن ناصر النبهاني[١٥] زعيم القبائل الغافرية [١٦] بالانضمام للثائرين على السلطان العماني. ويُعد انضمام هذا الزعيم دعماً كبيراً لزعماء الثورة، لأن القبائل الغافرية لم تقم بدور يذكر خلال قيام الإمامة في عمان ١٨٦٨م، على يد عزان بن قيس. وهذا أحد الأسباب التي أدت إلى سقوط إمامته عام ١٨٧١م.

ولم يقف هؤلاء الزعماء عند هذا الحد فقد اتجهوا لضم الزعيم الهناوي القوي عيسى ابن صالح الحارثي[١٧] الذي يحظى بنفوذ قوي بين القبائل الهناوية، فتردد هذا الشيخ

في بادئ الأمر إلا أنه لم يلبث أن أعلن دعمه للإمامة، لسخطه على السلطان بسبب إنشائه مخزناً لجمع الأسلحة تحت مراقبة حكومة الهند الشرقية البريطانية، وهذا ما دعا الشيخ عيسى الحارثي إلى إرسال رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى السلطان العماني(١٨).

هذا وقد حاول السلطان فيصل بن تركي تهدئة الثائرين فأعلن تنصيب نفسه إماماً على المذهب الإباضي، إضافة إلى مركزه سلطاناً على عمان، من أجل أن يحظى بدعم كافة القبائل. كما عمل على جمع بعض العلماء الإباضيين، وشجعهم على البحث والتأليف في تاريخ الإباضية وأحكامها، إلا أنه فشل في ذلك(١٩).

٢. إعلان الثورة وانتخاب سالم بن راشد الخروصي إماماً:

بعد أن نجح زعماء الثورة في ربط القبائل الغافرية والهناوية مع بعضها في مواجهة السلطان العماني اجتمعوا في مدينة تنوف(٢٠) بزعامة كل من عبد الله السالمي وحمير النبهاني وعلماء آخرين، وقررا انتخاب واحد من علماء الإباضية إماماً لعمان، فوقع الاختيار على سالم بن راشد الخروصي(٢١)، إلا أنه حاول الاعتذار وقال: "إنه جاء لإعطاء البيعة لا لأخذها". إلا أنه في نهاية المطاف قَبِلَ هذه الثقة التي منحت له، فتمت مبايعته في مسجد الشريعة في مدينة تنوف، وقد بايعه العلماء ثم رؤساء القبائل. وحسب التقاليد الإباضية فإنه ليس من حق من وقع عليه الاختيار لتولي منصب الإمامة أن يرفضها، لأن ذلك يعني رفض الثقة التي منحت له من قبل العلماء والأعيان، لاسيما وأن ذلك ربما يؤدي إلى انقسام الإباضيين. (٢٢)

قام أحد العلماء الإباضيين بقراءة البيعة، وإعلان التدابير اللاحقة التي ستتخذها الإمامة لممارسة مهامها، وأعلنت مدينة نزوى (٢٣) عاصمة للإمامة، وكان ذلك في شهر أيار ١٩١٣م (٢٤).

ويجد الباحث هنا أن أنه لم ينتخب أحد من أسرة البوسعيد كما حدث في عام ١٨٦٨ م حينما انتخب الإباضيون عزان بن قيس إماماً لهم، الأمر الذي يُبين مدى سخط القبائل الإباضية على البوسعيديين. إضافة إلى أن انضمام القبائل الغافرية إلى هذه الثورة كان له أثر في هذا الاختيار.

ولم يلبث الإمام الخروصي أن بعث برسالة إلى السلطان العماني يخبره بقيام الإمامة ويطلب منه إنهاء النفوذ البريطاني، وتطبيق الشريعة الإسلامية في سائر البلاد، كما بعث برسائل متعددة إلى زعماء القبائل العمانية، يدعوهم فيها إلى الانضمام إلى الإمامة الجديدة للدفاع عن الحق والقيام بواجب الجهاد، لأن ذلك هو أقل ما يمكن تقديمه نصرة للحق، حسب رؤية الخروصي. فأجابه معظم الزعماء ومنحوه بيعتهم. وفي زمن قصير أعلنت معظم المدن الرئيسية في الداخل ولاءها للإمامة. وهذا يعني أن بعضاً من المدن بقيت على ولائها للسلطان العماني [٢٥]

- الموقف البريطاني من الثورة:

أدرك الرائد نوكس (Knox) الوكيل السياسي والقنصل البريطاني في مسقط الخطر الذي يهدد نفوذ دولته في عمان بسبب هذا الوضع، الأمر الذي دفعه إلى توجيه تحذير إلى زعماء الإمامة من القيام بمهاجمة مسقط أو مطرح[٢٦]، وقال: "إن حكومته لن تقف مكتوفة الأيدي إزاء عمل كهذا"، وهذا يعني تدخل الحكومة البريطانية بشكل مباشر في الدفاع عن السلطان. ولم يتأخر رد الخروصي كثيراً على المسؤول البريطاني، إذ حذره من التدخل في شؤون عمان أو الاعتداء على الإمامة الإباضية[٢٧]. وبرّر في رده قيام الإمامة بأنه نتيجة لخروج السلطان فيصل بن تركي عن التعاليم الإسلامية، وهذا ما دعا العلماء الإباضيين إلى عزله، وذكر أن العمانيين اعتادوا أن يديروا شؤونهم بأنفسهم، وقال للممثل البريطاني: "وأنتم تعلمون أن أمر عمان إلى علمائها من قديم الزمان وأن كل ملك خالف العلماء فهو (خليع) عن الدولة

منبوذ عن أمر المسلمين، لا تَصَرُّفَ له في دولته ولا نفاذَ لحكمه، وأن فيصلاً قد قام عليه العلماء مراراً بعد خلعه وعزله، فأبى أن يعتزل، وأنه قعد هذه المرة الماضية بسبيل الغلبة والقهر والمسلمون لم يرضو سلطته ولا أفعاله، وأنتم معشر هذه الدولة يجب عليكم أن تكفوا عن أمر المسلمين، ويلزمكم أن لا تعتدوا علينا ومن تعدى علينا فالله يعيننا عليه". (٢٨)

ولم يلبث أن وصل إلى مسقط الميجر مورفي (Murphy) من دائرة المخابرات البريطانية في بوشهر (٢٩) ليدرس ما يمكن أن تقدمه الحكومة البريطانية في حال هجوم الثوار على مسقط ومطرح. وفي هذه الأثناء طلب السلطان فيصل بن تركي المساعدة رسمياً من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي(٣٠)، وفي شهر تموز عام ١٩١٣م بعثت حكومة الهند البريطانية خمسمائة جندي وعدداً من السفن، فنزلت هذه القوات في مطرح، وقامت الحامية العسكرية البريطانية في مسقط باحتلال بيت الفلج(٣١)، ودفعت حكومة الهند معونة مالية قدرت بـــ ٦٤ ألف روبية، وطلبت من السلطان فيصل أن يُنفقها في إعداد جيش يستطيع به مقاومة الثائرين، ويُظهرَ أن مسارعة البريطانيين إلى مساعدة السلطان تعود للخشية من عودة نشاط تهريب الأسلحة. (٣٢)

على الرغم من التدابير التي اتخذتها حكومة الهند البريطانية لمؤازرة السلطان العماني إلا أن هذه الجهود لم تمنع قوات الإمامة من التقدم، فاستولت على نزوى وأخرجت والي السلطان وحاميته منها، واتخذها الثوار مقراً للإمامة. ثم تقدمت هذه القوات إلى أزكي(٣٣) واستطاعت اقتحامها، ثم استولت على وادي سمائل(٣٤)، وذلك في آب ١٩١٣م ، وكان لذلك الوادي أهمية عسكرية بالغة، فهو المنفذ الرئيسي بين الساحل والمنطقة الداخلية لعمان. ولهذا نجد أن سقوط منطقة سمائل بيد قوات الإمامة أدى إلى زعزعة مركز السلطان، فتراجعت قواته إلى مسقط ومطرح، ولم يعد السلطان إلا بمثابة شيخ لقرية صغيرة كما قال أحد المسؤولين البريطانيين(٣٥)، وأصبح

نفوذ السلطان العماني مقتصراً على مسقط ومطرح، وما عدا ذلك فهو خاضع لقوات الإمامة.

من هنا نجد أن السلطان فيصل بن تركي كتب رسائل عدة إلى القنصل البريطاني يطلب منه مضاعفة عدد القوات البريطانية للدفاع عن مسقط ومطرح، ومما جاء في إحدى هذه الرسائل قوله: (أريد من حضرتك تنزيل العساكر (هكذا) الذين يصلوا (هكذا) هذه الليلة في ميل الفست (اسم مركب) على بر مسقط أو مطرح من حدودنا لأجل حفاظة (هكذا) المكانيين عن العاصين من أهل عُمان وردعهم، ومكان تنزيلهم وجلوسهم يصير الخيار لأمير العساكر، هذا والسلام).[٣٦]

أدت الإجراءات التي اتخذها المسؤولون البريطانيون للدفاع عن مسقط إلى احتجاج الإمام الخروصي الذي كتب رسالة إلى القنصل البريطاني في مسقط، جاء فيها: وقد بلغنا أن طائفة من عسكركم نزلت بحريم مسكد (هكذا) فما عرفنا وجه هذا الاعتراض بيننا وبين من نصب لنا الخصومة نرقب الجواب[٣٧]. ولم يلبث أن جاء الرد سريعاً من القنصل البريطاني فقال في رده: (إن عسكر البريطانية (هكذا) قد نزل لصيانة مسقط والمطرح (هكذا) على وفق التحذير المتضمن بإعلان حضرة سعادة السلطان تاريخه ٥ جمادى الآخر سنة ١٣١٣هـ [٣٨]، وبهذا سيتبين لكم أن أي هجوم منكم على مسقط أو المطرح بأي قصد كان سيستلزم المصادمة بينكم وبين دولتنا الفخيمة (هكذا) البريطانية، هذا والسلام).[٣٩]

في أيلول ١٩١٣م كتب الإمام الخروصي رسالة إلى نوكس، القنصل البريطاني في مسقط بيِّن فيها أسباب الثورة وقيام الإمامة، وخلع السلطان، وذكر فيها المخالفات التي وقع فيها والتي دعت إلى خلع طاعته، وأشار في رسالته إلى أن قوات الإمامة توقفت في وادي سمائل، ولم تتقدم نحو مسقط أو مطرح خشية من حدوث مواجهة عسكرية بين قوات الإمامة والقوات البريطانية، وطلب الخروصي من البريطانيين سحب

القوات البريطانية من عمان، وتعهد في المقابل بتامين سلامة الرعايا البريطانيين، والوفاء بحقوقهم، وحفظ أموالهم. وأشار إلى أن هناك رسائل مزورة باسمه قد ترد على المسؤولين البريطانيين يجب الحذر منها لأن هدفها تكدير العلاقة بين الجانبين[٤٠].

ولم يأت الجواب سريعاً من القنصل البريطاني في مسقط نظراً لوفاة السلطان فيصل ابن تركي في هذه الأثناء، وذلك في ٤ تشرين الأول ١٩١٣م ، وتولى ابنه تيمور[٤١] عرش السلطنة بتأييد من حكومة الهند البريطانية الذين عاملوه كوالده، لأنه التزم بما تعهد به. [٤٢]

٣. تطور الثورة في عهد السلطان تيمور:

عندما تولى تيمور بن فيصل السلطة، كانت البلاد تعيش أزمة داخلية خطيرة، فلا سلطة له إلا على بعض البلدان الساحلية. أما الأوضاع الاقتصادية فإن خزينة السلطنة تكاد تكون فارغة، ولا يتم تسديد رواتب الجنود بصفة مستمرة، ولذا كثيراً ما يلجأ أولئك الجنود إلى التهديد بالالتحاق بقوات الإمامة.

حاول السلطان الجديد في بداية أمره أن يعمل على تحسين الأوضاع المحيطة به، ولذا بادر إلى دعوة الشيخ عيسى بن صالح الحارثي زعيم قبائل الحرث، الذي تربطه علاقة صداقة قديمة للدخول في حوار لعله أن يصل معه إلى تسوية ودية بصفته أحد زعماء الإمامة، وقد زار هذا الزعيم مسقط في شهر كانون الأول ١٩١٣م للتشاور، إلا أن المناقشات بين الجانبين لم تؤد إلى نتيجة تذكر. [٤٣]

أما الإمامة الإباضية فإنها فقدت في مستهل عام ١٩١٣ م واحداً من أبرز زعمائها، وهو الشيخ نور الدين عبد الله السالمي، الذي كان يتولى منصب "مدير شؤون الإمامة"، وهو لقب لم يكن معروفاً من قبل وقد انعكست وفاته على تشكيل القرار السياسي في الإمامة، وذلك في عام ١٩١٥ م فخلفه في منصبه الشيخ عامر بن خميس المالكي، بعد أن انتخبه علماء الإمامة [٤٤].

ومهما يكن من أمر فقد ازدادت وتيرة التأييد الشعبي للإمامة لاسيما بين القبائل التي تقطن منطقة الساحل. لذا لم تجد قواتها صعوبة في الاستيلاء على مدينتي بركا(٤٥) وقريات (٤٦)، ولم يبق تحت سيطرة السلطان تيمور سوى مسقط ومطرح وصور(٤٧) وصحار (٤٨) وبعض الموانئ الصغيرة على ساحل الباطنة(٤٩)، وذلك في شهر نيسان ١٩١٤م. إلا أن الموقف البريطاني تجاه هذه الأحداث كان سريعاً وحازماً، إذ استطاعت الطردات البريطانية تدمير بعضٍ من قوات الإمامة، واضطرتها للخروج من بركا وقريات.(٥٠)

في هذه الأثناء أدى اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى زيادة النشاط الألماني في شرق أفريقية، ووصلت الدعاية الألمانية إلى عمان عن طريق زنجبار، والتي توحي بأن النفوذ البريطاني في الخليج العربي قاب قوسين أو أدنى من الزوال. والواقع أنه على الرغم من انشغال بريطانيا بتلك الحرب إلا أنها لم تكن مستعدة للتفريط بنفوذها في تلك المنطقة الذي استمر أكثر من مئة عام. فأرسلت في شهر آب ١٩١٤م مجموعة أخرى من القوات الهندية للدفاع عن مسقط (٥١).

في الوقت نفسه عمل السلطان تيمور على إنهاك قوات الإمامة، فزاد من قيمة الضرائب الجمركية، وعمل على الحدِّ من وصول المواد الغذائية إلى الداخل، إلا أن أثر هذه الإجراءات كان محدوداً في ذلك الوقت(٥٢).

لم تقف ألمانيا عند الدعاية فقط، بل أرسلت عدداً من عملائها إلى الإمامة في عمان، فاتصلوا بالإمام الخروصي، ووزعوا الهبات على القبائل لاستمالتها إلى جانبها، في عمان، فأصبحت الفرصة مواتية (٥٣) أمام أنصار الإمامة للإحاطة بالسلطان والقضاء على النفوذ البريطاني في المنطقة (٥٤).

كان السلطان تيمور بن فيصل مدركاً لعظم الخطر الذي أحدق به، لذا طلب من الشيخ سلطان بن راشد النعيمي شيخ قبيلة النعيم في منطقة البريمي (٥٥) أن يتوسط لدى

الإمام الخروصي لحل الخلافات القائمة بين الجانبين. فسعى النعيمي بهذه الوساطة التي لم تجد ممانعة من الإمام الخروصي، حيث بعث الشيخ عيسى بن صالح الحارثي مندوباً عنه، فاجتمع هذا الأخير بمندوب السلطان، والقنصل البريطاني في بلدة السيب في شهر كانون الأول ١٩١٤م. إلا أن هذه الوساطة لم تسفر عن شيء يذكر، مما دفع بالسلطان إلى أن يطلب من البريطانيين تعزيز حاميتهم في مسقط للدفاع عنها في حال هجوم قوات الإمامة [٥٦].

في كانون الثاني ١٩١٥م شنت قوات الإمامة هجوماً واسعاً على مسقط، واشترك أكثر من (٣٠٠٠) مقاتل في هذا الهجوم، مقابل (٧٠٠) جندي من القوات الهندية المرابطة للدفاع عنها. تولى قيادة قوات الإمامة في الهجوم الإمام سالم الخروصي والشيخ عيسى الحارثي، ورغم كثرة أعداد جنود الإمامة إلا أنها ليست مدربة أو منظمة بخلاف القوات المدافعة. واستمر القتال طوال النهار، ونظراً لعدم وجود خطط عسكرية لدى قوات الإمامة فقد مُنيت تلك القوات بهزيمة قاسية، وقُتل عدد كبير من جنودها، وهذا ما اضطرها إلى الانسحاب [٥٧].

ويلاحظ هنا أن المساعدات البريطانية للسلطان كانت متنوعة، حيث وقفت بريطانية إلى جانبه مادياً ومعنوياً، أما الجانب العسكري فقد تكفلت حكومة الهند البريطانية بالدفاع عن مسقط والمدن الساحلية دون الدخول إلى مناطق نفوذ الإمامة لمهاجمتها في الداخل، ولعل ذلك راجع في تقدير الباحث إلى الأسباب التالية:

١. انشغال بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، وعدم وجود قوات كافية للقيام بمثل ذلك العمل.

٢. عدم رغبة بريطانيا في الدخول في صراع مع القبائل العمانية في الداخل، كون معظم قوات بريطانيا في منطقة الخليج العربي كانت قوات بحرية.

٣. إنّ هجوم بريطانيا على الإمامة الإباضية سيدفع الأخيرة إلى إعلان الجهاد ضدها في المنطقة، وربما امتد أثر ذلك الجهاد إلى مسلمي الهند، ومناطق أخرى في العالم الإسلامي، والتي لبريطانيا نفوذ في أراضيها.

على الرغم من الهزيمة التي مُنيت بها قوات الإمامة إلا أنها ظلت تحيط بمناطق نفوذ السلطان من كل جانب، وأصبحت تهدد السلطان العماني في مسقط بين الفينة والأخرى ولم يكن بمقدور الحكومة البريطانية بسبب اشتراكها بالحرب العالمية الأولى الاستمرار بالدفاع عن السلطان [٥٨].

٤. بدء المفاوضات بين السلطنة والإمامة:

أوفدت الحكومة البريطانية اللورد هاردنج (Harding) نائب الملك في الهند إلى الخليج العربي، فقام بزيارة إلى مسقط والتقى بالسلطان تيمور بن فيصل وذلك في عام ١٩١٥م ، ونصح السلطان العماني بعقد السلام مع زعماء الإمامة الإباضية يتنازل بموجبه عن المناطق التي استولت عليها قوات الإمامة، وأخبره بكل وضوح أن الحكومة البريطانية لن تتمكن إلى أجل غير مسمى من تقديم ما يحتاج إليه من حماية، وأن الفرصة الآن مواتية لإجراء مفاوضات بين الجانبين[٥٩]. من أجل أن يقتنع السلطان تيمور بن فيصل بقبول المصالحة عَقَّب القنصل البريطاني في مسقط بذكر أهم الأسباب التي دعت حكومة بلاده إلى انتهاج هذه السياسة وهي:[٦٠]

١. أن قوات الإمامة تمتلك زمام القوة في عمان، وذلك لأنها تسيطر على حصن وادي سمائل .

٢. أنّ دعوة الإمام الخروصي إلى الجهاد ضد الحكومة البريطانية وحلفائها دعوة خطيرة جداً، لاسيما في ذلك الوقت الذي تعمل فيه على دفع شريف مكة لإعلان الجهاد ضد العثمانيين، وأن هذه الدعوة ستؤدي إلى وجود مصاعب عديدة ضد الوجود البريطاني في الهند وفي شبه الجزيرة العربية وفي شمال أفريقية .

٣. فشل سياسة استخدام الرشوة مع زعماء القبائل العمانية، وكان السلطان العماني قد اقترحها، وذلك لأن الحكومة البريطانية قد جرَّبت هذه السياسة وثبت فشلها في تحقيق المؤمل منها.

٤. أن السفن البريطانية لن تستطيع مساعدة السلطان العماني حينما يحتاج إلى المساعدة بسبب انشغالها بالحرب العالمية الأولى.

وبعد شرح هذه الأسباب اقتنع السلطان بعقد هدنة بينه وبين الإمامة.

استقبل زعماء الإمامة موافقة السلطان على مقترح هاردنج بفرح واغتباط، لأنهم رأوا أن ذلك يدل على ضعف السلطان، وبالتالي فإن حكمه أخذ بالانهيار. رغم ذلك فقد ساورهم الشك بنزاهة الوساطة البريطانية بين الجانبين [٦١] فكتب الوكيل السياسي البريطاني في مسقط رسائل إلى ثلاثة من زعماء الثورة وهم:

الإمام سالم بن راشد الخروصي

الشيخ عيسى بن صالح الحارثي

الشيخ حمير بن ناصر النبهاني

طلب منهم فيها إيضاح آرائهم بكل وضوح تجاه عقد مفاوضات صلح تهدف إلى تسوية تناسب الطرفين، وقد ردّ الإمام بأن عليه أن يستشير شعبه، وعلماء الإمامة، وأنه دعاهم إلى عقد لقاء تشاوري حول هذه المسألة. أما الشيخ عيسى الحارثي فقد ردَّ بأسلوب ودي أظهر فيه الرغبة في فتح باب المفاوضات، أما الشيخ حمير بن ناصر النبهاني فقد اقترح في رده إرسال مبعوث مُسلم لمناقشة الأمر[٦٢].

وذكرت بعض المصادر البريطانية[٦٣] أن الإمامة الإباضية يمكن أن ترضى باتفاق هدنة مع السلطان العماني وفق شروطها التي بعثت بها إلى الوكيل السياسي البريطاني في مسقط، وهذه الشروط هي :

١. الاعتراف الكامل بالشريعة الإسلامية بحسب ما يطبقها الإمام في داخل عمان. وتطبيقها في مسقط دون محاباة لأحد .

٢. خروج القوات البريطانية من البلاد، ورفع الحصار البري عن الواردات إلى الداخل.

٣. تسوية وسداد كل المطالب المالية المستحقة لسكان الداخل.

٤. منع وتحريم استيراد الخمور، والكحول، والتبغ إلى مسقط، وتحريم استخدام هذه الأصناف تحريماً تاماً.

٥. يمكن اعتبار السلطان تيمور بن فيصل حاكماً لعمان، ولكن مسؤولية إدارة البلاد تكون بيد الإمام شخصياً، أو من خلال ممثل له في مسقط، وذلك وفق الشريعة الإسلامية.

٦. بما أن بعض القبائل العمانية في نزاع مع البعض الآخر، وحيث أن بعضاً من هذه القبائل تمتلك السلاح، والبعض الآخر لا يمتلكه، فمن الضروري حينئذ السماح للعمانيين بحرية شراء الأسلحة والذخائر.

وقد أُبلغ مبعوث الإمامة أن الحكومة البريطانية لا يمكن لها أن تقبل ما يلي:

١. أي مطلب يدعو إلى الإخلال بأي اتفاقية موقعة بينها وبين السلطنة العمانية التي يمثلها السلطان تيمور بن فيصل.

٢. أي شرط قد يسبب أضراراً لبريطانيا أو يعوق مصالحها التجارية مع عمان.

٣. أي نص يتعلق بالسماح بتداول السلاح والذخيرة [٦٤].

على الرغم من هذا الخلاف حول بعض المسائل إلا أنه في شهر آب ١٩١٥م أرسل زعماء الإمامة رسالة إلى الوكيل السياسي البريطاني في مسقط طلبوا منه

الترتيب لعقد اجتماع مع الشيخ عيسى الحارثي بصفته ممثلاً للإمامة الإباضية وذلك بالسيب، في أقرب وقت ممكن. تم هذا اللقاء في الخامس عشر من أيلول من العام نفسه، وجرى خلاله مناقشة مطالب الإمامة التي تدعو إلى اعتراف السلطان تيمور بنظام الإمامة الذي يطبق في الداخل، وأن تحل نظم الإمامة محل النظم المطبقة في السلطنة، وأن يلتزم السلطان بتعاليم الشريعة الإسلامية على المنهج الإباضي، وأن تلغى الضرائب المفروضة على الواردات والصادرات الخاصة بمقاطعات الداخل، وأن تسوى المطالبات المالية بما يتفق مع مصلحة الرعايا المقيمين في الداخل، وأن يجري تحريم استيراد الخمور والدخان، وأن تلغى القيود المفروضة على تجارة السلاح، وأن يُسرِّح السلطان جيشه، وأن يطلق سراح الشيوخ المعتقلين في مسقط، وأن يُسلم السلطان اللاجئين إليه لإيقاع العقوبة التي يُقررها الإمام عليهم. فإذا ما وافق السلطان على ذلك فسيعترف زعماء الإمامة به حاكماً على مسقط وعمان، على أن يدير البلاد طبقاً لقواعد الشرع، وأن يتولى هذه الأمور بنفسه في مسقط أو عن طريق تعيين ممثل له هناك .(٦٥)

وتوصل الوكيل السياسي البريطاني إلى أن هذه المطالب قابلة للتنفيذ باستثناء مطلب أو مطلبين. أما من جانب السلطان العماني فقد طالب الإمامة بتسليمه حصون وقلاع منطقة سمائل(٦٦) لأهميتها الإستراتيجية، إلا أن ممثل الإمامة رفض هذا الأمر رفضاً قاطعاً، ورفض السلطان العماني مطالب الإمامة التي سبق ذكرها. كما رفض تسليم زعماء القبائل المتعاونين معه للإمامة. إزاء هذا الخلاف بين مطالب الجانبين لم يكتب لهذه المفاوضات النجاح أو أن يُحسم النزاع بين السلطان العماني والإمامة الإباضية لتباين وجهات النظر بين الجانبين (٦٧).

بدأت القبائل العمانية في الداخل بعد فشل هذه المفاوضات تعاني من الحصار الاقتصادي، وذلك بعد أن أمر السلطان العماني بإيعاز من المقيم البريطاني برفع الرسوم الجمركية على المنتجات الزراعية الواردة من الداخل، لاسيما التمور التي

رفعت الرسوم المفروضة عليها من ٥% إلى ٢٥%. أما الرمان فقد رُفعت الرسوم الجمركية المفروضة عليه من ٥% إلى ٥٠%، وكان لهذا القرار نتائج كبيرة على المدى البعيد، لأن المسؤولين البريطانيين يدركون جيداً أن اقتصاد القبائل العمانية في الداخل يعتمد اعتماداً كبيراً على تصدير التمور والرمان، وقد أدت هذه الإجراءات إلى نشوء أزمة مالية لدى الإمامة(٦٨).

على الرغم من هذه الأزمة التي عانت منها الإمامة إلا أن قواتها استطاعت أن تستولي على الرستاق (٦٩). بذلك توطد نفوذها على المرتفعات الجبلية المطلة على الساحل الذي يسيطر عليه السلطان (٧٠).

كما عانت الإمامة الإباضية من تدهور الأوضاع العامة في منطقة الخليج العربي عامة وبحر العرب نتيجة للحرب العالمية الأولى. لذا لم تكن الموارد المالية لديها كافية لمواصلة جهودها المتواصلة لإسقاط السلطان العماني، ونتيجة لقلة الاتصالات بين موانئ عمان والمناطق الداخلية وارتفاع الأسعار أصبح وجود العملة النقدية نادراً في مناطق نفوذ الإمامة، وهذا ما دفعها إلى مصادرة أموال المؤيدين لنظام الحكم في مسقط(٧١).

أما من جانب السلطان فقد أخذت حكومته بالتدهور السريع مع انشغال بريطانيا بالحرب العالمية الأولى، وكانت خزينة السلطان خاوية، إلا أن الحكومة البريطانية كانت تُمد السلطان ببعض القروض بين الفينة والأخرى(٧٢) من أجل أن يقف أمام الأخطار التي تحدق به. لذلك كان السلطان العماني مضطراً لتنفيذ كل ما تطلبه الحكومة البريطانية منه، وفي هذا قال المقيم البريطاني في الخليج العربي كوكس (Cox) إنه: "لطالما كان السلطان مديوناً للحكومة البريطانية فإنها ستكون في موقف أقوى لفرض ما تريده بالنسبة لشؤون السلطنة" (٧٣).

ومهما يكن من أمر فإن المصادر البريطانية[٧٤] تؤكد أنه منذ فشل المفاوضات التي عقدت في السيب في أيلول ١٩١٥م بين السلطنة والإمامة لم تتخذ أي خطوات أخرى في سبيل الوصول إلى اتفاق جديد بين الجانبين حتى شهر آذار ١٩١٨م إلا أن قوات الإمامة استطاعت أن تحكم سيطرتها على المناطق الداخلية في عمان، في حين كانت حكومة السلطنة تعاني من أزمة ديون بالغة، وتعاني من فساد إداري كبير.

وكانت الإمامة في عمان قد سعت خلال هذه الفترة إلى تدعيم قواتها وذلك بالاستعانة بإمام اليمن والقادة العثمانيين هناك للحصول على تعزيزات عسكرية لمواجهة سلطان مسقط وحلفائه البريطانيين، وهذا أدى إلى تدعيم قدراتهم العسكرية أمام قوات السلطان[٧٥]، لهذا تدخلت حكومة الهند البريطانية فعقدت مفاوضات بين السلطنة والإمامة لم تسفر عن شيء يذكر [٧٦].

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وأسفرت عن انتصار بريطانيا وحلفائها عملت على إنهاء النزاع بين السلطنة والإمامة، ووضعت تصوراً لسياستها العامة في عمان بعد الحرب. ترمي هذه السياسة إلى إصلاح الإدارة ، وضمان الأمن، وذلك من أجل تدعيم نفوذ السلطان الذي يعاني من ضعف شديد[٧٧].

في ٢ آذار ١٩١٩م وجه القنصل البريطاني في مسقط هاورث (Haworth) رسالة إلى الشيخ عيسى الحارثي طالب فيها الإباضيين بوقف هجماتهم على السلطنة والقبول بوساطتهم حتى لا يضطر البريطانيون إلى استخدام القوة، وإحكام الحصار الاقتصادي عليهم، وقال: "إني لأسمع في هذا الوقت ما يقال عن أنكم عازمون على مهاجمة صور، لأن هذا إن كان حقاً فسيؤدي إلى مقاومتنا مع العمانيين..، ولو أردنا ضرركم لكان من السهل علينا أن نرسل إليكم طائرة من طائراتنا، وهي أزيد من أن تكفيكم فتحطم مدنكم وتخرب حصونكم، ومن المؤكد أنكم لا تظنون أنكم تقدرون على مقاومتنا[٧٨]". ثم زاد القنصل البريطاني في استخدام لغة التهديد فقال: "لدينا خمسمائة

ألف من العساكر المدربة، وقد فرغت من أعمالها الحربية في العراق، وبضعة آلاف يكفون للاستيلاء على عمان قاطبة لو أردنا بكم سوءاً، وتعلمون أن الحاكم الذي بيده شؤون الساحل يستطيع في أي وقت فرض رسوم باهظة على البضائع الصادرة منكم والواردة إليكم، وتعلمون أن أزمة البحر بأيدينا، فإذا ناصبتمونا العداء فلن نسمح ببيع الأرز والقمح والأثواب إليكم، ولن نسمح لكم أن تصدروا تموركم، مع أن كل تجارتكم لا تجرى إلا بأيدينا." ثم طلب القنصل البريطاني من الشيخ عيسى الحارثي أن يقنع الإمام الخروصي بأهمية العودة إلى المفاوضات(٧٩).

على الرغم من كل هذه الضغوط إلا أن الإمامة الإباضية رفضت لغة التهديد التي استخدمها المسؤولون البريطانيون، بما في ذلك التهديد بالحرب المباشرة بين القوات البريطانية وقوات الإمامة، أو الحصار الاقتصادي إذا اقتضى الأمر ذلك.

٥. مفاوضات السيب عام ١٩١٩ م:

بعد اتصالات عديدة متبادلة بين الوكيل السياسي البريطاني وبين قادة الإمامة، والسلطان العماني تم الاتفاق على عقد اجتماع بين هذه الأطراف في السيب بتاريخ سبتمبر ١٩١٩ م، وكان هذا السلطان قد منح ذلك المسؤول البريطاني تفويضاً مطلقاً لمعالجة الوضع مع الإمامة. مثَّل الإمامة في هذه المفاوضات الشيخ عيسى بن صالح الحارثي، أما السلطان العماني وحكومة الهند البريطانية فقد مثَّلهما هاورث القنصل البريطاني في مسقط(٨٠). في بداية هذه المفاوضات اقترح هاورث أن يكون السلطان تيمور زعيماً سياسياً دنيوياً، وأن يكون الإمام الخروصي زعيماً روحياً، وأن يمثِّل الشيخُ عيسى بن صالح الحارثي السلطانَ في الداخل، وأن يصادق الإمام أو ممثلهُ على تعيين القضاة، وأن يكون هناك مجلس من كبار أعيان عمان لمساعدة السلطان، وأن يتولى هذا المجلسُ الموافقةَ على تعيين الولاة، وأن يساعدَ على الرقابة على الأموال.

كما طلب إعادة المزارع الخاصة بالسلطان العماني، التي استولت عليها قوات الإمامة عند تقدمها نحو الساحل. [٨٠]

إلا أن ممثل الإمامة أبدى تحفظاً على بعض هذه المسائل، ثم قدم مطالب الإمامة، والتي تتخلص بما يلي:

١. سحب كل القيود المفروضة على التجارة والسفر

٢. تحديد نسبة الزكاة على أن لا يتجاوز ٥ %.

٣. إطلاق سراح السجناء

وافق ممثل الإمامة في هذه المفاوضات على أن يظل الحال على ما هو عليه، فالسلطان يسيطر على المدن الساحلية، والإمامة تسيطر على المناطق الداخلية، والتزم بعدم مهاجمة مناطق نفوذ السلطان إذا ما وافق على المطالب التي تقدم بها، وانفض هذا الاجتماع من أجل التشاور لأن الحارثي ليس مفوضاً للتوقيع من قبل الإمام[٨٢].

وعلى أي حال فقد رفض الإمام الخروصي في شباط ١٩٢٠م التصديق على بنود الاتفاقية، فانتهت بذلك تلك المفاوضات رسمياً بالفشل [٨٣].

مقتل الخروصي وانتخاب الخليلي إمامًا:

بعد انتهاء مفاوضات السيب وبينما كان زعماء الإمامة الإباضية يتشاورون حول عقد مفاوضات جديدة مع السلطان، تمّ اغتيال الإمام سالم بن راشد الخروصي في ٢١ تموز ١٩٢٠م على يد رجل من قبيلة آل وهيبه، ولم تعرف دوافع هذا الاغتيال. إلا أن بعض المصادر تؤكد أن الخروصي كان قد سجن هذا الرجل في يوم ما [٨٤]، بينما تعزو المصادر البريطانية[٨٥] سبب القتل إلى تشدد الخروصي في جبي الزكاة ، وموقفه من إعادة الممتلكات.

لم يلبث زعماء الإمامة الإباضية في عمان أن انتخبوا واحدا منهم إماماً جديداً، فاختاروا الشيخ محمد بن عبد الله الخليلي، وقد كتب الشيخ عيسى الحارثي خطاباً في ذلك إلى وينغيت (Wingate) الوكيل السياسي والقنصل البريطاني في مسقط، الذي خلف هاروث في منصبه، وطلب مه استئناف المفاوضات بين الجانبين بعد استقرار الأوضاع، فقال: "نفيد جنابكم أنه عندما تّم اغتيال الإمام... اجتمع رؤساء القبائل والصالحون من الناس والعلماء لانتخاب إمام جديد، وعندما شاهدوا الابتعاد عما أمر الله به والتشتت، قدَّموا الرجل العلامة محمد بن عبد الله الخليلي كإمام، وترجوا من الله كل العون. جرى حديث من جانبك بخصوص التسوية ولكن لم يتم الاتفاق عليه، ولكن يجب إعادة فتحها بعد قضاء الأعمال، إن شاء الله.[٨٦]

بهذا يتبين أن ممثل الإمامة اتفق مع القنصل البريطاني على العودة من جديد إلى طاولة المفاوضات بغية الوصول إلى تسوية، إلا أنه طلب من المسؤول البريطاني بعض الوقت حتى تستقر الأوضاع في مناطق نفوذ الإمامة، بعد أن تم انتخاب إمام جديد، وهذا يؤكد حرص زعماء الإمامة على الوصول إلى اتفاق نهائي.

اتفاقية السيب ١٩٢٠م:

كان من أهم ما اشترطه الوكيل السياسي البريطاني على الشيخ عيسى الحارثي ممثل الإمامة في مفاوضات السيب ١٩١٩م موافقة الإمامة على إعادة المزارع الخاصة بالسلطان العماني التي استولت عليها قوات الإمامة عند تقدمها نحو الساحل. إلا أن الإمام رفض ذلك في بداية الأمر، إلا أن إصرار القنصل البريطاني على أن العودة إلى مفاوضات السيب مرهونة بإعادة هذه المزارع[٨٧] اضطر الإمام الخليلي[٨٨] إلى الموافقة على إعادتها. جاء ذلك في رسالة[٨٩] بعث بها الشيخ عيسى الحارثي إلى الوكيل السياسي البريطاني في مسقط جاء فيها: في الرستاق تم الاتفاق على تطبيق أحكام الله التي فرضها على المسلمين، والحمد لله تم عرض رسالتكم على

الإمام والذي يوافق – بعد مشاورة المسلمين– على إعادة المزارع احتراماً لحكومة بريطانيا العظمى.

كان السلطان تيمور بن فيصل في هذه الأثناء موجوداً في الهند في زيارة رسمية، ولهذا فما أن اتفق وينغيت مع الإمامة على العودة إلى طاولة المفاوضات حتى قام بزيارة عاجلة إلى الهند وحصل على تفويض مطلق من السلطان العماني للوصول إلى اتفاق مع الإمامة(٩٠).

في الرابع والعشرين من أيلول التقى الطرفان في السيب، وكان وفد الإمامة مؤلفاً من عشرين عالماً وشيخَ قبيلة يترأسهم في هذه المفاوضات الشيخ عيسى الحارثي. أما حكومة الهند البريطانية والسلطان العماني فيمثلهما في هذه المفاوضات وينغيت، وعدد من المستشارين البريطانيين. تمّ في بداية المفاوضات التأكد من أن الشيخ عيسى الحارثي مفوضٌ تفويضاً كاملاً للوصول إلى اتفاق مع السلطان العماني بدأت المفاوضات على هيئة عدة جلسات. تقدم ممثل الإمامة في بادئ الأمر باثني عشر مطلباً يجب أن يوافق عليها السلطان، إلا أن المسؤول البريطاني رفض معظم هذه المطالب، وعرض وينغيت مطالب السلطان. بعد يومين من المفاوضات الشاقة تم التوصل إلى ما عرف باتفاقية السيب بين الإمامة نيابة عن الشعب العماني وبين وينغيت نيابة عن السلطان العماني، وذلك ٢٥ أيلول ١٩٢٠م. تضمنت هذه الاتفاقية ثمانية بنود، أربعة منها التزمت بتنفيذها الإمامة الإباضية باسم الشعب العماني والأربعة الأخرى التزم بها وينغيت نيابة عن السلطان العماني. وقد تضمنت بنود هذه الاتفاقية ما يأتي(٩٢):

أولاً: التزامات السلطان العماني:

١ –التزمَ السلطان بتخفيض الضرائب التي تؤخذ على البضائع التي تُصدَّر من الداخل إلى المدن الساحلية في عمان إلى ٥ %.

٢-تعهَّد السلطان بضمان حرية المرور وسلامة العمانيين، خلال تنقلاتهم وتحركاتهم بين مدن الساحل.

٣ -التزم السلطان برفع جميع القيود المفروضة على الدخول إلى مسقط أو مطرح أو أي مدن الساحل وكذلك الخروج منها.

٤-تعهَّد السلطان بعودة اللاجئين العمانيين إلى بلادهم، وبعدم منح اللجوء إلى أي مجرم يحاول الفرار من يد العدالة العمانية وأن يُسلمه إلى العمانيين ليلقى جزاءه، وأن لا يتدخل السلطان في شؤون العمانيين الداخلية.

ثانياً: التزامات الإمامة الإباضية نيابة عن الشعب العماني:

١- التزم العمانيون بعدم مهاجمة المدن الساحلية أو التدخل في شؤون حكومة مسقط، وأن يتعايشوا مع حكومة السلطان بسلام<

٢- تعهد العمانيون بضمان الأمن وحرية التجارة والتنقل لجميع الذين يدخلون إلى عمان ويتاجرون بطريقة مشروعة.

٣- التزم العمانيون بإخراج جميع اللاجئين إليهم [من أهل مسقط]، وعدم منحهم حق اللجوء.

٤- تعهد العمانيون بتسوية مطالب حكومة السلطان تجاه التجار العمانيين وفق أحكام الشريعة الإسلامية.

وقّع على الاتفاقية الشيخ عيسى الحارثي، ثم الشيوخ الأربعة عشر الآخرون، ثم وقَّع عليها الإمام الخليلي في ٢٨ أيلول ١٩٢٠م، ثم أرسلت إلى السلطان تيمور الذي لا يزال في الهند فوقع على نسخة منها [٩٣].

تحليل الاتفاقية:

تمّ توقيع هذه الاتفاقية بعد سبع سنوات من الحرب، ونتج عن ثورة الإمامة في عمان تقسيم البلاد إلى كيانين شبه مستقلين: إمامة عمان في الداخل وسلطنة مسقط على الساحل، وعلّق وينغيت على هذه الاتفاقية بقوله:

(وصل العمانيون [الإمامة الإباضية] من وجهة نظرهم الخاصة إلى الاستقلال الكامل، وهم عملياً على حق، على الرغم من أن السلطان يمكن أن يقول بأنه ليس لديهم سوى حكومة داخلية)[٩٤].

ولكن هذه الاتفاقية لم تخل من بعض العيوب القانونية لعل من أهمها:

١- لم تحدد حدود أراضي السلطان العماني، وكذلك حدود أراضي الإمامة.

٢- لم تتطرق الاتفاقية إلى العلاقات الخارجية، فيما إذا كان للإمامة حق التمثيل الخارجي وإقامة علاقات مع الدول الأخرى.

٣- لم تبين هذه الاتفاقية طبيعة العلاقة بين الإمامة والسلطان، فيما إذا كانت علاقة تبعية أم اتفاق بين دولتين منفصلتين.

٤- يلاحظ أن معظم بنود هذه الاتفاقية خصص لتنظيم مسائل تجارية، وذلك لأن موضوع الشكل القانوني للسيادة لم يكن ذا أهمية لدى الإمامة[٩٥].

٥- لم يُشَر للإمامة الإباضية أو الإمام كممثل عن القبائل العمانية في الداخل، على الرغم من أن الشيخ عيسى الحارثي الذي مثل تلك القبائل كان مفوضاً من قبل الإمام الخليلي.

أما موقف الأطراف المشاركة في هذه الاتفاقية فإن أنصار الإمامة يرون أنها أبرمت بين حكومتي السلطان الذي يحكم الساحل، والإمام صاحب السلطة الشرعية في

الداخل[96]، ويذهب بعضهم إلى أن هذه الاتفاقية أبرمت بين دولتين عمان ويمثلها الإمام، وسلطنة مسقط ويمثلها السلطان تيمور[97].

أما حكومة الهند البريطانية فترى أن هذه الاتفاقية معقودة بين السلطان تيمور بن فيصل الحاكم الشرعي وبين القبائل التي تسكن بالداخل من أجل تنظيم العلاقة بينهما، وأن دور وينغيت في هذه الاتفاقية لا يعدو كونه وسيطاً وشاهداً عليها، ويؤكدون أنها لم تعقد بين حكومتين، ويستدلون على صحة هذا الرأي بأنه تم استخدام شعب عمان للتعبير عن الطرف الثاني في الاتفاقية، ولم يرد ذكر لحكومة الإمامة أو للإمام، وأن الذين وقعوا هذه الاتفاقية هم زعماء قبائل على رأسهم الشيخ عيسى بن صالح الحارثي وسليمان النبهاني وغيرهم[98].

مهما يكن الأمر فإن هذه الاتفاقية شكلت منعطفاً تاريخياً مهماً في التاريخ العماني الحديث إذ نتج عنها وجود سلطتين محليتين لبلد واحد، وتوقفت الحروب بين السلطنة والإمامة، وحققت الثورة بعضاً من أهدافها، واستمرت الإمامة قائمة في داخل عمان، حتى ظهر النفط. وبدأت شركات النفط البريطانية تنقب عنه في منطقة الإمامة الأمر الذي نتج عنه مواجهة بين القوات البريطانية وقوات الإمامة عام ١٩٥٤م انتهت بسقوط الإمامة نهائياً عام ١٩٥٩م[99].

الخاتمة:

مما سبق نستنتج وبعد دراسة عودة الإمامة إلى عُمان، أن استياء القبائل العمانية من الهيمنة البريطانية في عمان قد بلغ ذروته في العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري، العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي، لاسيما بعد أن ازدادت تدخلات الوكيل السياسي والقنصل البريطاني في إدارة شؤون السلطنة العمانية في عهد السلطان فيصل بن تركي ومن بعده ابنه تيمور.

وكشفت هذه الدراسة أن تجارة القبائل العمانية قد تعرضت للتدمير، وصودرت سفنها تحت ذريعة مكافحة تجارتي السلاح والرقيق. أدت هذه الأوضاع إلى تجمع زعماء القبائل الهناوية (الإباضية) وانضم إليهم بعض زعماء القبائل الغافرية (السنية) من الناقمين على السلطان، وقرروا إعادة نظام الإمامة، وتمّ ذلك بانتخاب الشيخ سالم بن راشد الخروصي إماماً لعمان في عام ١٩١٣م.

كما تكشف الدراسة أنه منذ أن قامت الإمامة في داخل عمان استطاعت خلال شهور عديدة أن تستولي على المناطق الداخلية، ولم يبق تحت سيطرة السلطان العماني إلا بعض البلدان الساحلية فقط.

كما أدركت حكومة الهند البريطانية عظم خطر الإمامة على السلطنة؛ فعملت على دعم السلطان العماني مادياً وعسكرياً، ولم تسمح لقوات الإمامة أن تستولي على مسقط ومطرح والمدن الساحلية المهمة.

وتبين من خلال هذا البحث أن المسؤولين في حكومة الهند البريطانية لم يعلنوا العداء الصريح للإمامة في عمان خشية من إعلان الإمام الخروصي الجهاد ضد قواتها، الذي ربما امتدت الدعوة إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي، كالحجاز مثلاً الذي أعلن شريفه الجهاد ضد الدولة العثمانية بدعم من بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى، أو إلى مسلمي الهند الذين تستعمر بريطانيا بلادهم.

وهكذا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها عام ١٩١٨م، وخرجت بريطانيا منتصرة تغيرت لغة خطابها إلى زعماء الإمامة في عمان، واستخدمت معهم أسلوب التهديد بالحرب والتدمير، وأوعزت إلى السلطان تيمور بن فيصل بمضاعفة رسوم الجمارك على صادرات القبائل الخاضعة للإمامة عدة مرات. حيث أدى ذلك إلى نشوء أزمة مالية بالغة لدى الإمامة الإباضية في عمان.

وتبين أنه بعد قتل الإمام الخروصي وتولي الخليلي الإمامة من بعده، وبعد أن تزايدت الضغوط البريطانية على الإمامة في الداخل وافق زعماؤها على عقد مفاوضات جديدة للوصول إلى اتفاق يُنهي النزاع بين الجانبين. فعمل الوكيل السياسي البريطاني في مسقط على عقد اجتماع في منطقة السيب، نتج عنه اتفاقية عرفت باسم (اتفاقية السيب) وذلك في أيلول ١٩٢٠م.

وقد نتج عن اتفاقية السيب أن انفصلت عمان الداخلية بزعامة الإمام الخليلي، وبقيت بلدان الساحل تحت زعامة السلطان تيمور، وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية أوقفت النزاع بين السلطانة والإمامة إلا أنها لم تعط الإمامة أي اعتراف رسمي، ولم تبين الحدود الفاصلة بين الجانبين. مع ذلك فقد حققت الإمامة الإباضية بعضاً من أهدافها، واستمرت الإمامة قائمة في عمان حتى بدأت الشركات البريطانية تبحث عن النفط في منطقة نفوذها، الأمر الذي أدى إلى حدوث مواجهة بينها وبين بريطانيا، سقطت الإمامة على إثرها عام ١٩٥٩م.

الهوامش

(١) يراد بنظام الإمامة هنا هو اجتماع أتباع المذهب الإباضي ومبايعتهم لرجل منهم إماماً لهم، يتولى شؤونهم السياسية والعسكرية والدينية ويساعده عدد من الأعوان، ويكون بمثابة رئيس الدولة. انظر: محمد رشيد العقيلي، **الإباضية في عمان**، ط ١، نشر وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٩٨٤م، ص ١٢ وما بعدها؛ علي يحيى عمر، **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ط ٣، نشر وزارة التراث القومي في عمان، مسقط، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م ، ج٢ ، ص ١٩٦ – ١٩٧.

(٢) السيب: بلدة ساحلية تقع بين مسقط وبركا، تبعد عن مسقط حوالي ٢٧ ميل، قدّر مايلز عدد سكانها في تلك الفترة ب ١٥٠٠ نسمة. انظر: مايلز س. ب.، **الخليج بلدانه وقبائله**، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط ٤، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٩٩٤م، ص ٣٦٩، سعود بن سالم العنسي، **العادات العمانية**، ط ١، وزارة التراث القومي في عمان، مسقط، ١٩٩١ م، ص ٥٧.

(٣) الإباضية: فرقة دينية إسلامية تنسب إلى مؤسسها الأول عبد الله بن اباض، الذي ظهر في القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، ومن معتقدات الإباضية أن المسلم لا يخرج من الإيمان إلا ويدخل في الكفر. فمن لم يكن مؤمناً كان كافراً. للتفصيل: مجموعة من الباحثين، **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، ط ٢، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٩٨٩م، ص ١٥ – ١٩.

(٤) اليعاربة: أسرة عربية حكمت عمان وجزءاً من شرق أفريقية تنتمي إلى الأزد من قحطان، أول إمام منهم ناصر بن سلطان اليعربي تولى الحكم عام ١٠٣٤ هـ/ ١٦٢٤م، وعمل على إخراج البرتغاليين من عمان. للتفصيل: حميد بن محمد بن رزيق، **الفتح المبين في سيرة السادة آلبوسعيديين**، تحقيق عبد المنعم عامر وآخرون، ط ٤، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٩٩٤م، ص ٥٣،

سرحان بن سعيد الإزكوي، **تاريخ عمان**، تحقيق عبد المجيد القيسي، ط ٢، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٩٨٦م، ص ٩٧ وما بعدها.

(٥) شركة الزيت العربية الأمريكية، **عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي**، ط ١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٢ م، ص١٥ – ١٧.

(٦) شركة الزيت العربية الأمريكية، مرجع سابق، ص ١٨.

(٧) عبد الله بن إبراهيم التركي، **فترة حكم عزان بن قيس في عمان ١٨٦٨ – ١٨٧١م**، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، مصر، عدد تموز ٢٠٠٤م، ص ٣٢٥ – ٣٤٦.

(٨) فيصل بن تركي هو ثاني أبناء تركي بن سعيد بن سلطان، عمل والياً في عهد والده وتولى الحكم بعد وفاته مباشرة عام ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٨م، وصفه السالمي بأنه أحسن إُخوته سياسة وحزماً، ووصفه لوريمر بأنه كان نزاعاً إلى الكسل والتسويف مسرفاً في نفقاته الشخصية، توفي ١٩١٣م. للتفصيل: نور الدين عبد الله بن محمد السالمي، **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، د. ط، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط، د. ت ج١، ص ٣٥٢ وما بعدها، لوريمر ، ج . ج ، **دليل الخليج**، د. ط، ترجمة ونشر ديوان أمير قطر، الدوحة د.ت، القسم التاريخي ،ج٢ / ٨٠٩ ، ٨١٨.

(٩) صلاح العقاد، **التيارات السياسية في الخليج العربي**، د.ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٩٢م، ص ٢٢٠ .

(١٠) جمال زكريا قاسم، **دارسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ – ١٩١٤م** ، ط٢ دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٤م، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦.

(11) I.O.R .,R/15/6/264, Report about Background of the Meeting between P.A . and Sheikh Issa Bin Salih in Muscat before Treaty Al Seeb ,in 14 October 1920.

(١٢) هو عبد الله بن حميد السالمي، أحمد العلماء الإباضيين في عمان، كان ضـــرير البصر، يُسمى (أبو التاريخ العماني، ورائد العقيدة الإباضية) له كتاب تاريخي مشهور سماه (تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان) إضافة إلى مؤلفات أخرى أطلق عليـــه رئـــيس النهضـة العمانية. للتفصيل: نور الدين السالمي، مصدر سابق، ص /٣ ومـــا بعـــدها، محمد شيبة السالمي، **نهضة الأعيان بحرية عمان**، د.ط، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت، ص ١١٨ – ١٣٤، روبرت جيران لاندن، **عمان منذ ١٨٥٦ مسير ومـــصير**، ط ٥، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٩٩٤م، ص ٤٨٥ .

(١٣) حسين عبيد غباش، **عُمان الديمقراطية الإسلامية**، ط ١، دار الجديد، بيروت ، ١٩٩٧م، ص ٢٧٦.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٦ .

(١٥) حمير بن ناصر النبهاني' هو زعيم بني ريام إحدى القبائل الغافرية فـــي عمـــان، وتقطن في منطقة الأخضر. انظر: شركة الزيت العربية الأمريكية، مرجـــع ســـابق، ص١١١، ١٥٢ – ١٥٣، لاندن، مرجع سابق ، ص ٤٥٨ .

(١٦) تنقسم القبائل العمانية من حيث المذهب إلى قسمين: القبائـــل الهناويـــة وهـــي إباضية المذهب، وقبائل غافرية سنية المذهب. للتفـــصيل: شـــركة الزيـــت العربيـــة الأمريكية، مرجع سابق، ص ١٢١ – ١٣٠.

(١٧) عيسى بن صالح الحارثي هو زعيم قبيلة الحرث الهناوية في المنطقة الـــشرقية في عمان، المصدر نفسه، ص١٤٠،١١٦–١٤١، لاندن، مرجـــع ســـابق، ص٤٥٨ – ٤٥٩.

(18) I.O.R., L / P& S/18/B 400, Report about Situations in Muscat 1908 – 1928dated 25Aug. 1928.

(١٩) قاسم، مرجع سابق، ص ٣٨٦ – ٣٨٧.

(٢٠) تنوف: تقع هذه البلدة على منحدرات الجبل الأخضر في وسط عمان، وهي مقر رئيسي لقبيلة بني ريام الغافرية. للتفصيل: لاندن، مرجع سابق، ص ٤٥٩.

(٢١) سالم بن راشد الخروصي، ينتمي إلى قبيلة بني خروص التي أنجبت عدداً من العلماء الإباضيين، وهو أحد تلاميذ الشيخ عبد الله بن حميد السالمي، تميز بالورع والزهد، أُنتخب إماماً وعمره ثلاثون سنة. للتفصيل: محمد السالمي، مصدر سابق، ص ١٧٧، ١٩٧ – ١٩٩، ٣١٠.

(٢٢) غباش، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٢٣) نزوى: مدينة تقع في وسط عمان، وتبعد عن مسقط ١٨٠ كم بها قلعة تاريخية تُسمى باسمها. للتفصيل: **سعود العنسي**، مرجع سابق، ص ٦٧ – ٦٨.

(٢٤) شركة الزيت العربية الأمريكية، مصدر سبق ذكره، ص ٨١، لاندن، مرجع سابق، ص ٤٥٩، غباش مرجع سابق، ص ٢٧٧ – ٢٧٨.

(25) I .O.R., R/15/6/42, Report about Imam Tenof Revolt dated31 July 1913.

(٢٦) مطرح: تقع على الجانب الغربي من خليج يُسمى باسمها، وتبعد ميلين إلى الغرب من مسقط، وتعتبر من أهم المدن التجارية في عمان، وهي الآن امتداد لمدينة مسقط. للتفصيل: سعود العنسي، مرجع سابق، ص٥٩، لوريمر، مصدر سابق، القسم الجغرافي، ج٤ / ١٥١١

(٢٧) مذكرة الحكومة السعودية، /٣١٩، نقلاً عن لاندن، مرجع سابق، ص٤٦١، قاسم، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

(٢٨) رسالة بالعربية من الإمام سالم بن راشد الخروصي إلى الميجر ناكس I.O.R. R/15/6/42, القنصل البريطاني في مسقط مؤرخة في ٩ شعبان ١٣٣١ هـ.

(٢٩) بوشهر: ميناء رئيسي على الخليج العربي في الجهة الشرقية منه، وسكانه خليط من العرب والفرس والأرمن، وهو الآن تابع لدولة إيران. لمزيد من التفاصيل :

I .O . R., V/23/ 217, Memoir Descriptive of the Navigation of the Gulf of Persian ,P. P. 584- 586 .

(٣٠) غباش، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٣١) بيت الفلج: مضيق يقع على بعد ثمانية أميال إلى الشمال من ميناء مطرح، قاسم، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

(٣٢) قاسم، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

(٣٣) أزكي: تقع وفي وسط عمان، وهي مدينة تاريخية، وكانت تُسمى جرنان، تشتهر بالزراعة. سعود العنسي، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٣٤) سمائل: تقع في وادٍ يُسمى باسمها، في منتصف الطريق بين مسقط ونزوى وتبعد عن مسقط حوالي ٨٥ كم، وتُسمى أيضاً بالفيحاء. للتفصيل: مرجع سابق، ص٦٨.

(٣٥) جمال قاسم، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

(٣٦) رسالة بالعربية من السلطان فيصل بن تركي إلى الميجر نوكس I . O. R., R/15/6/42 القنصل البريطاني في مسقط، مؤرخة في ٤ شعبان ١٣٣١ هـ.

(٣٧) رسالة بالعربية من الإمام سالم بن راشد الخروصي إلى الميجر نوكس القنصل البريطاني في مسقط، مؤرخة في ٢٩ شعبان ١٣٣١هـ. I.O.R O., R/15/6/ 42 .

(٣٨) كان السلطان فيصل بن تركي قد أصدر إنذاراً إلى زعماء القبائل العمانية في ٥ جمادى الآخرة من عام ١٣١٣ هـ جاء فيه: "إلى كافة من يراه وبعد، نعرفكم بأنه قد وصلنا كتاب من جناب أمير الخليج بهذا المضمون أنه نظراً إلى المصالح المهمة

لرعايا الدولة البريطانية في بلدتي مسكد (مسقط) ومطرح قد عزمت الدولة البريطانية إصدار الإنذار إلى أكابر مشايخ أهل عمان بأن فيما بعد (هكذا) مهما يقع من خصومة منهم في حق السيد فيصل لا تترك الدولة المذكورة أحداً منهم يهجم على هاتيك (هكذا) البلدتين فننذركم بهذا الاشتهار (هكذا) فإياكم بالتعدي (هكذا) على مطرح ومسكد وكفى إخباركم بذلك I .O .R., R/ 15/ 6/42 "إعلان بالعربية صادر من السلطان فيصل بن تركي مؤرخ في ٥ جمادى الآخر ١٣٣١ هـ.

(٣٩) رسالة بالعربية من نوكس القنصل البريطاني في مسقط إلى الشيخ سالم بن راشد الخروصي، مؤرخة في ١١ رمضان ١٣٣١ هـ/١٥ آب ١٩١٣م I .O .R., R/ 15/ 6/42

(٤٠) رسالة: العربية من الإمام سالم بن راشد الخروصي إلى القنصل البريطاني في مسقط، مؤرخة في ٣٠ شوال ١٣٣١ هـ I .O .R., R/ 15/ 6/42.

(٤١) تولى تيمور بن فيصل الحكم وهو في السابعة والعشرين من العمر، وكان له نشاط ملحوظ أثناء حكم والده، تولى الحكم في ظروف بالغة الحساسية وكان يرغب في التنازل عن الحكم إلا أن حكومة الهند البريطانية وقفت ضد ذلك، حتى تم له ما أراد في عام ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢م . محمد السالمي، مصدر سابق، ص ٢٥٠ ، ٤٧٠، محمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية**، ط ١، الدار العربي للموسوعات، بيروت، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م،ج ٢ ،ص ١٤٢١.

(٤٢) محمد السالمي، مصدر سابق، ص ٢٣٧ ، ٢٥٠ – ٢٥١.

(٤٣) شركة الزيت العربية الأمريكية، مرجع سابق، ص٨٢؛ لاندن، مرجع سابق، ص ٤٦١.

(٤٤) غباش، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

(٤٥) بركا: تقع في ساحل منطقة الباطنة إلى الشمال الغربي من مسقط على بعـــد ٤٣ ميل منها، وهي ميناء مهم. لوريمر، مصدر سابق، القسم الجغرافي، ج ١، ص ٣٣٥

(٤٦) قريات: تقع على بعد حوالي ٨٥ كم إلى الجنوب من مسقط، وتطل على ساحل خليج عمان. سعود العنسي، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٤٧) صور: إحدى المدن التجارية المهمة التي تقع على الساحل إلى الجنوب الغربـــي من مسقط، وتأتي في المرتبة الثانية بعد مسقط. للتفصيل: مـــايلز، مـــصدر ســـابق، ص٣٨٤؛ مديحة أحمد درويش، **سلطنة عمان في القرنيين الثامن عـــشر والتاســـع عشر**، ط ١، دار الشروق، جدة، ١٩٨٢م، ص ٢٩.

(٤٨) صحار: ميناء مهم لعمان يقع في شمال شرقي البلاد، ويبعد عن مسقط حـــوالي ١٥٠ ميلاً. مايلز، مصدر سابق، ص ٣٦٤- ٣٦٥.

(٤٩) الباطنة: منطقة واسعة تمتد من حدود عمان مع الإمارات العربية المتحدة حتـــى محافظة مسقط جنوباً وهي أكثر مناطق عمان ازدحاماً بالسكان وتقع فيها أهم المـــدن العمانية. سعود العنسي، مرجع سابق، ص ٦٣- ٦٤.

(50) I. .R., R/15/6/43, Telegram From P. A. in Muscat to P. R. in Aprili 1914;14

محمد عبد الله السالمي وناجي عساف، عمان تاريخ يـــتكلم، ط ١ المطبعـــة العربيـــة، دمشق، ١٣٨٣ هـــ/ ١٩٦٣م، ص ٢١٩

(٥١) لاندن، مصدر سابق، ص ٤٦٢.

(٥٢) بدر الدين عباس الخـــصوصي، دراســـات تـــاريخ الخلـــيج العربـــي الحـــديث والمعاصر، ط ١، نشر ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨م، ج٢ ،ص ٢٠٣ I .O (53).

Report of the P.A. to the P. R. about Revolt Oman Tribes dated 25 January 1915. .R., R/ 15/ 6/45 .

(٥٤) الخصوصي، مرجع سابق ج٢، ص ٢٠٣

(٥٥) البريمي: واحة تتألف من تسع قرى تقع إلى الشرق من مدينة أبو ظبي وتبعد عنها تسعين ميلاً، تسكنها قبائل النعيم وبنو ياس. شركة الزيت العربية الأمريكية، مرجع سابق ص ١٩٩ وما بعدها، مايلز، المصدر السابق، ص ٤٤٧.

(٥٦) الخصوصي، المرجع السابق، ج٢ ، ص ٢٠٣.

(57) I .O .R., R/ 15/ 6/45 , Telegram From P. A. to P. R., dated 12 January 1915.

(٥٨) قاسم، مرجع سابق، ص ٣٨٩.

(٥٩) تبين المراسلات التي جرت بين القنصل البريطاني في مسقط وزعماء الإمامة الإباضية أن القبائل العمانية لم تكن معترضة على مكافحة تجارة الرقيق، وتجارة السلاح، بل أنها طالبت بحرية الملاحة العربية في البحار، دون خضوعها لإجراءات التفتيش المختلفة، صلاح العقاد، مرجع سابق، ص ٢٢١. وللإطلاع على بعض من هذه المراسلات. سليمان وإبراهيم أبناء حمد الحارثي، **عمان في المحافل ا لدولية**، ط١، دار اليقظة العربية، للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٦٦م، ص ١١٩ - ١٢٧، وهذا الكتاب عبارة عن وثائق مترجمة تخص عمان.

(60) I . O .R , Lip& S/ B 398, Report about the Revolt against Sultan of Muscat in May 1913 to July 1916,
شركة الزيت العربية الأمريكية ، مصدر سابق، ص ٩٣ ، قاسم، مرجع سابق ص ٣٨٩.

(٦١) لاندن ، مرجع سابق، ص ٤٦٣.

(62) I .O .R . L /P&S/ 18/B 398, Report about the Revolt, OP Cit (63) Ibid.
(64) Ibid.

(٦٥) رسالة بالعربية من الشيخ عيسى بن صالح الحارثي، I .O .R., R/ 15/ 6/45 إلى القنصل والممثل البريطاني في مسقط، مؤرخة ١٥ أيلول ١٩١٥م.

(66) I . O .R , Lip& S/ B 398, Report about the Revolt ,OP.Cit.

(٦٧) أمين سعيد، **الخليج العربي**، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ص ٨٠

(٦٨) غباش ، مرجع سابق ، ص٢٨٥.

(٦٩) الرستاق: بلدة صغيرة تقع في منطقة الحجر الغربي، وتبعد عن مسقط حوالي ١٦٠ كم وتوجد بها قلعة قديمة، تُسمى عند بعض الباحثين العاصمة الدينية، لوريمر، مصدر سابق، القسم الجغرافي، ج٦، ص٢٠١٠، سعود العنسي ، مرجع سابق، ص٦٤.

(٧٠) شركة الزيت العربية الأمريكية ، مصدر سابق ، ص ٩٥ م، حمد السالمي، مصدر سابق، ص ٢٩٠ – ٢٩٣.

(٧١) السالمي، المصدر السابق، ص ٢٧٢، ٢٨٦ – ٢٨٧؛ لاندن، مرجع سابق، ص٤٦٦.

(٧٢) لاندن، المصدر السابق، ص ٤٦٧.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٤٦٨.

(74) I .O .R., L/ P&S /18/B 400, Report about Political Situations in Muscat, between 1908 – 1928, dated in 25 August 1928.

(٧٥) الخصوصي، مرجع سابق، ج٢ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٥

(76) I .O .R., L/ P&S /18/B 400, Report about Political Situations...,OP.Cit .

(٧٧) غباش، مرجع سابق، ص٢٨٦.

(78) I .O .R, R /15/6/ 254, Strong Letter from P.A. to Sheikh Eissa Ben Salih, in 2 March 1919.

(79) Ibid.

(80) I .O . R. R/ 15/6 /233, Report of the P.A. to the P. R. about aut Lines of Sheikh Salih Bin Ali AL Harissy and Son Policy, in 14 April 1930.

(81) Ibid.

(82) Ibid.

(83) Ibid.

(٨٤) شركة الزيت العربية الأمريكية، مرجع سابق، ص ٩٧، وقد ذكر محمد السالمي أن الرجل الذي قتل الإمام الخروصي كان مطلوباً للعدالة. مصدر سابق، ص٣١١.

(85) I.O.R,R/15/6/204,Telgram About Assassination of Al Imam Salem, in 23 July 1920.

(٨٦) رسالة بالعربية من الشيخ عيسى بن صالح الحارثي I.O.R,R/15/6/204 إلى وينغيت الوكيل السياسي والقنصل البريطاني في مسقط، مؤرخة في ٦ ذو القعدة ١٣٣٧ هـ / ٣آب ١٩٢٠م.

(87) I.O.R .,R/15/6/204, Report about of the Situation in Oman inside after Assignation of Al Imam No dadat.

(٨٨) فقدت الإمامة الإباضية في تلك الفترة عدداً من زعمائها في مقدمتهم الإمام سالم بن راشد الخروصي، وكذلك الشيخ حميد بن ناصر النبهاني، ومرّت الإمامة بمرحلة من الضعف، وأبدى عدد من زعماء القبائل الإباضية الرغبة في الدخول في تبعية السلطان بعد زيادة معاناتهم من الضرائب الباهظة المفروضة على منتجاتهم. انظر: محمد السالمي، مصدر سابق، ص ٢٨٢، ٢٩٩، ٣٠١، ٣١٠، الخصوصي، مرجع سابق ، ج٢، ص ٢٠٠.

(89) I.O.R R/15/6/204, Telegrams about the improving of Talkings between Oman Tribes in August and September1920. (90) I.O.R,R/15/6/52, Translation of a letter from Sultan of Muscat to P.A. Wingate in 10 Al hijjah 1338 ,September 1920.

(91) I.O.R .,R/15/6/204, Report about of the Meeting …Op. Cit.

(92) I.O.R ., R/15/6/204 ,a Copy of Al Seebe Treaty for Omans.

(93) Ibid.

(٩٤) غباش، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٩٥) العقاد، مرجع سابق، ص ٢٢٤، غباش، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٩٦) الخصوصي، مرجع سابق، ج٢، ص ٢١١.

(٩٧) عمان في المحافل الدولية، مصدر سابق، ص١٣٣، اللجنة الخماسـية لتقـصي الحقائق في عمان عام ١٩٦٤م، قضية عمان في الأمم المتحدة، ترجمة محمـد أمـين عبد الله، د. ط، دار الهنا، القاهرة، د . ت ،ص ١٠٩.

(98) Kell, j .B , Aprevalence of furies: Tribes Politics and Religion in Oman and Trucial Coast in the Arabian Peninsula, Society and Politics,London,1970, P.120-123.

العقاد، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٩٩) غباش، مرجع سابق، ص ٣١٣ – ٣١٥.

المصادر والمراجع

أولاً: وثائق عربية من أرشيف مكتب سجلات الهند في لندن:

India Office Record (I.O.R.)

١- I .O .R., R/ 15/ 6/42,

إعلان بالعربية صادر من السلطان فيصل بن تركي مؤرخ في ٥ جمادى الآخر ١٣٣١ هـ.

2- I . O. R., /15/6/42.

رسالة بالعربية من السلطان فيصل بن تركي إلى الميجر نوكس القنصل البريطاني في مسقط، مؤرخة في ٤ شعبان ١٣٣١ هـ .

3- I.O.R., R/15/6/42.

رسالة بالعربية من الإمام سالم بن راشد الخروصي إلى الميجر نوكس القنصل البريطاني في مسقط مؤرخة في ٩ شعبان ١٣٣١ هـ .

4- I.O.R., R/15/6/ 42.

رسالة بالعربية من الإمام سالم بن راشد الخروصي إلى الميجر ناكس القنصل البريطاني في مسقط ، مؤرخة في ٢٩ شعبان ١٣٣١ هـ .

5- I .O .R., R/ 15/ 6/42.

رسالة بالعربية من ناكس القنصل البريطاني في مسقط إلى الشيخ سالم بن راشد الخروصي، مؤرخة في ١١ رمضان ١٣٣١ هـ/ ١٥ آب ١٩١٣م.

6- I .O .R., R/ 15/ 6/42 .

رسالة العربية من الإمام سالم بن راشد الخروصي إلى القنصل البريطاني في مسقط، مؤرخة في ٣٠ شوال ١٣٣١ هـ .

7- I.O.R .,R/15/6/204.

رسالة بالعربية من الشيخ عيسى بن صالح الحارثي إلى وينغيت الوكيل السياسي والقنصل البريطاني في مسقط مؤرخة في ٦ ذو القعدة ١٣٣٧ هـ/ ٣ آب ١٩٢٠م.

8- I .O .R., R/ 15/ 6/45 .

رسالة بالعربية من الشيخ عيسى بن صالح الحارثي إلى القنصل والممثل البريطاني في مسقط، مؤرخة ١٥ سبتمبر ١٩١٥م.

ثانياً: وثائق انجليزية من أرشيف مكتب سجلات الهند في لندن:

(I.O.R.) India Office Record

9- I.O.R .,R/15/6/264, Report about Background of the Meeting between P.A . and Shaikh Issa Bin Salih in Muscat before Treaty Al Seeb ,in 14 October1920.

10- I.O.R., L / P& S/18/B 400, Report about Situations in Muscat 1908 – 1928, dated 25Aug. 1928 .

11- I .O.R., R/15/6/42, Report about Imam Tenof Revolt dated 31 July 1913.

12- I.O . R., R/15/6/43, Telegram From P. A. in Muscat to P.R. in 14 April 1914.

13- I .O .R., R/ 15/ 6/45 , Telegram From P. A. to P. R.,dated 12 January 1915.

14- I .O .R., R/ 15/ 6/45, Report of the P.A. to the Revolt Oman 14 Tribes dated 25 January 1915.

15- I . O .R , Lip& S/ B 398, Report about the Revolt against Sultan of Muscat in May 1913 to July 1916 .

16- I .O .R., L/ P&S /18/B 400, Report about Political Situations in Muscat, between 1908 – 1928, dated in 25 August 1928 .

17- I .O .R, R /15/6/ 254, Strong Letter from P.A. to Sheikh Eissa Ben Salih, in 2 March 1919.

18- I .O . R. R/ 15/6 /233, Report of the P.A. to the P. R. about aut Lines of Sheikh Salih Bin Ali AL Harissy and Son Policy, in 14 April 1930.

19- I.O.R,R/15/6/204,Telgram About Assassination of Al Imam Salem, in 23 July 1920.

20- I.O.R R/15/6/204, Telegrams about the improving of Talkings between Oman Tribes in August and Septe.

21- I.O.R,R/15/6/52 , Translation of a letter from Sultan of Muscat to P.A. Wingate in 10 Dhu Al hijjah 1338 ,8 September 1920 .

22- I .O . R., V/23/ 217, Memoir Descriptive of the Navigation of the Gulf of Persian .

23- I.O.R .,R/15/6/204, Report about of the Situation in Oman inside after Assination of Al Imam No dadat.

24- I.O.R ., R/15/6/204 ,a Copy of Al Seebe Treaty for Oman's .

ثالثاً: مصادر ومراجع عربية ومعربة:

١. أمين سعيد، الخليج العربي، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

٢. بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ط ١، نشر ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨م.

٣. جمال قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ – ١٩١٤م، ط ٢، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٤م.

٤. حسين عبيد غباش، عُمان الديمقراطية الإسلامية، ط ١، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٧م.

٥. حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر وآخر، ط ٤، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٩٩٤م.

٦. روبرت جيران لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسير ومصير، ط ٥، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٩٩٤م.

٧. سرحان بن سعيد الأزكوري، تاريخ عمان، تحقيق عبد المجيد القيسي ، ط ٢، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٩٨٦م.

٨. سعود بن سالم العنسي، العادات العمانية، ط ١، وزارة التراث القومي في عمان، مسقط، ١٩٩١م.

٩. سليمان وإبراهيم أبناء حمد الحارثي، عمان في المحافل الدولية، ط ١، دار اليقظة العربية، للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م.

١٠. شركة الزيت العربية الأمريكية، عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي، ط ١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٢م.

١١. صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، د.ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٢م.

١٢. عبد الله بن إبراهيم التركي، فترة حكم عزان بن قيس في عمان ١٨٦٨ – ١٨٧١م، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، مصر، عدد تموز ٢٠٠٤م.

١٣. علي يحيى عمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية، ط ٣، نشر وزارة التراث القومي في عمان، مسقط، ١٩٩٤م.

١٤. اللجنة الخماسية لتقصي الحقائق في عمان عام ١٩٦٤م ، قضية عمان في الأمم المتحدة، ترجمة محمد أمين عبد الله ، د .ط ،دار الهنا ، القاهرة، د . ت.

١٥. لوريمر، ج . ج، دليل الخليج، د. ط، ترجمة ونشر ديوان أمير قطر، الدوحة د.ت.

١٦. مايلز س. ب. ، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله، ط ٤، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

١٧. مجموعة من الباحثين، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط ٢، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٩٨٩م.

١٨٧. محمد رشيد العقيلي، الإباضية في عمان، ط١، نشر وزارة التراث القومي الثقافة في عمان، مسقط، ١٩٨٤م .

١٩. محمد شيبة السالمي، نهضة الأعيان بحرية عمان، د.ط، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت.

٢٠. محمد عبد الله السالمي وناجي عساف، عمان تاريخ يتكلم، ط١، المطبعة العربية، دمشق، ١٩٦٣م .

٢١. محمد مختار باشا، التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية، ط ١، الدار العربي للموسوعات، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٢. مديحة أحمد درويش، سلطنة عمان في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، ط ١، دار الشروق، جدة، ١٩٨٢م .

٢٣. نور الدين عبد الله بن محمد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، د. ط، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط، د. ت.

رابعاً: مراجع أجنبية:

1- Kelly, j .B , A prevalence of furies: Tribes Politics and Religion in Oman and Trucial coast in the Arabian Peninsula , Society and Politics,Londin,1970 .

*الاختصارات المستخدمة في الوثائق الإنجليزية:

P.A. الوكيل السياسي البريطاني في مسقط political Agent

P.R. المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي political Resident

الموقف العربي من حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير

الدكتور رامز زغيبي

تمهيد تاريخي

مر أكثر من ستين عاماً منذ احتلال الأراضي الفلسطينية وتشريد شعبها من قبل القوات الإسرائيلية. الرغم من قرارات الأمم المتحدة الداعمة لقضيته، والداعية لمنحه حق تقرير مصيره له ولسائر الشعوب الواقعة تحت الاحتلال أو الاستعمار أو الفصل العنصري، لم يتمكن الشعب الفلسطيني من تحقيق ذلك بسبب المساندة المطلقة للقوى العظمى للكيان الإسرائيلي، وتخلي الدول العربية عن تقديم الدعم اللازم والكافي له لاسترداد حقوقه الشرعية المستباحة من قبل أفظع وأشرس استعمار واحتلال وفصل عنصري في العصر الحديث. غير أن من الأسباب الأساسية لذلك أيضا هو تخلي بعض قياداته عن خيار المقاومة كسبيل لا غنى عنه في تاريخ الدول لاسترجاع السيادة الوطنية. فمنذ توقيع معاهدة السلام بين الكيان الإسرائيلي ومصر وبينه وبين الأردن مرورا باتفاقية أوسلو بينه وبين السلطة الوطنية، تَكَرَّسَ توجه جديد ينحو صوب السلام كخيار استراتيجي ووحيد لحل القضية الفلسطينية. وبعد مرور أكثر من ١٦ عاما على توقيع أوسلو لم يتحرر شبر واحد من الأراضي الفلسطينية بالسلام

والمفاوضات. بل إن الاحتلال الإسرائيلي اندحر من جنوب لبنان تحت ضربات المقاومة اللبنانية، كما انسحب من قطاع غزة تحت ضربات فصائل المقاومة بقيادة حماس.

فكل ما قدمته السلطة الفلسطينية من تنازلات في إطار مفاوضات السلام لم يشفع لها في شيء. إذ ظلت الضفة الغربية في ظل المفاوضات محاصرة وأراضيها تتآكل بفعل المستوطنات والجدار الفاصل، وتمت ملاحقة المقاومين، وتكدست سجون الاحتلال بالمعتقلين حتى الأطفال منهم(١). ولم يتم الضغط من أجل معاملتهم كأسرى حرب وليس كمساجين طبقا للقانون الدولي واتفاقيات جنيف ١٩٤٩. مع ذلك ظل طاقم السلطة يصر على المفاوضات والتنازلات للكيان الإسرائيلي، وفي المقابل يدين عمليات المقاومة. بل أدى الأمر إلى إبرام اتفاقات أمنية مع العدو محورها الأساسي أن «تعمل السلطة الفلسطينية بشكل فوري على الاعتقال والتحقيق والسجن للإرهابيين (المقاومين) في الضفة الغربية وفي غزة، وترفع للجنة الأمنية أسماء المعتقلين، فور اعتقالهم وكذا تفاصيل عن النشاطات التي اتخذتها»(٢). ويساند السلطة الفلسطينية في هذا التوجه بعض الدول العربية التي ارتبطت هي الأخرى باتفاقات سلام واتفاقات أمنية مع الكيان الإسرائيلي، وكذلك بعضُ الدول الخاضعة لضغوط الولايات المتحدة الأمريكية المساند الرئيس للكيان الإسرائيلي.

لم تكتف إسرائيل بهذا كله، بل عمدت إلى محاصرة الشعب في الضفة الغربية وقطاع غزة. وعندما تحرر القطاع وأصبح يدار من قبل حكومة حماس التي فازت بالأغلبية في الانتخابات الفلسطينية الأخيرة، ومنذ ٢٠٠٧م كثفت إسرائيل تشديد الحصار بغلق جميع المعابر، بحيث أصبح القطاع الذي يعيش فيه أكثر من مليون ونصف من السكان أشبه بالسجن الكبير محاصراً من كل الجهات جواً وبراً وبحراً. حتى معبر رفح الوحيد والأقرب والأهم بين غزة ومصر أغلقته السلطات المصرية أمام المساعدات الإنسانية لسكان القطاع. فلم يكن أمامهم سوى حفر الأنفاق بين

الأراضي المصرية والقطاع من أجل تهريب المواد الغذائية والأدوية والحاجيات اليومية لسكان غزة. وفي ذكرى السنة الأولى لمجزرة غزة التي اقترفها العدو الصهيوني وراح ضحيتها أكثر من ١٤٠٠ شهيد وأكثر من ٥٠٠٠ جريح، تفاجأ الشعب المحاصر في غزة والعالم العربي والإسلامي بإقدام السلطات المصرية على بناء جدار فولاذي تحت الأرض على طول الحدود المصرية مع غزة بعمق يصل إلى ٣٠ متراً وذلك لسَد الأنفاق التي أصبحت البديل عن المعابر والحصار، والتي أضحت شريان الحياة لسكان القطاع كما وصفتها تقارير الأمم المتحدة كما سيأتي. مع كل هذا لم تستنكر أي من الدول العربية الأخرى والجامعة العربية ما قامت به مصر من بناء الجدار أو إغلاق معبر رفح و تشديد الحصار على الفلسطينيين في قطاع غزة، كأن كل تلك التصرفات والمواقف تتفق مع القانون الدولي والاتفاقيات الدولية والإقليمية ولا تتناقض أو تقوض حق الفلسطينيين في تقرير المصير.

١ – حق تقرير في القانون الدولي:

لكثرة ما تردد على ألسنة الفريق الفلسطيني المنغمس في المفاوضات مع الكيان الصهيوني، من أن ما تقوم به فصائل المقاومة من عمليات فدائية أو إطلاق صواريخ على المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، هي أعمال عبثية تارة وإرهابية تارة أخرى، وتأييد بعض الأنظمة العربية لذلك، والإصرار على تكرار رفع شعار السلام هو الخيار الاستراتيجي مع الإسرائيليين، مما يوحي بأن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني وحقه في مقاومة الاحتلال أمر لم يعد له سند في المواثيق الدولية، ووجب إلغاؤه من قاموس العلاقات الدولية. ومن ثم لا يحق الاستناد إلى هذا الحق حسب البعض أمام الدول أو أمام الأمم المتحدة والمنظمات الدولية وجمعيات حقوق الإنسان. بينما الحقيقة أن حق تقرير المصير ومقاومة الاحتلال والاستعمار والفصل العنصري حق للشعب الفلسطيني ولكل شعب محتل أو مستعمر، في الدفاع عن حقوقه

المشروعة بكل الوسائل بما فيها الكفاح المسلح لنيل استقلاله وتقرير مصيره، وواجب على كافة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، وعلى الدول العربية خصوصا، دعم الشعب الفلسطيني في ممارسة حقه في تقرير مصيره باعتباره حقاً كما تقرره وتؤكده دساتير الدول وقرارات الأمم المتحدة والمواثيق الدولية وتعمل على مساندته المنظمات غير الحكومية. وذلك وفق العناصر التالية.

أولاً: حق تقرير المصير في دساتير الدول:

إذا كان حق تقرير المصير ومقاومة الاستعمار قد أصبح من أهم مبادئ الأمم المتحدة والقانون الدولي سواء من مصدره العرفي أو التعاهدي، فقد كان من أهم الحقوق التي نصت عليها إعلانات الحقوق ودساتير الدول الكبرى التي أضحت نموذجاً للديمقراطية في العصر الحديث. فقد نصت وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي (١٧٧٦/٠٧/٠٤) صراحة على حق المقاومة مؤكدة على أن المقاومة المسلحة هي السبيل الأخير للانتفاضة ضد الهيمنة الاستعمارية (الإنجليزية) في المستعمرات الأمريكية[٣] التي أصبحت فيما بعد الولايات الأمريكية المتحدة.

كما نص الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن الذي أصدرته الجمعية التأسيسية الوطنية في ٢٦ آب ١٧٨٩ في المادة الثانية منه على أربعة حقوق أساسية من بينها حق المقاومة. إذ جاء فيه أن:

«الهدف من كل جمعية سياسية هو المحافظة على الحقوق الطبيعية غير القابلة للتقادم، والمتمثلة في: الحرية والملكية والأمن ومقاومة الظلم أو الاستبداد»[٤].

كذلك نص إعلان حقوق وواجبات الإنسان الاجتماعي الذي أُقر في جنيف بـــ ١٧٩٣/٦/٩ «وفي مادته العاشرة على ستة حقوق هي: المساواة والحرية والأمن والملكية والضمان الاجتماعي ومقاومة الظلم. ثم أكدت المادة ٤٤ على أنه "لكل مواطن الحق في مقاومة الظلم»[٥].

بناءً على ذلك استعملت الشعوب الأوروبية كغيرها من الشعوب المستعمرة، أثناء احتلالها من قبل الألمان كل وسائل المقاومة لتقرير مصيرها واسترجاع حريتها، بل لقد استعملت ذلك حتى داخلياً لمجابهة الظلم والاستبداد من الأباطرة. كذلك فعل الشعب الأمريكي عندما كان محتلاً من قبل الاستعمار البريطاني. بل إن حق تقرير المصير الذي رفعته الدول الغربية لمواجهة الألمان، رفعته أمريكا أيضاً بعد استقلالها لتحرير القارة الأمريكية من النفوذ الأوروبي. فعندما قامت الثورات في المستعمرات الاسبانية في أمريكا الجنوبية استنجدت اسبانيا بالحلف المقدس(٦) لمساعدتها على إخماد الثورات واستعادة مستعمراتها. حينئذ تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية لمنع تلك التدخلات معلنة أن أمريكا للأمريكيين وفقاً لتصريحٍ للرئيس الأمريكي آنذاك "جيمس مونرو" وجهه بتاريخ ١٨٢٣/١٢/٠٧م، بين فيه موقف سياسة أمريكا إزاء الدول الأوروبية، وأصبح يعرف بتصريح مونرو أو نظرية مونرو. يتلخص في أن القارة الأمريكية لم يعد يسمح فيها بعد اليوم لأي احتلال أو استعمار لأي إقليم من أقاليمها من جانب أية دولة من الدول الأوروبية، وأن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح بعد الآن بأي تدخل من الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية أو الخارجية للدول الأمريكية، وكل شيء من ذلك يعد خطراً على أمن وسلامة الولايات المتحدة الأمريكية(٧).

ثانياً– حق تقرير المصير في قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة:

إذا كان بعض الفقهاء قد حاول أن يؤسس حق الشعوب في استعمال القوة ضد الاستعمار وتلقي المساعدات من الخارج على أساس حق الدفاع الشرعي فإن الرأي الغالب يرى أنه لا حاجة للبحث عن أساس هذا الحق في حق الدفاع الشرعي لأن حق الشعوب في الدفاع وتلقي المساعدات مؤسس على حق تقرير المصير(٨).

يقصد بتقرير المصير في مجمله أن لكل أمة أو شعب الحق في أن يكون مستقلاً وأن يحدد بنفسه نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي. لقد أدركت الأمم المتحدة

منذ البداية أن حق تقرير المصير يعد شرطاً أساسياً لممارسة الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. فنصت في الفصل الأول في ميثاقها المتعلق بالمبادئ والأهداف على «...تنمية العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام مبدأ المساواة في الحقوق بين الشعوب وحقها في تقرير مصيرها...» وفي المادة ٥٥ على: «.. أن يكون لكل منها الحق في تقرير مصيرها». وكما أكد الفقهاء على الترابط بين حقوق الإنسان وحق الشعوب في تقرير مصيرها(٩) وأكدته محكمة العدل الدولية(١٠) فقد أكدته أيضاً الأمم المتحدة في كثير من قراراتها، من أهمها ما يلي:

- قرار الجمعية العامة ١٥١٤ (د-١٥) في ١٤/ ١٢/ ١٩٦٠م المتضمن إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة. والذي أبرزت فيه الجمعية العامة أهمية حق تقرير المصير بإدراكها أن شعوب العالم تواقة للحرية، وأن للأمم المتحدة دور هام في مساعدة حركات التحرر، وإدراكاً منها أن شعوب العالم تحدوها رغبة قوية في إنهاء الاستعمار بجميع مظاهره:

...... « تعلن ما يلي:

١- إن إخضاع الشعوب للاستعباد الأجنبي وسيطرته واستغلاله يشكل إنكاراً لحقوق الإنسان الأساسية، ويناقض ميثاق الأمم المتحدة، ويعيق قضية السلم والتعاون العالميين.

٢- لجميع الشعوب الحق في تقرير مصيرها، ولها بمقتضى هذا الحق أن تحدد بحرية مركزها السياسي وتسعي بحرية إلي تحقيق إنمائها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

٣- لا يجوز أبداً أن يتخذ نقص الاستعداد في الميدان السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو التعليمي ذريعة لتأخير الاستقلال.

٤- يُوضع حد لجميع أنواع الأعمال المسلحة أو التدابير القمعية الموجهة ضد الشعوب التابعة لتمكينها من الممارسة الحرة والسلمية لحقها في الاستقلال التام، وتُحترم سلامة ترابها الوطني.

٥- يصار فوراً إلى اتخاذ التدابير اللازمة، في الأقاليم المشمولة بالوصاية أو الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي، أو جميع الأقاليم الأخرى التي لم تنل بعد استقلالها، لنقل جميع السلطات إلى شعوب تلك الأقاليم، دون أية شروط أو تحفظات، ووفقاً لإرادتها ورغبتها المعرب عنهما بحرية، دون تمييز بسبب العرق أو المعتقد أو اللون، لتمكينها من التمتع بالاستقلال والحرية التامين..»[١١].

- قرار الجمعية العامة المؤرخ في ١٤/ ١٢/ ١٩٦٢م، الذي يشير ويؤكد في ديباجته أن السيادة الدائمة على الثروات والموارد الطبيعية ركن أساسي من أركان حق تقرير المصير[١٢].

- قرار الجمعية العامة الصادر في ٢١ /١٢/ ١٩٦٥ الذي ينص في الفقرة السادسة منه على:

«على كل الدول أن تحترم حق الشعوب والأمم في تقرير المصير والاستقلال ... ونتيجة لذلك ينبغي على كل الدول أن تساهم في القضاء التام على التمييز العنصري والاستعماري بكل صوره وبكامل مظاهره»[١٣].

- قرار الجمعية العامة الصادر في ١٤/ ١٢/ ١٩٦٩م الذي أكد على أحقية هذه الشعوب في استعمال القوة من أجل الاستقلال. كما أقر هذا الإعلان أن على كافة الدول واجب تقديم العون والمساعدات المادية والمعنوية للشعوب المستعْمَرَة[١٤].

- قرار الجمعية العامة رقم ٣٥ الصادر في ١٩٨٠/١١/١٤م المتعلق بحق الشعوب

في تقرير المصير، والذي نص على أن الأمم المتحدة: «تكرر الإعراب عن تقديرها للمساعدة المادية وغيرها من المساعدات التي مازالت الشعوب الواقعة تحت الحكم الاستعماري والأجنبي تتلقاها من الحكومات ووكالات الأمم المتحدة والمنظمات الحكومية الدولية، وتدعو إلى زيادة هذه المساعدات إلى أقصى حد ممكن».

كما نصت الفقرة ١٧ من هذا القرار أيضاً على تكثيف الجهود لدعم هذه الشعوب في كفاحها العادل من أجل تقرير المصير والاستقلال(١٥).

- ومن قراراتها المهمة في هذا الشأن القرار رقم ٣٢٤٦ المؤرخ في تشرين الثاني ١٩٧٤م، الذي تؤكد فيه من جديد أن استقلال الشعوب (روديسيا الجنوبية) لا ينبغي أن يتم التفاوض بشأنه مع نظم الحكم غير الشرعية ولكن مع الممثلين الحقيقيين والمعترف بهم لتلك الشعوب.

وتؤكد أيضا شرعية كفاح تلك الشعوب في سبيل التحرر من السيطرة الاستعمارية بكافة الوسائل المتاحة، بما في ذلك الكفاح المسلح. كما تؤكد في البند الرابع من القرار على المطالبة «بالاحترام التام للحقوق الأساسية للأفراد المملوكة لجميع الأشخاص المعتقلين أو المسجونين بسبب كفاحهم من أجل تقرير المصير والاستقلال، وبالاحترام الدقيق للمادة ٥ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تقضي بعدم جواز تعريض أي إنسان للتعذيب أو غيره من ضروب المعاملة اللاإنسانية أو الحاطة بالكرامة، وبالإفراج عن هؤلاء الأشخاص فوراً». وتدين بشدة في البند السابع من القرار جميع «الحكومات التي لا تعترف بحق الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والأجنبية والقهر الأجنبي، وعلى الأخص شعوب أفريقيا والشعب الفلسطيني، في تقرير المصير والاستقلال». وتشجب بشدة في البند الثامن منه كذلك «سياسات الدول الأعضاء في منظمة حلف شمال الأطلسي وجميع البلاد التي تؤدي علاقاتها العسكرية أو الاقتصادية أو الرياضية أو السياسية مع نظم الحكم العنصرية في الجنوب الأفريقي وغيره من

الجهات إلى تشجيع هذه النظم على التمادي في قمعها لأماني الشعوب في تقرير المصير والاستقلال». ودعت هذه الدول إلى إعادة النظر في سياستها وقطع جميع صلاتها بتلك النظم(١٦).

- وفي قرارها رقم ٣٠٣٤ الصادر في كانون الأول ١٩٧٢ أكدت على إدانة كل الأعمال والإجراءات القمعية التي تتخذها الأنظمة الاستعمارية والعنصرية ضد حق الشعوب في تقرير مصيرها، واعتبرتها إرهاباً، حيث نصت في البند الرابع منه على أنها: «تدين استمرار أعمال القمع والإرهاب التي تقدم عليها الأنظمة الإرهابية والعنصرية في إنكار حق الشعوب الشرعي في تقرير المصير والاستقلال وغيرها من حقوق الإنسان وحرياته الأساسية»(١٧)

- أما قرارها رقم ٣١٠٣ الصادر في كانون الأول ١٩٧٣ فقد خصصته للوضع القانوني للمناضلين ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية. وبعد أن ذكرت أن ميثاق الأمم المتحدة يؤكد الإيمان بكرامة الإنسان وقيمته وبضرورة الحاجة إلى تطبيق المبادئ الإنسانية الأساسية على جميع النزاعات المسلحة، وعلى أهمية احترام اتفاقيات لاهاي لسنة ١٩٠٧ وبروتوكول جنيف لسنة ١٩٢٥، واتفاقيات جنيف لسنة ١٩٤٩، وأكدت من جديد أن استمرار الاستعمار في جميع أشكاله ومظاهره هو جريمة، وأن عادة استخدام المرتزقة ضد حركات التحرر تشكل عملاً إجرامياً، وبعد الإحالة إلى قراراتها السابقة التي أشارت إلى الحاجة إلى زيادة الحماية للأشخاص الذين يناضلون في سبيل الحرية ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية، أعلنت ما يلي:

«١ - إن نضال الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية في سبيل تحقيق حقها في تقرير المصير والاستقلال، هو نضال شرعي، ويتفق تماماً مع مبادئ القانون الدولي.

٢- إن أي محاولة لقمع الكفاح ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هي مخالفة لميثاق الأمم المتحدة، ولإعلان مبادئ القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة، وللإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولإعلان منح البلاد والشعوب المستعمرة استقلالها، وتشكل خطراً على السلام والأمن الدوليين.

٣- إن النزاعات المسلحة التي تنطوي على نضال الشعوب ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية، يجب النظر إليها باعتبارها نزاعات دولية مسلحة بالمعنى الوارد في اتفاقية جنيف لسنة ١٩٤٩ والوضع القانوني المعد لتطبيقه على المحاربين في اتفاقية جنيف (١٩٤٩) وفي المستندات الدولية الأخرى التي تنطبق على الأشخاص الملتزمين في نضال مسلح ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية.

٤- إن المحاربين المناضلين ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية، الذين وقعوا في الأسر، يجب أن يمنحوا وضع أسرى الحرب، وأن يعاملوا وفق أحكام اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب تاريخ ١٢ آب ١٩٤٩.

٥- إن استخدام الأنظمة العنصرية والاستعمارية للجنود المرتزقة ضد حركات التحرير القومي التي تناضل في سبيل حريتها واستقلالها من نير السيطرة الاستعمارية والأجنبية يعتبر عملاً إجرامياً، ولذلك يجب معاقبة الجنود المرتزقة كمجرمين.

٦- إن انتهاك الوضع القانوني الخاص بالمحاربين المناضلين ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية في أثناء النزاع المسلح ينتج تحمل المسؤولية التامة وفقاً لمبادئ القانون الدولي»[١٨].

ونفس المبادئ والقواعد أكدت عليها في قراراتها في معظم دوراتها من ١٩٨٠ إلى ١٩٩٧. حيث أشار قرارها رقم ١١٣/٥٢ الصادر عام ١٩٩٧م إلى جميع تلك القرارات الصادرة في تلك الدورات مؤكداً من جديد ما للإعلان العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير من أهمية لضمان حقوق الإنسان ومراعاتها على الوجه الفعال. كما أكدت على هذا الحق أيضاً وعلى دعم الشعوب المستعمرة لنيل استقلالها في إعلانها بشأن الألفية ٢٠٠٠. إذ جاء فيه تحت عنوان القيم والمبادئ في البند ٠٤ ما يلي: «إننا مصممون على إقامة سلام عادل ودائم في جميع أنحاء العالم وفقاً لمبادئ الميثاق ومقاصده. وإننا نكرس أنفسنا مجدداً لدعم كل الجهود الرامية إلى دعم المساواة بين جميع الدول في السيادة، واحترام سلامتها الإقليمية واستقلالها السياسي، وحل المنازعات بالوسائل السلمية، ووفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي، وحق الشعوب التي لا تزال تحت السيطرة الاستعمارية والاحتلال الأجنبي في تقرير المصير، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول، واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية، واحترام ما لجميع الناس من حقوق متساوية دون أي تمييز على أساس العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين، والتعاون الدولي على حل المشاكل الدولية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وذات الطابع الإنساني»[١٩].

وإذا كانت تلك القرارات والإعلانات لا تعد بحسب الأصل ملزمة باعتبارها توصيات، إلا أن تكرار التأكيد عليها بمرور الوقت منح هذه القرارات العديدة الصادرة عن الأمم المتحدة في هذا المجال قيمة قانونية، حيث أضحت تشكل القانون الدولي العرفي[٢٠].

ثالثاً: حق تقرير المصير في المعاهدات الدولية:

إن حق الشعوب في تقرير المصير لا يوجد له سند أو مصدر في العرف الدولي

فحسب كما سبق بيانه، بل لقد أكده القانون الدولي التعاهدي. فالكثير من المعاهدات نصت وأكدت على حق تقرير المصير كحق من حقوق الإنسان، بل جعلته الحق الأساسي الذي لا غنى عنه للتمتع بباقي حقوق الإنسان. فقد ورد هذا الحق على رأس كل الحقوق في الميثاق الدولي لحقوق الإنسان. فقد نص كل من العهدين الدوليين: العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية والعهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، في المادة الأولى في كل منهما وبنفس الصيغة ونفس الفقرات:

« ١- لجميع الشعوب حق تقرير المصير بنفسها، وهي بمقتضى هذا الحق حرة في تقرير مركزها السياسي وحرة في السعي لتحقيق نمائها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي».

وأشارت الفقرة الثالثة من نفس المادة إلى:

«على كل الدول الأطراف في هذا العهد بما فيها الدول التي تقع على عاتقها مسؤولية إدارة الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والأقاليم المشمولة بالوصاية، أن تعمل على تحقيق حق تقرير المصير وأن يُحترم هذا الحق وفقا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة».

وكما تم التأكيد عليه في الكثير من الاتفاقيات الدولية[٢١]، أكدت عليه أيضاً المواثيق الإقليمية لحقوق الإنسان. فقد نص الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب في المادة ٢٠ على أنه:

١- لكل شعب الحق في الوجود، ولكل شعب حق مطلق وثابت في تقرير مصيره وله أن يحدد بحرية وضعه السياسي وأن يكفل تنميته الاقتصادية والاجتماعية على النحو الذي يختاره بمحض إرادته.

٢- للشعوب المستعمرة المقهورة الحق في أن تحرر نفسها من أغلال السيطرة واللجوء إلى كافة الوسائل التي يعترف بها المجتمع.

٣- لجميع الشعوب الحق في الحصول على المساعدات من الدول الأطراف في هذا الميثاق في نضالها التحرري ضد السيطرة الأجنبية سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية»[٢٢].

كما أكدت اتفاقية منظمة الوحدة الأفريقية لمنع الإرهاب ومكافحته لعام ١٩٩٩ على ضرورة التفريق بين الإرهاب كأعمال إجرامية وبين الكفاح الذي تخوضه حركات التحرر ضد الاحتلال والاستعمار بما فيها الكفاح المسلح، باعتباره عملاً مشروعاً ونبيلاً ولا يعد من الأعمال الإرهابية[٢٣]. كما أكدت على شرعية المقاومة من أجل الاستقلال حيث ورد في ديباجتها أن المنظمة: «تؤكد مجدداً الحق الشرعي للشعوب في تقرير مصيرها واستقلالها طبقا لمبادئ القانون الدولي وأحكام ميثاقي منظمة الوحدة الأفريقية والأمم المتحدة وكذلك الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب».

كذلك نصت معاهدة منظمة المؤتمر الإسلامي لمكافحة الإرهاب الدولي لعام ١٩٩٩ في ديباجتها على التأكيد على «شرعية حق الشعوب في الكفاح ضد الاحتلال الأجنبي والنظم الاستعمارية والعنصرية بمختلف الوسائل بما في ذلك الكفاح المسلح من أجل تحرير أراضيها والحصول على حقها في تقرير مصيرها واستقلالها، وفقاً لمبادئ القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة»، وفي مادتها الثانية على استثناء حالات كفاح حركات التحرر من الجرائم الإرهابية[٢٤].

كما أكدت الاتفاقية العربية لمنع الإرهاب ومكافحته الصادرة عام ١٩٩٨ في ديباجتها على حق الشعوب في الكفاح ضد الاحتلال الأجنبي والعدوان بمختلف الوسائل، بما في ذلك الكفاح المسلح من أجل تحرير أراضيها، والحصول على حقها في تقرير مصيرها واستقلالها وفقاً لمقاصد ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة وقراراتها. كما ألحَّت في المادة الثانية منها على أن حالات الكفاح المسلح ضد الاستعمار والاحتلال والعدوان وفقا لميثاق الأمم المتحدة لا تعد جريمة ولا تعتبر إرهاباً[٢٥].

كما نص الميثاق العربي لحقوق الإنسان الصادر عام ٢٠٠٤ في مادته الثانية على أن:

١- لكافة الشعوب الحق في تقرير مصيرها، والسيطرة على ثرواتها ومواردها، ولها الحق في أن تقرر بحرية اختيار نمط نظامها السياسي، وأن تواصل بحرية تنميتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٢- لكافة الشعوب الحق في العيش تحت ظل السيادة الوطنية والوحدة الترابية.

٣- إن كافة أشكال العنصرية والصهيونية والاحتلال والسيطرة الأجنبية هي تحدٍ للكرامة الإنسانية وعائقٌ أساسيٌ يحول دون الحقوق الأساسية للشعوب، ومن الواجب إدانة جميع ممارساتها والعمل على إزالتها.

٤- لكافة الشعوب الحق في مقاومة الاحتلال الأجنبي»[٢٦].

رابعاً: حق تقرير المصير في قرارات الأمم المتحدة بشأن القضية الفلسطينية:

أصدرت الأمم المتحدة في القضية الفلسطينية الكثير من القرارات بناءً على مبادئ ومقاصد ميثاق الأمم المتحدة، وتطبيقاً لقراراتها المتعلقة بحق تقرير المصير بصفة عامة المشار إليها أعلاه. من بينها قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (٣٢٣٦) الصادر في ١٩٧٤/١١/٢٢، الذي نص على أن «الجمعية العامة وقد نظرت في قضية فلسطين، وقد استمعت إلى بيان منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة شعب فلسطين، وقد استمعت إلى بيانات أخرى ألقيت خلال المناقشة، وإذ يقلقها عميق القلق أنه لم يتم حتى الآن التوصل إلى حل عادل لمشكلة فلسطين، وإذ تعترف بأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين لا تزال تعرض السلم والأمن الدوليين للخطر، واعترافاً منها بأن الشعب الفلسطيني قد منع من التمتع بحقوقه غير القابلة للتصرف، لاسيما حقه في تقرير

مصيره، وإذ تسترشد بمقاصد الميثاق ومبادئه، وإذ تشير إلى قراراتها المتصلة بالموضوع، التي تؤكد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره فإنها.

١- تؤكد من جديد حقوق الشعب الفلسطيني في فلسطين، غير القابلة للتصرف وخصوصاً: الحق في تقرير مصيره دون تدخل خارجي، والحق في الاستقلال والسيادة الوطنيين.

٢- وتؤكد من جديد أيضاً حق الفلسطينيين، غير القابل للتصرف في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم التي شردوا منها واقتلعوا منها، وتطالب بإعادتهم.

٣- وتشدد على أن الاحترام الكلي لحقوق الشعب الفلسطيني هذه غير القابلة للتصرف وإحقاق هذه الحقوق، أمران لا غنى عنهما لحل القضية الفلسطينية.

٤- وتعترف بأن الشعب الفلسطيني، طرفٌ رئيسيٌ في إقامة سلم عادل وشامل في الشرق الأوسط.

٥- وتعترف كذلك بحق الشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه بكل الوسائل وفقاً لميثاق الأمم المتحدة ومبادئه.

٦- وتناشد جميع الدول والمنظمات الدولية أن تمد بدعمها الشعب الفلسطيني في كفاحه لاسترداد حقوقه وفقاً للميثاق»[٢٧].

- قرار الجمعية العامة رقم ٢٦٤٩ الصادر في تشرين الثاني ١٩٧٠م تؤكد فيه شرعية نضال الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والأجنبية، وتعترف بحقها في تقرير المصير، لكي تستعيد ذلك الحق بأية وسيلة في متناولها. كما تؤكد حقها في البحث عن جميع أنواع المعونة المعنوية والمادية وتلقيها، بموجب قرارات الأمم المتحدة وروح ميثاق الأمم المتحدة. وتدين الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير

على الشعوب المعترف لها بذلك الحق وخصوصاً شعوب أفريقيا وفلسطين. وتعتبر أن الاستيلاء على الأراضي والاحتفاظ بها خلافاً لحق شعب تلك الأراضي في تقرير المصير، لا يمكن قبوله، ويشكل خرقاً فاحشاً للميثاق[٢٨].

- قرار الجمعية العامة رقم ٢٦٧٢ الصادر في كانون الأول ١٩٧٠ تؤكد فيه على قراراتها السابقة المتعلقة بالقضية في دوراتها: من الدورة ٠٣ إلى الدورة ٢٤، وتعترف فيه لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق وبحق تقرير المصير، وفقاً لميثاق الأمم المتحدة،

وتعلن أن الاحترام التام لحقوق شعب فلسطين غير القابلة للتصرف هو عنصر لا غنى عنه في إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط، وتناشد بشدة جميع الحكومات، وكذلك المنظمات والأفراد، تقديم التبرعات السخية إلى وكالة الأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى وتشغيلهم. وتدعو مرة أخرى الحكومة الإسرائيلية إلى أن تتخذ فوراً ودون مزيد من التأخير، خطوات فعالة لإعادة المشردين[٢٩].

- قرارها رقم ١١٤/٥٢ المتضمن حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير الذي أصدرته الأمم المتحدة في دورتها ٥٢ بتاريخ ١٢ كانون الأول ١٩٩٧م أكدت فيه حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير ودعت جميع الدول والمنظمات الدولية لمساعدته لتحقيق ذلك.

- هذه نماذج فقط عن أهم القرارات التي لا تخلو منها دورة من دورات الجمعية العامة. ولقد أوضحت الأمم المتحدة من هي الشعوب أو الأمم التي لها حق تقرير المصير أو لمن يتقرر الحق في المقاومة. فقد بينت أن الشعوب يقصد بها شعوب ممثلة في دول، وشعوب أخرى ليست لها صفة الدول وفقاً للقانون الدولي العام، وتنطبق على ثلاثة أنواع من الشعوب:

١- شعوب خاضعة للسيطرة الاستعمارية فتمثلها حركات التحرر ضد الاستعمار.
٢- شعوب خاضعة للاحتلال الأجنبي فتمثلها حركات التحرر ضد الاحتلال الأجنبي.
٣- شعوب خاضعة لسيطرة النظم العنصرية فتمثلها حركات التحرر ضد النظم العنصرية[٣٠].

لقد اهتمت الأمم المتحدة منذ إنشائها وكذلك القانون الدولي بحركات التحرر الوطني والتعامل معها وجعلها كيانات قريبة من الدول، حيث تم الاعتراف لها ببعض الحقوق أهمها:

١- حقها في ممارسة الكفاح المسلح لاستعادة الاستقلال،
٢- حقها في طلب وتلقي المساعدات الأجنبية،
٣- حقها في إبرام المعاهدات مع الدول والمنظمات الدولية،
٤- حقها في التعامل الدبلوماسي والقنصلي.

وعليه فإن الأمم المتحدة طبقاً لميثاقها وأهدافها ومقاصدها والقرارات الصادرة عنها لا تعتبر حق تقرير المصير لأي شعب تحت الاحتلال أو الاستعمار أو الفصل العنصري، حقاً مقدساً فحسب، بل إنها تعتبر الدعم والمساندة والمساعدة المقدمة لحركات التحرر واجباً على عاتق كافة الدول[٣١].

خامساً: حق تقرير المصير وموقف المنظمات غير الحكومية:

إن موقف الأمم المتحدة هذا هو موقف القانون الدولي. وهو موقف المنظمات غير الحكومية ومنظمات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني. ففي نيسان ١٩٧٣ انعقد في أوسلو برعاية الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية، مؤتمر الخبراء الدولي لدعم ضحايا الاستعمار والفصل العنصري في الجنوب الأفريقي، دعا إلى تصفية أنظمة الاستعمار والفصل العنصري للمحافظة على كرامة الإنسان

وتحقيق السلم العالمي، وأكد أن كفاح الشعوب في الأقاليم المستعمرة والخاضعة للفصل العنصري هو كفاح عادل ومشروع وجدير بتأييد تام من المجتمع الدولي، معتبراً أن حركات التحرر التي تقود ذلك الكفاح هي جهات التمثيل الحقيقي لشعوبها والتي ينبغي أن تحظى بالاعتراف الدولي الكامل. مؤكداً أن واجباً مقدساً ملقىً على المنظمات الدولية والحكومات والشعوب يتمثل في الإسراع بعزل أنظمة الاستعمار والفصل العنصري وتشجيع إنشاء حركات التحرر في الأماكن التي لا توجد فيها، وتوجيه المساعدات بتقديمها إلى حركات التحرير مباشرة بوصفها جهات التمثيل الحقيقية لشعوب هذه الأقاليم، ولأنها تعكس الثقة في هذه الحركات وتكفل استخدام هذه المساعدات بأقصى قدر من الفعالية لأنها ملائمة لاحتياجات الأقاليم وللكفاح، ولأنها أكثر السبل فعالية لكفالة السلم والإسراع في إنهاء الاستعمار والقضاء على الفصل العنصري.

وقد أبرز المؤتمر أن الأنظمة الاستعمارية والعنصرية ما كان لها أن تستمر في «تحدي قرارات الأمم المتحدة والرأي العام العالمي لولا موقف بعض الحكومات المتحالفة مع هذه الأنظمة، الذي يحول دون اتخاذ إجراءات دولية فعالة ويساعد هذه الأنظمة. ولا تزال المصالح الاقتصادية الأجنبية... تساعد هذه الأنظمة وتستفيد من قمع الشعوب الأفريقية».

كما أكد المؤتمر ضمن مقترحاته تحت بند أسباب تقديم المساعدة أن الكفاح المسلح وسيلةٌ وليس غايةً، وأنه حالةٌ اضطرارية تستدعي «التسليم بأن حركات التحرير قد أُجبرت على اللجوء إلى الكفاح المسلح بسبب عناد ووحشية الأنظمة الاستعمارية والعنصرية. وينبغي لجميع البلدان والشعوب المحبة للحرية والسلم والمناصرة للعدل أن تقدم المساعدة إلى حركات التحرير في كفاحها العادل، بما في ذلك الكفاح المسلح»(٣٢).

ولازال الموقف نفسه لدى المنظمات غير الحكومية مستمراً إلى غاية اليوم. حيث إن مجلس السلم العالمي، وهو منظمة غير حكومية يضم ممثلين عن منظمات السلام من مختلف دول العالم[٣٣]، الذي عقد اجتماعه بدمشق في ٢٤ تشرين الأول ٢٠٠٩، أصدر بياناً في ختام أشغاله، أكد فيه حق الشعوب في مقاومة الاحتلال وتقرير مصيرها بحرية وديمقراطية، وأعلن تضامنه مع الشعب السوري في نضاله لاسترجاع الجولان المحتل. كما شدد على رفضه لسياسة التهديدات والتدخلات الخارجية بشؤون الدول تحت أي ذريعة، مجدداً دعوته لإنهاء الاحتلال في العراق وأفغانستان وانسحاب القوات المحتلة منهما، ونزع الأسلحة النووية ومنع انتشارها، معبراً عن استنكاره ورفضه لسياسة ازدواجية المعايير التي تتبعها بعض القوى العظمى بهذا الشأن. كما ناشد المجلس جميع قوى السلام ومنظمات حقوق الإنسان والمجتمع الدولي من أجل العمل بإصرار على المضي بتقرير القاضي ريتشارد غولدستون في كافة الهيئات والمحافل الدولية قصد محاكمة مرتكبي المجازر ضد الإنسانية بحق الشعب الفلسطيني.

كما أكد المجلس على حق الشعب الفلسطيني في استخدام كل وسائل النضال بما فيها المقاومة لاسترداد حقوقه الشرعية المغتصبة[٣٤].

آ- الموقف العربي المطلوب من حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني:

إن بناء الجدار الفولاذي أو المنشآت الهندسية كما تسميها السلطات المصرية لم يكن الغرض منه حماية الأمن القومي، أو على الأقل لم يكن كذلك فقط. بل إن رجال القانون ومنظمات حقوق الإنسان وبعض الساسة المصريين أنفسهم يؤكدون كما سيأتي أن الهدف الأساسي من بنائه هو تشديد الحصار على قطاع غزة، وغلق الأنفاق التي أصبحت البديل والمخرج الوحيد للتقليل من تداعيات الحصار. كما أنه تنفيذ لمخططات العدو وتنسيق أمني معه لضرب المقاومة وتأليب الرأي العام ضدها، ووسيلة لتركيع

المقاومة وتجريدها من كل وسائل الدفاع والصمود. كما أن قيام بعض السلطات العربية بكل ذلك، وسكوت باقي الدول عن ذلك وعدم استنكاره ورفضه وعدم القيام بما يجب لمنعه ورفع الحصار عن الشعب الفلسطيني وتمكينه من كل الوسائل لمقاومة الاحتلال، يعد حسب المواثيق الدولية والإقليمية، إهداراً وإجهاضاً لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. ويمكن توضيح ذلك في النقاط التالية:

١- التخلي عن غزة وعدم الدفاع عنها وبناء الجدار لمحاصرتها:

تنص معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي[٣٥] - التي تعتبر مصر أحد أهم مؤسسيها - في المادة الثانية منها: «تعتبر الدول المتعاقدة كل اعتداء مسلح يقع على أي دولة أو أكثر منها، أو على قواتها، اعتداء عليها جميعاً، ولذلك فإنها عملا بحق الدفاع الشرعي- الفردي والجماعي- عن كيانها، تلتزم بأن تبادر إلى معونة الدولة أو الدول المعتدى عليها، وبأن تتخذ على الفور منفردة ومجتمعة جميع التدابير وتستخدم جميع ما لديها من وسائل بما في ذلك استخدام القوة المسلحة لرد الاعتداء ولإعادة الأمن والسلام إلى نصابهما». وتنص الفقرة الثانية من هذه المادة على وجوب إخطار مجلس الجامعة فوراً طبقاً للمادة السادسة من ميثاق الجامعة، ومجلس الأمن طبقاً للمادة الحادي والخمسين من ميثاق الأمم المتحدة، بوقوع الاعتداء وما اتخذ بشأنه من تدابير وإجراءات.

كما نصت المادة الثالثة منها على ضرورة تشاور الدول المتعاقدة فيما بينها في حالة وجود تهديد لسلامة أراضي أي منها أو استقلالها أو أمنها، وتبادر على الفور إلى توحيد خططها ومساعيها في اتخاذ التدبير الملائمة. ومن أجل تنفيذ الالتزامات السابقة الذكر على أحسن وجه نصت المادة الرابعة على ضرورة التنسيق والتعاون من أجل دعم مقوماتها العسكرية وتهيئة وسائلها الدفاعية الخاصة والجماعية لمقاومة أي اعتداء مسلح.

لم تكتفِ السلطات المصرية بالامتناع عن الدفاع عن سكان غزة المحاصرين من قبل العدو الصهيوني فحسب، بل أغلقت كل المنافذ والمعابر ليس أثناء الحصار فقط بل أيضا أثناء القصف الإسرائيلي الأخير لغزة في عملية (الرصاص المسكوب). بل لقد عقد وزير خارجية مصر أبو الغيط مؤتمراً صحفياً هدد فيه سكان غزة من أن بلاده لن تسمح باقتحام حدودها ثانية وحذرهم من أن كل من سيكسر خط الحدود المصرية ستكسر قدمه(٣٦).

وانسياقاً مع توجهات وزير الخارجية المصري في منع تدفق سكان غزة على مصر في حالة إقدام الكيان الصهيوني مرة أخرى على تكرار اجتياح القطاع أو قصفه بالطائرات وصواريخ المدافع والبوارج الحربية، تم بناء هذا الجدار الفولاذي المضاد للمتفجرات والاختراق لمنع أي تسلل سواء من تحت الأرض أو من فوقها. ومن ثم يعتبر بناء الجدار مؤشراً على احتمال شن العدو الإسرائيلي عدواناً جديداً على قطاع غزة، مما يدل على التنسيق والتناغم بين الكيان الإسرائيلي وبعض من السلطات المصرية. وقد سبق أن أشار ريتشارد فولك مقرر مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان للأراضي المحتلة في تقريره حول محرقة غزة إلى جريمة حرمان أهل غزة من حق الفرار من الهلاك بسبب منع السلطات المصرية والإسرائيلية وإحكام الحصار وغلق جميع منافذ النجاة(٣٧).

وتجدر الملاحظة إلى أن غزة كانت أمانة في يد الدولة المصرية منذ حرب ١٩٤٨ إلى غاية النكسة عام ١٩٦٧. ورغم أن مصر خسرت غزة وسيناء في العدوان الثلاثي عليها عام ١٩٥٦ إلا أنها استطاعت استعادة سيناء وكذلك قطاع غزة لأن مقاليد أمور الدولة المصرية كانت «بيد قيادة وطنية استطاعت توظيف علاقاتها الدولية لتحقيق هذا الغرض في ذلك الحين. لقد وضعت القيادة الوطنية المصرية في سلة واحدة انسحاب قوات العدوان الثلاثي ــ الإسرائيلية والفرنسية والبريطانية ــ من سيناء وغزة، لأنها

كانت تدرك أن غزة تحت يد مصر على سبيل الأمانة، وان مسؤوبية استعادتها، تقع على عاتقها. وأن "خيانة الأمانة" فعل مشين لا يرتكبه سوى فاقدي الكرامة الوطنية، مهما ارتفعت عقائرهم بالحديث عنهما»[٣٨].

ب- تدمير الأنفاق وقتل مستعمليها:

لقد نص العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية في مادته ٢٠ المذكورة على حظر أي دعاية للحرب، وحظر أي دعوة للكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية أو للتحريض على العداوة أو العنف، ولا شك أن إقدام السلطات المصرية على بناء الجدار الفولاذي على طول الحدود بين مصر وغزة وإحكام الحصار على سكان القطاع هو ليس فقط دعاية للحرب التي تحظرها المادة ٢٠ بل هو إعلان للحرب على القطاع ومن فيه. فبالإضافة إلى إغلاق المعابر ومنع المساعدات عمدت السلطات المصرية الأمنية إلى قتل العاملين في الأنفاق باعتبارها بوابة النجدة الأخيرة لشعب غزة. فقد أكدت المنظمة العربية لحقوق الإنسان في بريطانيا بأن القوات المصرية تمارس القتل العمد لمستعملي الأنفاق تحت الأرض بعيداً عن أعين العالم. وقد أشارت في تقريرها بأن هناك أكثر من ٥٤ حالة وفاة موثقة هلكت بسبب استنشاق غاز يؤدي إلى الاختناق والموت السريع تم رشه داخل الأنفاق من قبل القوات المصرية، بالإضافة إلى استعمال وسائل أخرى كاستخدام المتفجرات وضخ المياه داخل الأنفاق وإحداث اهتزازات اصطناعية لهدم الأنفاق على رؤوس العاملين فيها دون إنذارهم مسبقاً. وخلص تقرير المنظمة إلى« أن الحكومة المصرية حولت أجهزتها الأمنية إلى أدوات مميتة تنفيذاً لتفاهمات أمنية لم تأخذ بعين الاعتبار قواعد القانون الدولي، محذراً من الانعكاسات القانونية والقضائية لهذا الأمر على المسؤولين بالحكومة»[٣٩].

لقد أفتى علماء الأمة (١٠٠ عالم) من أقطار العالم بحرمة هذا الجدار واعتبروه خيانة عظمى، وعدوا الأفعال التي تعتبر كذلك، أهمها:

- التعاون على غلق المعبر والأنفاق والدلالة عليها،

- تسليم المعابر لليهود أو للقوات الموالية لليهود،

- الجهاد في فلسطين كله جهاد شرعي يجب دعمه بالمال والنفس والسلاح، كما اعتبروا «أن الظلم العظيم الذي لحق بإخواننا المسلمين في غزة بالحصار الخانق، والذي زاد على السنتين بفرض من العدو اليهودي، وتآمر من دول الكفر، وتعاون من بعض الدول العربية بإغلاق معبر رفح، وتتبع الأنفاق الأهلية وهدمها حتى لا يصل الغذاء والدواء والسلاح لأهلنا في غزة هو تعاون صريح مع العدو في قتل إخواننا في غزة»[٤٠].

جـ- التنسيق الأمني وتنفيذ مخططات العدو:

كل هذا يتناقض مع المادة العاشرة من معاهدة الدفاع العربي المشترك السالفة الذكر، والتي نصت على أنه: «تتعهد كل من الدول المتعاقدة بألا تعقد أي اتفاق دولي يناقض هذه المعاهدة وبألا تسلك في علاقاتها الدولية مع الدول الأخرى مسلكاً يتنافى مع أغراض هذه المعاهدة». وبناء الجدار وغلق معبر رفح لا يتنافى فحسب مع أغراض المعاهدة بل ينسفها نسفا.

كما أن إبرام الاتفاقات الأمنية[٤١] والتنسيق الأمني[٤٢] مع العدو الصهيوني، والتآمر معه على إجهاض المقاومة ومع غيره من الدول المعادية لقضايا الأمة العربية، والاشتراك معه من أجل محاصرة الشعب الفلسطيني، وغلق المعابر وسد الأنفاق للقضاء عليه بالموت البطيء، كل ذلك يتناقض مع المادة العاشرة المذكورة أعلاه والتي تحظر أي اتفاق تبرمه دولة طرف في المعاهدة يتناقض مع هذه المعاهدة أو تسلك مسلكاً يتنافى مع أغراض المعاهدة، كتنفيذ الاتفاق المبرم بين وزيرة الخارجية الإسرائيلية و نظيرتها الأمريكية[٤٣].

«ومن الواضح كذلك أن بناء الجدار لم يأت في سياق ممارسة مصر لسيادتها فقط، بل جاء في سياق "مذكرة التفاهم" الأميركية – الإسرائيلية التي وقعت بعد العدوان الإسرائيلي على القطاع – الذي يعيش أهل غزة ذكراه السنوية الأولى المشؤومة هذه الأيام – في السنة الأخيرة من عهد إدارة جورج بوش الأميركية السابقة، والتي استهدف توقيعها تحقيق الأهداف التي فشل ذاك العدوان في تحقيقها، والتي لم تتحقق حتى الآن بعد توقيع المذكرة ويأمل موقعوها أن يقود بناء الجدار الفولاذي تحت الأرض إلى تحقيقها»(٤٤).

بل إن السلطات المصرية وتحت الضغط الإسرائيلي جندت نفسها للدفاع عن حدود الكيان الإسرائيلي من المتسللين والمهاجرين واللاجئين الأفارقة إليه عبر سيناء، ولو أدى ذلك إلى إغضاب منظمات حقوق الإنسان. فقد قتلت قوات حرس الحدود المصرية تسعة مهاجرين هذا العام بينما تم قتل ١٩ على الأقل في عام ٢٠٠٩م، مما دفع بالمفوضية السامية لحقوق الإنسان نافي بيلاي إلى مطالبة السلطات المصرية بالقيام على وجه السرعة بتحقيق مستقل يعتد به في هذا الشأن. وكانت منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوقية أخرى قد انتقدت أيضاً السلطات المصرية ودعتها إلى منع استخدام القوة المفرطة ضد المتسللين والمهاجرين العزل. من جهتها هاجمت السلطات المصرية الأمم المتحدة لانتقادها سقوط قتلى مهاجرين على الحدود المصرية مبدية أن تقرير الأمم المتحدة أو انتقادها مليء بالأخطاء والمزاعم، ولم يأخذ في الحسبان الطبيعة الحساسة لحدود مصر مع إسرائيل(٤٥).

د- تأليب سكان غزة و تحريضهم ضد المقاومة:

يتعارض بناء الجدار والحصار مع المادة الثامنة من الميثاق المذكورة أعلاه، التي تشدد على احترام نظام الحكم في كل الدول العربية باعتباره حقاً مقدساً لكل منها وتتعهد باحترامه وعدم القيام بأي عمل يهدف إلى تغييره. حيث أنه منذ وصول حماس إلى السلطة في انتخابات ديمقراطية تعددية ونزيهة شهد لها العالم بذلك، عمل النظام المصري على الإطاحة بها[٤٦]. ويؤكد الخبراء والمتتبعون للشأن المصري - الفلسطيني أن النظام المصري معروف بعدائه الشديد للتيارات الإسلامية وخاصة جماعة الإخوان المسلمين، وهذا ما يدفعه إلى الضغط على حركة حماس قصد إسقاطها[٤٧] بكل الوسائل بما فيها الإغلاق والحصار. فقد بدا واضحاً أن «الجدار الذي تم تأكيد بنائه مصريًّا ليس من أجل سيادة مصر أو حماية أمنها كما يُقال، وإنما من أجل تغيير الوضع السياسي في غزة.. »[٤٨]، وقد أكد هذا مساعد وزير الخارجية المصري الأسبق الدكتور عبد الله الشعل، فأوضح التحول الخطير الذي طرأ على موقف النظام المصري، الذي لا مبرر له منذ ٢٠٠٣ بخصوص القضية الفلسطينية. إذ تخلَّ عن دور الوسيط النزيه إلى الدور المساند للاحتلال، بحجة انفراد حماس بالسلطة في غزة، بعد فوزها في الانتخابات وباعتبارها جزءاً من جماعة الإخوان المسلمين التي يعاديها النظام. مبيناً أن النظام المصري لم يدرك الفرق بين العداء السياسي لحماس إن وجد، وحق سكان غزة في الحياة الكريمة من غير حصار[٤٩]

كما أن بناء الجدار لتشديد الحصار على غزة يعتبر مصادرة لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره في الجانب السياسي منه، الذي نصت عليه المادة الأولى من العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية والمادة الأولى من العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية المشار إليهما أعلاه. وهو مصادرة أيضا لحق كل فلسطيني في الترشح والانتخاب، وحقه في المشاركة في إدارة الشؤون العامة لبلده عن طريق انتخابات نزيهة ودورية بالاقتراع العام والسري طبقا للمادة ٢١ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمادة ٢٥ من العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية المشار إليهما أعلاه.

وذلك لأن السلطات المصرية ساءها أن رأت انتخابات حرة ونزيهة تنظم في الأراضي الفلسطينية المحتلة وفق المعايير الدولية. والذي زاد في استيائها وانزعاجها أكثر هو اختيار الشعب الفلسطيني بكل حرية وبالأغلبية لحركة المقاومة الإسلامية حماس. منذ ذلك الحين عملت إسرائيل والحكومة الأمريكية والاتحاد الأوروبي والحكومة المصرية على إسقاط حماس. وبعد فشل الحصار منذ عام ٢٠٠٦م في تأليب الشعب الفلسطيني على حماس كان التواطؤ والأمل أن تنجح إسرائيل في القضاء على حركة حماس أو على الأقل إزاحتها من السلطة في غزة، في عدوانها الأخير المفاجئ والهمجي على القطاع. وبعد فشل كل المحاولات في معاقبة الشعب الفلسطيني على ممارسة حقه الذي كفلته المواثيق الدولية في اختيار ممثليه جاء الجدار الفولاذي كخطوة جديدة تنفذها الحكومة المصرية الآن «بعدما اكتمل التمويل الأمريكي، وبعدما رفضت حركة حماس كل محاولات القاهرة من أجل التوقيع على ما تريده مصر ولا يتناسب مع ثوابت ومصلحة الشعب الفلسطيني.. الجدار اليوم يقول لأهالي غزة إن مزيداً من الحصار سيفرض عليكم بسبب تمسككم بحركة حماس وعدم الانتفاض في وجهها»(٥٠).

هـ- ابتزاز المقاومة لإخضاعها لشروط العدو:

عندما عجزت إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤهما عن تحقيق الأهداف المسطرة في خطة إسرائيل في عدوانها الأخير على القطاع في نهاية عام ٢٠٠٨م وبداية عام ٢٠٠٩م المتمثلة في القضاء على حركة حماس وفصائل المقاومة، ولمنع إطلاق الصواريخ من القطاع على المستوطنات الإسرائيلية، أقدمت السلطات المصرية على تشديد الحصار على القطاع بغلق المعابر وخاصة معبر رفح. ولما لم تفلح بذلك نتيجة الأنفاق التي أضحت البديل للمعابر المغلقة، أقدمت على بناء الجدار الفولاذي لسد الأنفاق، وكل ذلك من أجل تحقيق ما عجزت عن تحقيقه الآلة الحربية الإسرائيلية. والكثير من الخبراء والمحللين يؤكدون أن الأنفاق ليست لتهريب الأسلحة

أو المخدرات وإنما هي شريان الحياة لسكان قطاع غزة بعد غلق المعابر وهو ما أكدته الأمم المتحدة(٥١)، وأكده التجار المصريون على الجانب المصري بقولهم: «إننا لا نهرب أسلحة لأهل غزة، فالأسلحة لها طريق آخر وكان يتم تهريبها واليهود موجودون داخل غزة، وكانت حماس وغيرها يحصلون عليها من الجنود اليهود أنفسهم، بل إنه يتم تهريبها أساساً عبر إسرائيل، والإسرائيليون يعلمون ذلك جيدا، أما هنا في مصر فدخول السلاح إلى سيناء صعب جدا وخطر، وعلى الأقل أنا ومعي ٧٠% من التجار الذين أعرفهم جيداً وأصحاب الأنفاق لم نتعامل مع السلاح...نحن لا نريد أن نخالف الحكومة لمجرد المخالفة، لكن هنا في رفح والعريش بضائع لا تجد من يشتريها، وهناك في غزة نقود لا تجد شيئا تشتريه، ونعتقد أن الطرفين مستفيدان... إن لجوءنا للتهريب ليس لأننا نريد أن نضيع على الحكومة جمارك أو نورطها في حرب مع إسرائيل، لكن لأجل الرزق، وإذا أرادوا أن يتم كل شيء في النور فلابد أن يفتحوا الحدود»(٥٢) إذن فغلق المعابر وبناء الجدار الفولاذي لهدم الأنفاق وسدها جاء بهدف ابتزاز المقاومة والحد من سيطرة حماس على القطاع وتحقيق ما عجز عنه العدو الصهيوني في حربه على غزة. ويمكن إجمال ذلك في ما يلي:

١- إضعاف سلطة حماس أمام سكان غزة وإظهارها بصورة العاجز عن تلبية احتياجات السكان اليومية من الغذاء والدواء والمواد الأساسية للحياة.

٢- إطلاق الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط وفق شروط الجانب الإسرائيلي والمصري وليس وفق شروط حماس.

٣- إخضاع حماس والمقاومة للقبول والاعتراف بشروط اللجنة الرباعية المتعلقة بعملية السلام في الشرق الأوسط والمتمثلة في: ١) الاعتراف بالاتفاقات الموقعة بين السلطة الفلسطينية والجانب الإسرائيلي بما فيها الاتفاقات الأمنية السالفة الذكر،

٢) القبول بخارطة الطريق كحل للصراع بين الجانبين، ٣) الاعتراف باتفاقية أوسلو كأساس لوجود السلطة الفلسطينية، ٤) الالتزام بنبذ العنف والمقاومة.

٤- التزام حماس بالتهدئة طويلة المدى وعدم إطلاق الصواريخ، ومنع الفصائل الأخرى أيضا من إطلاق الصواريخ على المستوطنات الإسرائيلية.

٥- القبول بالمبادرة المصرية والتوقيع على ورقة المصالحة الفلسطينية وفق الشروط التي وضعتها مصر دون إدخال أي تعديلات عليها من حماس وفصائل المقاومة[٥٣]

و- تجريد المقاومة من كل وسائل الدفاع:

عملت الجهات والدول المعارضة للمقاومة في فلسطين، وعلى رأسها سلطة رام الله والسلطة المصرية وذلك بكل الوسائل والسياسات الممكنة على تقويض سلطة حماس مرة بتقزيمها والسخرية منها، ومرة أخرى بتأليب الرأي العام عليها كما سبق بيانه، وطوراً بالتنسيق الأمني واعتقال كوادرها، وطوراً آخر بالتعتيم ومصادرة الآراء ومحاولة حجب القنوات التي تؤيد المقاومة مثلما حصل مع قناة العالم بمنعها من البث على القمر عربسات بتحريض من السلطات المصرية والسعودية بحسب ادعاء القناة. ومثلما حصل مع قناة المنار مراراً وقنوات أخرى. وعلى نفس المنوال أصدر الكونغرس الأمريكي قانوناً يدعو إلى معاقبة أصحاب الأقمار الاصطناعية التي تبث من خلالها القنوات الداعمة للمقاومة ضد الاحتلال والاستعمار[٥٤].

ولم تتوان أو تترفع تلك الجهات عن تسخير كل الوسائل بما فيها الأديان المقدسة لمساندة مواقفها ضد المقاومة وحقوق الشعوب. فأوعزت إلى القيادات الدينية الإسلامية منها والمسيحية لإصدار فتاوى تصبغ الشرعية على أفعالها في محاصرة شعب غزة وبناء الجدار الفولاذي لسد كل منافذ الحياة لإهلاكه ببطء. فقد أفتى شيخ الأزهر بجواز بناء الجدار الفولاذي على الحدود مع غزة. بل لقد اعتبر ذلك من صلب

الشريعة الإسلامية فلا يجوز مخالفة أو انتقاد الجدار«إن الذين يعارضون بناء هذا الجدار يخالفون بذلك ما أمرت به الشريعة الإسلامية»[٥٥].

كذلك كان موقف بابا الإسكندرية من الجدار، حيث أفتى في مقابلة تلفزيونية أنه: «مع حماية البلاد وحدودها بأية طريقة تراها الدولة، ومن حقنا أن ندافع عن بلادنا وحدودها ولا تعتبر هذه خيانة كما يردد البعض»، مع التذكير أن البابا ما زال على فتواه التي أعلنها عام ١٩٨٠م بتحريم ومنع الأقباط المصريين من زيارة القدس طالما هي تحت الاحتلال الإسرائيلي»[٥٦].

وأكد نقولا ناصر أن بناء الجدار سيؤدي من الناحية الإنسانية إلى قطع شريان الحياة الوحيد للاحتياجات اليومية لشعب غزة، ويؤدي من الناحية الوطنية إلى غلق المصدر الوحيد لامتلاك الحد الأدنى من وسائل الدفاع عن النفس. والوضع كذلك فإن ممارسة مصر لسيادتها يؤدي بها إلى تجاوز الحدود السياسية والإستراتيجية لإحكام الحصار على القطاع «من المنفذ العربي الوحيد الذي ما زالت الآمال معقودة عليه كباب خلاص وحيد ممكن من الحصار الإسرائيلي المطبق على القطاع، وفي الحالتين يمثل بناؤه تهديداً حيوياً لمن يعيشون على الجانب الآخر من الحدود، ومن المؤكد أنه لا يوجد أي دولة أو شعب في العالم لا يعتبر مثل هذا التهديد عملاً حربياً عدوانياً... ومن الواضح كذلك أن بناء الجدار لم يأت في سياق ممارسة مصر لسيادتها فقط، بل جاء في سياق "مذكرة التفاهم" الأميركية – الإسرائيلية التي وقعت بعد العدوان الإسرائيلي على القطاع - الذي يعيش أهل غزة ذكراه السنوية الأولى المشؤومة هذه الأيام – في السنة الأخيرة من عهد إدارة جورج بوش الأميركية السابقة، والتي استهدف توقيعها تحقيق الأهداف التي فشل ذلك العدوان في تحقيقها، والتي لم تتحقق حتى الآن بعد توقيع المذكرة ويأمل موقعوها أن يقود بناء الجدار الفولاذي تحت الأرض إلى تحقيقها. ويجد الفلسطينيون في القطاع أنفسهم أمام خيارين أحلاهما مر،

فإما أن يتصدوا لمشروع الجدار الفولاذي "المصري" أو يعودوا إلى تصعيد المقاومة ضد الجدران المدرعة "الإسرائيلية" التي تحكم الحصار على القطاع لفتح ثغرات فيها تعوض عن الثغرات التي فتحوها تحت الأرض من أجل البقاء على قيد الحياة ويجري إغلاقها اليوم، وهو ما لا ترفضه مصر وحدها بل كل المعنيين باستئناف "عملية السلام»[٥٧].

إن غلق الأنفاق التي أضحت البديل عن المعابر والحصار ما هو إلا إهدار لحق شعب غزة كحق أساسي في التحرر من الجوع، ولحرمانه من أسباب عيشه الخاصة، التي نصت عليها المادة الأولى من كل من العهدين الدوليين لحقوق الإنسان. وبهذا الخصوص أكد مالكولم سمارت مدير برنامج منظمة العفو الدولية في الشرق الأوسط وشمال إفريقية أنه لا يمكن السماح باستمرار العزلة والمعاناة جراء الحصار المفروض على قطاع غزة منذ عام ٢٠٠٦م والذي اشتد بعد سيطرة حركة المقاومة الإسلامية حماس، من حيث المواد الغذائية والأدوية واللوازم الدراسية وأدوات البناء. وأكد أن الحصار يشدد الخناق في كل مجالات الحياة على السكان الذين يشكل الأطفال نصف تعدادهم. وحمّل إسرائيل المسؤولية باعتبارها قوة احتلال، يجب عليها وفقاً للقانون الدولي السهر على احترام حقوق سكان غزة من حيث السكن المناسب والغذاء والصحة والتعليم[٥٨].

وقال رئيس الاتحاد القومي للمحامين في الولايات المتحدة ديفيد جيسباس أنه في ظل إخفاق إسرائيل باعتبارها سلطة احتلال في الالتزام بالقانون الدولي تجاه حقوق شعب غزة فإن التزام مصر بذلك يصبح أكثر ضرورة وإلحاحاً[٥٩].

خاتمة:

من خلال ما تم تفصيله يمكن استخلاص النتائج التالية:

١- أن حق تقرير المصير أقرته دساتير جل الدول بما فيها الدول التي تقف اليوم مع الاحتلال الإسرائيلي وتدعمه مادياً وسياسياً في المحافل الدولية وخاصة في مجلس الأمن ضد حقوق الشعب الفلسطيني.

٢- أن حق تقرير المصير أكدته قرارات الأمم المتحدة العديدة منذ إنشائها إلى اليوم مما يضفي عليه الطابع الإلزامي باعتباره حقاً يجد سنده في العرف الدولي.

٣- أن حق تقرير المصير لا يجد سنده في العرف الدولي من خلال قرارات الأمم المتحدة فحسب، بل يجد سنده في القانون الدولي التعاهدي. فقد أقرته جل المواثيق الدولية كميثاق الأمم المتحدة والميثاق الدولي لحقوق الإنسان، والمعاهدات الإقليمية كالميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب والميثاق العربي لحقوق الإنسان. كما أن حق تقرير المصير تسانده وتؤيده جل المنظمات غير الحكومية ومنظمات حقوق الإنسان.

٤- أن حق تقرير المصير كما هو مقرر في القانون الدولي العرفي والقانون الدولي التعاهدي والمواثيق الدولية العالمية والإقليمية لحقوق الإنسان يقتضي حق كل الشعوب التي تخضع للاحتلال أو للاستعمار أو للفصل العنصري، والشعب الفلسطيني يخضع لكل ذلك، في مقاومة ذلك بكافة الوسائل بما فيها الكفاح المسلح. كما يفرض واجباً على كافة الدول بالقضاء على الاحتلال والاستعمار والفصل العنصري باعتبار ذلك تهديداً وإنكاراً لحقوق الإنسان، ويفرض واجباً آخر على سائر الدول يتمثل في تقديم الدعم اللازم لحركات التحرر بما فيها الدعم المالي وبالسلاح لتقرير المصير.

٥- أن الدول العربية لم تقم بذلك الواجب كما ينبغي تجاه الشعب الفلسطيني، كما نصت المعاهدات الدولية والمعاهدات الإقليمية في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي والجامعة العربية والاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب والميثاق العربي لحقوق

الإنسان. بل إن بعضها يعمل بشكل عكسي لتقويض حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير. فالامتناع عن تقديم المساعدة لشعب غزة المحاصر، وتشديد الحصار عليه بغلق المعابر وبناء الجدار الفولاذي لسد الأنفاق، وهدمها على رؤوس مستعمليها، وابتزازه للتأثير على اختياراته.. كل ذلك يعد انتهاكا للشعب الفلسطيني وتقويضا لحقه في تقرير المصير، ومساندة صارخة للعدو الإسرائيلي وللاحتلال والاستعمار والفصل العنصري.

٦- أن سكوت بقية الدول العربية، وهي ملزمة بمقتضى ميثاق الأمم المتحدة وميثاق جامعة الدول العربية وميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي والميثاق العربي لحقوق الإنسان، عن استنكار ورفض تلك السياسات المناهضة لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ومقاومة الاحتلال والاستعمار والفصل العنصري، قد يعد مساهمة واشتراكاً لها في تقويض حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

الهوامش

(١) أكد عيسى قراقع وزير شؤون الأسرى والمحررين الفلسطيني أن الاحتلال يعتقل أطفالا قاصرين ويزرع الإرهاب والرعب في نفوسهم، وأن أكثر من ٣٠٠ طفل فلسطيني قاصر لا زالوا في سجون الاحتلال يعيشون في ظروف قاسية وصعبة. وأوضح أن عدد الأطفال الذين اعتقلوا منذ عام ٢٠٠٠ بلغ ٣٠٠٠ طفل فلسطيني، مشيراً إلى أن سلطات الاحتلال تخالف القوانين والشرائع الدولية وتطبق أوامرها العسكرية العنصرية وتعتقل أطفالاً في سن ١٢ عاماً وتتعامل مع الأطفال الأسرى من خلال محاكمات عسكرية قاسية. انظر: نجيب فراج، قراقع: **الدولة التي تعتقل الأطفال لن يكتب لها الحياة**، http://www.alquds.com/node/241489

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 14/03/2010 19:01

(٢) انظر وثيقة تنت، المبرمة بين السلطات الأمنية الفلسطينية والإسرائيلية والأمريكية في عام ٢٠٠٢م، والمنشورة على موقع حركة فتح الفلسطينية، التالي:
http://fatehforums.com/showthread.php?s=9c5c35e963aa642d51a20d6bc8f3ec29&t=27633&page=5

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 10/03/2010 22:33

(٣) د. فيوليت داغر، **المقاومة حق وواجب**، **اللجنة العربية لحقوق الإنسان**، منشور في الموقع التالي:

http://www.achr.nu/art767.htm
11/02/2010 20:06

(4) " Le but de toute association politique est la conservation des droits naturels et imprescriptibles de l'homme. Ces droits sont la liberté, la propriété, la sûreté, et la résistance à l'oppression". Art. 2

(٥) د. فيوليت داغر، **المقاومة حق وواجب**، اللجنة العربية لحقوق الإنسان، منشور في الموقع التالي:

http://www.achr.nu/art767.htm

11/02/2010 20:06

(٦) «الحلف المقدس أبرم بمقتضى معاهدة شومون Chaumont في ١٨ آذار ١٨١٤ بين كل من انجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا، لمواجهة خطر التوسع النابليوني الفرنسي، وبعد هزيمة نابليون على يد الحلفاء في معركة " واترلو " في ١٨ حزيران ١٨١٥ عقدت معاهدة باريس الثانية في ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ بين الحلفاء وفرنسا تم الاتفاق فيها على التدخل الدبلوماسي والعسكري في الدول الأخرى حسب الظروف، والدفاع عن الملكية. حيث تدخل الحلف في فرنسا سنة ١٨١٨ لحماية الملكية ضد المعارضة وتدخل في كل من إيطاليا وألمانيا وإسبانيا والبرتغال لإخماد الثورات ضد الملكية . وتحول الحلف من رباعي إلى خماسي بانضمام فرنسا في سنة ١٨١٨ كما تدخل في المستعمرات الإسبانية في أمريكا الجنوبية. ولكن نظراً لمعارضة بريطانيا وإقناعها للولايات المتحدة الأمريكية بمعارضة التدخل الأوروبي في القارة الأمريكية صدر تصريح مونرو في سنة ١٨٢٣ وانتهى الحلف المقدس». راجع طلعت الغنيمي، الغنيمي في قانون السلام، القاهرة، ١٩٧٣، ص: ٤٦٣.

(٧) د. علي صادق أبو هيف، **القانون الدولي العام**، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٩٥، ص: ٢١٨.

(8)- Bennouna M., le consentement à l’ingérence militaire dans Les conflits internes, R.G.D.I.P., 1984, p.164.

(٩) دكتور غروس اسبيل، **حق تقرير المصير**، تطبيق قرارات الأمم المتحدة ، نشر الأمم المتحدة، نيويورك ١٩٨٠ ، تحت رقم (E/C.N.4./sud.2/٤٠٥/ rev.1/) ص١٢، كريستسكو اوريليوس، **حق تقرير المصير**، تطوره التاريخي والراهن من خلال

صكوك الأمم المتحدة، نشر لأمم المتحدة، رقم المبيع (A.80 xiv.٣) نيويورك ١٩٨١، ص ٥٦.

(١٠) في رأيها الاستشاري عام ١٩٧١ حول ناميبيا:

«إن التطور اللاحق للقانون الدولي تجاه الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي كما هو مكرس بواسطة ميثاق الأمم المتحدة جعل حق تقرير المصير قابلاً للتطبيق على هذه الأقاليم، وأن الإعلان الصادر عن الجمعية عام ١٩٦٠ حول إعطاء الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة كان خطوة هامة في هذا الإطار». د. علي إبراهيم حقوق وواجبات الدول في عالم متغير، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص: ١٩٠.

(١١) قرار الجمعية العامة ١٥١٤ (د-١٥) في ١٤ كانون الأول ١٩٦٠ المتضمن إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة.

(١٢) قرار الجمعية العامة ١٨٠٣ (د-١٧) المؤرخ في ١٤ كانون الأول ١٩٦٢ المتضمن السيادة الدائمة على الموارد الطبيعية.

(١٣) قرار الجمعية العامة ٢١٣١، الصادر في ٢١ كانون الأول ١٩٦٥ المتعلق بالإعلان حول عدم جواز التدخل في الشؤون الداخلية وحماية استقلالها وسيادتها.

(١٤) قرار الجمعية العامة ٢٥٥٤ الصادر في ١٢ كانون الأول ١٩٦٩ المتعلق بتنفيذ الإعلان الخاص بمنح الاستقلال للشعوب المستعمرة.

(١٥) قرار الجمعية العامة رقم ٣٥/٣٥ الصادر في ١٤ تشرين الثاني ١٩٨٠ المتعلق بحق الشعوب في تقرير المصير.

(١٦) قرار الأمم المتحدة رقم ٣٢٤٦ (الدورة ٢٩) بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٤ المتضمن ما للإعلان العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير والإسراع في منح الاستقلال للبلاد والشعوب المستعمرة من أهمية لضمان حقوق الإنسان ومراعاتها على

الوجه الفعال. وكذلك قرارها رقم ٢٦٢٥ (د.٢٥) المؤرخ في ٢٤ تشرين الأول ١٩٧٠ حول إعلان مبادئ القانون الدولي المتصلة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

(١٧) قرار الأمم المتحدة رقم ٣٠٣٤ (الدورة ٢٧) بتاريخ ١٨ كانون الأول ١٩٧٢ المتضمن تأكيد قانونية النضال من أجل التحرر الوطني وإقامة لجنة خاصة لدراسة مشكلة الإرهاب الدولي.

(١٨) قرار الأمم المتحدة رقم ٣١٠٣ الصادر في (الدورة ٢٨) بتاريخ ١٢ كانون الأول ١٩٧٣ المتضمن إعلان المبادئ الإنسانية الأساسية في جميع النزاعات المسلحة ومبادئ الوضع القانوني الخاص بالمناضلين ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية.

(١٩) إعلان الأمم المتحدة بشأن الألفية ٢٠٠٠، الصادر عن الجمعية العامة، نيويورك ٨/ أيلول ٢٠٠٠.

(٢٠) انظر د. نبيل العربي، **بعض ملاحظات حول الآثار القانونية لقرارات الجمعية العامة**، المجلة المصرية للقانون الدولي، المجلة الحادي والثلاثون، ١٩٧٥، ص ٢٨٤ وما بعدها وأيضا د. محمد سامي عبد الحميد، **القيمة القانونية لقرارات المنظمات الدولية كمصدر لقواعد القانون الدولي العام**، المجلة المصرية للقانون الدولي، المجلد الرابع والعشرون ٢٤، ١٩٦٨، ص: ١١٩ وما بعدها.

(٢١)- الاتفاقية رقم ١١١ الخاصة بالتمييز في مجال الاستخدام والمهنة والتي اعتمدها المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية في ٢٥ تموز ١٩٥٨ في دورته الثانية والأربعين.

- الاتفاقية الخاصة بمكافحة التمييز في مجال التعليم اعتمدها المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة في ١٤/١٢/١٩٦٠.

- الاتفاقية الخاصة بالرق والموقعة في جنيف في ١٩٢٥/٠٩/٢٥ .
– الاتفاقية التكميلية لأبطال الرق وتجارة الرقيق والأعـراف والممارسـات الـشبيهة بالرق الموقعة في جنيف في ١٩٥٦/٠٩/٠٧ .
- الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري التي اعتمـدت بقـرار الجمعية العامة رقم ٢١٠٦ أ (د.٢٠) المؤرخ في ٢١ كانون الأول ١٩٦٥.

(٢٢) الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب تمت إجازته من قبل مجلس الرؤساء الأفارقة بدورته العادية رقم ١٨ في نيروبي (كينيا) حزيران ١٩٨١.

(٢٣) اتفاقية منظمة الوحدة الأفريقية لمنع الإرهاب ومكافحته المبرمة في الجزائر في ١٤ تموز ١٩٩٩.

(٢٤) معاهدة منظمة المؤتمر الإسلامي لمكافحة الإرهاب الدولي اعتمدت مـن قبـل مؤتمر وزراء خارجية دول المنظمة المنعقد في واغادوغو خـلال الفتـرة مـن ٢٨ حزيران /يونيو إلى ١ تموز/يوليو ١٩٩٩.

(٢٥) نصت المادة الثانية فقرة (أ): «لا تعد جريمة، حالات الكفاح بمختلف الوسـائل، بما في ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبي والعدوان من أجل التحـرر وتقريـر المصير، وفقا لمبادئ القانون الدولي، ولا يعتبر من هذه الحالات كـل عمـل يمـس بالوحدة الترابية لأي من الدول العربية». الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب صـدرت بقرار من مجلسي وزراء العدل والداخلية العرب في اجتماعهما المشترك الـذي عقـد بمقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٩٩٨/٤/٢٢ ودخلت حيز النفاذ في ٧ أيار ١٩٩٩، وفقاً للمادة ٤٠.

(٢٦) الميثاق العربي لحقوق الإنسان اعتمد من قبل القمة العربية السادسة عشرة التي استضافتها تونس ٢٣ مايو ٢٠٠٤.

(٢٧) قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (٣٢٣٦) الدورة ٢٩ الصادر في ١٩٧٤/١١/٢٢، المتعلق بالقضية الفلسطينية.

(٢٨) قرار الجمعية العامة رقم ٢٦٤٩ (الدورة ٢٥) بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٠ المتضمن إدانة إنكار حق تقرير المصير خصوصاً لشعوب جنوب أفريقيا وفلسطين.

(٢٩) قرار رقم ٢٦٧٢ أ، ب، جـ، د (الدورة ٢٥) بتاريخ ٨ كانون الأول ١٩٧٠ المتضمن الاعتراف لشعب فلسطين بحق تقرير المصير والطلب مرة أخرى من "إسرائيل " اتخاذ خطوات فورية لإعادة المشردين

(٣٠) جان سالمون، **باتجاه تبني مبدأ الشرعية الديمقراطية**، في القانون الدولي وسياسة المكيالين، هارمن ديلكور وآخرون، ترجمة أنور مغيث، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص: ١٠٤.

(٣١) بوكرا إدريس، المرجع السابق، ص: ٣٠٩.

(٣٢) برنامج العمل الذي اعتمده مؤتمر الخبراء الدولي لدعم ضحايا الاستعمار والفصل العنصري في الجنوب الأفريقي (أوسلو ٩-١٤ نيسان ١٩٧٣) A/9061، ٧ أيار ١٩٧٣. منشور في الموقع التالي:
www.moqatel.com/.../AUNDocs37_2-1.htm_cvt.htm
13/02/2010 22:45

(٣٣) "مجلس السلم العالمي منظمة غير حكومية ذات طابع اجتماعي شعبي تأسس عام ١٩٥٠ يضم ممثلين عن منظمات السلام في العالم مهمتها الدفاع عن السلام ومناهضة الحروب وشارك في مؤتمره الذي عقد في كاراكاس في نيسان ٢٠٠٨ نحو ١٤٠ منظمة من ٨٠ بلداً وللمجلس مواقف ثابتة في دعم شعوب المنطقة وإدانة الاحتلال والعدوان والعمل لإنهائهما وفقاً لقرارات الشرعية الدولية وسبق أن وقف إلى جانب الشعوب العربية ضد العدوان الصهيوني عام ١٩٦٧ ونظم مؤتمرين لنصرة الشعوب العربية في نيودلهي في تشرين الثاني عام ١٩٦٧ والقاهرة في كانون الثاني

عام ١٩٦٩ والمؤتمر العالمي للتضامن مع سورية عام١٩٨٠". مجلس السلم العالمي يطالب إسرائيل بالانسحاب من الجولان السوري، منشور في الموقع التالي:
http://mail.rtv.gov.sy/index.php?p=13&id=53523
26/02/2010 22:58

(٣٤) مجلس السلم العالمي يختتم أعماله بتأكيده حق الشعوب في المقاومة، جريدة الثورة تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، الأحد ٢٠٠٩/١٠/٢٥.

(٣٥) معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية وملحقها العسكري، وافق عليها مجلس جامعة الدول العربية بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٣ نيسان سنة١٩٥٠ من دور الانعقاد العادي الثاني عشر التي تم توقيعها بمصر بحضور رئيس وزرائها مصطفى النحاس باشا ووزير خارجيتها الدكتور محمد صلاح الدين بك، وبحضور ممثلين عن: السعودية والأردن وسوريا ولبنان والعراق والمملكة اليمنية المتوكلية. أما باقي الدول العربية فقد انضمت لاحقا. انظر قطاع مجلس الجامعة، ميثاق جامعة الدول العربية، مطبعة جامعة الدول العربية، آذار ٢٠٠٩، ص: ٦٦ وما بعدها.

(٣٦) غادة الحوراني، أم الدنيا لا تتحرك: **قطاع غزة مأساة فلسطينية أمام سمع وبصر مصر مبارك**، جريدة العرب الأسبوعي، السبت ٢٠٠٩/٠١/١٠، ص: ١٧.

(٣٧) د. عبد الله الأشعل، جدار مصر في ضوء القانون الدولي، ص٠٥ مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/B33527A2-CA49-4951-AA01-B9C7F531C266.htm
13/01/2010 18:42

(٣٨) مصطفى الحسيني (صحافي مصري)، حول مقال عبد المنعم سعيد "لماذا هذا الانسحاق الفكري باسم القضية الفلسطينية"؟... وهذا الانسحاق أمام إسرائيل باسم الوطنية المصرية، مقال منشور في الموقع التالي:

http://www.alhourriah.ps/ar/?page=det&id=4153
04/03/2010 11:33

(٣٩) تنديد حقوقي عربي "بممارسات" مصر، مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/F6DA166D-8EE5-496B-BF52-DF407844D4FE.htm

تم الاطلاع عليه بتاريخ 15/01/2010 16:18

(٤٠) إسلام أون لاين.نت، ١٠٠ عالم: **إغلاق معبر رفح خيانة عظمى**، منشور على الموقع التالي:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1231760495137&pagename=Zone-Arabic-News%2FNWALayout

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 02/02/2010 17:49

(٤١) الاتفاقات الأمنية التي وضعت في شرم الشيخ في تشرين الأول ٢٠٠٠ وفي القاهرة في كانون الثاني ٢٠٠١، والمبادئ الأمنية في وثيقة ميتشل في نيسان ٢٠٠١، ومن أهمها وثيقة تنت التي أبرمت في ٢٠٠٢ بين السلطة الأمنية الفلسطينية والإسرائيلية والأمريكية والتي استندت إلى الاتفاقيات الأمنية السالفة الذكر والمبرمة في مصر، تضمنت مجموعة من الخطوات والأحكام:

«- تستأنف حكومة إسرائيل والسلطة الفلسطينية بشكل فوري التعاون الأمني بينهما. تنعقد جلسة على مستوى رفيع لرجال الأمن الإسرائيليين والفلسطينيين والأمريكيين بشكل فوري وتنعقد مجددا مرة في الأسبوع على الأقل. ويكون حضور كبار المندوبين واجبا.

- تعمل السلطة الفلسطينية بشكل فوري على الاعتقال والتحقيق والسجن ل"إرهابيين" في الضفة الغربية وفي غزة، وترفع للجنة الأمنية أسماء المعتقلين، فور اعتقالهم وكذا تفاصيل عن النشاطات التي اتخذتها.

- يستخدم مندوبو الأمن الفلسطينيون والإسرائيليون اللجنة الأمنية كي يزودوا الطرف الآخر وكذا مندوبي الولايات المتحدة بمعلومات عن أعمال "الإرهاب"، بما في ذلك

المعلومات عن "الإرهابيين" أو عن المشبوهين ك"إرهابيين" يعملون في المناطق تحت سيطرة الطرف الآخر. أو يقتربون من هذه المناطق.

- الرد على معلومة عن "الإرهاب" يكون فوريا، ويتضمن عمليات تعقب ورفع تقرير عن النتائج للجنة الأمنية.

- تتخذ السلطة الفلسطينية عمليات وقائية ضد" الإرهابيين" وأماكن اختبائهم، ومخازن الأسلحة ومصانع إنتاج الراجمات. وترفع السلطة الفلسطينية تقارير دورية عن هذه النشاطات للجنة الأمنية.

- يلتزم الطرفان بأنه حتى لو استؤنفت الأحداث السلبية، فان التعاون الأمني سيستمر من خلال اللجنة الأمنية المشتركة». انظر وثيقة تنت، المبرمة بين السلطات الأمنية الفلسطينية والإسرائيلية والأمريكية في ٢٠٠٢، والمنشورة على موقع حركة فتح الفلسطينية، التالي:

http://fatehforums.com/showthread.php?s=9c5c35e963aa642d51a20d6bc8f3ec29&t=27633&page=5

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 10/03/2010 22:33

(٤٢) «المعايير الأمنية لا تتعلق فقط بالالتزام العربي بملاحقة الإرهاب ومن يسمون بالإرهابيين والتعاون العربي والأمني والعسكري، وإنما أيضا بانكشاف الأمن العربي أمام إسرائيل بحيث لا تجد عناء إذا قررت القيام بإجراءات عسكرية وأمنية على أراضي الجهة العربية. أصرّت إسرائيل على هذه الترتيبات الأمنية في سلامها مع مصر والأردن، واتفاقياتها مع السلطة الفلسطينية، وأصبح هؤلاء العرب أدوات تسهر على راحة وأمن إسرائيل». انظر الدكتور عبد الستار قاسم، المرجع السابق.

ومنها التحقيقات التي أجرتها المخابرات المصرية مع جرحى العدوان الذين انتقلوا إلى مصر للعلاج، لاستخلاص معلومات عن المقاومة، انظر: مهنا الحبيل، هزيمة المحور الإسرائيلي ومستقبل النصر الفلسطيني، منشور في الموقع التالي:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/EA0D5C16-DE6E-478A-9B6F-33DABD73E027.htm

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 14/01/2010 16:03

(٤٣) فقد أكد عبد الله الأشعل مساعد وزير الخارجية المصري السابق أن الجدار الفولاذي الذي تبنيه مصر على طول حدودها مع قطاع غزة هو تنفيذ لاتفاقية أبرمتها وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة تسيبي ليفني مع نظيرتها الأميركية السابقة كوندوليزا رايس، وأوضح أنه أصبح من «المعلوم أن إسرائيل والولايات المتحدة سبق أن أبرمتا في اللحظات الأخيرة في إدارة الرئيس بوش اتفاقاً يخول الدولتين العمل على جهات عديدة من بينها الأراضي المصرية لإحكام الحصار على غزة واحتجت مصر يومها لأن الاتفاق يعتدي على سيادتها ويبرم دون وجودها وينفذ مع ذلك على أراضيها، ورغم ذلك كان تعليقها ضعيفاً لا يناسب هذا الاعتداء الفادح على سيادة مصر الحقيقية، ولكن يبدو أن غضب مصر لم يكن بسبب انتهاك سيادتها، ولكنه كان جزءاً من الغضب والتوتر بسبب مواقف إدارة بوش المهينة لمصر».

د. عبد الله الأشعل، جدار مصر في ضوء القانون الدولي، ص ٠٢ مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/B33527A2-CA49-4951-AA01-B9C7F531C266.htm

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 13/01/2010 18:42

(٤٤) نقولا ناصر، **الفتوى المطلوبة من الأزهر والكنائس**، مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.grenc.com/show_article_main.cfm?id=15911

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 09/01/2010 10:27

(٤٥) مصر تنتقد اتهامات الأمم المتحدة لها بشأن قتل المتسللين إلى إسرائيل الخميس، ٤ آذار، ٢٠١٠، ٠٢:٢٦ GMT
http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2010/03/100303_am_egypt_israel_rights_tc2.shtml

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 04/03/2010 23:12

(٤٦) فقد أكد النائب البريطاني جورج غالاوي في لقاء مع قناة الجزيرة أن الحكومة المصرية تحاصر الشعب الفلسطيني في غزة لأنه صوت في انتخابات حرة ونزيهة" لحركة المقاومة الإسلامية (حماس).. وهي حزب لا تحبه مصر ولا إسرائيل ولا الولايات المتحدة ولا بريطانيا". وقال غالاوي "لست ممن يدعمون حماس، لكن الشعب الفلسطيني هو الذي له الحق في اختيار قادته، وليست مصر أو إسرائيل أو الولايات المتحدة"". غالاوي: حكومة مصر تحاصر غزة، منشور في الموقع التالي:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/035AD2E8-CF43-43A5-8A61-D881234CCF31.htm

تم الإطلاع عليه بتاريخ: 18/01/2010 17:11

(٤٧) غادة الحوراني، أم الدنيا لا تتحرك:**قطاع غزة مأساة فلسطينية أمام سمع وبصر مصر مبارك**، جريدة العرب الأسبوعي، السبت ٢٠٠٩/٠١/١٠ ص١٧.

(٤٨) علا عطا الله، خبراء: جدار مصر الفولاذي "عقاب" لحماس، مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1260258117583&pagename=Zone-Arabic-News%2FNWALayout

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 07/02/2010 16:32

(٤٩) الزهراء عامر: ، **جدار مصر الفولاذي.. جريمة في حق غزة**، مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.ikhwanonline.com/Article.asp?ArtID=58254&SecID=271

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 18/01/2010 21:07

(٥٠) مثلما أكده د.عبد الستار قاسم، أستاذ العلوم السياسية بجامعة النجـاح الوطنيـة بنابلس، نقلا عن علا عطا الله، خبراء: **جـدار مصـر الفولاذي "عقـاب" لحمـاس**، منشور في الموقع التالي:

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1260258117583&pagename=Zone-Arabic-News%2FNWALayout

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 07/02/2010 16:32

(٥١) فقد أكدت الأمم المتحدة في تقرير لها أن الأنفاق بين مصر وقطاع غزة أصبحت بمثابة شريان الحياة لقطاع غزة بسبب الحصار الإسرائيلي المفروض عليه منذ سيطرة حركة حماس عليه، موضحة أنها ازدهرت وتحولت إلى قطاع اقتصادي قائم بحد ذاته، ومشيرة إلى أن آلاف الفلسطينيين يعملون الآن في تجارة التهريب عبرها مما حدا بحكومة حماس إلى إصدار تعليمات لتنظيم وضبط التجارة عبرها.

وقد أكد المهربون أن حكومة حماس تأخذ نسبة عن استعمال تلك الأنفاق مع اشتراطها على المهربين عدم تهريب الأسلحة والمخدرات إلى القطاع.

وتواجه مصر ضغوطا مستمرة من قبل إسرائيل والولايات المتحدة لإغلاق هذه الأنفاق ومنع التهريب عبرها لأنها حسب الرؤية الإسرائيلية تستخدم لتهريب الأسلحة إلى القطاع. انظر: الأمم المتحدة: **أنفاق غزة شريان حياة للقطاع**، منشور على الموقع التالي:

http://news.bbc.co.uk/go/pr/fr//hi/arabic/middle_east_news/newsid_7673000/7673881.stm

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 10/03/2010 11:49

(٥٢) إمام الليثي، أنفاق رفح.. **"طريق الحرير" الخشن للطعام لا للتسلح**، مقال منشور في الموقع التالي:

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1232171610076&pagename=Zone-Arabic-News%2FNWALayou

تم الاطلاع عليه بتاريخ: 07/02/2010 17:40

(٥٣) الجدار العازل ومكاسب النظام المصري من خنق غزة، منشور على الموقع التالي:
http://alalam.ir/detail.aspx?id=93144
15/01/2010 19:5

(٥٤) «وهذا الوعي الذي يبرز بشكل واضح في أوساط الرأي العام الغربي يتجلي بوضوح في حجم المعارضة للعدوانية الصهيونية، والسياسات "الاستعمارية" الأميركية الغربية، وهو أمر أسهم فيه الإعلام المقاوم، والمتحرر من فلك السيطرة الأميركية، والأنظمة التابعة لواشنطن، وهو ما يفسر الأسباب الحقيقية للقانون الأميركي الذي صدر مؤخراً لمعاقبة أصحاب الأقمار الاصطناعية التي تبث عبرها قنوات فضائية عابرة تدعم خيار المقاومة، وتقف ضد السياسات الأميركية الاستعمارية، الداعمة للاحتلال الصهيوني، في محاولة واضحة لقمع حرية التعبير، والتدخل في شؤون الدول، وانتهاك سيادتها بغية حجب الحقيقة عن الرأي العام العالمي». حسين عطوي، ملتقى عربي دولي لدعم المقاومة في بيروت: التوقيت والدلالات، مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.withresistance.org/articles3.html
تم الاطلاع عليه بتاريخ: 04/03/2010 22:08

(٥٥) وعلق على هذه الفتوى أحد الباحثين الدكتور صلاح عودة الله: «وبصريح العبارة يقول شيوخ الجامع الأزهري: سيدخل النار من يعارض الجدار الفولاذي، ونحن بدورنا نقول:إن أردتم دخول الجنة فما عليكم يا معشر المسلمين إلا أن تؤيدوا إنشاء هذا الجدار فقد أصبح من فرائض الإسلام "الست" إن لم يكن أهمها بحسب وجهة نظر علماء السلاطين ». الدكتور صلاح عودة الله، **الجدار الفولاذي المصري بين شيوخ الأزهر وساسة مصر**..!، مقال منشور في الموقع التالي:
http://news.syriarose.com/news/14395.html
تم الاطلاع عليه بتاريخ: 18/01/2010 21:44

(٥٦) أحمد أبو مطر، **الجدار الفولاذي بين السياسة و الشريعة**، مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.elaph.com/Web/opinion/2010/1/523095.html
تم الاطلاع عليه بتاريخ: 15/01/2010 18:40

(٥٧) نقولا ناصر، **الفتوى المطلوبة من الأزهر والكنائس**، مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.grenc.com/show_article_main.cfm?id=15911
تم الاطلاع عليه بتاريخ: 09/01/2010 10:27

(٥٨) منظمة العفو الدولية تطالب إسرائيل بفك الحصار ومنظمات حقوقية تحث على بدء تحقيق في حرب غزة، مقال منشور في الموقع التالي:
http://www.alwatan.sy/dindex.php?idn=72206
تم الاطلاع عليه بتاريخ: 01/02/2010 16:25

(٥٩) محامون أمريكيون: **لا يحق لمصر أو إسرائيل منع قوافل غزة**، منشور في الموقع التالي:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1260258543413&pagename=Zone-Arabic-News%2FNWALayout
تم الاطلاع عليه بتاريخ: 07/02/2010 16:15

التقارب الوحدوي بين سورية والعراق في عهد سامي الحناوي خلال الفترة:

١٤ آب ١٩٤٩/ - /١٩ كانون الأول ١٩٤٩

الدكتورة خديجة حسن حسن

أولاً- المقدمة: حول اختيار الموضوع وأهميته وإشكاليته وأبرز مصادره.

ثانياً-التمهيد: موجز عن التقارب السوري - العراقي قبيل انقلاب سامي الحناوي.

ثالثاً- الموضوع:

I- انقلاب سامي الحناوي.

II- دوافع انقلاب الحناوي وأسبابه.

III- سياسة الحناوي الداخلية والخارجية.

IIII- دور العراق وموقفه من انقلاب الحناوي.

IIIII- التقارب الوحدوي ين سورية والعراق في عهد الحناوي.

رابعاً- الخاتمة : أسباب فشل التقارب الوحدوي السوري - العراقي.

المقدمة:

ترتبط أهمية البحث بأهمية ظرفيه أولاً، أي العراق وسورية، وبأهمية موضوعه المتعلق بها ثانياً، ألا وهو التقارب بينهما الذي كاد أن يتوج بتحقيق أول اتحاد عربي بين سورية والعراق خلال مرحلة تمتد فيما بين ١٤آب ١٩٤٩ و ١٩ كانون الأول ١٩٤٩، والتي نقف قليلاً عند كل منها.

تأتي أهمية كل من سورية والعراق على الصعيد الدولي من حقيقة كونهما جزءاً أساسياً من الوطن العربي بأهميته التاريخية والاقتصادية، التي يشكل البترول الثروة السياسية والاقتصادية، التي أصبحت عصباً ومحركاً للنظام العالمي الاستعماري منذ اكتشافه وحتى اليوم.

وتأتي أهميتهما على الصعيد العربي من كونهما يشكلان قوتين عربيتين هامتين في الصراع العربي ضد الاستعمار بكل أساليبه القديمة والحديثة، خاصة ما تعلق بالصراع العربي الصهيوني. ومن هنا تأتي أهمية التقارب والاتحاد بينهما في مرحلة تتعرض فيها الأمة العربية لأقسى هجمات الاستعمار والإمبريالية العالمية نظراً لامتدادهما الجغرافي الواحد وحدودها المشتركة.

يضاف إلى ذلك الإمكانات الاقتصادية لكل منهما، سواء غنى العراق بالثروات الباطنية وامتداد سورية على ساحل البحر المتوسط، وأيضاً مرور طرق التجارة العالمية فيها، بالإضافة إلى تنامي الشعور القومي لشعبيهما من أجل الوقوف في وجه الاستعمار ومخططات الإمبريالية بخلق "إسرائيل" في قلب الوطن العربي ليسهل السيطرة عليه، ونهب ثرواته.

وخلال هذه المرحلة الممتدة من /١٤ آب إلى ١٩ كانون الأول ١٩٤٩ /، شهدت سورية انقلاب الحناوي، الذي كان الثاني في سلسلة الانقلابات العسكرية التي شهدتها سورية عام ١٩٤٩، وأثّر هذا الانقلاب على التقارب السوري – العراقي. فأحدث ذلك

اضطراباً في الوضع الإقليمي من حيث مواقف كل من الأردن ومصر والسعودية ضد هذا التقارب. بالإضافة إلى ضغوط خارجية من أجل تحويل هذا التقارب إلى خدمة مصالح الدول الاستعمارية، كما هو معروف دائماً عن الدول الاستعمارية.

أما أسباب اختيار البحث، فتتلخص في:

١- إلقاء الضوء على أنصار ومعارضي التقارب الوحدوي في سورية والعراق.
٢- إعطاء لمحة عن مواقف الدول المجاورة لسورية والعراق تجاه التقارب الوحدوي السوري - العراقي.
٣-إعطاء لمحة عن الضغوط الخارجية التي تعرضت لها سورية خلال هذه المرحلة، ومواقف الدول الاستعمارية الكبرى من التقارب الوحدوي السوري - العراقي.

أما إشكالية البحث، فهي تتركز في التساؤل حول مساعي العراق لدفع التقارب مع سورية إلى اتحاد بين البلدين، وهل كانت فعلاً مساعٍ جادة لتحقيق الاتحاد مع سورية؟ أم كانت لكي يحكم سورية نظام صديق لا يعادي توجهاته، ويميل إلى إقامة علاقات وثيقة معه، ويبتعد عن الانضمام إلى المحور المعادي له؟

وإن لم يتحقق أحد هذين الاحتمالين، فهل سيكون الوضع في سورية مصدر قلق للعراق؟

وكيف لهذا التقارب أن يتطور إلى اتحاد، وتظل سورية محافظة على استقلالها، بينما العراق محتل ومكبل بقيود المعاهدة البريطانية؟

اعتمدت دراسة هذا البحث على عدد من الوثائق الموجودة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، طبعاً غير المنشورة، بالإضافة إلى الوثائق البريطانية المنشورة والموجودة بمكتبة الأسد بدمشق، وهي خمسة ملفات خلال المرحلة /١٩٢١-١٩٥٣/.

يضاف لها مذكرات المجلس النيابي السوري، وهي موجودة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، ويوجد نسخة منها في مكتبة الأسد، وهي مستند وثائقي قيم للبحث،

إضافة إلى الجريدة الرسمية للجمهورية العربية السورية الصادرة يوم الخميس من كل أسبوع في دمشق، وهي محفوظة في مكتبة الأسد ومديرية الوثائق التاريخية بدمشق. كما تم الاعتماد على محاضر جلسات جامعة الدول العربية، وهي محفوظة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، وهي مادة هامة لإغناء البحث.

تم الاعتماد أيضاً على بعض التراجم والمذكرات الشخصية، ومنها مذكرات السياسي أكرم الحوراني، التي شكلت مادة خصبة للمرحلة المدروسة، وأيضاً مذكرات خالد العظم. وتمت الإفادة أيضاً، من مذكرات عدد من الشخصيات السورية والعراقية، التي كان لها دور بارز في الأحداث.

واعتمدت الدراسة أيضاً، على الكتب العربية والمترجمة، وكان أبرزها، كتاب أندرو راثمل، المعنون بـ (الحرب الخفية في الشرق الأوسط – الصراع السري على سورية (١٩٤٩- ١٩٦١). وتكمن أهميته في كونه يستند إلى وثائق وزارتي الخارجية البريطانية والأمريكية وإلى أرشيف وكالة المخابرات المركزية (C.I.A).

ولا غنى عن الاستفادة أيضاً، من كتاب باتريك سيل (الصراع على سورية ١٩٤٥- ١٩٥٨) الذي يتناول تاريخ سورية المعاصر.

يضاف إلى ذلك الإطلاع على الصحف والدوريات العراقية والسورية والعربية، الموجودة في مكتبة الأسد، ومنها في مديرية الوثائق التاريخية، سواء كقصاصات ورقية أو على أجهزة ميكروفيلم.

تمهيد:

أول ما ظهر التقارب السوري - العراقي، كان أثناء حكم الملك فيصل الأول لسورية بعد تحريرها من الاحتلال العثماني، وظهر بصورة عملية عام ١٩٣١، عندما جاء إلى سورية "فارس الخوري يبشر بالوحدة موفداً من قبل الملك فيصل" (١). ثم

جرت عدة مراسلات بين "عدد من السياسيين العراقيين والسوريين، حول مسألة توحيد القطرين الشقيقين" [٢].

لكن الوطنيين في سورية رفضوا المشروع بسبب وقوع البلدين تحت الاحتلال الاستعماري، وقالوا: (إن العمل للوحدة يجب أن يسبقه الاستقلال، ليكون سكان القطرين يتمتعون بحرية أكثر من أجل الدفاع عن الوحدة)[٣].

بينما "اعترض العراقيون على تنصيب الملك علي (الشقيق الأكبر للملك فيصل) على عرش سورية. إذ اعتبروه خطوة في طريق إقامة العراقيل أمام وحدة سورية والعراق "[٤].

فحاولت فرنسا منع الاتحاد السوري - العراقي، "وتظاهرت بترشيح الملك فيصل على عرش سورية من أجل المحافظة على مصالحها"[٥]. أما بريطانيا، فكانت ضد أي محاولة باتجاه الوحدة بين العراق وسورية، لأن ذلك "سيشكل خطراً على مصالحها الاستعمارية، وسيغضب فرنسا. فقيام الوحدة، سيؤدي إلى مد فكرتها إلى دول الخليج العربي"[٦]. كما رفضته العربية السعودية، "كونه مشروعاً يقوده الهاشميون، ويخلق ضدها كتلة قوية تشكل خطراً ضدها.

أما الحكومة المصرية، فكانت تدرك أن تكوين دولة واحدة في الهلال الخصيب، تضم العراق وسورية، من شأنه أن يعادل النفوذ المصري. لذا لم تكن مصر لتشجع قيام وحدة في الهلال الخصيب، يسيطر عليها العراق"[٧].

توفي الملك فيصل دون أن تتحقق المطالب الوطنية، في كل من سورية والعراق. وتولى عرش العراق الملك غازي الأول بن الملك فيصل، وكان له أثر طيب في قلوب السوريين، وفي الوقت نفسه انتهت المفاوضات بين فرنسا وسورية إلى عقد معاهدة عام ١٩٣٦، لكن فرنسا تراجعت عام ١٩٣٩عن تصديقها. وكانت قد جرت انتخابات المجلس النيابي، وانتخب فارس الخوري رئيساً له، وهاشم الأتاسي رئيسا للجمهورية،

وشكل جميل مردم الوزارة، وبدأ الرأي العام السوري، يميل أكثر إلى فكرة الوحدة مع العراق.

ففي ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٦ أرسل عبد الرحمن الشهبندر (رئيس الكتلة الوطنية في سورية) رسالة إلى الدكتور أحمد قدري (أحد زعماء العراق السياسيين)، طالبه فيها، "حث العراقيين على العمل من أجل الوحدة بين القطرين"(٨). كما رفع طلاب جامعة دمشق إلى الملك غازي مذكرة، سلموها إلى القنصل العراقي في بيروت، "أعلنوا فيها بيعتهم للملك غازي، وطالبوه بتوحيد القطرين وضم سورية إلى التاج الهاشمي"(٩). بالمقابل كان هناك موافقة صريحة من قبل النواب العراقيين، على تلك الدعوات السورية من أجل الاتحاد. وأجرى وزير الخارجية العراقي نوري السعيد اتصالاته مع بريطانيا حول ذلك. من جهتها استهدفت "بريطانيا جر الأقطار العربية جميعاً لسياستها، من خلال التنسيق مع حكام العراق"(١٠). على ضوء ذلك صرح وزير خارجية بريطانيا أنتوني إيدن في ٢٩ أيار ١٩٤١: "أن بلاده ستقف إلى جانب كل مشروع وحدوي وعربي.(١١) وإثر تطورات متلاحقة عَيَّن الجنرال كاترو المندوب العام لفرنسا الحرة في دول الشَرق، الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية السورية، وأتبعه بإصدار بيان يتضمن استقلال سورية (١٢).

أما في العراق فقد فشلت حركة رشيد علي الكيلاني ضد بريطانيا في نفس العام، وعادت العراق إلى السيطرة البريطانية، وعهد الوصي عبد الإله إلى جميل المدفعي تشكيل الوزارة التي استجابت لمطالب بريطانيا، ومن ثم شكلها نوري السعيد الذي طرح مشروع الهلال الخصيب، فلقي معارضة بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية بتأثير من الصهاينة، وعارضته مصر والسعودية، وكذلك الأمير عبد الله بن حسين أمير شرقي الأردن، الذي دعا إلى توحيد سورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين في دولة واحدة تحت عرشه باسم سورية الكبرى (١٣).

وبتاريخ ٢٣ كانون الأول ١٩٤٣ توجه وفد سوري برئاسة جميل مردم إلى العراق استقبله الوصي، وجرت مباحثات بينهما حول الوحدة العربية، كانت ودية جداً، انتهت باتفاق عام(١٤).

وتحدث السفير البريطاني في سورية، بأنه خلال تلك الزيارة، حدث تقدم قليل باتجاه وحدة العرب(١٥)، لكن المشروع فشل لأسباب كثيرة.

وأثناء العدوان الفرنسي على سورية عام١٩٤٥ وقف الشعب العراقي إلى جانب إخوانه السوريين. وأدى صمود الشعب السوري في وجه الفرنسيين إلى إجبارهم على الجلاء في نيسان ١٩٤٦- وقد شارك العراق سورية أفراحها بهذه المناسبة.

يُلاحظ خلال هذه المرحلة شلل للحياة الحزبية في القطرين بسبب الحرب العالمية الثانية. فقد مُنعَت الأحزاب من ممارسة النشاط الحزبي تحت طائلة القوانين العرفية، ويُلاحظ أن أغلب الأحزاب في البلدين شجعت الاتحاد، لكن بشكل سري(١٦).

في عام ١٩٤٧ انصبّت جهود الساسة السوريين على الإصلاحات الداخلية، والابتعاد عن أي مشروع، يرمي إلى القضاء على النظام الجمهوري في سورية، في حين كان الملك عبد الله يدعو إلى تحقيق مشروع سورية الكبرى، ثم اتحادها مع العراق تحت حكمه.

وبعد وقوع نكبة فلسطين، وتشريد أعداد من شعب فلسطين، برزت في سورية دعوة جديدة لوحدة سورية والعراق، حيث اتفق نوري السعيد مع زعامة حزب الشعب في ١٩٤٨/١١/٢٣ على ضرورة تحقيق مشروع الهلال الخصيب.

وسَعَت الحكومة العراقية لتحقيق الوحدة مع سورية، وذلك لأهمية سورية الساحلية، لتكون منفذاً لها على البحر المتوسط. وكذلك قام الوصي عبد الإله بالاتصالات مع قادة حزب الشعب في سورية.

ويكشف طه الهاشمي في مذاكراته آثار نكبة فلسطين في نفوس الوطنيين والشخصيات البارزة، ومحاولة العديد من الضباط السوريين والعراقيين في جيش الإنقاذ بضرورة تحقيق الوحدة بالقوة من خلال احتلال لبنان والأردن وسورية والعراق وتوحيدها [١٧].

ونص المشروع على أن تقوم دولة اتحادية تضم سورية ولبنان وشرق الأردن والعراق، ويكون على رأس هذه الدولة ملك العراق. في سبيل ذلك انقسمت الأحزاب السورية بين مؤيد لمشروع الوحدة، ومَثَّله حزب الشعب، الذي انضم إلى المحور العراقي، وبين معارض للمشروع ومَثَّله الحزب الوطني، الذي انضم إلى محور السعودية – مصر.

وكانت قد ظهرت أحزاب جديدة في هذه المرحلة تنافست على الحكم، وانضمت للمحاور العربية المتنافسة على سورية. وبالنسبة للمعارضين لمشروع الوحدة، فقد تمسكوا بالنظام الجمهوري في سورية، ومَثَّل ذلك حزب البعث والحزب الشيوعي والحزب الوطني وبعض المستقلين.

وفي العراق التقى طه الهاشمي بقادة الأحزاب السياسية العراقية، "وقد حصل على موافقة إيجابية منها على الوحدة، وخاصة الحزب الوطني الديمقراطي، وحزب الأحرار"[١٨].

وبذلك تكون وحدة البلدين قد أصبحت شعار أغلبية الأحزاب السورية والعراقية، حتى حدث الانقلاب الأول.

في هذه المرحلة رأى البريطانيون بأنه إذا تحققت الوحدة فإنه يشتد نفوذهم، ويكتمل على سائر بلدان المشرق العرب. لكن رجالهم كانوا عندما يتحدثون إلى أشخاص غير مؤتمنين في نظرهم يظهرون عدم رغبتهم في التدخل في هذا الأمر، زاعمين أن البلاد هي صاحبة القول الفصل.

أما الفرنسيون فكانوا يستهجنون هذا الرأي، ويحسبون حساباً لبسط نفوذ الإنكليز على سورية ولبنان، فهم يرون في الوحدة خروج سورية من دائرة نفوذهم ووقوعها في دائرة نفوذ الإنكليز. وأما الأمريكيون فلم يكن لهم رأي حاسم في هذا الموضوع[١٩]. أما موقف السعودية ومصر، فهو معروف كما اتضح سابقاً.

وبفعل هذا الواقع، سارعت الولايات المتحدة وفرنسا للقيام بانقلاب حسني الزعيم[٢٠]، لتحافظا على مصالحهما ونفوذهما المهددين[٢١].

اتجه حسني الزعيم في بداية عهده نحو محور السعودية - مصر، لكنه اتجه فيما بعد إلى محور العراق- الأردن، ودعا إلى وحدة عسكرية نتيجة للتهديد "الإسرائيلي"[٢٢]. لكن بعد أن رفض نوري السعيد التوقيع على معاهدة دفاعية مع الزعيم لدعم نظامه،"عدل هذا عن محور العراق-الأردن، وتوجه إلى محور مصر-السعودية "[٢٣]. و"أغلق الحدود بين سورية والعراق، وأعلن رفضه لجميع مخططات الوحدة مع العراق، خاصة بعد اعتراف مصر والسعودية بالنظام الجديد في سورية"[٢٤].

نتيجة لذلك أخذت تصريحات الساسة العراقيين تتجه إلى إسقاط نظام الزعيم، واتبعوا أساليب غير رسمية للوصول إلى هدفهم. فسافر وفد من حزب الاستقلال، برئاسة فائق السامرائي (نائب رئيس الحزب)، واتصل برجال وأحزاب سورية، وأوضح تقرير الحزب، "أن الشعب السوري بصفة عامة يؤيد الوحدة، لا يعارضه سوى "إسرائيل" ومصر والسعودية"[٢٥].

ولم يبقَ الزعيم أكثر من أربعة أشهر ونصف، حتى نجح أقرب مساعديه، العقيد سامي الحناوي بانقلاب عسكري ضده، ليبدأ عهد جديد من التقارب مع العراق.

I–انقلاب سامي الحناوي:

قام العقيد سامي الحناوي[٢٦]، بانقلاب عسكري ضد حسني الزعيم في الرابع عشر من آب عام ١٩٤٩، وأسفر هذا الانقلاب عن إعدام الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي [٢٧]، رمياً بالرصاص على طريق مطار المزة [٢٨].

يُعَدُّ انقلاب الحناوي الثاني في سلسلة الانقلابات العسكرية، التي شهدتها سورية عام ١٩٤٩، ولم يكن انقلابه مفاجئاً للأوساط السياسية المعارضة لحسني الزعيم، نظراً لما آل إليه الوضع في أواخر عهده[٢٩]. إذ فقد معظم شعبيته، عندما أثارت سياسته الداخلية عداء غالبية المواطنين داخل البلاد، كما أفقده اندفاعه نحو مصر والسعودية مساندة وتأييد الهاشميين في كل من العراق والأردن[٣٠].

في مساء يوم الثالث عشر من آب عام ١٩٤٩، وضِعَت خطة الانقلاب العسكري في اجتماع مشترك عقد في اللواء الأول بقطنا[٣١]. كان سامي الحناوي على رأس الطاولة، وحوله عدد من الضباط، ومنهم (علم الدين قواص، وأمين أبو عساف، ومحمد معروف، وسليمان ناجي، وعصام مريود، ومحمود الرفاعي، وفضل الله أبو منصور، وحسين الحكيم)[٣٢].

تم تقسيم الأدوار فيما بينهم على أن تكون قيادة الانقلاب لسامي الحناوي، بالتعاون مع عصام مريود ومحمد دياب وحسن الحكيم وفضل الله أبو منصور.

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف ليل الرابع عشر من آب ١٩٤٩ وصلت وحدة صغيرة من السيارات إلى دمشق، وتوزعت إلى ثلاث فصائل. توجهت الأولى منها إلى مسكن الزعيم وكانت بقيادة فضل الله أبو منصور، فاعتقل حسني الزعيم[٣٣].

واتجهت الفصيلة الثانية إلى منزل محسن البرازي. أما الفصيلة الثالثة، فاعتقلت المقدم إبراهيم الحسيني قائد الشرطة العسكرية واستخبارات الجيش[٣٤].

ونقلوا جميعاً، وهم بملابس النوم إلى مبنى الأركان العامة بالصالحية، وبعدها نقل حسني الزعيم ومحسن البرازي بمدرعة خاصة إلى مطار المزة، وتم إعدامهما رمياً بالرصاص(٣٥)، في موقع سَبَقَ تحديده. يبدو أن القيادة العليا قد حكمت على الزعيم والبرازي بالموت. وفي الساعة السابعة صباحاً من الرابع عشر من آب، أُعلنت أنباء الانقلاب إلى الجماهير. وأذاع الانقلابيون بياناً، أوضحوا فيه إجراء محاكمة عسكرية عادلة للزعيم والبرازي، وتنفيذ حكم الإعدام بهما، وجاء في البلاغ الثاني تشكيل مجلس حربي أعلى برئاسة سامي الحناوي (٣٦).

المجلس الحربي تألّف من عشرة أعضاء، هم: (العقيد بهيج كلاس، والعقيد علم الدين القواص، والمقدم أمين أبو عساف، النقباء محمد معروف، عصام مريود، وخالد أبو جادة، ومحمود الرفاعي، ومحمد دياب)(٣٧) إضافة لرئيسه سامي الحناوي. وتتالت البلاغات العسكرية الصادرة عن المجلس، التي أوضحت دوافع وأسباب الانقلاب.

II– دوافع انقلاب الحناوي وأسبابه:

تعددت الدوافع والأسباب التي شجعت الحناوي للقيام بانقلاب ضد حسني الزعيم، الذي اتبع سياسة تقوم على التسلط والدكتاتورية، التي اقتضت حل الأحزاب السياسية وحظر شأنها، بالإضافة إلى تزييفه الانتخابات التي ضمن فيها النجاح لنفسه، وحصره السلطات بيده، وتسريح عدد من ضباط الجيش، وإبعادهم عن المناصب العسكرية، إضافة إلى سياسته المتذبذبة نحو الأقطار العربية، وعدم وضوح سياسته نحو الدول الكبرى.

أدت هذه السياسة إلى قيام انقلاب عسكري، أطاح به بعد أقل من١٣٧ يوماً من تسلمه الحكم.

وطبقاً لبيانات رجالات الانقلاب الجديد، فإنهم نسبوا انقلابهم في البيان الأول الذي أصدروه في ١٤ آب عام ١٩٤٩ إلى رغبتهم في إنقاذ البلاد من الوضع الفاسد

الذي كان يسودها، "بعد أن قام الزعيم باستغلال واستخدام ثروات البلاد، وتشويه صورتها، والعبث بحرمة القوانين وحرية الأفراد، وسوء استغلال السلطة، إلى درجة أن الشعب بدأ بالاستخفاف، وعدم احترام الجيش، واستاء من الأوضاع في الدولة"[٣٨].

وأكد الانقلابيون أنهم لا يريدون إلا الخير للبلاد، وتخليصها من الطاغية الذي استبد هو ورجال حكومته، "وسيسلم الجيش الأمر إلى الأحرار المخلصين من رجالات سورية، وسيترك الجيش لزعماء البلاد أنفسهم قيادة البلاد، وسيعود إلى ثكناته، وسيترك السياسة لرجالاتها"[٣٩].

وزعم الانقلابيون، "أن الانقلاب الثاني كان في الحقيقة تصحيحاً للأول، الذي كان يفترض به إعادة الأمور إلى مجراها السوي"[٤٠].

وبذلك يكون الزعيم قد خان دوره، واستخدم طاقات البلاد والشعب لأغراضه الخاصة، "لذلك قام الجيش بإنقاذ الأمة من الطاغي، وسيعود إلى ثكناته "[٤١].

وكان العقيد سامي الحناوي، قد صرح لوسائل الإعلام العربية الغربية والعالمية، أن الأسباب التي دفعته للقيام بالانقلاب على الزعيم تعود إلى "استبداد الزعيم بالسلطة، وإقامته حكماً ديكتاتورياً، وإقصائه للعناصر الوطنية عن المناصب السياسية ومناصب الجيش"[٤٢]، واتباعه سياسة خارجية مسيئة لبعض الدول العربية المجاورة، وتشجيع عودة المؤيدين للانتداب، وتزوير نتائج الاستفتاء، وإقامة حكم بوليسي ونهب خزانة الدولة[٤٣].

ولخَّص العقيد بهيج كلاس، منسق الانقلابين الأول والثاني، موقف الجيش في مقابلة صحفية، عندما ذكر: (أن الرجل الذي أعلنَّاه قائداً للانقلاب الأول، مهَّد الطريق من أجل اعتلائه سدة رئاسة الجمهورية، لذلك قام الضباط بعد أن عيل صبرهم من سوء سياسة القائد بحركة جديدة لصالح الأمة. إن الجيش سيوقف تدخله في السياسة حال وصول الساسة إلى اتفاق على نظام وإدارة البلاد)[٤٤].

يبدو مما سبق، أن الانقلابيين ركزوا على العوامل الداخلية كأساس للقيام بانقلابهم دون التركيز على عوامل خارجية، ساهمت في إسقاط حسني الزعيم، أو الاهتمام لدور السياسة الخارجية التي مارسها من خلال توقيعه على اتفاقيتي التابلاين، والنقد، وتوقيع الهدنة مع "إسرائيل " مما دفع البعض، للقول: "أن السياسة المتفتحة للزعيم على الدول الأجنبية هي التي أدت إلى الإطاحة به "[٤٥].

بالفعل كانت هناك دوافع وأسباب أخرى، لم تتناولها البيانات العسكرية للانقلابيين، ولم يشر إليها العقيد الحناوي أو غيره كان أهمها، قضية "أنطوان سعادة"[٤٦] زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي.

فقد أثارت عملية تسليمه للسلطات اللبنانية ردود فعل واسعة بين أعضاء الحزب، مما" دفعهم للتخطيط من أجل الإطاحة به "[٤٧] وخاصة بعد انتخاب حسني الزعيم لرئاسة الجمهورية، "وترفيع نفسه إلى رتبة مشير"[٤٨]. فقد أدى ذلك إلى نفور معظم الضباط منه. كما أن إقدام الزعيم إلى إبعاد مسانديه من الضباط، حيث عين العقيد "أديب الشيشكلي"[٤٩] ملحقاً عسكرياً في السعودية، وأرسل "عدنان المالكي"[٥٠] إلى فرنسا في دورة تدريبية، وطرده لعدد من الضباط بعد إعدام إنطوان سعادة، "إلى ازدياد القلق وعدم الرضا من الجيش"[٥١].

بالفعل تم اغتياله من قبل عناصر من الحزب السوري القومي الاجتماعي، ممن اشتركوا في الانقلاب عليه[٥٢].

كما كان هناك دور للدروز في إسقاط حسني الزعيم. فنتيجة لتحول حسني الزعيم نحو محور مصر – السعودية، أضاع ولاء الدروز له. وبدأت تساوره الشكوك بأنهم يتآمرون عليهم مع الهاشميين وحزب الشعب. فأرسل قوى كبيرة إلى حامية جبل الدروز ليرعب سكانه، فرأى كل من الملازم الأول، فضل الله أبو منصور، والمقدم

أمين أبو عساف قائد الكتيبة المسلحة، أن هذا التحرك تهديداً لبيوتهم وعائلاتهم،[٥٣] فبادرا للإحاطة به بعد الاتفاق مع أكرم الحوراني [٥٤].

كما كان للعلاقات الأسرية والعشائرية تأثير سلبي في السياسة السورية، وبرزت هذه الظاهرة في عهد حسني الزعيم، في الخلاف مابين أسرة البرازي وأسرة الحوراني من جهة، وبين أسعد طلس والبرازي من جهة ثانية.

وعلى إثر تولية محسن البرازي رئاسة الوزراء، قام بتنحية الدكتور "أسعد طلس"[٥٥]، عن منصبه شغل مناصب عليا في وزارة الدفاع الوطني والخارجية[٥٦].

كما أن تحالف الزعيم مع عشيرة البرازي، الأعداء التقليديين للحوراني في حماة أوقع الخلاف ما بين الحوراني والزعيم، بالرغم من أن الحوراني من أقوى وأقدم المساندين للزعيم، مما هيأ الأسباب للحوراني للتخطيط والإطاحة بالزعيم[٥٧]، بعدما عين البرازي رئيساً للوزراء، الذي يعد في نظر معظم السوريين على أنه "روح الزعيم الشريرة "[٥٨].

بالرغم من أن سامي الحناوي حاول أن يؤكد، "أن الغاية الوحيدة من الانقلاب هي إنقاذ سمعة سورية وشرف الجيش"[٥٩]، ونفى أي دور للقوى الخارجية، إلا أن الأحداث أثبتت عكس ذلك، وأكدت مشاركة بريطانيا، وبالتنسيق مع حكومة نوري السعيد في الانقلاب. فقد أدت السياسة الخارجية لحسني الزعيم نحو السعودية ومصر، ومعاداته العراق إلى فقدانه تأييد ومساندة الفئات الوحدوية العربية والموالية للهاشميين[٦٠]. دفع لهذه حكومة العراق إلى إجراء اتصالات مع مجموعة من الضباط السياسيين السوريين، وسيتضح ذلك في فقرة قادمة.

يتضح من خلال أحداث الانقلاب، أنه أفاد العراق كثيراً، لأنه عزل سورية عن المحور السعودي المصري، ودفع بها باتجاه العراق، ويتضح ذلك من "سرور وبهجة نوري السعيد من تغيير النظام في سورية"[٦١].

ويشير إلى ذلك باتريك سيل حيث يوضح "بأن الحناوي هو من وقع عليه اختيار العراق للإطاحة بالزعيم، وقد كان العميل الغبي لمطامع العراق، ولأعداء الزعيم الآخرين داخل سورية"(٦٢).

لم تكن الدول العربية والأجنبية غافلة عن الانقلاب، فسرعان ما أوضحت مواقفها منه، وتباينت كل منها بحسب العلاقات المصالح التي تربطها بحكم حسني الزعيم.

فقد كان الانقلاب عبارة عن نكبة حادة لأصدقاء الزعيم، "إذ تلقت مصر أخبار اغتيال الزعيم بوجوم شديد وعاشت البلاد في حداد لثلاثة أيام "(٦٣).

و"قارنت الصحافة المصرية انقلاب الزعيم غير الدموي مع انقلاب الحناوي الدموي"(٦٤). وأعادت مصر الطلبة السوريين، الذين أرسلوا منذ عهد حسني الزعيم إلى مصر للالتحاق بالمؤسسات الجوية والبحرية والمصرية لأغراض التدريب(٦٥).

ولم يختلف موقف العربية السعودية عن الموقف المصري، فقد "تمهلت في الاعتراف، وانتظرت مصر حتى طلبته سورية رسمياً"(٦٦).

وعلى العكس كان الموقف الأردني، فقد "أرسل الملك عبد الله برقية تهنئة إلى قادة الانقلاب الجديد"(٦٧)، و"أبدى ارتياحه ورغبته في استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين"(٦٨).

وعقد الملك عبد الله "اجتماعاً للوزراء لبحث الشؤون السورية"(٦٩)، وكان الأردن أول دولة اعترفت بحكم الحناوي ١٩ آب ١٩٤٩(٧٠).

أما بالنسبة للحكومة اللبنانية، فكانت قد اتصلت بالحكومات العربية وأطلعتها على تفاصيل ماجرى، واقترحت توجيه تهنئة للحكومة السورية، دون أن تنتظر نتائج اتصالاتها(٧١).

وبتاريخ ١٩ أيلول أرسل وزير الخارجية اللبنانية كتاباً، يعترف فيه بالوضع الجديد. كما صدر في اليوم ذاته عن مديرية الدعاية والأنباء السورية، بلاغٌ رسميٌ، عن اعتراف السعودية ومصر بالوضع السوري الجديد، وجاء فيه اعتراف السعودية وتمنياتها الطيبة لسورية، والقائمين على شؤونها[٧٢].

تفاوتت مواقف الدول الكبرى من انقلاب الحناوي، فقد وصفت السفارة البريطانية في دمشق الوضع الجديد، "بأنه كان هناك ارتياح من إزالة غمامة القمع السوداء التي عمت البلاد منذ استيلاء الزعيم على السلطة"[٧٣].

ورحبت الصحف البريطانية بالانقلاب، وكالت المديح لقادته، ووصفت نتائجه، بأن من شأنها أن تحقق للبلاد حكومة قوية يسندها الشعب، وتؤازرها الهيئات الوطنية لإعادة سورية إلى توازنها[٧٤].

وحذرت الصحف المصرية من أن لندن كانت لها أصابع في الانقلاب، وسيكون مشروع الهلال الخصيب القضية الرئيسية التي ستبرز سريعاً[٧٥].

وأشارت بعض المصادر إلى دور بريطانيا في الإعداد للانقلاب، وذلك بسبب مساعي الزعيم الأخيرة لتقليص نفوذ عملاء بريطانيا في سورية[٧٦].

وقد عزت الصحف البريطانية أسباب الانقلاب إلى خلافات بين الضباط، وإلى استئثار حسني الزعيم بالسلطة، وإهماله للضباط الذين ساعدوه في الانقلاب.

وأكدت صحيفة (الديلي تلغراف) على مكانة سورية الاستراتيجية والاقتصادية، وإلى أن الموقف من الناحية السياسية والإدارية قد ساء في المدة الأخيرة، بحيث أصبحت سورية تحت رحمة العنف السياسي[٧٧].

وعلقت صحيفة (العلم الأحمر) البلجيكية على الانقلاب، مشيرة إلى أن حسني الزعيم كان عميلاً لأمريكا، وأن الانقلاب الجديد قد تم باشتراك بريطانيا، وأن سامي الحناوي عميل بريطاني، وأن حوادث ١٤ آب ١٩٤٩ هي صورة صادقة عن الصراع

القائم بين الاستعمار البريطاني والأمريكي في سبيل السيطرة على الشرق، وأنه مظهر من مظاهر الصراع على البترول السوري بين بريطانية وأمريكا[٧٨].

وأشارت الصحف الروسية إلى أن الانقلاب وجه ضربة إلى رغبة فرنسا بالعودة كعنصر له مكانته في الشرق، كما وجه ضربة للمصالح الأمريكية، ولا يُستبعد الدور الذي قامت به بريطانيا، بتشجيعها العناصر غير الراضية عن نظام الحكم، وبالاتفاق مع العراقيين لتحقيق مشروع الهلال الخصيب أو سورية الكبرى[٧٩].

وجاء موقف الفرنسيين متخوفاً من الانقلاب الجديد، خاصة وأنهم خسروا بسقوط الزعيم حليفاً لهم في المنطقة. وعللت الصحف الفرنسية، الإطاحة بالزعيم، هو من مصلحة بريطانيا، كونه فضّل شركات النفط الأمريكية، والسلاح الفرنسي[٨٠].

فقد نسبت صحيفة (لوموند) الانقلاب إلى زمرة ستيرلنغ – فرير – سبيرز- وجلوب. وفئة تعتبر أيَّ نهج قومي سليم في سورية أمراً شاذاً، ويجب أن يزاح، وجميعهم من الرسميين من البريطانيين المهتمين بالمنطقة[٨١].

وكذلك بالنسبة لصحيفتي (كومبات)، التي صدرت تحت عنوان رئيسي، يقول: (بريطانيا العظمى تعيد مراكزها في "الشرق الأوسط")، وصحيفة (فرانس تيرور) التي أيضاً أعادت شكوكها في الانقلاب الجديد إلى بريطانيا[٨٢]. أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية،" فكانت تطمح أن يَحسم لها انقلاب الحناوي مسألتي: اتفاقية التلابلاين، ومكافحة الشيوعية"[٨٣].

وحزنت الصحافة الأمريكية على الزعيم، فقد صورته بأتوتورك سوريا.

ورثته صحيفة (كريستيان ساينس مونيتور) وجاء فيها: (أن عملية الإصلاح في "الشرق الأوسط " قد تتراجع مرة ثانية هناك وتعيق التقدم)[٨٤].

مهما تباينت المواقف العربية والأجنية، واختلفت من انقلاب الحناوي، فقد جاء هذا الانقلاب دعماً لمحور بغداد - عمان، وابتعاداً عن المحور السعودي - المصري، وأثبتت السياسة الداخلية والخارجية للحناوي صحة ذلك.

III- السياسة الداخلية والخارجية للحناوي:

١-السياسة الداخلية للحناوي:

منذ الساعات الأولى للانقلاب استدعى الزعيم الحناوي عدداً من السياسيين، وبسطت القيادة العامة لهم أسباب الحركة الانقلابية، وأكدت أن مهمة الجيش ستكون مقصورة على حفظ الأمن، وأن الهدف العاجل الذي ترمي إليه هو تسليم (الأمور بأسرع ما يمكن إلى حكومة مدنية تمثل الشعب وتطمئنه، وتكفل رغائبه، وتعيد له عزته وكرامته، وتمضي قدماً في سبيل إقرار الأمور في نصابها الدستوري المشروع[٨٥].

وشرح أسباب الاجتماع بتأسيس حكومة صالحة تقوم على أساس العدل واحترام القانون والحريات الشخصية والاجتماعية، وأن الجيش سيقف بعيداً عن كل تدخل سياسي[٨٦].

وتم تشكيل لجنة من أكثر التنظيمات السياسية، مؤلفة من هاشم الأتاسي وفارس الخوري ورشدي الكيخيا وناظم القدسي وأكرم الحوراني وآخرين، مهمتها إعادة الحياة الدستورية للبلاد، وتفرغ الجيش لمهامه الأساسية. واستقر رأي أعضاء اللجنة على تأليف وزارة مؤقتة برئاسة الأتاسي[٨٧].

ومساء الخامس عشر من آب سلّم الحناوي السلطة رسمياً إلى هاشم الأتاسي، وأعلن أن مهمته الوطنية المقدسة قد انتهت، وأنه سيعود إلى الجيش[٨٨].

وبالفعل شكل الأتاسي الوزارة في ١٥ آب على النحو الآتي:

(هاشم الأتاسي للرئاسة، رشدي الكيخيا للداخلية، ناظم القدسي للخارجية، خالد العظم للمالية، عبد الله عطفة للدفاع، أكرم الحوراني للزراعة، سامي كبارة للعدلية والصحة، فيضي الأتاسي للاقتصاد، مجد الدين الجابري للأشغال العامة، عادل العظمة وزير دولة، ميشيل عفلق للمعارف، فتح الله أسيون وزير دولة)(٨٩).

ويدل تشكيل الوزارة من مختلف الأحزاب على تأييد هذه الأحزاب لانقلاب الحناوي، وتجاوبها معه، ويدل اشتراك حزب الشعب بثلاث حقائب وزارية، على تأييده لفكرة الاتحاد مع العراق(٩٠).

وضمت الوزارة لأول مرة وزراء مثلوا حزب البعث والحزب العربي الاشتراكي ووزيرين من الحزب الوطني(٩١).

أعلنت الحكومة الجديدة أنها ستتولى سلطات رئيس الجمهورية، إلى أن يتم انتخاب جمعية تاسيسية تعيد تنظيم البنية الدستورية للبلاد(٩٢)، وتقوم بوضع دستور جديد للبلاد، لأن الدستور القديم لم يعد صالحاً. وأول ما قامت به الوزارة الإفراج عن الموقوفين، منذ عهد حسني الزعيم في سجن المزة، وأعادت الضباط المسرحين إلى الجيش، ومنهم أديب الشيشكلي، وعدّلت قانون المطبوعات الجديد، وأطلقت حرية الصحف(٩٣). كما ألغت الحكومة الجباية الاستثنائية، وشكلت لجنة لدراسة إعادة ربط الدرك بوزارة الداخلية، وعُهِد إلى أكرم الحوراني وزير الزراعة الإشراف على المديرية العامة للدعاية والنشر والإذاعة وفُصلت دار الإذاعة السورية عن وزارة البريد والبرق(٩٤).

كان حزب الشعب يصر على الانتخابات عبر تبني قانون جديد للانتخابات، مع الإصرار على دستور جديد للبلاد عبر جمعية تأسيسية، من أجل استبعاد شكري القوتلي عن منصب رئاسة الجمهورية. لهذا أقرت الوزارة المراسيم التي أصدرها حسني الزعيم، ومن ضمنها مرسوم قبول استقال القوتلي وحل مجلس النواب(٩٥).

نجح حزب الشعب في حمل مجلس الوزراء على تعديل قانون الانتخاب، في ضوء المشروع الذي قدمه السيد رشدي الكيخيا، بحيث تقوم كل دائرة انتخابية بانتخاب عدد من النواب على أساس نائب واحد لكل ٣٠٠٠٠ مواطن، وقد خفض سن الناخب إلى ثماني عشرة سنة، وأعطى القانون للإناث حق الانتخاب لأول مرة، شريطة أن تكون حائزة على شهادة التعليم الابتدائي، ونص على تخصيص ستة نواب لتمثيل البدو الرحل في المجلس النيابي، من الذين يجيدون القراءة والكتابة. ثم زاد هذا العدد إلى تسعة نواب، حتى أصبح مجموع عدد النواب في المجلس النيابي السوري /١٠٨/ نواب. كما تم تحديد يوم ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٩ موعداً لإجراء الانتخابات العامة للجمعية التأسيسية[٩٦].

قاطع الحزب الوطني الانتخابات، وشارك عدد من أعضائه فيها كمستقلين (العسلي، عادل العظمة)، وظل يتمسك بالعودة إلى دستور عام ١٩٢٨، واتهم الحكومة المؤقتة بخنق حرية الصحافة، وقيامها بإجراء تنقلات كبيرة في جهاز الإدارة والشرطة والأمن العام للتأثير على إرادة الناخبين، وتوجيه الانتخابات لصالح مرشحي حزب الشعب، والتلاعب بجداول الناخبين[٩٧].

ونوّه عادل العظمة إلى ذلك "بخروج مظاهرة من بعض العناصر الشيوعية، كما وزّعت منشورات في مدينة دمشق باسم الطلاب الحقوقيين، هاجمت انضمام سورية للعراق، ويتابع "لقد علمت من بعض الشباب أن غاية المظاهرة التي خرجت في المدينة، كانت المطالبة بحكومة حيادية من أجل إجراء الانتخابات "[٩٨].

وقد ورد في كتاب وليد المعلم (التحدي والمواجهة)، أن وزير الداخلية، كان قد أصدر تعليماته إلى المحافظين، ليعرقلوا ترشيح الذين لا ينتسبون لحزب الشعب، ومساعدة مرشحي الحزب للفوز، وبعد اطمئنانه للترتيبات أعلن انسحابه من وزارة الداخلية لضمان نزاهة الانتخابات، فأسندت وكالتها إلى السيد خالد العظم[٩٩].

أجريت الانتخابات في موعدها، وأسفرت نتائجها عن فوز ٤٣ مرشحاً من حزب الشعب و٢٠ مرشحاً من المستقلين المناصرين لحزب الشعب، و٢٢ مرشحاً من المستقلين، ومرشح واحد عن حزب البعث، وآخر عن الحزب القومي السوري، و١٣ مرشحاً من الحزب الوطني، و٤ مرشحين عن الجبهة الإسلامية، و٩ ممثلين عن العشائر، والحوراني عن حزب الشباب.

وفي ١٢ كانون الأول انتخب رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب رئيساً للجمعية التأسيسية، وفي ١٤ كانون الأول انتخب هاشم الأتاسي رئيساً للدولة ريثما يتم تعديل الدستور[١٠٠].

كانت النتائج التي أسفرت عنها الانتخابات هدفاً لاحتجاجات وانتقادات كثيرة، واتهمت الحكومة بأنها غير حيادية. فاستقال ميشيل عفلق من وزارة المعارف بسبب التزوير في الانتخابات وفقدان التنظيم، ثم استقال أكرم الحوراني من الوزارة لنفس الأسباب[١٠١].

دارت في جلسة الجمعية التأسيسية في١٧ كانون الأول مناقشةُ نص القَسَم الذي سيؤديه رئيس الجمهورية وأعضاء الجمعية التأسيسية والوزارة، ثم التصويت عليه، فأنصار الوحدة مع العراق قدموا القسم التالي: (أقسم بالله العظيم أن أحترم قوانين الدولة، وأحافظ على استقلال الوطن وسيادته وسلامة أراضيه وأصون أموال الدولة، وأعمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية)[١٠٢].

وكان الخلاف حول العبارة الأخيرة (أعمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية)، خاصة وأن نص القسم كان خالياً من عبارة (المحافظة على النظام الجمهوري في سورية)، وقد فسره أعداء الوحدة مع العراق، بأنه "محاولة للتمهيد للمشروع تحت عرش الوصي العراقي عبد الإله، فعارضوا ذلك، وأصروا على وجوب إشارة القسم إلى المحافظة على النظام الجمهوري في سورية"[١٠٣].

وقف إلى جانب هذا الرأي الحوراني ممثل حزب الشباب، ومصطفى السباعي، ممثل الجبهة الإسلامية وغيرهم، وسمي أصحاب هذا الرأي (الكتلة الجمهورية)[١٠٤] وهذا دليل على ثبات موقف الحناوي، ودعمه للوحدة السورية - العراقية، مما جعل هذا القسم ينجح، كما ويلاحظ أن الانتخابات العامة التي أجرتها الحكومة المؤقتة برئاسة الأتاسي، قد أدت إلى تعدد الأحزاب السياسية، والكتل البرلمانية والصراع بينها، مما جعلها تتسابق إلى التقرب من الجيش لكسب ثقته وتأييده لمواقفها من القضايا المطروحة ولاسيما من السياسة الخارجية، التي كانت تتبعها الحكومة السورية، وتحديداً نحو العراق والوحدة معه.

٢-السياسة الخارجية للحناوي:

أشارت وزارة الأتاسي في بيانها الوزاري إلى السياسة الخارجية للحكومة، وأوضحت ضرورة الإبقاء على صلات المجاملة والصداقة مع الدول الأجنبية في إطار ميثاق الأمم المتحدة، وأكدت للوزراء المفوضين لفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا احترام الحكم الجديد للاتفاقيات، التي تم عقدها أثناء حكم الزعيم مع فرنسا، ومع شركة التابلاين ونفط العراق، حتى أبدى ممثلو تلك الدول استعدادهم، للاعتراف بالحكم الجديد في سورية[١٠٥].

فبادرت "الصحف البريطانية إلى الترحيب بالحركة، بينما وصفتها الصحف الفرنسية، بأنها مؤامرة اشتركت في تدبيرها بريطانيا وحكومة نوري السعيد"[١٠٦].

واشترطت تلك الدول عدم التعرض للاتفاقيات التي نوقش موضوع إلغائها، وإلغاءَ جميع المراسيم الصادرة في عهد الزعيم في أول جلسة وزارية عقدتها وزارة الأتاسي[١٠٧].

وأُقر ذلك من جميع أعضاء الوزارة، بمن فيهم من ممثلوي البعث وحزب الشباب، وحزب الشعب المعروفون بمعارضتهم سابقاً لهذه الاتفاقيات.

ورأت الولايات المتحدة الأمريكية في نجاح انقلاب الحناوي خطراً جديداً يهدد مصالحها ولا سيما النفطية، بعد أن هُيئت لها الظروف أثناء حكم حسني الزعيم لتنهي مشروع أنابيب التابلاين، ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة الأمريكية، وبعض الدول الغربية تستاء من انقلاب الحناوي، "فرفضت الاعتراف بالعهد الجديد مدة شهر كامل رغم الجهود المبذولة لحملها على الاعتراف، ورغم من عدم تدخل الجيش بشؤون الحكم "(١٠٨).

كما اتضحت سابقاً مواقف الدول العربية من الانقلاب، وسرعة ترحيب العراق والأردن به ووجوم مصر والسعودية لدى قيام الانقلاب.

حرصت الحكومة السورية الجديدة على تمثيل مختلف الاتجاهات الحزبية والمستقلة، بحيث أصبحت هذه الوزارة تشكل ائتلافاً سياسياً يحتل فيه حزب الشعب المتعاطف مع مشاريع الوحدة بين سورية والعراق، أهم المقاعد الوزارية(١٠٩).

كما عمدت الحكومة إلى استمالة الحزب الوطني، الذي ظل يناهض المشاريع الهاشمية لفترة طويلة إلى جانب أي خطوة وحدوية قد يقدم عليها الحكم الجديد في سورية. وطرحت مسألة الوحدة مع العراق أمام الرأي العام عن طريق الدعاية الواسعة في الصحف، ليتضح من خلال هذا المشروع دور العراق وموقفه من انقلاب سامي الحناوي.

IIII- دور العراق وموقفه من انقلاب الحناوي:

تتفق معظم المصادر على أن الحكومة العراقية، " قد امتعضت من اتجاه الزعيم وسياسته الممالئة لمصر، وتاقت لأن ترى في دمشق حكومة على صلة ودية معها، وكانت مستعدة لأن تدفع مقابل إزاحته" (١١٠).

ويتضح أن العراق كان على اتصال مع مجموعة من الضباط ممن قاموا بانقلاب الحناوي، وكان من بينهم، العقيد سامي الحناوي، وصهره أسعد طلس، ومساعده العقيد علم الدين قواص، والنقيب محمد معروف من مخابرات الجيش، والطيار عصام مريود، الذي كان لديه طائرة تقف على أهبة الاستعداد، لنقل المتآمرين إلى بغداد في حالة الفشل [١١١]. وكان الملازم أول فضل الله أبو منصور هو المتآمر الوحيد الذي ترك تقريراً مكتوباً عن الحوادث، أشار فيه إلى تواطؤ عراقي مباشر، وكان دوره في ذلك، دور المنفذ في نهاية سلسلة من القادة، فقد اختير للضغط على الزناد، نظراً لأسبابه الخاصة في قتل الزعيم[١١٢].

وأظهر أرشيف الخارجية البريطانية، "بأنه كانت هناك درجة من الانخراط العراقي (طبعاً بالوضع السوري)، إلا أنه لم يكن موجها من لندن، وأن طبيعة الدور العراقي لم تكن واضحةً"[١١٣].

وأثناء محادثات نوري السعيد مع الخارجية البريطانية، "ادعى بأنه كان على علم بموعد الانقلاب مسبقاً، كما أنه ساعد الحناوي على إصدار منشورات دعائية"[١١٤].

لكن الخارجية البريطانية حذرت نوري السعيد من التفاخر بمعرفته المسبقة بالانقلاب، وقالت: "لقد أُبلغ نوري السعيد، بأننا نعارض بشدة الاغتيال القضائي، وأننا نأمل بأن لا يزهو ويفتخر بمعرفته المسبقة بالانقلاب، أو بعلاقاته مع أولئك الذين خططوا له"[١١٥].

ويبدو أن نوري السعيد كانت له اتصالات مع ضباط الجيش السوري الساخطين والمستائين[١١٦].

وبعد يومين قدم وزير خارجية العراق آنذاك، فاضل الجمالي، رواية متناقضة للموضوع، قال فيها: "بأن السفير العراقي في دمشق كان مقرباً من أسعد طلس، الذي

طلب بدوره الحصول على طائرة عراقية، حتى يمكن للمتآمرين أن يلوذوا بالفرار، إذا ما فشل انقلابهم "[117].

وفي اليوم الثاني للانقلاب، أسرع رئيس الوزراء البريطاني آنذاك (آتلي) يهنئ في بيان إذاعي موجه لحكومة سورية السيد هاشم الأتاسي زعيم حزب الشعب بخطواته الناجحة.

وأشارت مجلة (تايم انرتايد) الإنكليزية، في تعليقها على أحداث سورية، أنه قد وصل إلى السلطة أنصار الوحدة مع العراق[118].

وأثناء ذلك كانت بريطانيا والعراق والحكومة السورية تتجنب إثارة مشروع (الوحدة السورية - العراقية) علناً، بل كان وزير الخارجية السورية ناظم القدسي يطمئن الجهات العربية والدولية الأخرى، وينفي أن يكون الانقلاب خطوة أولى نحو قيام سورية الكبرى، ويؤكد حرص سورية على المحافظة على جمهوريتها المستقلة.

لكن هذه التصريحات لم تمنع الاتصالات السرية، فقد قام إبراهيم الألوسي وزير العراق المفوض بدمشق بزيارة هاشم الأتاسي مرتين إثر الانقلاب [119].

وهذا يدل على مساعي العراق للوحدة أو على الاطلاع المسبق للانقلاب، وعلى اعتراف عراقي بالوضع السوري الجديد.

كما يتضح أن الوضع في سورية شغل تفكير الوصي على عرش العراق (عبد الإله)، فكان يرغب بشدة أن يحصل على سورية، ولكنه بدا عاجزاً عن الوصول إلى خطوة فعالة لتحقيق مطامحه.

لكن نوري السعيد وأتباعه استحسنوا الموضوع إلى حدٍ خَلَقَ عندهم شاغلاً خارجياً، واعتبر نوري السعيد أن أموال الرشوة المصروفة في سورية لم تضع بل صرفت في محلها[120].

ولكن بعد عدة أيام من الانقلاب، أنكر نوري السعيد بأن العراق يخطط لتحقيق مشروع الهلال الخصيب أو أي مشروع آخر، ويتضح ذلك، من خلال بيان ألقاه مع (حسين سري) رئيس وزراء مصر في ٢٨ آب، وذلك أثناء عودته من لندن، فزار في طريقه مصر وعقد اجتماعين مع (حسين سري).

وجاء فيه: "ليس للعراق أي مشروع يدعى بمشروع الهلال الخصيب، أو بمشروع سورية الكبرى، أو أي مشروع آخر يريد فرضه على إحدى شقيقاته الدول العربية المجاورة. وإن هدف العراق، هو الوحدة الشاملة والتعاون التام، الذي يتحقق بطرق مشروعه لا إكراه فيها ولا إغراء، ولا يكون سبباً في إضعاف الكيان السياسي لأي بلد عربي يرغب في التعاون مع أي بلد عربي آخر"[١٢١].

لكن في الحقيقة كان لانقلاب الحناوي صدى إيجابي في العراق على مختلف الأصعدة. وبالفعل بدأ التأييد للانقلاب منذ اليوم الأول وبطرق مختلفة فاتحاً الطريق لتقارب سوري – عراقي من أجل إنجاح أي خطوة وحدودية بينهما.

IIII- التقارب الوحدوي بين سورية والعراق في عهد سامي الحناوي ١٤ آب ١٩٤٩ إلى ١٩ كانون الأول ١٩٤٩:

بعد انقلاب سامي الحناوي بدأت المحاولات لتنفيذ مشروع الاتحاد السوري – العراقي، ونشطت الأحزاب والتكتلات السياسية في كل من سورية والعراق لتعزيز فكرة الاتحاد.

وكان من أشد المتحمسين للوحدة مع العراق، حزب الشعب السوري، الذي استطاع السيطرة على الوزارة، التي تشكلت عقب الانقلاب مباشرة، وأخذ يعد العدة لتحقيق الوحدة، وخصوصاً بعد فوز مرشحيه في الجمعية التأسيسية، وانتخاب رشدي

الكيخيا زعيم حزب الشعب لرئاسة الجمعية. فأصبح بإمكانه توجيه الحركة السياسية في سورية للعمل لتحقيق الوحدة.

وسارع الحزب إلى إعلان برنامجه الانتخابي، ودعا فيه إلى إلغاء جوازات السفر بين الأقطار العربية، وإلى توحيد الجيوش العربية وإنشاء مصرف مشترك(١٢٢).

أما الحزب الوطني فكان ضعيفاً بالوزارة، خاصة بعد تفرق زعمائه، شكري القوتلي، وجميل مردم بك خارج البلاد. أما من بقي في سورية عبد الرحمن الكيالي وصبري العسلي، فلم يكن لهم أتباع. كما أن الحزب كان على صلة وثيقة بأنصار التقارب المصري - السعودي، والاتجاه المضاد للهاشميين، الذي ثار عليه مخططو انقلاب الحناوي(١٢٣).

واستطاع مؤيدو المحور العراقي أثناء هذه المرحلة أن يسيطروا على الحزب الوطني، الذي عقد مؤتمراً عاماً في ٢٩ أيلول ١٩٤٩. وبالرغم مما يكنه من عداوة لمشروعي الهلال الخصيب وسورية الكبرى فقد أصدر بياناً إلى الشعب السوري، يدعو فيه للوحدة مع العراق(١٢٤)، وأهاب بالحكومة السورية، رغم أنها لا تمثل الأحزاب السياسية القائمة في البلاد جميعاً، لأن تتبنى مشروعه هذا(١٢٥).

وعلى ما يبدو أن هذا التغيير المفاجئ في موقف الحزب جاء من جانب صبري العسلي الذي هدف من ذلك، أن يسرق شعبية حزب الشعب، ويستفيد من الحركة التي حازت على دعم شعبي. لذلك قام صبري العسلي باستقبال الوصي العراقي الأمير عبد الإله في مطار المزة، أثناء توقفه في دمشق، بعد عودته من لندن إلى بغداد في الخامس من تشرين الأول ١٩٤٩، وقدم العسلي للأمير بياناً عن السياسة الجديدة للحزب الوطني، والتي تقف إلى جانب العراق(١٢٦).

وفي الثامن من تشرين الأول أصدر الحزب الوطني بياناً، تضمن رأيه في مختلف القضايا، وأولها الوحدة مع العراق، وأعلن أنه سيساند خطوة كهذه، بعد أن حدد فيها شروط الوحدة مع العراق، وهي:

١-وحدة في رئاسة الدولة.
٢-وحدة في الشؤون العسكرية.
٣-وحدة في الشؤون الخارجية.
٤-وحدة في الشؤون الاقتصادية [١٢٧].

وأدى موقف الحزب المؤيد للوحدة مع العراق إلى تفرق صفوفه، ضمن تكتلات ثلاثة: قسم بقيادة ميخائيل إليان، يسعى لإقامة الوحدة مع العراق، وقسم آخر يصل الخيوط مع شكري القوتلي والملك فاروق بقيادة فاخر الكيالي. أما القسم الثالث والأخير، فكان اتصاله مع السعودية سراً، وكان يحرضها على رجالات السلطة في سورية [١٢٨].

ومثلت الأحزاب (البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي والإخوان المسلمون) قوة معارضة للراغبين في الوحدة مع العراق، وشكل ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار من حزب البعث العربي، وأكرم الحوراني زعيم الحزب العربي الاشتراكي، قوة المواجهة للأغلبية من حزب الشعب، التي سيطرت على الوزارة وعلى الجمعية التأسيسية.

فقد أعلن ميشيل عفلق عن رأيه بالوحدة مع العراق بتاريخ ١٩٤٩/١١/١٧، "بأن الحزب يرحب بالوحدة مع العراق، ولكن يصر على تحفظات أساسية، أهمها: تعديل المعاهدة العراقية - البريطانية، لئلا يتسرب النفوذ الأجنبي إلى الوحدة الجديدة، والشرط الثاني للوحدة مع العراق، هو إبقاء النظام الجمهوري في سورية.

وأخيراً نوع الحكم في الدولة الاتحادية، فالحكم في سورية خطا خطوات حسنة نحو التحرر والتمثيل الشعبي الصحيح، ونحن لا نريد أن تُفقد هذه الصفات، بل نعمل على تعميمها على العراق "(١٢٩).

وكان هذا رأي أكرم الحوراني أيضاً. ففي نظره: "لا يمكن في ظل الاتحاد، أن يكون جزء منه مستقلاً، والجزء الآخر محتلاً"(١٣٠)، وهذا يعني تحرير العراق من نير المعاهدة والاحتلال البريطاني.

كذلك دافع الفرع السوري لحزب الإخوان المسلمين بدوره عن الجمهورية العربية السورية إزاء المطامح العراقية. ففي الحادي عشر من تشرين الثاني نشرت صحيفة الحزب (المنار الجديد) بياناً انتخابياً دعت فيه إلى قيام روابط أمتن بين الدول العربية، وحماية استقلالها من التدخل الأجنبي، وقيام جبهة متحدة في وجه المؤامرات الإمبريالية (١٣١). ونادى مصطفى السباعي زعيم الحزب إلى الوحدة الإسلامية، لأن الملكية لا تتفق مع مبادئ الإسلام وتقاليده، وذلك لانعدام الاستقلال التام في بعض الأقطار العربية (الأردن والعراق)، ووجود ملكيتين فيهما(١٣٢).

أما الحزب القومي السوري الاجتماعي، فقدساير سياسة الحناوي القائمة على تأييد الوحدة مع العراق مؤكداً توحيد رئاسة الدولتين وسياستهما الخارجية والاقتصادية، من دون الخوض في الكيفية، التي يمكن أن تتم فيها الوحدة(١٣٣).

وتأتي أهمية هذا الحزب خلال فترة الحناوي، من خلال وجود مجموعة من أعضائه، في المجلس الحربي، ومساهمة أغلبيتهم في الانقلاب.

وأيدت الوحدة أوساط سياسية أخرى منها ساسة مستقلون كثيرون، أهمهم حسن الحكيم الذي طالب بالاتحاد الفوري مع العراق والأردن (١٣٤).

وبالنسبة للجيش السوري، فلم يكن موحداً بالنسبة لمعارضة مشروع الوحدة بين سورية والعراق، فقد ظهرت فيه فئة معادية للحكم العراقي، ووضعت نصب أعينها سحب الثقة من حزب الشعب باذلة كل الوسائل للإطاحة به.

وكان يضم أيضاً "ضباطاً تبنوا هذه الوحدة عن قناعة فكرية، وآخرين اشترتهم قوى أخرى كالعربية السعودية التي كانت لديها أسبابها الخاصة، للتخوف من أي تقارب سوري - عراقي، كما كان هنالك أيضا ضباط اشتراهم العراق"(١٣٥).

لذلك انقسم العسكريون إلى فريقين: فريق من ضباط الجيش يؤيد قيام الوحدة بين البلدين، وكان على رأس هذا الفريق، العقيد علم الدين قوّاص، والمقدم محمد معروف، وفريق ثانٍ يتزعمه العقيد الشيشكلي يعارض مشروع الوحدة مع العراق، معارضة شديدة معلناً تمسكه باستقلال سورية في ظل النظام الجمهوري(١٣٦).

لم يكن صدى مشروع الوحدة بين سورية والعراق على الساحة السياسية العراقية أقل انعكاساً، مما عليه في سورية، فقد سعت الأوساط السياسية القديمة المرتبطة بالعرش الهاشمي وبعض القوى السياسية، مثل حزب الاستقلال، إضافة إلى الوصي عبد الإله، إلى وضع مشروع الوحدة مع سورية موضع التطبيق، واستغلال انقلاب الحناوي لتحقيق ذلك.

لكن" اتسمت جهود العراقيين في البداية بالحيطة والحذر، لأنهم كانوا يخشون قوة الجهات المحلية والعربية المعارضة للهاشميين(١٣٧).

ويعد حزب الاستقلال العراقي من أشد المناصرين لفكرة الوحدة مع سورية، ويبدو ذلك واضحاً في تصريحات قادته حول هذا الموضوع، وفي المقالات التي نشرت في صحيفة (لواء الاستقلال). فقد ورد فيها: "إننا نؤمن كما يؤمن إخواننا القوميون، في سورية إيماناً، لا يتطرق إليه الشك، بأن غاية الأمة العربية وسلامتها معاً، هي وحدة البلاد العربية عامة، والقطرين العراقي والسوري خاصة"(١٣٨).

نادى الحزب أيضا" بضرورة تغيير سياسة الحكم في العراق، والتمهيد لإقامة وضع دستوري حر يحبب السوريين الارتباط مع العراقيين بأوثق الوشائج "[١٣٩].

وكان يرى أيضاً،" أن الوحدة مع سورية، ستزيد من إمكانية الكفاح والمقاومة ضد النفوذ الإنكليزي"[١٤٠].

لذلك لم يتوان الحزب عن إرسال الوفود إلى العاصمة السورية والالتقاء مع الأحزاب السورية والسياسيين السوريين، وعقد الاجتماعات من أجل تقريب وجهات النظر حول الوحدة.

وبالمقابل كانت الحكومة الجديدة ميالة لإقامة علاقات وثيقة مع العراق، فقد أوحى وزير خارجية سورية ناظم القدسي، "أن الحكومة تتمتع بتأييد شعبي في موقفها، إذا أن سورية لم تعد تريد أن تبقى رهينة مصر "[١٤١].

وفسر السفير البريطاني في دمشق الموقف السوري الموالي للعراق، على" أنه شعورٌ عامٌ من أن الاستقرار الداخلي في سورية، لا يمكن أن يتحقق سوى بمساعدة جارة قوية"[١٤٢].

وسرعان ما شهدت دمشق وبغداد زيارات متبادلة لوفود رسمية وحزبية من البلدين، وتعددت اللقاءات من أجل إنجاح أية خطوة وحدوية بينهما.

ففي اليوم التالي، لتشكيل الوزارة في ١٥ آب ١٩٤٩ استقبلت دمشق وفداً شعبياً من العراق، للتهنئة بالانقلاب الجديد، ضم (صالح جبر، محمد الصدر، محمد عبد الهادي كبة، حمدي الباججي، صديق سنشل، فائق السامرائي، فاضل الجمالي، عبد الرحمن البزاز)[١٤٣].

ثم وصل وفدان آخران، الأول عسكري والثاني صحفي، ونزلت هذه الوفود في فندق الشرق (أوريان بالاس)، حيث نزل أعضاء حزب الشعب خلال تواجدهم

بدمشق، ومن ثم بدأ السياسيون السوريون ورجال الصحافة ورؤساء الأحزاب، وزعماء العشائر يتوافدون إلى الفندق، لعقد الاحتماعات السرية والعلنية مع أعضاء الوفد العراقي [١٤٤].

وخلال الاجتماعات طالب بعض السوريين بإعلان الوحدة فوراً بوضع البلاد أمام الأمر الواقع، لكن جماعة حزب الشعب رفضوا ذلك، إلى أن يتم الإعلان عبر انتخابات جمعية تأسيسية، ووضع دستور جديد، وطمأنوا العراق إلى سيطرتهم التامة على الساحة الشعبية، وأكدوا وجود مجموعة من الضباط موالين لسياستهم وعلى رأسهم اللواء سامي الحناوي[١٤٥].

واتفق المجتمعون على تحقيق عدة خطوات، وهي تمهيد الجو السياسي في سورية، وتهيئة الرأي العام بقبول الوحدة مع العراق، وذلك عبر انتخابات جمعية تأسيسية، تضع دستوراً جديداً، ينص على الوحدة مع العراق، والعمل على تحريك رجال الصحافة، وزعماء العشائر، وتصفية المعارضين للوحدة بين صفوف الجيش وتنسيق السياسة الخارجية للدولتين مع تبادل للوفود الشعبية والرسمية بينهما.

واعتماد (أسعد أطلس) للعمل في بغداد كضابط اتصال بين العاصمتين، واعتماد السيد (عدنان الأتاسي) نجل السيد هاشم الأتاسي وزيراً مفوضاً لسورية في العراق[١٤٦].

وفي نهاية آب عام ١٩٤٩ زار وفد من حزب الاستقلال العراقي دمشق "مكون من (إسماعيل الغانم، وعبد الرزاق شبيب) لاستطلاع الآراء السياسية في سورية حول الوحدة مع العراق"[١٤٧].

وخلال زيارته اجتمع مع الأحزاب السورية، ودارت تلك الاجتماعات حول مسألة الوحدة، وقدم الجانب السوري شروطه، "وتضمنت تحرير سورية من قيود المعاهدة العراقية - البريطانية، وتغيير الحكم في العراق"[١٤٨].

وامتدت الاتصالات بين البلدين إلى الحكومتين السورية والعراقية، اللتين اجتهدتا في تحقيق الوحدة بين البلدين.

فلم تكن الحكومة السورية ترفض فكرة الوحدة، على الرغم من عدم إثارتها في جلساتها إلا مرة واحدة، عندما اقترح رشدي الكيخيا، وضع مشروع النظام الأساسي لهذه الوحدة، طبعاً بعد أن سافر مرات إلى بغداد، هو وكل من ناظم القدسي، وعدنان الأتاسي الذي حضر من باريس، حيث كان وزيرا مفوضاً لسورية فيها.

وجاء في هذا المشروع، "أن الدولتين تؤلفان اتحاداً (فيدرالياً) له رئيس ونائب رئيس، ويشمل الدفاع والسياسة الخارجية والاقتصادية.

ويتولى وزراء الاتحاد شؤونه بمعاونة مجلس اتحادي"[١٤٩]. وكانت هذه الصيغة مختصرة جداً، وغامضة في الشؤون التفصيلية، ولم يستطع الساعون للوحدة حل قضية المعاهدة الإنكليزية، بما يتفق مع مبدأ تحرر سورية والعراق منها[١٥٠]

لذلك اتفق الجميع على الاتصال بالإنكليز، والتعرف على آرائهم، وبالفعل تم تكليف وزير الخارجية ناظم القدسي بذلك. وبعد أسبوع شرح القدسي في مجلس الوزراء نتيجة مساعيه، فقال: إن الإنكليز لا يمكن إطلاقاً أن يبحثوا بأمر المعاهدة البريطانية - العراقية، ولا علاقة لهم بمشروع الوحدة، وأنه لا يمكنهم أن يعتبروا سورية والعراق فريقاً واحداً بالنسبة لعلاقات العراق مع بريطانيا[١٥١].

وفي حقيقة القول يبدو أن الإنكليز كانوا يظهرون عكس ما يسرّون، وهذا ما أشار إليه خالد العظم، قائلاً: (أما الإنكليز، فكانت سياستهم تسير نحو النجاح لو تحقق الاتحاد، ففيه يشتد نفوذهم ويكتمل في سائر بلدان الشرق الأدنى، لكن رجالهم كانوا، في أحاديثهم مع الأشخاص غير المؤتمنين في نظرهم، يظهرون عدم رغبتهم في التدخل في هذا الأمر، زاعمين أن البلاد هي صاحبة القول الفصل)[١٥٢].

وجاءت زيارة الوصي (عبد الإله) إلى دمشق في ٥ تشرين الأول ١٩٤٩، وهو في طريق عودته إلى بغداد من لندن، واستقباله في مطار المزة من قبل هاشم الأتاسي، وفارس الخوري، ناظم القدسي، وعادل العظمة وعبد الله عطفة، وسامي الحناوي، لتؤكد خطوة جديدة من الجانبين نحو تحقيق أهداف الوحدة بين البلدين.

و"فُسرت هذه الزيارة بأنها خطوة واضحة نحو توحيد البلدين، وانتشر الحديث عن تحالف عسكري، لكن الوصيّ كان بالغ الحذر فلم يدلِ بأية بيانات علنية حول الموضوع"(١٥٣). إلا أنه أجرى محادثات سياسية مع الزعماء السوريين، واستطاع خلال زيارته، "أن يجسّ النبض عن مدى جدية السياسيين السوريين والحكم السوري بالنسبة لموضوع الوحدة مع العراق"(١٥٤).

ويبدو أنه عاد إلى بلده، وهو مطمئن إلى الرغبة الأكيدة التي لمسها عند الجميع لتنفيذ هذه الوحدة بما فيهم الحزب الوطني(١٥٥).

وبالفعل بدأت المحادثات الجدية بين سورية والعراق، وتألفت في سورية لجنة وزارية خماسية برئاسة هاشم الأتاسي وعضوية كل من السادة، ناظم القدسي وخالد العظم وعادل العظمة وأكرم الحوراني لتمثيل الجانب السوري في تلك المفاوضات (١٥٦)، وعرض وجهة النظر السورية. وقد وضع السوريون الأسس التي يجب أن تقام عليها هذه الوحدة، وطبقاً لرواية صديق شنشل أمين سر حزب الاستقلال العراقي الذي لعب دوراً فعالاً في تلك المباحثات، فإن الموقف كان كما يلي:

"لقد تبنى المبعوثون العراقيون، وبناء على تعليمات الوصي، وحدة القطرين في ظل عرش واحد. لكن السوريين أرادوا وحدة الشعبين، وكانت وجهة نظرهم أنه يجب أن يكون هنالك برلمان موحد يُمثل الشعبين العراقي والسوري.

أما أمور الدفاع والخارجية والاقتصاد، فيجب أن تعالج بشكل عام، بينما يجب أن تتمتع كل الموضوعات الأخرى في كل بلد بتصريف محلي ذاتي.

هذه هي الخطة التي اتفقت عليها لجنة الأتاسي الوزارية، والتي وافقت عليها الحكومة العراقية أخيراً بعد تردد كبير"[١٥٧].

لكن السوريين طلبوا تأكيداً رسمياً من العراقيين، بأن لا تشملهم المعاهدة مع بريطانيا لعام ١٩٣٠، في حال قيام الوحدة بين البلدين لأن الجيش السوري سيطيح بأي اتفاق يتم التوصل إليه مع العراق، ما لم تقدم بريطانيا التأكيدات المطلوبة [١٥٨].

كما أن السوريين أصروا على وجوب المحافظة على النظام الجمهوري في سورية[١٥٩].

وقدم مجلس الوزراء مشروعه، ونصَّ على:

١-إيجاد دولة اتحادية بين دولتي سورية والعراق، تتناول سلطاتها الشؤون العسكرية والخارجية والاقتصادية.

٢-تمارس هذه الدولة السيادة المطلقة في الشؤون المذكورة، باسم الشعبين السوري والعراقي بواسطة أجهزتها الدستورية، التي يقرها مجلس الاتحاد الممثل للشعبين، كما تمارس كل من دولتي سورية والعراق بواسطة أجهزتها الدستورية سيادتها المطلقة، في كل ما هو غير داخل ضمن اختصاصات الدولة الاتحادية.

٣-إن المعاهدات والاتفاقات الدولية التي التزمت بها كل من الدولتين، في الشؤون الداخلية ضمن سلطات الدولة الاتحادية قبل وجود الوحدة تبقى مرعية في حدودهما فقط، ولا تشمل حكومة الاتحاد ولا الدول الأخرى، على أن تقوم الدولتان المتحدتان بتنسيق الاتفاقات والعهود المتعلقة بسلطات دولة الاتحاد، بصورة تمكن هذه الدولة من القيام باختصاصاتها.

٤-يعرض هذا القرار الذي تتبناه الوزارة القائمة على المجلس التأسيسي بشكل اتفاق مبدئي بين الحكومتين العراقية والسورية لإقراره من قبل المجلس[١٦٠].

إلا أن الحكومة لم تتوصل إلى أي قرار، وذلك بسبب تباين آراء أعضائها أولاً، ولكونها هدفاً لضغوط خارجية متصارعة. لهذا قررت انتظار نتائج الانتخابات قبل أن تلزم البلاد بأي قرار.

وبات واضحاً أن إقرار أية صيغة وحدوية بين سورية والعراق، لا بد أن يسبقه تغيير وزاري سواء في العراق أو سورية، حتى يفوت الفرصة على معارضي الوحدة من السوريين من توجيه اتهامهم إلى الوزارة، ولاسيما العراقية، ووصفهم إياها، بأنها خطوة من صنع بريطانيا وعملائها [١٦١].

وبالفعل أقيل نوري السعيد، وعهد بالمسؤولية إلى وزارة حيادية، ترأسها علي جودت الأيوبي، ضمت في صفوفها، بعض العناصر السياسية التي كانت تؤيد فكرة الوحدة بين سورية والعراق.

جاءت نتائج الانتخابات النيابية في سورية لتؤكد فوز مرشحي حزب الشعب وأنصاره المؤيدين لاتجاه الوحدة مع العراق، وانتخب زعيم حزب الشعب رشدي الكيخيا كرئيس للجمعية في ١٢ كانون الأول. وفي ١٤ كانون الأول انتخب هاشم الأتاسي كرئيس مؤقت لسورية، ريثما يتم تعديل الدستور[١٦٢].

وبذلك أصبح بإمكان حزب الشعب أن يدفع باتجاه الاتفاق مع العراق، لكن لم يحدث ذلك. فالبرغم من أن حزب الشعب كان يؤيد الوحدة مع العراق، ورغم تطلع مؤيديه من التجار الحلبيين نحو الموصل وبغداد أكثر من تطلعهم نحو دمشق، لكن هناك تحفظان وقفا في طريق رغبته في الوحدة مع العراق؛ الأول: عدم الرغبة في التضحية بالنظام السوري الجمهوري على مذبح عرش يقوم عليه الأمير عبد الإله. والثاني: هو الخشية أن تتسع المعاهدة العراقية - البريطانية، فتشمل سورية في سياق

عملية الوحدة، وقرّ رأي جميع الجهات: أن سورية وقد تحررت حديثاً من الحكم الفرنسي يجب أن لا تقع تحت حماية دولة استعمارية أخرى (١٦٣).

وفي الجلسة الرابعة للجمعية في ١٧ كانون الأول، تمكنت قوى المعارضة التي ضمت حزب الشباب والجبهة الإسلامية، وعدداً من كبار ضباط الجيش الجمهوريين من تفجير "مسالة القَسَم"، الذي يجب أن يؤديه رئيس الجمهورية والنواب، وكانت وجهة نظرهم، تتمثل بضرورة أن يتضمن القسم تعهداً ليس فقط للوحدة العربية، وإنما يجب أن يتضمن أيضاً الحفاظ على النظام، وعندما طرح هذا الموضوع للتصويت كما ورد سابقاً، حصل نص القسم المقدم من مؤيدي الوحدة السورية - العراقية، على الأغلبية في التصويت(١٦٤)، فكان انتصاراً آخر لهم، وهذا يعني تصويت الجمعية التأسيسية، لصالح الوحدة مع العراق. ولم يكن أمام المعارضين سوى تشكيل تحالف مع عناصر وضباط الجيش الذين يعارضون الوحدة مع العراق. فحسبما يقول الحوراني في مذكراته: بأن العقيد أمين أبو عساف المسؤول عن معسكرات القابون (حي من أحياء دمشق) قد راسله، واجتمعا، وقدم له أبو عساف وثيقة موقعة من عدد كبير من الضباط، تنص على تكليف الحوراني باستلام رئاسة الدولة، وحل المجلس والدعوة لانتخابات جديدة. لكن الحوراني مزق العريضة، ونصحه "بأن يبقوا على الجمعية التأسيسية، وعلى رئاسة الدولة". ويتابع الحوراني: "بأنه في صباح اليوم التالي ١٩٤٩/١٢/١٩، أفاق على أن الجيش، ألقى القبض على الحناوي وضباطه وعديله أسعد طلس، وأودعهم السجن لأنهم كانوا ينوون البطش بهم"(١٦٥)، فعالجهم الشيشكلي بانقلابه.

ويبدو أن مشروع الوحدة السوري - العراقي في عهد الحناوي، كاد أن يرى النور، ويتحقق لولا مجموعة من العوامل الخارجية والداخلية، تصدت له أوأدته في أرضه.

وكانت المحادثات بين سورية والعراق من أجل إقامة الوحدة بينهما، قد أثارت الحكومة الأردنية التي أبدت موقفاً معارضاً للمشروع، ووصفته بأنه (مصطنع)، ويمثل خطراً عليها. والخطوة الطبيعية هي إقامة وحدة بين سورية ومصر والأردن[١٦٦]. كما أن الملك عبد الله، كان من أشد المناوئين للوحدة، فقد أرسل كتاباً إلى الرئيس الأتاسي، قال فيه: "أنه لن يقف مكتوف الأيدي إذا أقرت سورية مشروع الوحدة مع العراق، وفيه تهديد ووعيد باجتياح سورية " [١٦٧].

وقد تلاه الرئيس الأتاسي في مجلس الوزراء مستخفاً بهذا التهديد.

وكرر الملك عبد الله في مناسبات عدة معارضته لمشروع الوحدة، وصرح بتاريخ ١٦ تشرين الأول ١٩٤٩، "أنه يعتقد أن المقترحات المعروضة لتوحيد سورية والعراق، هي بمثابة وضع العربة أمام الحصان. وأشار إلى أنه ينبغي أن تكون سورية نفسها موحدة، ومتى تحققت هذه الوحدة وجب عليها أن تنشد الوحدة مع العراق"[١٦٨].

وكان توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن قد طلب رأي الخارجية البريطانية بشأن وحدة سورية والأردن، وفي ٢٠ تشرين الأول، جاء في رد وزارة الخارجية البريطانية على رسالة أبو الهدى ما يلي: "إن بريطانيا لا تعارض فكرة توثيق العلاقات بين قطرين عربيين أو أكثر"[١٦٩].

وورد في صحيفة المصري، أن أعوان الملك عبد الله أخذوا يواصلون مباحثاتهم مع ساسة العراق، وقد عبَّروا خلالها عن الرفض الأردني القاطع لأي محاولة للوحدة بين سورية والعراق، لأن هذه الوحدة تبقي الأردن دولة صغيرة ليس لها منفذ على البحر، وأن اتحاد الأردن وسوريا أقرب إلى المنطق لأن دولتين صغيرتين تستطيعان تأليف دولة كبيرة جديدة في "الشرق الأوسط".

في حين أن وحدة سورية والعراق ستحدث تضخماً في العراق وتضاؤلاً في مملكة الأردن، فيصبح هدفاً سهلاً للصهيونية التي يخشى ساسة العراق عدوانها على سورية [١٧٠].

وبسبب مشروع الوحدة السورية - العراقية توترت العلاقات بين عمان وبغداد.

ووقفت أغلب الدول المجاورة ضد المشروع، فمن جهة السعودية، فقد أثارت النعرات العشائرية في سورية، التي كان متوقعاً أن تخسر مقاعدها في البرلمان، بموجب قانون الانتخاب الجديد [١٧١].

وكانت السعودية قد أرسلت فؤاد حمزة وزير الخارجية السعودية إلى دمشق بتاريخ ١٩٤٩/١٠/١ ليبلغ المسؤولين السوريين، "أن المملكة السعودية تعارض أي تغيير يطرأ على الوضع الحاضر في العالم العربي"[١٧٢].

ولكن ظهر فيما بعد أن نشاط السعودية تركز بالخفاء على الجيش السوري[١٧٣]، لتستخدمه لصالح منع مشروع الوحدة السورية - العراقية.

أما الحكومة اللبنانية فقد أبدت تخوفها من نشاط الزيارات المتبادلة بين الشخصيات السورية والعراقية الرسمية. في اتصال هاتفي بين رئيس وزراء لبنان رياض الصلح والرئيس هاشم الأتاسي دار الحديث حول زيارة الوصي على عرش العراق لدمشق.

وأبدى الصلح رغبته الرسمية في الإطلاع على مدى علاقة لبنان في حال قيام الوحدة بين سورية والعراق[١٧٤]

وزاد من مخاوف لبنان ما أثاره مشروع الوحدة بين سورية والعراق من تجدد دعوة الملك عبد الله لتحقيق مشروعه سورية الكبرى.

وعلى أثر ذلك، طلب الرئيس اللبناني من سفراء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا آراء دولهم في دعوة الملك عبد الله.

وجاء رد الحكومة الفرنسية في ١٣ تشرين الأول ١٩٤٩، متفقاً مع لبنان وهو عدم قبول المشروع في حين جاء رد بريطانيا والولايات المتحدة متفقاً مع الوحدة[١٧٥].

وعلى أثر المحاولات المتكررة، التي بذلتها الحكومات السورية والعراقية، لإقرار صيغة الوحدة بين البلدين تحركت حكومات لبنان ومصر والسعودية المناوئة لفكرة الوحدة بين سورية والعراق، وطرحت مجدداً فكرة الضمان الجماعي العربي، كبديل لفكرة الوحدة السورية – العراقية. وطُرحت هذه الفكرة من السعودية، وتبنتها مصر، وأيدها كل من لبنان واليمن انطلاقاً من الهدف والغاية التي تجمعهم، وهي معارضة أي وحدة بين سورية والعراق [١٧٦].

وأثناء اجتماعات الجامعة العربية في تشرين الأول١٩٤٩ طرح موضوع التقارب السوري – العراقي، وما يترتب عليه من نتائج قد تؤثر على بعض الحكومات العربية، فاعترض ناظم القدسي رئيس وزراء سورية، واعتبره تدخلاً في شؤون سورية الداخلية، وهدد بالانسحاب من مجلس الجامعة إذا استمر الأعضاء في بحث هذا الموضوع[١٧٧]. مما دفع المندوب السعودي يوسف ياسين إلى الرد عليه قائلاً: "ما دمت خائفاً من اليهود وتريد ضماناً من العراق، فليكن أكثر من ذلك ضماناً جماعياً تشترك فيه مصر والسعودية والأردن ولبنان. أليس اشتراك هذه الدول، وخاصة مصر التي تملك الإمكانيات أكثر ما يملكه العراق، أضمن من ضمانة دولة واحدة، وطلب استشارة دمشق [١٧٨].

وكان قد أيده في دفاعه نوري السعيد رئيس وزراء العراق ورئيس وفده إلى اجتماعات الجامعة، وعدّ هذا التصرف من قبل مجلس الجامعة، " منافياً لروح ونص المادة التاسعة من ميثاق الجامعة العربية "(١٧٩)

وبناءً على ذلك بادرت مصر إلى طرح أفكارها، فأعلنت "بأن التصدي للخطر "الإسرائيلي"، لا يكفيه توحيد دولتين يختلف فيهما نظام الحكم، ودرجة الاستقلال، وبالتالي فإن جامعة الدول العربية هي الإطار، الذي يتيح للعرب تبني فكرة بديلة، تستند إلى العمل العسكري الموحد بدلاً من الاتحادات الثنائية"(١٨٠).

كان الكيخيا رئيس حزب الشعب، قد فهم ما يجري في الكواليس، وحاول في جلسة عقدها مجلس الوزراء، أثناء وجود الوفد السوري في اجتماع الجامعة العربية في القاهرة، أن يدفع هذا المجلس إلى إقرار مشروع يقضي بإعلان قبول سورية للوحدة مع العراق، وبتكليف الأتاسي بمباشرة المفاوضات فوراً لتحقيقه، وبالإيعاز إلى الوفد السوري لإعلان ذلك في مجلس الجامعة، إلا أنه لم ينجح في الوصول إلى إقرار هذا المشروع. وعلى العكس فقد أقر المجلس قراراً يقضي بإرسال تعليمات إلى الوفد السوري بمتابعة بحث معاهدة "الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي"(١٨١).

وبعد أن تدارس أعضاء الوفود العربية فكرة الضمان الجماعي العربي أصدر مجلس الجامعة قراره في٣٠ تشرين الأول ١٩٤٩، بتأليف لجنة من مندوبين عن كل دولة لوضع صيغة المشروع(١٨٢).

وتنفيذاً لهذا القرار، عقدت لجنة الضمان الجماعي العربي أولى جلساتها بتاريخ ١٩٤٩/١١/١٠ برئاسة عبد الخالق حسونة وكيل وزارة الخارجية المصرية آنذاك.

وقُدمت في هذه الجلسة عدة مشاريع من البلدان العربية، ومنها المشروع السوري، الذي دعا فيه الوفد السوري إلى "إقامة اتحاد عربي شامل بين البلدان

العربية، باعتباره الوسيلة الوحيدة للضمان الجماعي العربي، وإن إقرار مبدأ الوحدة يجب أن يكون سابقاً لبحث مشروع الضمان الجماعي العربي"[١٨٣].

وتقدمت كل من مصر العراق ولبنان بمشاريع تبين تصورها، وفي النهاية تم الاتفاق على وضع صيغة موحدة، أطلق عليها "معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية "[١٨٤].

وبهذا التوافق لجهود لدول العربية تم إفشال مشروع الوحدة السورية- العراقية.

لم تقتصر معاداة التقارب السوري - العراقي على الأقطار العربية، وإنما عادته أيضاً الدول الكبرى، وأبدت آراءها فيه، وسعت بعضها لوضعه في خدمة مصالحها.

فعندما عُرض مشروع الوحدة السورية - العراقية في عهد الحناوي، أعربت فرنسا، وبصفة رسمية عن معارضتها الشديدة للمشروع، وأبلغت حكومتي سورية والعراق أنها مهتمة اهتماماً كبيراً بأي تغيير في الأوضاع السياسة الراهنة في "الشرق الأوسط "[١٨٥]. فقد تركز قلق الفرنسيين في تلك المرحلة، على أن قيام اتحاد سوري - عراقي سيهدد استقلال لبنان[١٨٦]. لذلك بذل الفرنسيون جهداً سرياً كبيراً من أجل نشوء أو تشكيل مجلس نواب معاد للوحدة[١٨٧]، كما أن الدبلوماسية الفرنسية حاولت القيام بحركة معاكسة لمشروع الوحدة السوري - العراقي، من خلال الدعوة إلى اتحاد فدرالي بين سورية ولبنان ، يستند إلى أسس التعاون الاقتصادي والعسكري والسياسي بين البلدين، وذلك لقطع الطريق على أية محاولة يراد منها تحقيق وحدة سورية - العراق[١٨٨].

وبسبب تخوف المسئولين السوريين من معارضة فرنسا للوحدة، فقد طلبوا من بريطانيا أن تبقى المحادثات سرية عن فرنسا، لكن بريطانيا لم تكن راغبة في إزعاج حلفائها، فرفضت المساعدة في ذلك[١٨٩].

ولكن بريطانيا أكدت أنها لن تعارض قيام اتحاد طوعي بين البلدين[١٩٠]، وقال ميشيل عفلق في ذلك: "لم تكن بريطانيا تريد بحق الاتحاد بين سورية والعراق، لقد كرهت (الزعيم) لأنه بدا لها أداة السياسة الفرنسية، ولربما كان لها يدٌ مع العراقيين في الإطاحة به، ويصعب علينا أن نصدق أن دولة استعمارية يمكن أن تعمل على توحيد بلدين عربيين[١٩١].

وتبنى (خالد العظم) نفس النظرة: "أن البريطانيين لم يرغبوا حقاً في إقامة وحدة، فهم لم يكونوا واثقين من مقدرتهم على تعبئة الجانب الثائر من الشخصية السورية، لقد تظاهر نوري السعيد بأنه يعمل من أجلها، ولكنه في أعماقه كان يفكر كرجل إنكليزي"[١٩٢].

وكانت الخارجية البريطانية قد نصحت نوري السعيد، بترك ذكر الهلال الخصيب، بحجة أن أمريكا وفرنسا تعارضان هذا المشروع، وأن طرحه قد يدفع مصر للدخول في دائرة النفوذ الأمريكي[١٩٣].

ورأى الدكتور نجيب الأرمنازي سفير سورية في لندن عام (١٩٤٨-١٩٤٩) وعام (١٩٥٥-١٩٥٦)، أن بريطانيا عارضت الوحدة بسبب ارتباطها السابق مع فرنسا، مما أبقى سورية مجال نفوذ لفرنسا، ولأنها لم ترغب في إفساد علاقاتها الطبيعية بالعربية السعودية [١٩٤].

وكانت واشنطن قد قلقت من هذا الوضع، وقررت "أنه لا يجب تشجيع الداعين للوحدة، حيث أن ردة الفعل الشعبية المطلقة للوحدة قد تزعزع استقرار وأمن المنطقة"[١٩٥].

كتبت صحيفة (لوموند) الفرنسية عن الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة، ترفض المشروع، وهي: أن الوحدة أو الاتحاد يؤثر تأثيراً مباشراً في المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية في "الشرق الأوسط". فهو يجعل آبار النفط

العربية السعودية تحت رحمة الهاشميين أو تحت رحمة الدولة الاتحادية الجديدة [١٩٦]. وأبدى الاتحاد السوفياتي اعتراضه على مشروع الاتحاد السوري - العراقي خوفاً من أن يصبح "الشرق الأوسط " ألعوبة بأيدي الاستعمار"[١٩٧].

يتضح مما سبق، أنه بالرغم من تضافر العوامل الخارجية والداخلية لإفشال التقارب السوري - العراقي، إلا أنه كان هنالك رغبة واضحة سواء عند السوريين أو العراقيين حول إحداث التقارب الوحدوي بين البلدين.

الخاتمة:

أسباب فشل التقارب الوحدوي السوري – العراقي:

على الرغم من العلاقات الجيدة بين البلدين، والتي سادت فترة حكم الحناوي، إلا أن قادة هذا الانقلاب لم يستطيعوا تتويج التقارب بين البلدين إلى وحدة بينهما، ويعود فشل ذلك لأسباب عديدة ومتنوعة. فمنها ما كان يتعلق بالأوضاع في سورية والعراق، ومنها ما يتعلق بالموقف العربي من وحدة البلدين، كما أن هناك أسباب أكيدة تتعلق بمواقف الدول الكبرى

١ –الأسباب السورية والعراقية في إخفاق التقارب الوحدوي.

– بالنسبة لسورية:

أ- انقسم السياسيون في سورية أواخر الأربعينيات انقساماً خطراً حول مسألة الوحدة مع العراق، فوقفت أطراف وشخصيات موقفاً مؤيداً لهذه الوحدة، في حين اتخذت أطراف أخرى موقفاً معارضاً، لا بل لجأت إلى تشجيع مصر والسعودية للتدخل لتدعيم صفوف المعارضين للوحدة، لمواجهة ضغط العراق الداعي للوحدة بين البلدين.

وحول مفهوم الوحدة، اختلفت مواقف السياسيين، فمنهم من طلب الوحدة الكاملة واشترط اللامركزية، أي أن يكون هنالك ملك واحد وإدارة واحدة، وقسم ضئيل، يريد الوحدة، ويرى أن يكون لسورية مجلسها، وينتخب نائب للملك، فتكون السياسة الخارجية والعسكرية والمالية موحدة.

فأثناء مباحثات السوريين مع العراقيين، عبَّر أعضاء الوفد السوري عن وجهات نظر متباينة، فطالب بعضهم بضرورة احتفاظ سورية باستقلالها السياسي ونظامها الجمهوري حتى بعد قيام الوحدة مع العراق.

أما البعض الآخر فاقتصرت مطالبه على بقاء الجيش والسياسة الخارجية في كل بلد مستقلين عن الجيش والسياسة الخارجية في البلد الآخر.

ب - موقف القادة السوريين المعادي للوحدة مع العراق، فكان شكري القوتلي قد أكد موقفه من الوحدة أثناء لقاء له مع صحيفة المصري، قال فيه: "أن الطريق إلى تحقيق الوحدة هو تقوية كيان جامعة الدول العربية، وجعلها أداة عملية لتحيق الوحدة العربية، ووجه نداءً إلى الشعب السوري ناشده فيه الدفاع عن استقلاله ونظامه الجمهوري"(١٩٨).

وكان أكرم الحوراني يخشى الوحدة خوفاً من دخول النفوذ الإنكليزي إلى سورية، وإقامة نظام ملكي فيها. وكذلك كان موقف فارس الخوري وقد عبَّر عنه بالقول لمراسل صحيفة الأهرام المصرية، (بعد أن تمتعت سورية باستقلالها، ومارسته في ظل دستورها، فلم يعد هناك مبرر للسير وراء هذه الوحدة بعد أن زالت أسبابه)(١٩٩).

جـ - عدم الجدية في مواقف النواب داخل البرلمان السوري تجاه مشروع الوحدة السوري - العراقي، الذي نوقش في الجمعية التأسيسية أواخر عام ١٩٤٩، فقد

كان الأمل قوياً في أن تسوي مسألة انتخابات الجمعية التأسيسية مسألة الوحدة، لكنها باءت بالفشل، فقد كانت مواقف النواب تجاه الوحدة يشوبها التردد أغلب الأحيان.

فالنائب ينتقل وخلال عدة جلسات من المؤيد إلى المعارض وأحياناً يقف على الحياد [٢٠٠].

د - معارضة فريق كبير من الجيش السوري للوحدة مع العراق، وقد أكد ذلك أسعد طلس الأمين العام لوزارة الخارجية وعديل سامي الحناوي، إذ قال: (أنه اجتمع إلى شخصية رسمية، وطلب منها إبداء رأيها بشأن مشروع الوحدة مع العراق. وقد أكدت هذه الشخصية (أن المشروع خطير والجيش السوري لا يطمئن إليه)، بالإضافة إلى ما قام به الحناوي من اعتقال عدد من كبار الضباط المعارضين للوحدة، وإبعاد عدد آخر منهم إلى أماكن بعيدة عن دمشق[٢٠١].

ودليل آخر، عندما كانت الوفود العربية تبحث هذه القضية في القاهرة، "اجتمع أركان الجيش السوري وتبادلوا الرأي حول مشروع الوحدة مع العراق، ثم قرروا معارضتها وبدؤوا يعدون العدة لإحباطها"[٢٠٢] ، والتي انتهت بانقلاب الشيشكلي.

- بالنسبة للعراق:

هـ - إن السياسيين العراقيين الذين حملوا موضوع الوحدة على محمل الجد هم قلة، فالوصي (عبد الإله) وحده كان يضطرم برغبة شديدة في الحصول على عرش سورية. إذ أن القضية السورية شغلت الجزء الأكبر من تفكيره، ولكنه لم يصل إلى خطوة فعالة لتحقيق مطامعه.

وقد استحسن نوري السعيد الموضوع إلى حد خلق شاغلاً خارجياً كبيراً لهم، وبدا السياسيون، أمثال فاضل الجمالي أكثر تحمساً من نوري السعيد، بالنسبة للمطامع الهاشمية في سورية، مستغلين أحيانا شكوك السعيد، ليتآمروا مع الوصي ضده.

لكن تفهم السعيد للسياسة السورية، كان أكثر عمقاً من تفهم الوصي أو الجمالي، فبإمكانه أن يحدد بشكل أدق مدى الدعم السوري للمشروع، وعلى العكس فإن (عبد الإله) كان لا يجد صبراً في الإصغاء لأناس آخرين ومعلوماته محدودة جداً(٢٠٣).

و - عدم جدية وإخلاص نوري السعيد ورغبته في الوحدة مع سورية، وأكد هذا باتريك سيل، الذي ذكر على لسان خالد العظم: "أن نوري تظاهر بأنه يعمل للوحدة، لكن في أعماقه كان يفكر كرجل إنكليزي "(٢٠٤).

كما أن نوري السعيد، لم يحظ بمحبة واحترام الأوساط العربية، وخاصة السورية، فكان يتبنى القضايا العربية كلامياً، ويمارس الضغط على الأقطار العربية، خاصة سورية لتحذوا حذوه، وربط نفسه بعجلة المصالح البريطانية والهاشمية.

ز - هناك فئات في العراق نظرت إلى الوحدة مع سورية من جانب اقتصادي، إذ رأت أن الوضع الاقتصادي في العراق أمتن، فهو منتج للنفط والزراعة، وهو أفضل مما هو في سورية، وكانت تلك الفئات "لا تريد إشراك السوريين في خيرات العراق التي تصبح ملكاً مشاعاً لشعب الوحدة عند تحقيقها "(٢٠٥).

٢-الأسباب التي تتعلق بمواقف الدول العربية:

أ - اتضح فيما سبق موقف الأردن المعارض للوحدة السورية - العراقية، لأن وجهة نظر الأردن تقوم على أن الخطوة الطبيعية هي عقد وحدة بين سورية والأردن، واتضح ذلك من خلال مواقف تصريحات كثيرة للملك عبد الله، فكان وزير خارجية العراق، قد قال للملك عبد الله: (أنه من الطبيعي أن تتحد الأجزاء السورية أولاً، ولكن إذا حدث أن تحركتم نحو سورية، فالجيش الأردني سيصل قبلكم إلى دمشق)(٢٠٦).

كما أن أعوان الملك عبد الله عبَّروا عن رفضهم لأي محاولة للوحدة بين سورية والعراق ، لأن هذه الوحدة تبقي الأردن دولة صغيرة ليس لها منفذ على البحر.

وإن اتحاد الأردن وسورية أقرب إلى المنطق لأن دولتين صغيرتين تستطيعان تأليف دولة كبيرة جديدة في "الشرق الأوسط". في حين أن وحدة سورية والعراق ستحدث تضخماً في العراق وتضاؤلاً في مملكة الأردن، فيصبح هدفاً سهلاً للصهيونية التي يخشى ساسة العراق عدوانها على سورية[٢٠٧].

ب - طرح فكرة الضمان الجماعي من قبل مصر والسعودية، خلال اجتماعات الجامعة العربية في تشرين الأول ١٩٤٩، هي فكرة معارضة للوحدة السورية - العراقية، واستبعادها لتطمين القائلين بها، ورغبة في زيادة قوى سورية والعراق في مجابهة الخطر الصهيوني. وبالفعل لم يستطع الوفد السوري رفض المشروع، وتم في النهاية توقيع ميثاق الضمان الجماعي، وبالتالي فشل مشروع الوحدة السورية - العراقية.

٣-أسباب تتعلق بمواقف الدول الكبرى:

مقاومة الدول الكبرى بما فيها إنكلترا، التي قاومت الوحدة لأنها لم تكن واثقة من مقدرتها على السيطرة على السوريين، ولحرصها على صداقة فرنسا والسعودية والأردن التي لم تكن نفسها ترغب به من جهة، لأن إنكلترا رأت أنه لن يتم بالصيغة التي كانت تريدها، أي بجيث يمتد مفعول معاهدتها مع العراق، فيشمل سورية من جهة أخرى.

بتكامل هذه الأسباب، يكون البلدان السوري والعراقي قد فشلا في تحقيق التقارب بينهما، وبالتالي فشلا بتحقيق الوحدة السورية -العراقية.

إن لم تتوفر هذه الأسباب، هل كانت الوحدة قد تحققت؟

وإن تحققت، كيف سيكون شكلها ؟

هل ستكون كما اتفقوا عليها؟ أم ستتوافر أسباب مغايرة وتفشل الوحدة؟

الهوامش

١- فارس الخوري: واحد من قدماء السياسيين الوطنيين السوريين الذين وقفوا حياتهم على الدفاع عن سورية ضد الأتراك ثم ضد الفرنسيين، واشتهر بالاعتدال والحكمة السياسية. **الأهرام**، القاهرة، العدد ١٦٨١٨، تشرين الأول ١٩٣١.

وكبة (محمد مهدي): **مذكرتي في صميم الأحداث**، دار الطليعة، ط١، بيروت، ١٩٦٥، ص ٣٠٤.

٢- قاسمية (خيرية): **الرعيل الأول العربي (حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة)**، رياض الريس للكتب والنشر، بدون طبعة، لندن، ١٩٩١، ص ٥٢.

٣- بطرس (صديق): **الهلال الخصيب**، مطبعة الإرشاد، اللاذقية، ،٩٥٠ ص ٧.

٤- القبس، سورية، العدد ٣٩٦، ١٦ تشرين الأول ١٩٣٣.

٥-طربين (أحمد): **الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر (١٨٠٠-١٩٥٨)**، د.ط. م، ١٩٧٠، ص٤٦ -٥١.

6-Gomaa, Ahmed, the foundation of the league states, London, 1977, p7.

7-Kirk Bride (Alec) Seath : Acrakle of throms experiences in the Middle east , London 1960 , p. 273.

٨-مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، **ملف الوحدة**، المجموعة: اتحاد سورية والعراق، وثيقة ٢ / ٤٢٩.

٩-**صحيفة الاستقلال**، بغداد، العدد: ٣٣١٤، ١٩٣٩/٤/٢.

١٠-النجار (حسين فوزي): **وحدة التأريخ العربي**، دار الجيل، بدون طبعة، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٣٠.

١١-يحيى(جلال): **العالم العربي الحديث**، د. ط، الإسكندرية،١٩٨٠، ص٤٦-٤٧.

١٢-الكيالي (نزار): **دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر(١٩٢٠-١٩٥٠)**، دار طلاس، ط١، دمشق١٩٩٧، ص١١٩.

١٣-نوفل (سيد): **العمل العربي المشترك**، معهد البحوث الدراسات العربية، د، ط.م، الكتاب الأول، ١٩٦٨، ص٥٠.

١٤-مردم بك (سلمى): أوراق جميل مردم بك، **استقلال سورية**، ط١، بيروت، ١٩٩٤، ص٢٨٦-٢٨٧.

١٥- 15-Document of the BRITISH Colonal office about Syria from 1921 to 1944 , S. L.S : S. N.S 1986 , 2 Vol , to me 2 , p. 326.

١٦-مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، مصدر سابق، ملف الوحدة، اتحاد سورية والعراق، وثيقة رقم ٤٤٨/١.

١٧-الهاشمي (طه): المذكرات (١٩٤٢- ١٩٥٥)، دار الطليعة، ط١، بيروت، ١٩٧٨، جزءان، ج٢، ص٢٤٦.

١٨-المصدر نفسه، ج٢ ، ص٢٤٢.

١٩-العظم (خالد): **المذكرات**، الدار المتحدة للنشر، ط٣، بيروت ٢٠٠٣، ٣ ج، ج٢، ص٢١٧-٢١٨.

٢٠-حسني الزعيم: ولد سنة ١٨٨٩ في حلب، تلقى علومه الابتدائية والعسكرية في مدارس حلب ودمشق، ثم في استامبول وأوربا، وخلال الحرب العالمية الأولى، وقع أسير في أيدي الإنكليز بمصر، وفي سنة ١٩٢٠، التحق بالكلية العسكرية، حتى بلغ رتبة عقيد عام ١٩٤١، ووقف إلى جانب قوات فيشي، ولذلك اعتقله الديغوليون بعد انتصارهم مع الإنكليز على القوات الفيشية، واحتلالهم سورية، وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات، واكتسب حق العودة إلى الجيش السوري عام ١٩٤٨، وعين مديراً عاماً للشرطة، وفي ٣٠ آذار ١٩٤٩، قام بالانقلاب العسكري الأول، وفي١٤/٦/١٩٤٩، قتل رمياً بالرصاص بعد انقلاب سامي الحناوي عليه.

فنصة (نذير): **أيام حسني الزعيم (١٣٧ يوماً هزت سورية)** دار الآفاق الجديدة ، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ص١٢٠.

٢١-الحوراني (أكرم): **المذكرات**، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠، ٤ ج، ج١، ص ٧٩٥-٧٩٦.

٢٢- مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، **أوراق نبيه العظمة**، وثيقة رقم ٣٩٨.

٢٣-قاسمية (خيرية): **مذكرات محسن البرازي**، الرواد، ط١، بيروت ١٩٩٤، ص١٥٨.

٢٤-بوداغوفا (بيير): **الصراع في سورية لتدعيم الاستقلال الوطني (١٩٤٥-١٩٦٦)**، ترجمة، ماجد علاء الدين، أنيس المتني، دار المعرفة، ط١، دمشق، ١٩٨٧، ص٤٦.

٢٥-الروسان (ممدوح): **العراق وقضايا الشرق العربي القومية (١٩٤١-١٩٥٨)**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩ ، ص١٧٢.

٢٦- سامي الحناوي: ولد في حلب عام ١٨٩٦، اسمه بالكامل محمد حلمي سامي الحناوي، تلقى دروسه الأولية في دار المعلمين، وفي ٢٤/٧/ ١٩١٧ تخرج برتبة مرشح ضابط من معهد استامبول العسكري، وفي ١٩١٩/٩/١٨ تخرج برتبة ملازم ثاني في الجيش العربي. وفي عام ١٩٢٨ انضم إلى جيش الشرق المختلط الذي كان تحت القيادة الفرنسية، ورقّي إلى رتبة نقيب ثم انضمّ بعد ذلك إلى القوات الوطنية قبل الجلاء عن سورية، واشترك في معركة فلسطين، وحصل على رتبة مقدم، فعقيد ثم عميد، ثم قام بانقلابه على حسني الزعيم حتى لقيّ مصرعه عام ١٩٥٠.

فنصة: مصدر سابق، ص١٢٠.

وتوري (جوردون هـ): **السياسة السورية والعسكريون (١٩٤٥-١٩٥٨)**، ترجمة: محمود فلاحة ، دار الجماهير، ط٢ ، ١٩٦٩ ، ص١٥٣.

٢٧-البرازي (محسن): كان وزيراً للداخلية في حكومة شكري القوتلي، وفي عهد الزعيم عهد إليه بتولي سفارة سورية في القاهرة، ومن ثم كلفه الزعيم بتشكيل الحكومة.

فنصة: مصدر سابق، ص٦٩.

٢٨-المصدر نفسه، ص١١٩-١٢٠، والمعلم (وليد): **سورية (١٩١٨-١٩٥٨ التحدي والمواجهة)** مطبعة عكرمة ، ط١، دمشق ١٩٨٥، ص١١٧.

٢٩-المرجع نفسه، ص١١٧، الحكيم (حسين): **لعنة الانقلابات ١٩٤٦-١٩٦٦** (مذكرات) مطبعة الداودي، ط١، دمشق ١٩٩٩ ، ص٧٨.

٣٠-ألف باء، دمشق، العدد ١٩٤٩/٤/٢٧ - ١٩٤٩/٤/٢٨.

الكيالي: مرجع سابق، ص٣٣٢.

٣١-الحكيم: مصدر سابق، ص٧٨.

٣٢-المصدر نفسه، ص٧٨.

٣٣- المصدر نفسه، ص٧٩.

٣٤-تورى : مرجع سابق، ص١٥٣.

٣٥-الحكيم : مصدر سابق، ص٧٩-٨٠.

و سيل (باتريك): **الصراع على سورية**، ترجمة: سمير عبده ، محمود فلاحة، دار طلاس، دمشق ١٩٦٤، ص١٠٦-١٠٧.

٣٦-وزارة الخارجية السورية، نصوص بيانات الخارجية السورية، وثائق خاصة متفرقة، ملف وثائق الوزارة، سورية وثائق خاصة، مسلسل ٩٠، البيانات الصادرة عن الانقلابات الأربع في سورية منذ ١٩٤٩- ١٩٥٤.

٣٧-المصدر نفسه.

٣٨-راثمل (أندرو): الصراع السري على سورية (١٩٤٩-١٩٦١)، ترجمة: محمد نجّار، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمان ١٩٩٧، ص٧٧.

٣٩-المعلم: مرجع سابق، ص١١٧-١١٨.

٤٠-توري: مرجع سابق، ص١٥٤-١٥٥.

٤١-المرجع نفسه، ص١٥٤.

٤٢-الأهرام، القاهرة، العدد (٢٢٩٧٦)، ٣٠ آب ١٩٤٩.

٤٣-سيل: مرجع سابق، ص١٠٨.

٤٤-توري: مرجع سابق، ص١٥٥.

ورضا (علي): **سورية من الاستقلال إلى الوحدة المباركة** (١٩٤٦-١٩٥٨). مطبعة شيك بلوك حلب ، ص١٠٤.

٤٥-ألف باء، عدد ١٩٤٩/٤/٢٧ ، عدد ١٩٤٩/٤/٢٨، مصدر سابق.

٤٦-أنطوان سعادة: ولد عام ١٩٠٤ في لبنان، وهاجر مع والده خليل سعادة إلى أمريكا اللاتينية، وأصدر مجلة في البرازيل، وعام ١٩٢٠ عمل في الصحيفة الدمشقية (الأيام)، ثم انتقل إلى بيروت. وفي عام ١٩٣٢ أسس هيئة سرية من خمسة أعضاء دعاها بالحزب السوري القومي، وفي عام ١٩٤٩ حدثت اصطدامات في بيروت بين تنظيميه وتنظيم الكتائب اللبنانية، فهرب إلى سورية كلاجئ سياسي وفي عهد حسني الزعيم الذي غدر به، وسلمه إلى السلطات اللبنانية، فنفذت حكم الإعدام به في ١٢ حزيران ١٩٤٩.

سيل: مرجع سابق، ص٩٤-١٠٢.

٤٧-راثمل: مرجع سابق، ص٧٦.

٤٨-توري: مرجع سابق، ص١٤٢.

٤٩-أديب الشيشكلي: ولد في حماه، تطوع في الجيش الفرنسي ثم انتقل إلى الجيش السوري، وشارك في جيش الإنقاذ، بعد عودته إلى الجيش شارك في الانقلاب الأول (الزعيم) ثم اشترك في انقلاب الحناوي، لكن الانقلابين لم يحققا طموحه، له شقيق هو النقيب صلاح الشيشكلي عضو في الحزب القومي

السوري الاجتماعي، وبحكم موقعه ارتبط بصلات حزبية مع العقيد أمين أبو عساف والنقيب فضل الله أبو منصور.

المعلم: مرجع سابق، ص١٣٤.

٥٠-عدنان المالكي: ولد في دمشق ١٩١٨، ودخل الجيش ١٩٣٩، شارك في حرب فلسطين، وفي انقلاب حسني الزعيم. تابع علومه العسكرية في فرنسا واعتقل عام ١٩٥٠ لمشاركته في مؤامرة الضباط ضد الشيشكلي وأفرج عنه في تموز ١٩٥٣. وبعد طَرْد الشيشكلي تولى مركز رئيس الشعبة الثانية برتبة عقيد. كان من المنادين بالقومية العربية، ومتأثراً بأفكار شقيقه البعثي رياض المالكي، وأصبح من أشهر الضباط داخل الجيش حيث أقام مجلس ثورة على النمط المصري، وكان هدفه استئصال نفوذ الضباط المؤيدين للهلال الخصيب وسياسة الأحلاف.

المالكي (رياض): **ذكريات على درب الكفاح والهزيمة**، د، ط، دمشق، ١٩٧٢، ص٢٣-٢٧-١٠٤-١٠٦-١٢٦-١٢٩-١٦٠-١٦٣-١٦٦.

٥١-راثمل: ص٧٧.

٥٢- الحكيم: مصدر سابق، ص٨٠ ، وراثمل: مرجع سابق ، ص٧٧-٧٨.

٥٣-سيل: مرجع سابق، ص١٠٥-١٠٦.

٥٤- أوين(جوناثان): أكرم الحوراني **(دراسة حول السياسة السورية ما بين ٤٣-١٩٤٥)** ترجمة: وفاء الحوراني، دار المعارف، ط١، حمص ١٩٩٧، ص٨٩.

أكرم الحوراني: ولد عام ١٩١١ في حماه، درس الطب في لبنان، ونشط منذ أوساط الثلاثينات، حيث انتسب إلى مجموعة الشباب الوطني عام ١٩٣٨ التي انشقت عن الكتلة الوطنية ١٩٣٧، وحملت اسم النادي العربي، وتحولت إلى حزب الشباب عام ١٩٤٢، وفي عام ١٩٥٠ تحول إلى اسم الحزب العربي

الاشتراكي، وفي عام ١٩٥٢ اندمج مع حزب البعث العربي ليصبح اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي.

مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، الوحدة الوثائقية، وثائق الدولة، المجموعة الأحزاب السياسية ، سجل رقم (١)، رقم الوثيقة ١٣٦/٣٤٧/.

٥٥-أسعد طلس: هو صهر الحناوي، عمل في وزارة الخارجية السورية، عُين سفيراً في طهران، ثم أميناً عاما لوزارة الخارجية، وقام محسن البرازي بتسريحه، ولم يستطع الحناوي بإقناع الزعيم بإعادته، فبدأ يتردد بين دمشق وبغداد وعمل كضابط اتصال بين الحناوي ونوري السعيد وأوساط حزب الشعب للانتقام من حسني الزعيم.

المعلم: مرجع سابق، ص١١٩.

٥٦-فنصة: مصدر سابق، ص١٦٨.

٥٧- سيل: مرجع سابق، ص١٠٥، وجوناثان: مرجع سابق، ص٨٨

٥٨-راثمل: مرجع سابق ، ص٧٦.

٥٩- فنصة: مصدر سابق، ص١٣٨.

٦٠-توري: مرجع سابق، ص١٤٨.

٦١- راثمل: مرجع سابق، ص٨١.

٦٢- سيل: مرجع سابق، ص١٠٤-١٠٥.

٦٣- المرجع نفسه، ص١٠٧، وراثمل: مرجع سابق ، ص٧٨.

٦٤- المرجع نفسه ، ص٧٨.

٦٥- الحوراني: مصدر سابق (**المذكرات**)، ص١١٩، و**اليقظة**، بغداد، العدد ٦٢٨، ١٩ أيلول ١٩٤٩.

٦٦- توري: مصدر سابق، ص١٥٦.

٦٧- الحوراني: مصدر سابق، ص١٠١٦.

٦٨- توري : مرجع سابق ، ص١٥٦.
٦٩- اليقظة، العدد (٦٠٠)، ١٦ آب ١٩٤٩.
٧٠- توري: مرجع سابق، ص١٥٦.
٧١- الحوراني: مصدر سابق، ص١١٠٦.
٧٢-المصدر نفسه، ص١٠٢٠.
٧٣- راثمل: مرجع سابق ، ص٧٨.
٧٤- الأهرام، العدد (٢٢٩٦٤) ، ١٨ آب ١٩٤٩.
٧٥- راثمل: مرجع سابق ، ص٨١.
٧٦- (فايز إسماعيل، بدايات البعث)، المناضل، عدد١٠٦، شباط ١٩٧٨، ص٢٣-٤٧.
٧٧ وثائق وزارة الخارجية السورية، ملف سورية، الأوضاع الداخلية، مسلسل ٨، تقرير عن أقوال الصحف البريطانية على الوضع في سورية بتاريخ ١٩٤٩/٨/٢٠.
٧٨- المصدر نفسه، مسلسل رقم (٥)، أقوال صحيفة العلم الأحمر في ١٦ آب ١٩٤٩.
٧٩- المصدر نفسه، مسلسل رقم (٦)، تقرير المفوضية السورية في موسكو إلى وزارة الخارجية السورية بدمشق برقم ٣١ تاريخ ١٢ أيلول ١٩٤٩، بعنوان الانقلاب السوري ونظرة السوفييت إليه.
٨٠- راثمل: مرجع سابق، ص٧٨.
٨١- سيل: مرجع سابق، ص١٠٧-١٠٨.
٨٢- راثمل: مرجع سابق، ص٧٨-٧٩.
٨٣- الأهرام، العدد (٢٢٩٦٥)، ١٩ آب ١٩٤٩.
٨٧٤- راثمل: مرجع سابق ، ص٧٨.

٨٥-مصدر سابق، وزارة الخارجية السورية، وثائق خاصة متفرقة، ملف وثائق الوزارة، سورية وثائق خاصة، مسلسل ٩٠ البيانات الصادرة عن الانقلابات الأربع في سورية منذ عام ١٩٤٩- ١٩٥٤، البلاغ رقم (٨) الصادر عن القائد العام للجيش والقوات المسلحة الزعيم سامي الحناوي.

٨٦- المعلم: مرجع سابق، ص١٢٢.

٨٧- الأتاسي (محمد رضوان): **هاشم الأتاسي** (**حياته، عمره**)، ط١، دمشق، ٢٠٠٥، ص٣١٨.

٨٨- توري : مرجع سابق ، ص١٥٥.

٨٩- المدني (سليمان): هؤلاء حكموا سورية (١٩١٨-١٩٨٠)، دار الأنوار، د. ط ، ١٩٩٦ ، ص٧٠.

وسيل: مرجع سابق ، ص١٠٩.

٩٠-محمد (نجاح): **الحركة القومية العربية في سورية من خلال تنظيماتها السياسية**، دار البعث، ط١، دمشق ١٩٨٧، ص٢٠٩.

٩١- مذكرات الأتاسي: مصدر سابق، ص٣١٩.

٩٢- توري: مرجع سابق، ص١٥٥.

٩٣- مذكرات الأتاسي: مصدر سابق، ص٣١٩.

٩٤- توري: مرجع سابق، ص١٥٧.

٩٥- المعلم: مرجع سابق، ص١٢٤.

٩٦- الجريدة الرسمية السورية عام ١٩٤٩، العدد ٥٤، ص٢٩٦٥، العدد ٥٧، ص٣٠٥٧.

٩٧- بيان الحزب الوطني في صحيفة القبس، دمشق، العدد الصادر في ١٩٤٩/١٠/٧.

٩٨- مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، القسم الخاص، المجموعة: أوراق بنيه العظمة، وثيقة رقم ٣٨١.

٩٩- المعلم: مرجع سابق، ص١٢٥.

١٠٠-مذكرات المجلس النيابي السوري، الجلسة الأولى ١٩٤٩/١٢/١٢.

١٠١-سيل: مرجع سابق، ص ١١١-١١٢.

١٠٢- مذكرات المجلس النيابي السوري، جلسة ١٧ كانون الأول ١٩٤٩.

١٠٣- محمد: مرجع سابق، ص٢١١.

١٠٤- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١٠٥- المعلم: مرجع سابق، ص١١٨.

١٠٦- العقاد (صلاح): **المشرق العربي** (**١٩٤٥- ١٩٥٨**) (**العراق، سورية، لبنان**)، معهد البحوث الدراسات العربية، مطبعة الرسالة، د، م.ت، ص١٠٧.

١٠٧- العظم: مصدر سابق، ج٢، ص٢٠٩ -٢١٤.

١٠٨- الأتاسي: مصدر سابق (**المذكرات**)، ص٣١٤-٣١٥.

١٠٩- مديرية الوثائق التاريخية، القسم الخاص، أوراق عادل العظمة، ملف ٣٣ / ٧٨٩ / رسالة من عادل العظمة إلى رئيس الوزراء بتاريخ ١٩٤٩/١٠/١٥، يقترح عرض مسألة الوحدة مع العراق على مجلس الوزراء.

١١٠-سيل: مرجع سابق، ص١٠٤.

١١١-سيل: المرجع نفسه، الصفحة نفسها. وأبو منصور (فضل الله): **أعاصير دمشق**، د. ط ، بيروت، ١٩٥٩، ص٨٣.

١١٢- سيل: مرجع سابق ، ص١٠٥، وراثمل: مرجع سابق، ص٨١.

112- Ziadeh , N. A : Syria and Lebanon (London , Libanon) 1965 , p127.

١١٣-راثمل: مرجع سابق، ص٨١.

١١٤- المرجع نفسه، ص٨١.

١١٥- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١١٦- المرجع نفسه، ص٨٢.

١١٧- المرجع نفسه، ص٨١.

١١٨- بوداغوفا (ببير): مصدر سابق، ص٤٩.

١١٩- الحوراني: مصدر سابق، ح٢، ص١٠١٧.

١٢٠- سيل: مرجع سابق ، ص١١٦.

١٢١- الحسيني(عبد الرزاق): **تاريخ الوزارات العراقية**، مركز الأبجدية للطباعة والنشر، ط٦، بيروت، ١٩٨٢، ج٨، ص٩٥.

١٢٢-رضا (علي): مرجع سابق، ص١٠٦.

١٢٣- سيل : مرجع سابق، ص١٠٩.

١٢٤- أوراق عادل العظمة، ملف ٣٣/ ٨٨١، بيان الحزب الوطني بتاريخ ٢٩ أيلول ١٩٤٩، الذي يدعو فيه إلى الاتحاد مع العراق.

وسيل: مرجع سابق، ص١١٠.

١٢٥- أوراق عادل العظمة، مصدر سابق، ملف ٣٣ / ٨٨١.

١٢٦- سيل: مرجع سابق، ص١١٠.

١٢٧-الحوراني: مصدر سابق، ص١٠٥٦. وسيل: مرجع سابق، ص١٥٨.

١٢٨- أوراق عادل العظمة: مصدر سابق، ملف ٣٥، ملاحظات سجلها عادل العظمة حول مسائل داخلية.

١٢٩- صحيفة البعث، العدد ٣٠٢، وسيل: مرجع سابق، ص١١٢-١١٣.

١٣٠- الحوراني: مصدر سابق، ص١٠٦٢.

١٣١- سيل: مرجع سابق، ص١١١-١١٢.

١٣٢- توري: مرجع سابق، ص١٦٦.

١٣٣- صحيفة الأهرام: العدد (٢٣٠١٣)، ١٧ تشرين الأول ١٩٤٩.

١٣٤- توري: مرجع سابق، ص١٦٣.

١٣٥-سيل: مرجع سابق، ص١١١.

١٣٦- الكيالي: مرجع سابق، ص٣٤٩.

١٣٧- 137-Lewis (Bernard) : the Middle East and the west , weidfeld Goldbaks (London weid feld and Nicolson 1968) , p. 126.

١٣٨-صحيفة لواء الاستقلال، العدد ٧١٣، ٢٨ حزيران ١٩٤٩.

١٣٩- المصدر نفسه، العدد (٨٩٤)، ٩ تشرين الأول، ١٩٤٩.

١٤٠- كبة: مصدر سابق، ص٣١٠.

١٤١- راثمل: مرجع سابق، ص٨٢.

١٤٢- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١٤٣- المعلم: مرجع سابق، ص١٢٧.

١٤٤- المرجع نفسه، ص١٢٧.

١٤٥- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

١٤٦- المرجع نفسه، ص١٢٨.

١٤٧-لواء الاستقلال، العدد ٧٦٦، أيلول ١٩٤٩.

١٤٨-المصدر نفسه، العدد ٧٨٨، ٢٧ أيلول ١٩٤٩.

١٤٩- العظم: مصدر سابق، ص٢١٩.

١٥٠- المصدر نفسه، ص٢١٩-٢٢٠.

١٥١- الحوراني: مصدر سابق، ج٢، ص١٠٦٢.

١٥٢- العظم: مصدر سابق، ص٢١٨.

١٥٣- توري: مرجع سابق، ص١٦٣-١٦٤.

١٥٤- محمد: مرجع سابق، ص٢٠٤.

١٥٥- المرجع نفسه، ص٢٠٤.

١٥٦- الكيالي: مرجع سابق، ص٣٥١.

١٥٧- محمد: مرجع سابق، ص٢٠٥.

١٥٨- سيل: مرجع سابق، ص١١٣-١١٤.

١٥٩- محمد: مرجع سابق، ص٢٠٥.

١٦٠- مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، أوراق نبيه العظمة، وثيقة رقم ٣٩٩.

161-JKHadduri (M) , the scheme of Fertile crescent unity , Harvard ١٦١
university, chapter , Iv cambirdage , 1951 , p161.

١٦٢- محمد: مرجع سابق، ص٢١٠.

١٦٣- سيل: مرجع سابق، ص١١٢-١١٣.

١٦٤- محاضر المجلس النيابي، ١٩٥١، جلسة ٣/٨، والقبس: عدد ٤٢٩٨، ١٩٥١/٣/٩.

١٦٥-الحوراني: مصدر سابق، ح٢، ص١١٠٨.

١٦٦- صحيفة الرأي، الأردن، العدد: ٥٠٦٤ ، ١٩٤٨/٤/٢٣.

١٦٧- الحوراني : مصدر سابق ، ح٢ ، ص١٠٦٥.

١٦٨-المصدر نفسه، ص١٠٦٥.

169-Document of the British foreign office about Syria and Lebanon -١٦٩
from 1921 to 1949. N . 1986 , 3 Vol , S. L S , F. O 371 / 75279 No 806 , of 20 October , 1949.

١٧٠-صحيفة المصري، ١٩٥٠/١/٤.

١٧١- راثمل: مرجع سابق، ص٨٤.

١٧٢- الحوراني: مصدر سابق، ص١٠٥٩.

١٧٣- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

١٧٤- القبس ، العدد ٣٩٢٤ - تاريخ ١٠/٩ /١٩٤٩.

F. O.371 / 753188. No E 13102 , from Bowall to F. O. of 30 Sept 1949.-١٧٥

١٧٦-وثائق جامعة الدول العربية، محاضر جلسات دور الاجتماع العادي الحادي عشر لمجلس الجامعة، الجلسة الثالثة، ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٩، ص٦٤.

١٧٧- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

١٧٨- المصدر نفسه، الجلسة الرابعة، ١٩٤٩/١٠/٢٥، ص٨١-٨٢.
١٧٩- المصدر نفسه، ص٦٤.
١٨٠- المصدر نفسه، الجلسة السادسة، ٣٠ تشرين الأول ١٩٤٩، ص٢٥٨.
١٨١- العظم: مصدر سابق، ح٢، ص٢٢٠- ٢٢١.
١٨٢- وثائق جامعة الدول العربية، محاضر جلسات دور الاجتماع العادي الحادي عشر لمجلس الجامعة، الجلسة السادسة، ١٩٤٩/١٠/٣٠، ص٢٦٠.
١٨٣-المصدر نفسه، مضابط جلسات لجنة الضمان الجماعي العربي ، مضبطة الجلسة الأولى، تاريخ ١٩٤٩/١١/١٠. ص١٧.
١٨٤-نوفل (سعيد): مرجع سابق، ص١٣١.
١٨٥-القبس، ١٩٤٩/١٠/٢٦.
١٨٦- راثمل: مرجع سابق، ص٨٥.
١٨٧-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
١٨٨- القبس، العدد السابق.
١٨٩- راثمل: مرجع سابق، ص٨٣.
١٩٠ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
١٩١- سيل: مرجع سابق، ص١١٥.
١٩٢- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
١٩٣- أرسلان (عادل): **مذكرات الأمير عادل أرسلان**، تحقيق يوسف إيبش، ٣ ج، الدار التقدمية للنشر، بيروت، ١٩٨٣، ح٢ ، ص٨٨٠.
١٩٤- سيل: مرجع سابق، ص١١٥-١١٦.
١٩٥- راثمل: مرجع سابق، ص٨٥.
١٩٦- القبس: ١٩٥٠/١/٢٥.
١٩٧- المصدر نفسه، العدد ٣٩٣٧، ١٩٤٩/١٠/١٩.

١٩٨- المصري، ١٩٥٠/١/٧.

١٩٩-قاسمية (خيرية): عوني عبد الهادي: أوراق خاصة، سلسلة كتب فلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٤، ص١٧٠.

٢٠٠- محاضر جلسات المجلس النيابي، وبشكل خاص محاضر جلسات الجمعية التأسيسية، الجلسة الرابعة، ١٧ كانون الأول ١٩٤٩ ، ص١٣٥-١٣٨.

والعظم: مصدر سابق، ص٢٢١.

٢٠١- المصري، ١٩٤٩/١٢/٢١.

٢٠٢- العظم: مصدر سابق، ص٢٢٠.

٢٠٣- سيل: مصدر سابق، ص١١٦-١١٧.

٢٠٤- المصدر نفسه، صفحة مستخدمة سابقاً.

٢٠٥-السيد (جلال): **حزب البعث العربي**، دار النهار، بيروت، ١٩٧٣، ص١٦٠.

٢٠٦- الرأي، ١٩٨٤/٤/٢٣.

٢٠٧- المصري، ١٩٥٠/١/٤.

المصادر والمراجع

I - الوثائق المنشورة وغير المنشورة:

١- أرشيف وزارة الخارجية السورية.

٢ – الجريدة الرسمية للجمهورية العربية السورية الصادرة يوم الخميس من كل أسبوع في دمشق.

٣ – مديرية الوثائق التاريخية بدمشق.

٤ – مذكرات المجلس النيابي السوري في الجمهورية العربية السورية، وزارة المعارف، مديرية الآثار العامة، القسم الثالث من الجريدة الرسمية.

٥ – محاضر ومضابط جلسات جامعة الدول العربية.

٦- وثائق وزارة الخارجية البريطانية الصادرة عن المكتب الأجنبي ومكتب الكولونيل المحفوظة في مكتبة الأسد الوطنية.

6 - Document of the BRITISH Colonall office about Syria and Lebanon from 1921 to 1949.

II - المذكرات:

١ – أرسلان (عادل): مذكرات الأمير عادل أرسلان، تحقيق: يوسف إيبش، ٣ج، الدار التقدمية للنشر، بيروت ١٩٨٣.

٢ – الأتاسي (محمد رضوان): هاشم الأتاسي (حياته وعمره)، ط١، دمشق ٢٠٠٥.

٣ – الحكيم (حسين): المذكرات (لعنة الانقلابات ١٩٤٦-١٩٦٦)، مطبعة الداودي، ط١، دمشق ١٩٩٩.

٤ – الحوراني (أكرم): المذكرات، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠، ٤ح.

٥ – العظم (خالد): المذكرات، الدار المتحدة للنشر، ط٣، بيروت ٢٠٠٣.

٦ – فنصة (نذير): أيام حسني الزعيم (١٣٧ يوما هزت سورية)، دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت ١٩٨٣.

٧ – قاسمية (خيرية): مذكرات محسن البرازي، الرواد، ط١ ، بيروت ١٩٩٤.

٨ - كبة (محمد مهدي): مذكراتي في صميم الأحداث، دار الطليعة، ط١، بيروت، ١٩٦٥.

٩ - الهاشمي (طه): المذكرات (١٩٤٢ -١٩٥٥)، دار الطليعة، ط١، بيروت ١٩٧٨.

١٠ - المالكي (رياض): ذكريات على درب الكفاح والهزيمة، د. ط، دمشق ١٩٧٢.

III – المصادر و المراجع العربية:

١ - بطرس (صديق): الهلال الخصيب، مطبعة الإرشاد ، اللاذقية ١٩٥٠.

٢ - أبو منصور (فضل الله): أعاصير دمشق، د. ط ، بيروت ١٩٥٩.

٣ - الحسيني (عبد الرزاق): تاريخ الوزارات العراقية، مركز الأبجدية، للطباعة والنشر، ط٦، بيروت، ١٩٨٢.

٤ - الروسان (ممدوح): العراق وقضايا الشرق العربي القومية (١٩٤١ - ١٩٥٨)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩.

٥ - رضا (علي): سورية من الاستقلال إلى الوحدة المباركة (١٩٤٦- ١٩٥٨). مطبعة شيك بلوك، حلب.

٦ - طربين (أحمد): الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر (١٨٠٠-١٩٥٨)، د. ط. م، ١٩٧٠.

٧ - العقاد (صلاح): المشرق العربي، (١٩٤٥- ١٩٥٨ العراق، سورية، لبنان)، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الرسالة، د. م. ت.

٨ - قاسمية(خيرية): الرعيل الأول العربي (حياة أوراق ونبيه عادل العظمة)، رياض الريس للكتب والنشر، بدون طبعة ، لندن ١٩٩١.

٩ - الكيالي (نزار): دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر (١٩٢٠-١٩٥٠)، دار طلاس ط١، دمشق ، ١٩٩٧.

١٠ - مردم بك (سلمى): أوراق جميل مردم بك، استقلال سورية، ط١ ، بيروت، ١٩٩٤.

١١ - المعلم (وليد): سورية (١٩١٨-١٩٥٨ التحدي المواجهة)، مطبعة عكرمة، ط١ ، دمشق ١٩٨٥.

١٢ - المدني (سليمان) : هؤلاء حكموا سورية (١٩١٨- ١٩٨٠)، دار الأنوار، د. ط. ١٩٩٦.

١٣ - محمد (نجاح): الحركة القومية العربية في سورية من خلال تنظيماتها السياسية، دار البعث، ط١، دمشق، ١٩٨٧.

١٤ - النجار (حسين فوزي): وحدة التأريخ العربي، دار الجيل، د. ط، القاهرة، ١٩٦٣.

١٥ - نوفل (سيد) العمل العربي المشترك، معهد البحوث والدراسات العربية، د. ط ، م ، الكتاب الأول ١٩٦٨.

١٦ - يحيى (جلال): العالم العربي الحديث، د. ط، الإسكندرية ١٩٨٠

IIII - **الصحف والمجلات**:

- ألف باء، دمشق، ١٩٤٩.
- الأهرام، القاهرة، ١٩٤٩.
- الاستقلال، بغداد، ١٩٣٩- ١٩٤٩.
- البعث، دمشق.
- الرأي، الأردن، ١٩٤٨
- القبس، سورية، ١٩٣٣- ١٩٤٩- ١٩٥٠.
- المصري، القاهرة، ١٩٥٠

- اليقظة، بغداد، ١٩٤٩

IIII- المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة:

١ - أوين (جوناثان): أكرم الحوراني (دراسة حول السياسة السورية ما بين ١٩٤٣- ١٩٤٥)، ترجمة : وفاء الحوراني، دار المعارف، ط١، حمص ١٩٩٧

٢ - بوداغوفا (بيير): الصراع في سورية لتدعيم الاستقلال الوطني (١٩٤٥-١٩٦٦)، ترجمة : ماجد علاء الدين، أنيس المتني، دار المعرفة ، ط١، دمشق ١٩٨٧.

٣ - توري (جوردون هـ): السياسة السورية والعسكريون (١٩٤٥- ١٩٥٨) ترجمة : محمود فلاحة، دار الجماهير، ط٢، ١٩٦٩.

٤ - راثمل (أندرو): الصراع السري على سورية (١٩٤٩-١٩٦١)، ترجمة محمد نجّار، الأهلية للنشر والتوزيع ، ط١، عمان ١٩٩٧.

٥ – سيل (باتريك) الصراع على سورية، ترجمة: سمير عبدة ، محمود فلاحة، دار طلاس، دمشق ١٩٦٤.

IIIII- المصادر والمراجع الأجنبية:

1-Gomaa , (Ahmad) :the foundation of the league states , London , 1977.

2-Krik Bride (Alec) , A Crakle of throns experienes in the Middle east , London 1960.

3-KHadduri (M) , the Scheme of Fertile creacent unity , Harvard university , chapter , IV Cambridage , 1951.

4-Lewes (Brenard) the Middle East and the west , widfeld Gold-baks (London widifeld and Nicolson 1968).

5-Ziadh ,N,A ,Syria and Lebanon (London , 1965)